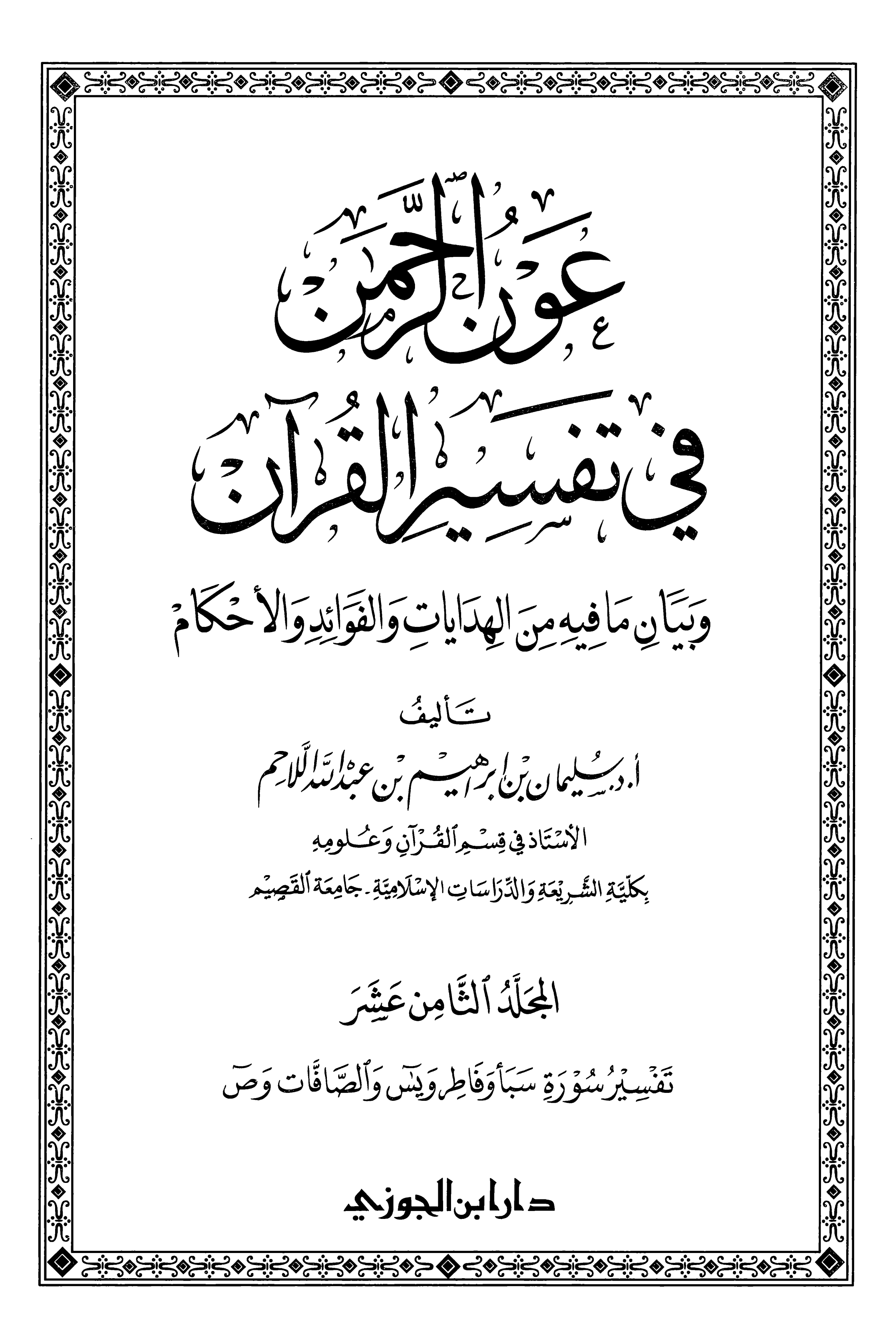


عون الرحمن في تفسير القرآن

وبيان ما فيه من الهدايات والفوائد والأحكام

تأليف

أ.د. سليمان بن إبراهيم بن عبد الله اللاحم

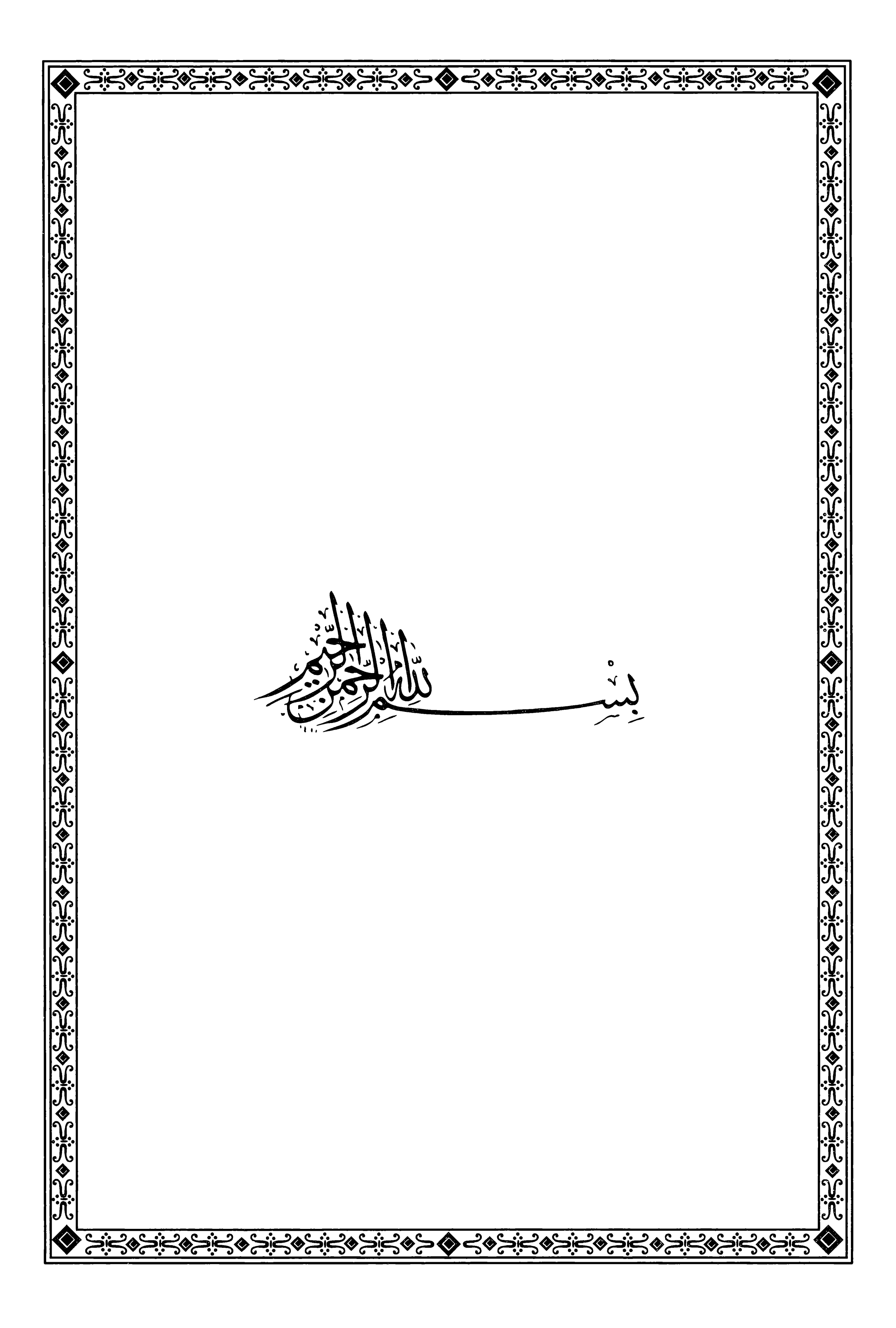
الأستاذ في قسم القرآن وعلومه

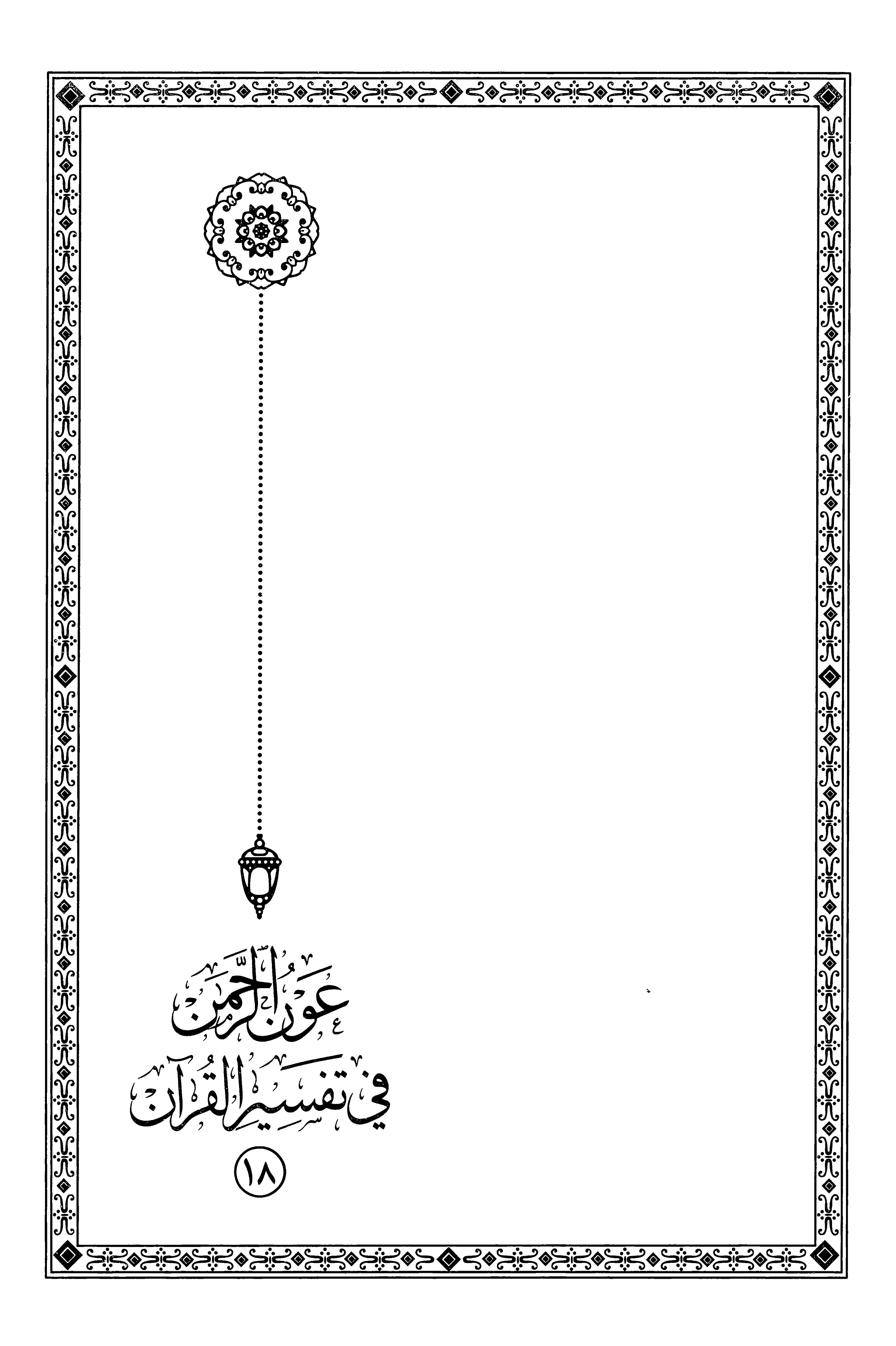
بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية - جامعة القصيم

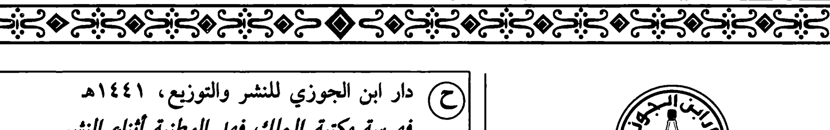
المجلد الثامن عشر

تفسير سورة سبأ وفاطر ويس والصافات وص

دار ابن الجوزي


بسم الله الرحمن الرحيم


عون الرحمن
في تفسير القرآن
١٨



ح دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع، ١٤٤١هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

اللاحم، سليمان بن إبراهيم بن عبد الله

عون الرحمن في تفسير القرآن وبيان ما فيه من الهدايات والفوائد والأحكام./سليمان بن إبراهيم بن عبد الله اللاحم.- الدمام، ١٤٤١هـ

٤٣٩ ص؛ ١٧×٢٤سم

ردمك: ٨ ـ ٩٥ ـ ٨٢٧٤ ـ ٦٠٣ ـ ٩٧٨

١ ـ القرآن ـ تفسير ٢ ـ علوم القرآن ٣ ـ القرآن ـ أحكام

أ. العنوان

ديوي ٢٢٧,٣ ١٤٤١/٥٤٤٣

الطبعة الأولى

١٤٤١هـ

الباركود الدولي: 9786038274958

دار ابن الجوزي

للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية:

الدمام - حي الريان - شارع عثمان بن عفان

ت: ٨٤٢٨١٤٦ - ٨٤٦٧٥٩٣

ص ب. واصل: ٨١١٤

الرمز البريدي: ٣٢٢٥٦

الرقم الإضافي: ٤٩٧٣

فاكس: ٨٤١٢١٠٠

الرياض - تلفاكس: ٢١٠٧٢٢٨

جوّال: ٠٥٠٣٨٥٧٩٨٨

الأحساء - ت: ٥٨٨٣١٢٢

جدة - ت: ٠١٢٦٨١٤٥١٩

جوّال: ٠٥٩٢٠٤١٣٧١

لبنان:

بيروت - ت: ٠٣/٨٦٩٦٠٠

فاكس: ٠١/٦٤١٨٠١

مصر:

القاهرة - تلفاكس: ٠٢٤٤٣٤٤٩٧٠

جوّال: ٠١٠٠٦٨٢٣٧٣٨٨

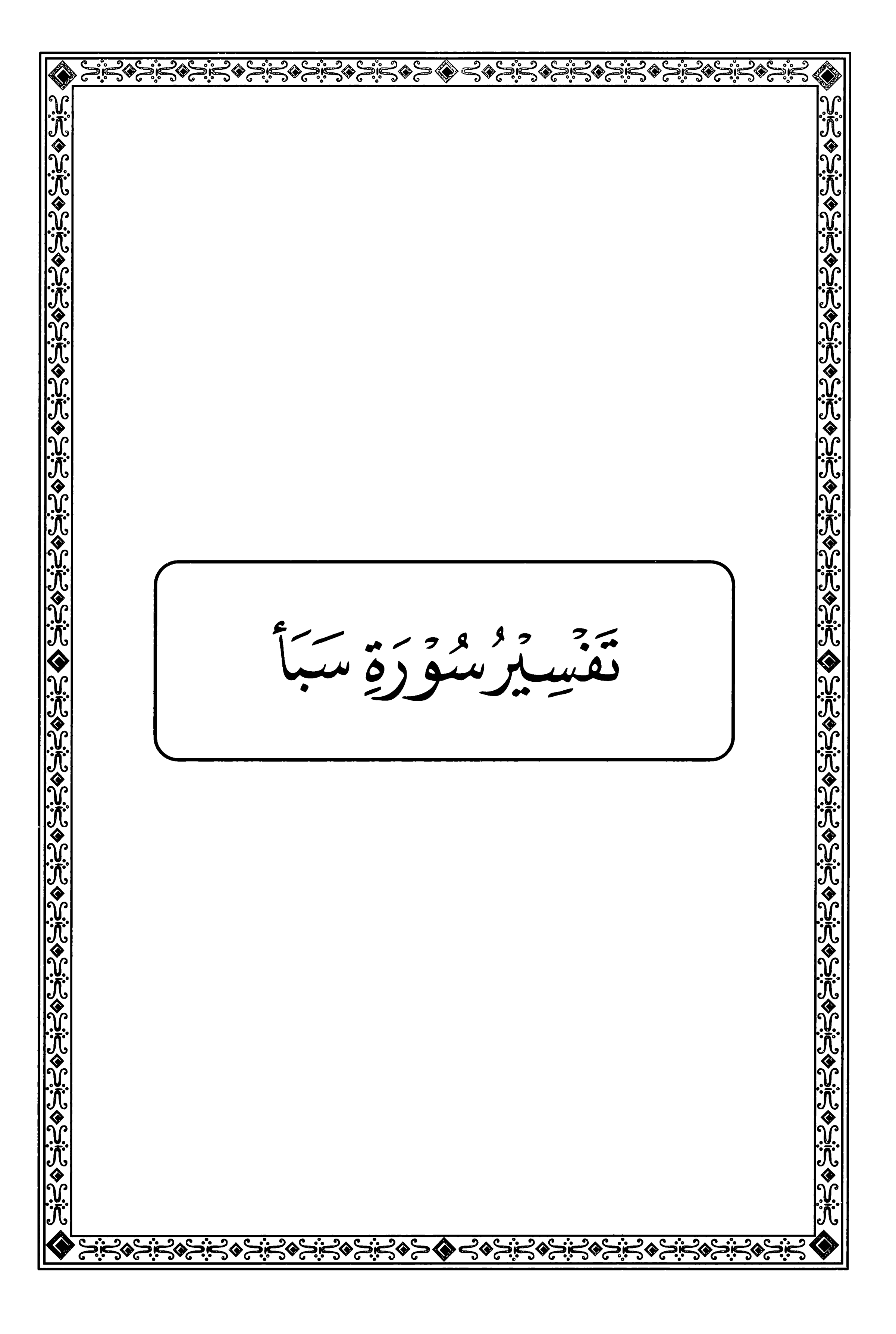
aljawzi@hotmail.com

+966503897671

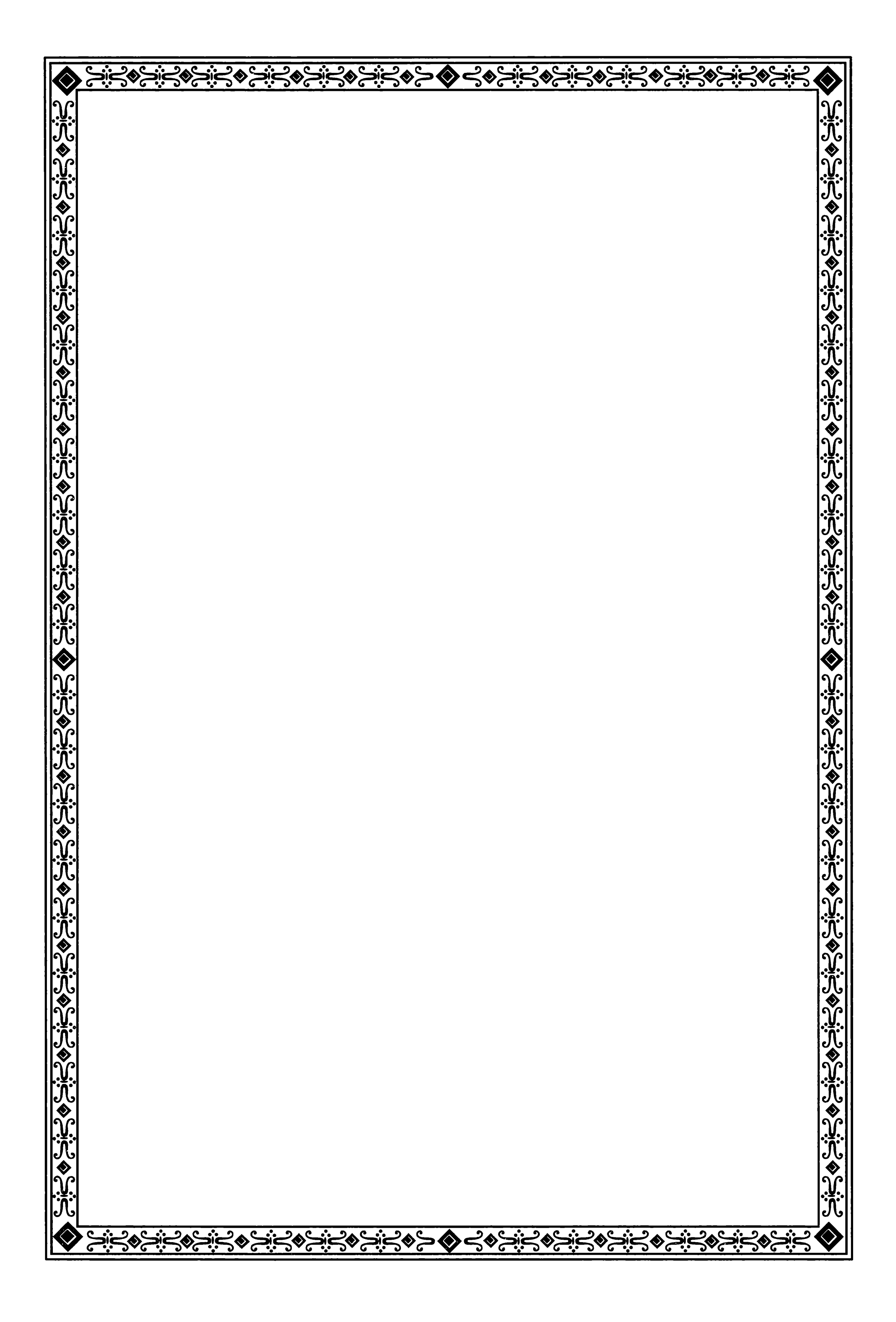
aljawzi

eljawzi

aljawzi.net



تَفْسِيرُ سُورَةِ سَبَأ



المقدمة

أ- اسم السورة:

سُميت: هذه السورة «سورة سبأ»؛ لذكر قصة سبأ فيها، في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾﴾ [الآيات:١٥-٢١].

ب- مكان نزولها:

مكية.

جـ- موضوعاتها:

١- افتتحت سورة سبأ بالحمد والثناء على الله تعالى، وبيان اختصاصه وحده بما في السموات وما في الأرض، وبالحمد في الآخرة، وبيان سعة علمه جل شأنه؛ قال تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴿١﴾ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ ﴿٢﴾﴾.

٢- ذكر إنكار الكفار للساعة والقيامة والبعث، والرد عليهم، وبيان إحاطته عز وجل بعلم الغيب، وكتابته كل شيء، وبيان المقصود من البعث، وهو مجازاة العباد بأعمالهم؛ قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٣﴾﴾ إلى قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿٥﴾﴾.

٣- الثناء على أهل العلم بمعرفتهم أن ما أنزل إليه ﷺ من ربه هو الحق ويهدي إلى صراط الله المستقيم؛ قال تعالى: ﴿وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿٦﴾﴾.

٤- سخرية الكفار واستهزاؤهم بالرسول ﷺ وتهكمهم به، لما أخبرهم بالبعث استبعادًا له وتكذيبًا به، واتهامهم له ﷺ بالافتراء على الله كذبًا، أو الجنون، وبيان تمام قدرة الله تعالى على البعث، وتهديدهم؛ قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿٧﴾﴾ إلى قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ

وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٩﴾﴾.

٥- ذكر قصة داود عليه الصلاة والسلام، وما آتاه الله من الفضل، وتسخير الجبال والطير تسبح معه، وإلانة الحديد له؛ قال تعالى: ﴿ ۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ۖ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾﴾.

٦- ذكر قصة سليمان عليه الصلاة والسلام، وتسخير الريح له، وإسالة عين القطر له، وتسخير الجن يعملون بين يديه؛ قال تعالى: ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ۖ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ ۖ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿١٤﴾﴾.

٧- حكاية قصة سبأ، وما أنعم الله به عليهم، وإعراضهم وكفرهم نعمة الله، وسلبها منهم؛ قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِى مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ ۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ ۖ كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ ۚ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ ۗ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٢١﴾﴾.

٨- تحدي المشركين بأن يدعوا ما زعموه من الشركاء من دون الله، وبيان عجزهم، وأنهم لا يملكون شيئًا، وبيان تفرده عزوجل بالملك، والرزق ومحاسبة الخلائق كل بعمله، وجمعهم والفتح بينهم بالحق؛ قال تعالى: ﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ قُلْ أَرُونِىَ ٱلَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِۦ شُرَكَآءَ ۖ كَلَّا ۚ بَلْ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾﴾.

٩- بيان عموم رسالته ﷺ، وأن مهمته البشارة والإنذار، وليس إليه الإتيان بما يستعجلونه من العذاب، وأن لذلك موعدًا لا بد من وقوعه فيه؛ قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾﴾ إلى قوله تعالى: ﴿قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

١٠- بيان تكذيب الذين كفروا بالقرآن، وبكتب الله تعالى وبيان سوء حال

الظالمين يوم القيامة، وتراجعهم القول، وإسرارهم الندامة لما رأوا العذاب ومجازاتهم بما كانوا يعملون؛ قال تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾.

١١- بيان حال الأمم الماضية المكذبة للرسل واغترارهم بكثرة أموالهم وأولادهم؛ قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالُواْ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾ ﴾.

١٢- بيان أن بسط الرزق وكثرة الأموال والأولاد ليس دليلًا على ما زعمه الكفار من أن ذلك يقربهم إلى الله زلفى، من غير إيمان ولا عمل صالح، والتهديد للمكذبين، والترغيب في الإنفاق لمن بسط الله له الرزق؛ قال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُواْ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥ ۚ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٣٩﴾ ﴾.

١٣- توبيخ المشركين يوم القيامة، وتقريعهم وتبكيتهم، وبراءة معبوداتهم منهم، وتهديدهم، قال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ فَٱلْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾.

١٤- تكذيب المشركين بآيات الله إذا تتلى عليهم، واتهامهم للرسول ﷺ بأنه يريد صدهم عما كان يعبد آباؤهم، وإن القرآن ما هو إلا كذب مفترى وسحر مبين، بلا حجة عندهم ولا دليل، وتحذيرهم أن يحل بهم ما حل بالمكذبين قبلهم؛ قال تعالى: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ وَقَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى ۚ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٣﴾ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ وَكَذَّبَ

﴿ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا۟ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَكَذَّبُوا۟ رُسُلِى ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٥﴾﴾.

١٥- دعوة الكفار إلى التفكير والتدبر في دعوة الرسول ﷺ؛ قال تعالى: ﴿۞ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾﴾ إلى قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى ۖ وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴿٥٠﴾﴾.

بيان فزع الكفار عند أخذهم بالعذاب، وإيمانهم حين لا ينفعهم ذلك والحيلولة بينهم وبين ما يشتهون كما فعل بالمكذبين قبلهم؛ قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُوا۟ فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا۟ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٥١﴾﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ فِى شَكٍّ مُّرِيبٍ ﴿٥٤﴾﴾.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ۝١ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۚ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ ۝٢ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ ۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ ۖ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ۝٣ لِّيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ۝٤ وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ۝٥ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝٦ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ۝٧ أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ ۗ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلْبَعِيدِ ۝٨ أَفَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ۝٩﴾.

قوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ «ال» للجنس، وتفيد الاستغراق والاستقصاء والشمول؛ أي: الحمد المطلق لله.

و«الحمد»: وصف المحمود بصفات الكمال، والثناء عليه بذلك مع المحبة والتعظيم.

﴿لِلَّهِ﴾ اللام: للاختصاص والاستحقاق؛ أي: أن جميع أنواع الحمد، وأصناف المحامد مستحق لله تعالى، وواجب له لذاته.

وفي قوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ إخبار باستحقاقه جميع أنواع الحمد، وحمد منه عز وجل لنفسه، وأمر لعباده أن يحمدوه.

وقد افتتح الله عز وجل بقوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ خمس سور، هي: الفاتحة، والأنعام، والكهف، وسبأ، وفاطر، كلهن مكيات، وقد وضعت في ترتيب القرآن الكريم في أوله، ووسطه، والربع الأخير منه، فكانت أرباع القرآن مفتتحة بـ«الحمد لله».

﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ «الذي»: نعت للفظ الجلالة؛ أي: الذي من أعظم ما يحمد عليه ويوصف به ويثنى عليه به: سعة ملكه، واختصاصه بجميع ما في السموات وما في الأرض من المخلوقات؛ خلقًا وملكًا وتدبيرًا، فله الحمد على ذلك

كله في الدنيا والآخرة.

﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾، أي: وله الحمد أيضًا في الآخرة على إقامة القيامة، وعلى ظهور كمال تفرده بالملك، وفي مجازاة الخلائق على أعمالهم، دون منازع، وعلى حكمته وكمال عدله، فيحمده المؤمنون على جزائه لهم بالفضل، ويحمده من سواهم على مجازاته إياهم بالعدل.

فله عز وجل الحمد المطلق في الدنيا والآخرة؛ لأنه المنعِم المتفضِّل على أهل الدنيا والآخرة، المالك لجميع ذلك، الحاكم في جميع ذلك؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ لَنَا لَلْـَٔاخِرَةَ وَٱلْأُولَىٰ ۝١٣﴾ [الليل: ١٣]، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝٧٠﴾ [القصص: ٧٠].

قال ابن القيم: «وقرن بين الملك والحمد على عادته تعالى في كلامه؛ فإن اقتران أحدهما بالآخر له كمال زائد على الكمال بكل واحد منهما، فله كمال من ملكه، وكمال من حمده، وكمال من اقتران أحدهما بالآخر، فإن الملك بلا حمد يستلزم نقصًا، والحمد بلا ملك يستلزم عجزًا، والحمد مع الملك غاية الكمال، ونظير هذا: العزة والرحمة، والعفو والقدرة، والغنى والكرم. فوسَّط الملك بين الجملتين فجعله محفوفًا بحمد قبله وحمد بعده»[1].

﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ﴾، أي: ذو الحكم التامِّ في قدَره وشرعه وجزائه، في أقواله وأفعاله، وذو الحكمة البالغة، المتقن لكل ما خلقه وشرعه، ولكل ما حكم به وقدره.

﴿ٱلْخَبِيرُ﴾: المطلع على بواطن الأمور ودقائقها وخفياتها، فاطلاعه على ظواهرها وجلائلها وجلياتها من باب أولى، الخبير بخلقه، فلا يخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء؛ ولهذا قال:

﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾، أي: يعلم كل الذي يدخل في الأرض، من الأمطار والمياه، والبذور والكنوز والدفائن والحيوانات، والأموات وغير ذلك، ويعلم جميع ما أُودِعَ فيها من المعادن، ودُحِيَ فيها من الخيرات.

﴿وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾، أي: ويعلم الذي يخرج من الأرض من النباتات والأشجار

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٣/ ٤٣٣.

والثمار، والعيون والمعادن والخيرات، والدواب، وغير ذلك.

﴿وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾، أي: ويعلم الذي ينزل من السماء، من وحيه إلى أنبيائه، ومن الملائكة والأرزاق والأقدار، والأمطار والثلوج والبرد والصواعق، وغير ذلك.

﴿وَمَا يَعۡرُجُ فِيهَاۚ﴾، أي: ويعلم الذي يعرج في السماء؛ أي: يصعد فيها، من الملائكة، والأعمال الصالحة، وأرواح الشهداء والمؤمنين.

﴿وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ﴾ بخلقه؛ أي: ذو الرحمة الواسعة، التي هي صفة ذاتية ثابتة له عز وجل، وصفة فعلية يوصلها إلى من شاء من خلقه، رحمة خاصة بالمؤمنين، ورحمة عامة لجميع خلقه.

﴿ٱلۡغَفُورُ﴾، أي: ذو المغفرة الواسعة لذنوب عباده، فيغفر ذنوب التائبين إليه، ويغفر ما دون الشرك لمن يشاء؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٞ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا ثُمَّ ٱهۡتَدَىٰ ٨٢﴾[طه: ٨٢]، وقال تعالى: ﴿۞ قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ٥٣﴾[الزمر: ٥٣]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ [النساء: ١١٦].

والمغفرة: ستر الذنب عن الخلق، والتجاوز عن العقوبة؛ كما قال ﷺ: «**يدني الله المؤمن يوم القيامة، فيقرره بذنوبه، فيقول: أتذكر ذنب كذا وكذا؟ فيقول: نعم، فيقول الله عز وجل: أنا سترتها عليك في الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم**»(١).

قال ابن القيم: «وقدم «الرحيم» في هذا الموضع؛ لتقدم صفة العلم، فحسن ذكر «الرحيم» بعده؛ ليقترن به، فيطابق قوله: ﴿رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا﴾ [غافر: ٧].

ثم ختم الآية بذكر صفة المغفرة؛ لتضمنها دفع الشر، وتضمن ما قبلها جلب الخير، ولما كان دفع الشر مقدمًا على جلب الخير قدم اسم «الغفور» على «الرحيم» حيث وقع، ولمَّا كان في هذا الموضع تعارض يقتضي تقديم اسمه «الرحيم»؛ لأجل ما قبله قدم على «الغفور»»(٢).

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) انظر: «بدائع التفسير» ٣/ ٤٣٤.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ ۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ ۖ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ۝٣ لِّيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ۝٤ وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ۝٥ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝٦﴾.

قوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ﴾، أي: لا تأتينا القيامة؛ أي: لا بعث ولا معاد، ولا حساب ولا جزاء.

﴿قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى﴾، أي: قل لهم يا محمد: بلى، ﴿وَرَبِّى﴾.

الواو: للقسم؛ أي: أقسم بربي.

﴿لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾ اللام: واقعة في جواب القسم، وقوله: ﴿لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾ بالخطاب مع أنها آتية لجميع الناس؛ لأنها في مقابل قولهم: ﴿لَا تَأْتِينَا﴾، ولتهديدهم؛ لأن إتيانها مؤذن بعذابهم.

﴿عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ﴾ قرأ نافع وابن عامر وأبو جعفر ورويس بالرفع: «عَالِمُ»، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وعاصم بالخفض: ﴿عَٰلِمِ﴾، وقرأ حمزة والكسائي بحذف الألف بعد العين وفتح اللام وتشديدها: «علّام» على وزن «فعّال».

والغيب: ما غاب عن أعين الخلق وحواسهم.

﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ﴾ قرأ الكسائي بكسر الزاي: «لَا يَعْزِبُ»، وقرأ الباقون بضمها: ﴿لَا يَعْزُبُ﴾، والجملة: حال مؤكدة للضمير في ﴿عَٰلِمِ﴾.

أي: لا يغيب عنه وعن علمه زِنَة ﴿ذَرَّةٍ﴾ وهي: النملة الصغيرة، أو بيضتها.

﴿وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ﴾ الإشارة إلى ﴿مِثْقَالُ ذَرَّةٍ﴾، أي: ولا أصغر من مثقال الذرة، ولا أكبر منه.

﴿إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ «إلا»: أداة حصر؛ أي: إلا مثبَت ومدوَّن ومضبوط ﴿فِى كِتَٰبٍ﴾ وهو اللوح المحفوظ، ﴿مُّبِينٍ﴾، أي: بين واضح ظاهر، مبين ما كتب فيه.

فالأجسام والعظام وإن بليت وتمزقت وتفرقت، فهو عالم بجميع أجزائها، يعيدها كما بدأها أول مرة؛ كما قال تعالى: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ ۖ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ ۝٤﴾

[ق: ٤]، وقال تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ۝٧٨ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ۝٧٩﴾ [يس: ٧٨- ٧٩].

﴿لِّيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۚ﴾ الآية.

لمَّا أثبت وأكد قيام الساعة بيّن الحكمة من ذلك؛ وهي مجازاة الخلائق بأعمالهم.

قوله: ﴿لِّيَجْزِىَ﴾ اللام: للتعليل؛ أي: لأجل أن يجزي ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۚ﴾، أي: الذين آمنوا بقلوبهم، وعملوا الأعمال الصالحات بجوارحهم؛ إخلاصًا لله تعالى، ومتابعة لرسوله ﷺ.

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم﴾ خاصة، وأشار إليهم بإشارة البعيد تنويهًا بهم، ورفعة لشأنهم.

﴿مَّغْفِرَةٌ﴾، أي: مغفرة واسعة من ربهم لذنوبهم، بسترها عن الخلق، والتجاوز عنها، ونكّر «مغفرة»: للتعظيم؛ أي: مغفرة عظيمة واسعة.

﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾، أي: ولهم رزق كريم، ونكّر «رزق» ووصفه بقوله: ﴿كَرِيمٌ﴾ تعظيمًا له، والرزق: العطاء؛ أي: وعطاء واسع من ألوان النعيم في الجنة، لا يقدر قدر كميته وكيفيته إلَّا من وهبهم إياه، ووصفه بأنه كريم، وهو الكريم سبحانه وتعالى؛ كما قال تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝١٧﴾[السجدة: ١٧].

﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو بحذف الألف بعد العين مع تشديد الجيم: «مُعَجِّزِينَ»، وقرأ الباقون بإثبات الألف وتخفيف الجيم: ﴿مُعَٰجِزِينَ﴾.

أي: والذين سعوا في إبطال آياتنا، والصد عنها، والتكذيب بها، زاعمين بأنهم يستطيعون أن يأتوا بمثلها؛ كما في قولهم: ﴿لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ ۙ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الأنفال: ٣١].

وقد تحدَّاهم الله تعالى أن يأتوا بمثل القرآن، أو بعشر سور من مثله، أو بسورة من مثله، فلم يستطيعوا.

ومعاجزين الله بأن يَفُوتوا ويُفْلِتوا من عذابه، وهيهات لهم ذلك!

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ﴾ قرأ ابن كثير ويعقوب وحفص بضم الميم: ﴿أَلِيمٌ﴾، صفة لـ﴿عَذَابٌ﴾، وقرأ الباقون بخفضها: «أَلِيمٍ» صفة لـ﴿رِّجْزٍ﴾.

أي: أولئك لهم خاصَّة عذاب من أسوأ العذاب وأشده ألمًا، والرجز: أسوأ العذاب

وأشده ألمًا.

﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ﴾ لما ذكر إنكار الذين كفروا قيام الساعة؛ لتكذيبهم بما أنزل الله على رسوله، ذكر أن الذين أوتوا العلم- وهم المؤمنون بالله وآياته- يرون أن ما أنزل الله على رسوله ﷺ هو الحق.

قوله: ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ﴾، أي: ويعلم؛ كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدٗا ۝٦ وَنَرَىٰهُ قَرِيبٗا ۝٧﴾[المعارج: ٦، ٧]؛ أي: ونعلمه قريبًا.

فالمعنى: ويعلم الذين أعطاهم الله العلم والمعرفة به وبآياته.

واختير «يرى» هنا دون «يعلم»؛ للتنبيه على أنه علم يقيني بمنزلة العلم بالمرئيات التي عِلْمُها ضروري؛ لأنه إذا جاءت «يرى» بمعنى: «يعلم» دلت على أن العلم في أعلى مقامات العلم، وأنه صار كالعلم بالمشاهدات.

﴿ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ﴾، أي: الذي أنزل إليك يا محمد من ربك من الوحي في الكتاب والسنة.

﴿هُوَ ٱلْحَقَّ﴾ «هو» ضمير فصل يفيد الحصر والتوكيد؛ أي: هو الحق الثابت؛ لصدق من جاء به، وصدق أخباره، وعدل أحكامه؛ كما قال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقٗا وَعَدْلٗاۚ﴾ [الأنعام: ١١٥]؛ أي: صدقًا في الأخبار، وعدلًا في الأحكام، دون ما عليه أهل الشرك فهو باطل وضلال؛ كما قال تعالى: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُۖ﴾ [يونس: ٣٢].

و﴿ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ﴾ عام في كل من أعطاهم الله العلم من علماء أهل الكتاب المنصفين، وعلماء هذه الأمة؛ كما قال تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُواْ بِهِۦ﴾ [الحج: ٥٤]، وقال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِۖ﴾ [الروم: ٥٦]، وقال تعالى: ﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ فِي صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَۚ﴾ [العنكبوت: ٤٩]، وقال تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ﴾ [آل عمران: ١٨].

فهم يعلمون أنه الحق، ويتبعونه، ويدعون إليه، ويشهدون بذلك في الآخرة تبكيتًا للمكذبين؛ كما في قولهم: ﴿لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِۖ فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٥٦]، وقولهم: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ [يس:

٥٢]، وقولهم: ﴿لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ﴾ [الأعراف: ٤٣].

﴿وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ كما قال تعالى في سورة إبراهيم: ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ۝ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ [إبراهيم: ١، ٢].

أي: ويدل ويرشد إلى صراط الله ﴿الْعَزِيزِ﴾ ذي العزة والقوة والقهر والغلبة والامتناع، الذي لا يغالَب ولا يمانَع.

﴿الْحَمِيدِ﴾ في جميع صفاته وأقواله وأفعاله، وشرعه وقدره، المحمود في ذلك كله.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ۝ أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِ جِنَّةٌ بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ ۝ أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ۝﴾.

قوله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، أي: سخرية واستهزاءً بالرسول ﷺ، وتكذيبًا لرسالته، واستبعادًا لما أخبر به من إتيان الساعة، وبعث الأجساد.

أي: يقول هذا رؤساؤهم لعامتهم ودهمائهم، ولمن لم يبلغه قول النبي ﷺ منهم، وللوافدين عليهم في الموسم؛ كما كانوا يعمدون في المواسم إلى تحذير الوافدين إليهم منه ﷺ ومن دعوته بقولهم: ساحر، ونحو ذلك.

﴿هَلْ نَدُلُّكُمْ﴾ الاستفهام: للتعجب والسخرية؛ أي: هل نرشدكم ونعرفكم ﴿عَلَى رَجُلٍ﴾ يعنون النبي ﷺ، والتنكير للتحقير.

﴿يُنَبِّئُكُمْ﴾، أي: يخبركم، والنبأ: الخبر العظيم الهام.

﴿إِذَا مُزِّقْتُمْ﴾، أي: إذا متم وتمزقت أجسادكم، وتفرقت في الأرض.

﴿كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ «كل» للتكثير؛ كما في قوله: ﴿وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ﴾ [يونس: ٩٧]؛ أي: تمزقت أوصالكم وأجزاؤكم كل تمزق، وتفرقت كل تفرق، وصارت ترابًا ورميمًا.

﴿إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾، أي: إنكم تخلقون خلقًا جديدًا، وتعودون أحياء ترزقون بعد ذلك.

وكأنه ﷺ بإخباره إياهم ببعثهم بعد الموت والبلى، صار في نظرهم فرجة يتفرجون

عليه، وأعجوبة يسخرون منه؛ ولهذا قالوا: ﴿أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ﴾ الاستفهام للاستغراب والتعجب؛ أي: إنه في إخباره بهذا الخبر العجيب لا يخلو حاله من أمرين: إما أن يكون ﴿أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾، أي: اختلق على الله كذبًا؛ تعمُّدًا منه وجرأة على الله، فزعم أن الله أوحى إليه بذلك، وهو كاذب.

﴿أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ﴾ «أم»: حرف عطف؛ أي: أم به جنون، فلا يستغرب منه ذلك؛ كما في قولهم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ [الحجر: ٦].

﴿بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلْبَعِيدِ﴾ «بل» للإضراب الإبطالي؛ أي: ليس الأمر كما زعموا، بل هو ﷺ الصادق المصدوق فيما أخبرهم به، اللبيب الرشيد في عقله؛ كما قال تعالى: ﴿۞ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾﴾ [سبأ: ٤٦]، وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ ۗ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١٨٤﴾﴾ [الأعراف: ١٨٤]، وقال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌۢ ۚ بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [المؤمنون: ٧٠].

وإنما حملهم على هذا الزعم الباطل كونهم لا يؤمنون بالآخرة؛ أي: كفار لا يصدقون بالآخرة، وما فيها من الحساب والجزاء، الأمر الذي جعلهم في العذاب والشقاء في الدنيا والآخرة، وجعلهم تائهين عن الحق، بعيدين عنه كل البعد في الدنيا، وتائهين عن طريق الجنة في الآخرة.

﴿أَفَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم﴾ الاستفهام: للتقريع؛ أي: أفلم ينظروا ويتفكروا ﴿إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم﴾، أي: إلى الذي أمامهم، وإلى الذي خلفهم، ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ﴾، أي: من السماء المظلة عليهم، والأرض الممهدة لهم، وما فيهما من المخلوقات الدالة على عظمة الله تعالى وتمام قدرته؛ كما قال تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْي۟دٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [الذاريات: ٤٧-٤٨].

أي: فيستدلون بذلك على وحدانية الله تعالى في ربوبيته وإلهيته وأسمائه وصفاته، وتمام قدرته على بعث الناس خلقًا جديدًا.

﴿إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ﴾ قرأ حمزة والكسائي

وخلف بالياء المثناة في الثلاثة: «يَشَأْ»، «يَخْسِفْ»، «يُسْقِطْ»، وقرأ الباقون بالنون: ﴿نَّشَأْ﴾، ﴿نَخْسِفْ﴾، ﴿نُسْقِطْ﴾.

أي: إن نشأ ونريد كونًا ﴿نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ﴾ من تحتهم، فنغيبهم فيها.

﴿أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا﴾، أي: قطعًا من العذاب ﴿مِّنَ السَّمَاءِ﴾ من فوقهم، بسبب كفرهم وضلالهم وعدم إيمانهم، وسخريتهم بالرسول ﷺ، وإنكارهم البعث.

أي: لو شئنا لفعلنا بهم ذلك؛ لتمام قدرتنا عليهم، ولكنا نمهلهم؛ لحلمنا، ولا نهملهم.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾، أي: إن في النظر والتأمل فيما أمامهم وما خلفهم، مما يشاهدونه من السماء والأرض من هذه المخلوقات العظيمة، وما بينهما من المخلوقات، وما هم فيه من النعم ﴿لَآيَةً﴾ اللام: للتوكيد؛ أي: لدلالة واضحة ظاهرة على عظمة الله تعالى ووحدانيته، وتمام قدرته على بعث الأجساد وإعادتها خلقًا جديدًا؛ كما قال تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴿٨١﴾﴾ [يس: ٨١]، وقال تعالى: ﴿لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [غافر: ٥٧].

﴿لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾، أي: تائب مقبل على الله عز وجل بطاعته.

الفوائد والأحكام:

١- ثبوت الحمد الكامل لله تعالى، واختصاصه باستحقاق ذلك وحده في الدنيا والآخرة؛ لواسع ملكه، وتفرده بالملك والخلق والتدبير، وبصفات الكمال؛ لقوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ ۚ﴾.

وفي هذا إثبات حمده عز وجل لنفسه، وأمر عباده أن يحمدوه.

٢- إثبات سعة ملك الله عز وجل، واختصاصه بجميع ما في السموات وما في الأرض؛ خلقًا وملكًا وتدبيرًا؛ لقوله تعالى: ﴿الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾.

٣- شرف السماء على الأرض؛ لهذا تقدم السماء في الذكر على الأرض غالبًا.

٤- ظهور استحقاقه واختصاصه بالحمد الكامل في الآخرة؛ لظهور كمال تفرده

بالملك، ومجازاته الخلائق بأعمالهم، والاقتصاص للمظلوم من الظالم، وجزائه المؤمنين بفضله، ومجازاة الكافرين بعدله، وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْآخِرَةِ﴾.

٥- إثبات الدار الآخرة، وبعث الناس خلقًا جديدًا بعد الموت والبلى؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلْآخِرَةِ﴾، وقوله: ﴿يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾.

٦- إثبات اسم الله تعالى: «الحكيم» وما يدل عليه من إثبات صفة الحكم له عز وجل بأقسامه الثلاثة: الحكم الكوني، والحكم الشرعي، والحكم الجزائي، وإثبات صفة الحكمة له عز وجل: الحكمة الغائية، والحكمة الصورية؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ﴾.

٧- إثبات اسم الله تعالى: «الخبير»، وصفة الخبرة والاطلاع والعلم الواسع له عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلْخَبِيرُ﴾.

٨- علم الله تعالى الواسع المحيط بكل ما يدخل في الأرض وما يخرج منها، وما ينزل من السماء وما يصعد فيها؛ لقوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ لأنه الخالق المالك المدبر لذلك كله؛ كما قال تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾ [الملك: ١٤].

٩- إثبات اسم الله عز وجل «الرحيم»، وأنه سبحانه ذو الرحمة الواسعة التي وسعت كل شيء، وعمت كل حي؛ رحمة ذاتية ثابتة له، ورحمة فعلية يوصلها إلى من شاء من خلقه؛ رحمة خاصة بعباده المؤمنين، ورحمة عامة لجميع خلقه؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ﴾.

١٠- إثبات اسم الله تعالى: ﴿ٱلْغَفُورُ﴾، وصفة المغفرة الواسعة لذنوب عباده؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلْغَفُورُ﴾.

١١- جمعه عز وجل لعباده المؤمنين بين إعطائهم المطلوب برحمته لهم، وإزالة المرهوب بمغفرته لذنوبهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ﴾.

١٢- إنكار الذين كفروا للبعث؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ﴾.

١٣- أن إنكار البعث والتكذيب به كفر؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾.

١٤- إثبات قيام الساعة، وأمره له ﷺ بالإقسام بربوبيته تعالى له على ذلك تأكيدًا لقيامها، وتعظيمًا لشأنها، وأنها من الغيب الذي استأثر الله بعلمه؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ بَلَىٰ

وَرَبِّى لَتَأۡتِيَنَّكُمۡ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِۖ﴾.

١٥- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة له ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿وَرَبِّى﴾، وقوله: ﴿مِن رَّبِّكَ﴾، وتشريفه بإضافة اسم الرب إلى ضميره، وخطاب الله عز وجل له.

١٦- إحاطة علم الله عز وجل بكل شيء، فلا يغيب عنه شيء قل أو صغر، وكتابته ذلك كله في اللوح المحفوظ؛ لقوله تعالى: ﴿عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِۖ لَا يَعۡزُبُ عَنۡهُ مِثۡقَالُ ذَرَّةٖ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلۡأَرۡضِ وَلَآ أَصۡغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرُ إِلَّا فِى كِتَٰبٖ مُّبِينٖ﴾.

١٧- إثبات اللوح المحفوظ؛ وأن الله كتب فيه كل شيء وأبانه.

١٨- إثبات الحكمة في أفعال الله، وأن الحكمة من إتيان الساعة وإقامتها مجازاة الناس بأعمالهم؛ لقوله تعالى: ﴿لِّيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ۝٤ وَٱلَّذِينَ سَعَوۡ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مِّن رِّجۡزٍ أَلِيمٞ ۝٥﴾.

١٩- أنه لا بد من الجمع بين الإيمان والعمل الصالح، لا بد من كون العمل صالحًا، خالصًا لله تعالى، موافقًا لشرعه.

٢٠- فضل الإيمان والعمل الصالح، والترغيب في ذلك؛ لأن الله نوَّه بشأن الذين آمنوا وعملوا الصالحات، ووعدهم المغفرة والرزق الكريم الواسع في الجنة، بزوال المرهوب، وحصول المطلوب.

٢١- أن التخلية قبل التحلية؛ لتقديم المغفرة على الرزق الكريم في قوله تعالى: ﴿لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ﴾.

٢٢-سعي الكفار الحثيث؛ لإبطال آيات الله، وإطفاء نوره، وهيهات لهم ذلك.

٢٣- الوعيد والتهديد للذين يسعون لإبطال آيات الله، والصد عن دين الله بالعذاب الشديد.

٢٤- جمع القرآن بين الترغيب والترهيب، والوعد والوعيد.

٢٥- علم الذين أعطاهم الله تعالى العلم والمعرفة به وبآياته؛ أن ما أنزله على رسوله ﷺ من الوحي هو الحق الثابت والصدق، الهادي إلى صراط الله المستقيم؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلۡحَقَّ وَيَهۡدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ۝٦﴾.

٢٦- أن من عارض ما أنزل على الرسول ﷺ من الكتاب والسنة، وقدم العقل على ذلك، فليس من أهل العلم لا في قليل ولا كثير.

٢٧- فضل العلم وأهله العارفين بالله وما يجب له؛ لأنهم هم الذين يعرفون الحق من الباطل.

٢٨- إثبات علو الله تعالى على خلقه بذاته وصفاته؛ لقوله تعالى: ﴿أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾.

٢٩- إثبات أن القرآن الكريم منزل من عند الله عز وجل غير مخلوق؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ﴾.

٣٠- إثبات رسالته ﷺ، ووحي الله تعالى إليه؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾.

٣١- الترغيب في اتباع ما أنزل عليه ﷺ من الوحي؛ لأنه هو الحق، ويهدي إلى صراطه المستقيم؛ لقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾.

٣٢- إثبات اسم الله تعالى «العزيز»، وأنه سبحانه ذو العزة بأقسامها الثلاثة: عزة القوة، وعزة الغلبة والقهر، وعزة الامتناع؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلْعَزِيزِ﴾.

٣٣- إثبات اسم الله تعالى: «الحميد»، وأنه سبحانه الحميد في صفاته وأقواله وأفعاله، وفي شرعه وقدره، المحمود في ذلك كله؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلْحَمِيدِ﴾.

٣٤- سخرية الذين كفروا بالنبي ﷺ، وتحقيرهم له، وتكذيبهم برسالته، وإنكارهم ما أخبرهم به من بعثهم بعد البلى خلقًا جديدًا؛ استبعادًا لذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ۝٧﴾، وكما قال تعالى: ﴿وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ [الإسراء: ٤٩، ٩٨].

٣٥- اتهامهم له ﷺ بالافتراء والكذب على الله تعالى فيما أخبر به من البعث، أو بالجنون؛ لقولهم: ﴿أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌ﴾، وهذا ما درج عليه أعداء الرسل منذ القدم وإلى قيام الساعة.

٣٦- إقرار كفار قريش بالله؛ لقولهم: ﴿أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾.

٣٧- إبطال ما اتهموه به ﷺ، وأنه ليس الأمر كما زعموا، وأنه إنما حملهم على هذا

الزعم الباطل عدم إيمانهم بالآخرة، الذي جعلهم في العذاب، وأضلهم وأبعدهم عن الحق؛ لقوله تعالى: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَـٰلِ ٱلْبَعِيدِ﴾.

٣٨- الإنكار عليهم في عدم نظرهم وتأملهم فيما أمامهم وما خلفهم من السماء والأرض وما فيهما من المخلوقات، ودلائل عظمة الله تعالى، وكمال قدرته؛ لقوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

٣٩- تهديدهم بالعذاب، من تحتهم بخسف الأرض بهم، أو من فوقهم بإرسال قطع من السماء عليهم، فلا مفر لهم ولا مناص، ولا محيد ولا محيص؛ لقوله تعالى: ﴿إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾.

٤٠- إثبات المشيئة لله تعالى؛ وهي الإرادة الكونية.

٤١- وجوب النظر والتأمل في آيات الله في السماء والأرض، وما فيهما من المخلوقات العظيمة، وأن ما يحصل من الخسف والزلازل والنوازل كل ذلك بأمر الله تعالى ومما يخوف الله به عباده.

٤٢- أن في النظر والتأمل في السماء والأرض وما فيهما من المخلوقات لدلالة واضحة لكل عبد منيب إلى ربه، على عظمته عز وجل، ووحدانيته، وتمام قدرته على بعث الأجساد وإعادتها خلقًا جديدًا؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾.

٤٣- إثبات عبودية المنيبين لله تعالى عبودية خاصة؛ لقوله تعالى: ﴿لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾.

٤٤- أنه لا يعتبر بالآيات وينتفع بها إلا من وفقه الله تعالى للإنابة إليه وطاعته؛ لقوله تعالى: ﴿لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَـٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ۝١٠ أَنِ ٱعْمَلْ سَـٰبِغَـٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ۖ وَٱعْمَلُوا۟ صَـٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝١١ وَلِسُلَيْمَـٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ۖ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ ۖ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ۝١٢ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَـٰرِيبَ وَتَمَـٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَـٰتٍ ۚ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ۝١٣ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ۝١٤﴾.

قوله تعالى: ﴿۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَـٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ۝١٠ أَنِ ٱعْمَلْ سَـٰبِغَـٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ۖ وَٱعْمَلُوا۟ صَـٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝١١﴾:

قوله: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ﴾ داود: هو أحد أنبياء بني إسرائيل، وهو بعد موسى؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ﴾ [البقرة: ٢٤٦]، إلى قوله: ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ ۝٢٥١﴾ [البقرة: ٢٥١].

أي: ولقد أعطينا عبدنا ونبينا ورسولنا داود ﴿مِنَّا فَضْلًا﴾.

قدم نسبة الفضل إليه بقوله: ﴿مِنَّا﴾ تعظيمًا له؛ لأن العطاء يكون على قدر من أعطاه، ولا أعظم منه عز وجل، ولا أفضل من عطائه؛ ولهذا نكَّر «فضلًا»؛ أي: فضلًا عظيمًا في كميته وكيفيته؛ لأنه من العظيم سبحانه.

والفضل: الزيادة من الخير والإحسان؛ من النبوة والملك، والعلم النافع والعمل الصالح، والنعم الدينية والدنيوية.

﴿يَـٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ﴾ روي عن روح وعن يعقوب: «وَالطَّيْرُ» بالرفع، ووردت عن عاصم وأبي عمرو، وقرأ الباقون بالنصب: ﴿وَٱلطَّيْرَ﴾ على المعية.

وهذا نداء منه عز وجل للجبال والطير، وأمر وتسخير منه لها بالتأويب معه؛ أي: وقلنا: ﴿يَـٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ﴾.

والتأويب: ترجيع التسبيح؛ أي: سبحي ورجعي مسبحة معه إذا سبح، وقد كان الله أعطاه صوتًا حسنًا جميلًا يطرب الأسماع، ويشنِّف الآذان؛ ولهذا قال ﷺ لما سمع صوت أبي موسى الأشعري يقرأ القرآن من الليل، فوقف فاستمع لقراءته، قال: «**لقد أوتي هذا مزمارًا من مزامير آل داود**»[1].

﴿وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ﴾، أي: وجعلنا له الحديد ليِّنًا يصنع منه ما يشاء من الدروع وغير ذلك.

قال المفسرون: كأنه لا يحتاج إلى أن يدخله نارًا، أو يضربه بمطرقة، بل كان يفتله بيده مثل الخيوط، وهذا أدل على عظمة الله، وتمام نعمته على داود؛ لأن فيه معجزة وآية.

وقيل: المراد: يسرنا له الأسباب التي تلين الحديد، وهيأناها له.

﴿أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ﴾ هذه هي الحكمة من كونه عز وجل ألان له الحديد.

و«أن» تفسيرية؛ أي: وأوحينا إليه ﴿أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ﴾، أي: أن اصنع دروعًا تامات واسعات من الحديد للمجاهدين في سبيل الله.

قيل: وكان هو أول من صنع الدروع.

والدرع: عبارة عن قميص يُلبس كما يلبس الثوب، يصل كمه إلى العضد فقط، ينسج من حِلَق صغيرة متداخلة مشبوك بعضها ببعض.

﴿وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ﴾ التقدير: جعل الشيء على مقدار وقدر مناسب.

والسرد: نسج دروع الحديد وصنعها، وتقدير مساميرها وحلقها؛ بحيث تكون متناسبة، وتركيب بعضها ببعض لتسد شقق الدرع، فهي للحديد كالخياطة للثوب، قال تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ﴾ [الأنبياء: ٨٠].

والدرع توصف بالمسرودة، كما توصف بالسابغة، قال أبو ذؤيب الهذلي[2]:

---

(١) أخرجه البخاري في فضائل القرآن، حسن الصوت بالقرآن ٥٠٤٨، ومسلم في صلاة المسافرين، استحباب تحسين الصوت بالقرآن ٧٩٣، والترمذي في المناقب ٣٨٥٥؛ من حديث أبي موسى رضي الله عنه.

(٢) انظر: «ديوان الهذليين» ١/ ١٩.

وعلـــيهما مســــرودتان قضـــاهما داود أو صَـــنَعُ الســـوابغ تبـــع

﴿وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ﴾ أمر لآل داود كلهم؛ كما في قوله بعد هذا: ﴿ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ﴾ [سبأ:١٣]، أي: واعملوا عملًا صالحًا خالصًا لله تعالى، موافقًا لشرعه؛ شكرًا لله تعالى على ما أعطاكم من الفضل الكبير والنعم.

﴿إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾، أي: بعملكم، أو بالذي تعملونه ﴿بَصِيرٞ﴾، أي: مطلع عليه، عالم به، لا يخفى علي منه شيء، وفي هذا وعد ووعيد.

قوله تعالى: ﴿وَلِسُلَيۡمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهۡرٞ وَرَوَاحُهَا شَهۡرٞۖ وَأَسَلۡنَا لَهُۥ عَيۡنَ ٱلۡقِطۡرِۖ وَمِنَ ٱلۡجِنِّ مَن يَعۡمَلُ بَيۡنَ يَدَيۡهِ بِإِذۡنِ رَبِّهِۦۖ وَمَن يَزِغۡ مِنۡهُمۡ عَنۡ أَمۡرِنَا نُذِقۡهُ مِنۡ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ١٢ يَعۡمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٖ كَٱلۡجَوَابِ وَقُدُورٖ رَّاسِيَٰتٍۚ ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ وَقَلِيلٞ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ١٣﴾.

لما ذكر عز وجل ما أعطاه لداود عليه السلام من الفضل، أتبع ذلك بذكر ما أعطاه لابنه سليمان عليه السلام.

قوله: ﴿وَلِسُلَيۡمَٰنَ ٱلرِّيحَ﴾ روى أبو بكر عن عاصم: «الرِّيحُ» بالرفع، وقرأ الباقون بالنصب: ﴿ٱلرِّيحَ﴾.

أي: وسخرنا لسليمان بن داود عبدالله ونبيه ورسوله ﴿ٱلرِّيحَ﴾ وهي الهواء، وذللناها له تجري بأمره، وتحمله وبساطه وجنوده، وجميع ما معه، يأمرها فتتجه به إلى أي وجهة أراد شمالًا أو جنوبًا، شرقًا أو غربًا، يأمرها فتسرع، ويأمرها فتتئد؛ كما قال تعالى: ﴿فَسَخَّرۡنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجۡرِي بِأَمۡرِهِۦ رُخَآءً حَيۡثُ أَصَابَ ٣٦﴾ [ص: ٣٦].

﴿غُدُوُّهَا شَهۡرٞ وَرَوَاحُهَا شَهۡرٞۖ﴾، أي: غدوها وذهابها أول النهار حتى الزوال ومنتصف النهار مسيرة شهر، ورواحها ورجوعها من الزوال ومنتصف النهار حتى الليل مسيرة شهر، فتسير في اليوم مسيرة شهرين للسير المعتاد، وتقطع المسافة البعيدة جدًّا في مدة يسيرة جدًّا؛ كما قال تعالى: ﴿وَلِسُلَيۡمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةٗ تَجۡرِي بِأَمۡرِهِۦٓ﴾ [الأنبياء: ٨١].

﴿وَأَسَلۡنَا لَهُۥ عَيۡنَ ٱلۡقِطۡرِۖ﴾ «أسلنا»: أذبنا، و«القطر»: النحاس؛ كما في قوله: ﴿ءَاتُونِيٓ أُفۡرِغۡ عَلَيۡهِ قِطۡرٗا﴾ [الكهف: ٩٦]؛ أي: نحاسًا مذابًا.

والمعنى: وأذبنا له عين النحاس، وجعلناه يسيل يصنع منه ما يشاء من الأواني وغيرها، وهذا قد يفوق ما أعطيه داود في قوله: ﴿وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ﴾.

﴿وَمِنَ ٱلْجِنِّ﴾، أي: وسخرنا له بعض الجن، و«الجن»: عالم غيبي خلقهم الله من مارج من نار؛ كما قال تعالى: ﴿وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ۝١٥﴾[الرحمن: ١٥].

﴿مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ «من»: موصولة؛ أي: الذين يعملون بين يديه؛ أي: بين يدي سليمان؛ أي: أمامه، يخدمونه ويطيعونه.

﴿بِإِذْنِ رَبِّهِۦ﴾، أي: بأمر ربه عز وجل الكوني، وتسخيره إياهم له عليه السلام، أو بأمره الشرعي؛ لقوله: ﴿وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا﴾، أي: ومن يعدل ويمل من الجن عن أمرنا الشرعي، ويخرج عن طاعتنا.

﴿نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾، أي: نذقه من عذاب النار المستعرة في الآخرة، وقيل: في الدنيا عقوبة عاجلة له.

﴿يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ﴾ هذا كالتفصيل لقوله: ﴿وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ﴾.

أي: يعملون له الذي يشاؤه من الأعمال والصناعات.

﴿مِن مَّحَٰرِيبَ﴾ «من» بيانية، و«محاريب»: جمع «محراب»، وهي: القصور الحصينة والمساكن الحسنة، ومساجد العبادة؛ كما قال تعالى: ﴿۞ وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ۝٢١ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ﴾ [ص: ٢١- ٢٢].

﴿وَتَمَٰثِيلَ﴾، أي: صورًا من نحاس وزجاج ورخام، وغير ذلك.

ولا يلزم أن تكون هذه التماثيل صورًا لذوات الأرواح كالإنسان والحيوان، حتى يقال: إنها كانت مباحة عندهم؛ لأنها مطلقة، وقد حرم الإسلام تصوير تماثيل لذوات الأرواح؛ قطعًا لدابر الشرك.

﴿وَجِفَانٍ﴾: جمع «جفنة»، وهي الصحفة والقصعة التي يقدم فيها الطعام للضيوف.

﴿كَٱلْجَوَابِ﴾ الكاف: للتشبيه، و«الجواب»: جمع «جابية»، وهي البركة والحوض الذي يجبى فيه الماء.

﴿وَقُدُورٍ﴾، أي: وقدور كبيرة عظيمة لطبخ الطعام، ﴿رَّاسِيَٰتٍ﴾: ثابتات لا تتحرك

ولا تنزل من فوق أثافيها؛ لعظمها، وتدارك الطبخ فيها صباح مساء؛ لكرمه عليه السلام.

﴿ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ﴾، أي: وقلنا: اعملوا يا آل داود، والمراد بهم: داود وأولاده وأهله؛ لأن المنة عليهم جميعًا؛ أي: اعملوا الطاعات والأعمال الصالحة.

﴿شُكۡرٗاۚ﴾: مفعول مطلق لفعل محذوف، أو مصدر في موضع الحال، أو مفعول لأجله؛ أي: لأجل شكر الله على ما أنعم به عليكم من النعم الدينية والدنيوية.

والشكر يكون بالعمل بالجوارح، وبالقول، وبالقلب؛ كما قال الشاعر:

أفادتكم النعماء مني ثلاثة ... يدي ولساني والضمير المحجبا(١)

وفي قوله: ﴿ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ﴾ إشارة إلى أنهم قائمون بالعمل شكرًا لله تعالى؛ كما كان هذا حال داود عليه السلام؛ ولهذا قال نبينا ﷺ: «**إن أحب الصلاة إلى الله تعالى صلاة داود؛ كان ينام نصف الليل، ويقوم ثلثه، وينام سدسه. وإن أحب الصيام إلى الله تعالى صيام داود؛ كان يصوم يومًا، ويفطر يومًا، ولا يفر إذ لاقى**»(٢).

﴿وَقَلِيلٞ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾ لنعمتي، العامل فيها بطاعتي، وهذا إخبار عن الواقع؛ فإن الشكور لنعم الله تعالى بنسبتها إليه، واستعمالها في طاعته قليل من الخلق.

وأكثر الخلق على الكفر بنعم الله تعالى بنسبتها إلى غيره، واستعمالها في معصيته، قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ ١٠٣﴾ [يوسف: ١٠٣]، وقال تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٞ مَّا هُمۡۗ﴾ [ص: ٢٤].

وقال بعض السلف: «ولا تستوحش من الحق لقلة السالكين، ولا تغتر بالباطل لكثرة الهالكين»(٣).

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَيۡنَا عَلَيۡهِ ٱلۡمَوۡتَ مَا دَلَّهُمۡ عَلَىٰ مَوۡتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلۡأَرۡضِ تَأۡكُلُ مِنسَأَتَهُۥۖ

---

(١) البيت في «ربيع الأبرار ونصوص الأخيار» ٥/ ٢٧٧ بلا نسبة، ونسب في «المفضليات» ص٣٤٤ لبشر.

(٢) أخرجه البخاري في الجمعة ١١٣١، ومسلم في الصيام، النهي عن صوم الدهر ١١٥٩، وأبو داود في الصوم ٢٤٤٨، وابن ماجه في الصيام ١٧١٢؛ من حديث عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه.

(٣) سبق تخريجه.

﴿فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلۡجِنُّ أَن لَّوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ٱلۡغَيۡبَ مَا لَبِثُواْ فِي ٱلۡعَذَابِ ٱلۡمُهِينِ ١٤﴾:

قوله: ﴿فَلَمَّا قَضَيۡنَا عَلَيۡهِ ٱلۡمَوۡتَ﴾، أي: قدرنا عليه الموت فمات.

﴿مَا دَلَّهُمۡ﴾، أي: ما دل الجن الذين كانوا يدعون علم الغيب،وما عرّفهم.

﴿عَلَىٰ مَوۡتِهِۦٓ﴾، أي: على أنه مات ﴿إِلَّا دَآبَّةُ ٱلۡأَرۡضِ﴾ «إلا»: أداة حصر، و«دابة الأرض»: هي الأرضة التي تأكل الخشب وتنخرها وتتلفها.

﴿تَأۡكُلُ مِنسَأَتَهُۥۖ﴾ قرأ نافع وأبو جعفر وأبو عمرو بألف بعد السين من غير همز: «مِنْسَاتَهُ»، وقرأ الباقون بفتحها: ﴿مِنسَأَتَهُۥۖ﴾.

أي: تأكل عصاه التي كان متوكئًا عليها.

﴿فَلَمَّا خَرَّ﴾، أي: وقع وسقط على الأرض بعد أن أكلت الأرضة عصاه.

قيل: وكان ذلك بعد مضي نحو سنة على موته؛ ولهذا قال:

﴿تَبَيَّنَتِ ٱلۡجِنُّ﴾ روى رويس بضم التاء والباء وكسر الياء على ما لم يسم فاعله: «تُبُيِّنَتِ»، وقرأ الباقون بفتح التاء والباء والياء: ﴿تَبَيَّنَتِ﴾، أي: تبين وظهر للجن وانكشف لهم وعلموا:

﴿أَن لَّوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ٱلۡغَيۡبَ﴾ «أن» وما بعدها في تأويل مصدر في محل نصب مفعول ﴿تَبَيَّنَتِ﴾.

أي: تبين للجن أنهم لو كانوا يعلمون الغيب كما كانوا يزعمون ويتوهمون، ﴿مَا لَبِثُواْ﴾، أي: ما مكثوا وبقوا واستمروا، ﴿فِي ٱلۡعَذَابِ ٱلۡمُهِينِ﴾، أي: في العمل الشاق المذل في خدمة سليمان عليه السلام، يحسبونه حيًّا وقد مات منذ مدة طويلة.

أي: لو كانوا يعلمون الغيب لعلموا أن سليمان قد مات، وما لبثوا في العذاب المهين، فأراد الله عز وجل أن يبين لهم ولغيرهم أنهم لا يعلمون الغيب.

الفوائد والأحكام:

١ - التنويه بعظم ما أعطاه الله عز وجل لعبده ونبيه ورسوله داود عليه السلام من الفضل؛ من النبوة والملك العظيم، والنعم الدينية والدنيوية؛ لقوله تعالى: ﴿۞ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضۡلٗاۖ﴾ الآية.

٢- تسخير الجبال والطير تُرَجِّع التسبيح معه؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ﴾.

٣- إلانة الحديد وتطويعه له؛ يصنع منه ما يشاء، وتعليمه صنع الدروع السابغات، والتقدير في سردها وإحكامها، وفي ذلك دلالة على تمام قدرة الله تعالى وعظيم فضله ومنته على داود؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ۝١٠ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِي ٱلسَّرْدِ﴾.

٤- ينبغي لمن عمل عملًا أن يتمه ويتقنه؛ لقوله تعالى: ﴿أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِي ٱلسَّرْدِ﴾، ورُويَ في الحديث: «**إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملًا أن يتقنه**»[1].

٥- وجوب شكر نعم الله تعالى بالعمل الصالح؛ لأن الله أمر آل داود بذلك؛ لما أولاهم من الفضل والنعم؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا﴾.

٦- أنه لا بد من كون العمل صالحًا؛ خالصًا لله عز وجل، موافقًا لشرعه.

٧- علم الله تعالى واطلاعه وبصره التام بأعمال العباد؛ لقوله تعالى: ﴿إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾، وفي هذا وعد لمن عمل صالحًا، ووعيد لمن عمل بخلاف ذلك.

٨- التنويه بشأن سليمان نبي الله تعالى ورسوله عليه السلام، وما منحه الله من الملك العظيم الذي لا ينبغي لأحد من بعده، وتسخير الريح له تحمله وبساطه ومن معه، وتقطع به المسافات الطويلة في مدة يسيرة؛ لقوله تعالى: ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾.

٩- إسالة عين النحاس وإذابتها له؛ يعمل منها ما يشاء من الأواني، وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ﴾.

١٠- تسخير الجن له، يعملون تحت خدمته بإذن ربه، وتهديد من يعدل عن أمره عز وجل ويخرج عن طاعته بعذاب السعير؛ لقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾.

---

(١) أخرجه الطبراني في «المعجم الأوسط» ١/ ٢٧٥ (٨٩٧)، وأبو يعلى الموصلي في «مسنده» ٧/ ٣٤٩ (٤٣٨٦)، والبيهقي في «شعب الإيمان» ٧/ ٢٣٢ (٤٩٢٩) من حديث عائشة رضي الله عنها. قال بعضهم: «وفي إسناده لين».

١١- إثبات وجود الجن، وما أعطاهم الله من القدرات العظيمة، وتسخيرهم للعمل للإنس، إما بالخير، وإما بالشر، وأنهم قد يشاهَدون أحيانًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ﴾.

١٢- إثبات إذن الله تعالى الكوني والشرعي؛ لقوله تعالى: ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِۦ﴾ وهو محتمل للكوني والشرعي.

١٣- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة لسليمان عليه السلام؛ لقوله تعالى: ﴿رَبِّهِۦ﴾.

١٤- أن الجن مكلفون ومحاسبون ومجزيون بأعمالهم كالإنس، فمن خالف أمر الله دخل النار، ومن أطاع الله دخل الجنة، وهم في أصول الدين كالتوحيد مكلفون كالإنس بلا خلاف، أما في فروع الشرائع فقد يختلفون عن الإنس.

١٥- إثبات وجود النار، وإعدادها لمن خالف أمر الله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾.

١٦- إثبات المشيئة للخلق؛ لقوله تعالى: ﴿يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ﴾، وفي هذا رد على الجبرية القائلين بأن الإنسان مجبور على أفعاله.

١٧- قيام الجن بتسخير الله تعالى وإقداره لهم بعمل ما يشاؤه سليمان عليه السلام من محاريب ضخمة، وتماثيل جميلة، وجفان واسعة، وقدور ثابتة، وغير ذلك؛ لما أعطاه الله من ملك لا ينبغي لأحد من بعده؛ لقوله تعالى: ﴿يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ﴾.

١٨- كرم سليمان عليه السلام، وبذله الطعام والضيافة للناس، بدلالة قوله: ﴿وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ﴾.

وهذا أدل على الكرم من قولهم عن الكريم: «كثير الرماد».

١٩- كمال قدرة الله تعالى وعظم فضله على داود وسليمان عليهما السلام، فسخر لداود الجبال الجامدة، والطيور السابحة، تسبح معه، وألان له الحديد يعمل منه الدروع السابغات، ويُحكِم صنعها، وسخر لسليمان الريح تغدو وتروح به وبمن معه، وتقطع بهم المسافات الطويلة بمدة يسيرة، وأذاب له عين النحاس، وسخر الجن في خدمته يعملون بين يديه ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفانٍ كبيرة، وقدور راسية عظيمة.

٢٠- فضل داود وسليمان عليهما السلام؛ حيث من الله عليهما بالنبوة والملك، وأعطاهما من النعم الدينية والدنيوية ما يجل عن الحصر؛ لشكرهما نعم الله تعالى.

٢١- وجوب شكر نعم الله تعالى بالاعتراف له بها باطنًا وظاهرًا، واستعمالها في طاعته؛ لقوله تعالى: ﴿ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ﴾.

٢٢- أن العمل بطاعة الله تعالى وشكر نعمه من أعظم أسباب ترادفها وكثرتها وقرارها، وهكذا كان حال آل داود عليهم السلام، قابلوا نعم الله بالطاعة والشكر، فأدرها الله عليهم وغمرهم بها.

٢٣- أن الشكر يكون بالعمل؛ كما يكون بالقول وبالقلب؛ لقوله تعالى: ﴿ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ﴾.

٢٤- قلة الشكور من الخلق لنعم الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَلِيلٞ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾، فلا ينبغي أن يغتر بما عليه أكثر الخلق، فأكثرهم على الكفر والضلال.

٢٥- إثبات عبودية الخلق كلهم لله تعالى عبودية عامة؛ لقوله تعالى: ﴿عِبَادِيَ﴾.

٢٦- أن كل نفس ذائقة الموت؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَيۡنَا عَلَيۡهِ ٱلۡمَوۡتَ﴾.

٢٧- إبطال زعم الجن أنهم يعلمون الغيب، وتبينهم بأنفسهم بطلان ذلك؛ للبثهم في خدمة سليمان عليه السلام بالعمل المهين بعد موته، حتى أكلت الأرضة عصاه فسقط على الأرض؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَيۡنَا عَلَيۡهِ ٱلۡمَوۡتَ مَا دَلَّهُمۡ عَلَىٰ مَوۡتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلۡأَرۡضِ تَأۡكُلُ مِنسَأَتَهُۥۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلۡجِنُّ أَن لَّوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ٱلۡغَيۡبَ مَا لَبِثُواْ فِي ٱلۡعَذَابِ ٱلۡمُهِينِ ١٤﴾.

٢٨- تسمية العمل الشاق عذابًا؛ لقوله تعالى: ﴿مَا لَبِثُواْ فِي ٱلۡعَذَابِ ٱلۡمُهِينِ﴾.

وفي الحديث: «**السفر قطعة من العذاب**»[1].

* * *

(١) أخرجه البخاري في الحج ١٨٠٤، ومسلم في الإمارة ١٩٣٧، وابن ماجه في المناسك ٢٨٨٢، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا۟ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴿١٧﴾ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ سِيرُوا۟ فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُوا۟ رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٢١﴾﴾.

أتبع ما أخبر به عن سليمان بذكر قصة سبأ؛ لِمَا بين ملك سليمان ومملكة سبأ من الاتصال بسبب قصة بلقيس؛ ولأن في أحوال آل داود مثلًا في إسباغ النعمة على الشاكرين، وفي أحوال أهل سبأ مثلًا في سلب النعمة عن الكافرين، وفي هذا وذاك موعظة للمشركين، وترغيب وترهيب لهم، ولغيرهم.

قال ابن كثير(١): «كانت سبأ من ملوك اليمن وأهلها، وكانت التبابعة منهم، وبلقيس صاحبة سليمان منهم، وكانوا في نعمة وغبطة في بلادهم وعيشهم، واتساع أرزاقهم وزروعهم وثمارهم، وبعث الله إليهم الرسل تأمرهم أن يأكلوا من رزقه، ويشكروه بتوحيده وعبادته، فكانوا كذلك ما شاء الله، ثم أعرضوا عما أُمروا به فعوقبوا بإرسال السيل، والتفرق في البلاد أيدي سبأ، شذر مذر».

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا۟ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴿١٧﴾﴾.

قوله: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ﴾ «سبأ»: اسم قبيلة عظيمة في اليمن، سُموا باسم جدهم، قال ابن إسحاق: اسم «سبأ»: عبد شمس بن يشجب بن يعرب بن

(١) في «تفسيره» ٦/ ٤٩١.

قحطان، وإنما سمي «سبأ»؛ لأنه أول من سبأ من العرب، وذُكر أنه بشَّرَ برسول الله ﷺ في زمانه، وقال في ذلك شعرًا:

سيملك بعدنا ملكًا عظيمًا ... نبي لا يرخص في الحرام
ويملك بعد قحطانٍ نبي ... تقي خَبْتة خير الأنام
وسميَ أحمدًا يا ليت أني ... أعمر بعد مبعثه بعام
فأعضده وأحبوه بنصري ... بكل مدجج وبكل رام
متى يظهر فكونوا ناصريه ... ومن يلقاه يبلغه سلامي[(١)]

وتنقسم قبيلة سبأ إلى عشرة أفخاذ، وهم: الأزد، وكندة، ومذحج، والأشعريون، وأنمار، وبجيلة، وعاملة وهم خزاعة، وغسان، ولخم، وجذام.

عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن رجلًا سأل النبي ﷺ عن سبأ، ما هو؟ رجل أم امرأة، أم أرض؟ قال: «**بل هو رجل ولد له عشرة، فسكن اليمن منهم ستة، وبالشام منهم أربعة، فأما اليمانيون: فمذحج، وكندة، والأزد، والأشعريون، وأنمار، وحمير، عربًا كلها، وأما الشامية: فلخم، وجذام، وعاملة، وغسان**»[(٢)].

وليسوا من صلبه، بل فيهم من بينه وبينه الأبوان والثلاثة، والأقل والأكثر، وإنما من نسله هؤلاء العشرة الذين ترجع إليهم أصول القبائل من عرب اليمن.

﴿فِي مَسْكَنِهِمْ﴾ قرأ حمزة وحفص: ﴿مَسْكَنِهِمْ﴾ بغير ألف على الإفراد، مع إسكان السين، وفتح الكاف، وقرأ الكسائي وخلف بكسر الكاف: «مَسْكِنِهِمْ»، وقرأ الباقون بألف على الجمع مع فتح السين وكسر الكاف: «مَسَاكِنِهِمْ»، جمع «مسكن».

والمسكن: ما يسكنه الإنسان ويطمئن فيه؛ أي: في بلدهم وبيوتهم وبساتينهم ونحو ذلك.

﴿ءَايَةٌ﴾، أي: عظة وعبرة لمن يعتبر من هؤلاء المشركين وغيرهم، ودلالة على تمام

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» ٦/ ٤٩٣.

(٢) أخرجه أحمد ١/ ٣١٦. وقد أخرج الترمذي نحوه في تفسير القرآن ٣٢٢٢، من حديث فروة بن مسيك رضي الله عنه، وقال: «حديث حسن غريب».

قدرة الله تعالى ونعمته وحكمته، وعلى تبدل الأحوال، وحلول النقمة مكان النعمة إذا كفرت.

﴿جَنَّتَانِ﴾: بدل من آية؛ أي: بستانان عظيمان.

قال المفسرون: وكانت بساتين كثيرة متواصلة عن يمين وشمال، فأطلق عليها: ﴿جَنَّتَانِ﴾.

﴿عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ﴾ عن يمين واديهم وشماله، وكان واديهم بين الجبال، وعلى أطراف الوادي هذه الجنان العظيمة، ذات الأشجار المتنوعة، والثمار الكبيرة، وكانوا في أحسن ما يكون من رغد العيش، والهناء والأمن؛ ولهذا قال تعالى ممتنًّا عليهم: ﴿كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ﴾ الأمر للإباحة والامتنان.

أي: وقلنا لهم امتنانًا عليهم: كلوا من رزق ربكم؛ أي: من عطائه العظيم الواسع.

﴿وَاشْكُرُوا لَهُ﴾ عظيم نعمته، وعطاءه لكم، بالاعتراف له بذلك بقلوبكم، والثناء عليه بألسنتكم، واستعماله في طاعته بجوارحكم.

﴿بَلْدَةٌ﴾، نكرت: للتعظيم، ﴿طَيِّبَةٌ﴾، أي: طيبة الأرض والماء والهواء والثمار، ملائمة لساكنها ومستثمرها، فيها الرزق والعيش الرغيد وهي بلدتهم: «سبأ»؛ كما يقال لها: «مأرب»، وهي بين حضرموت وصنعاء.

﴿وَرَبٌّ﴾؛ أي: ورب عظيم ﴿غَفُورٌ﴾، أي: ذو مغفرة واسعة لذنوب عباده الشاكرين، يستر ذنوبهم عن الخلق، ويتجاوز عنهم، فلا يعاقبهم عليها، فامتن عليهم بنعمتين: نعمة السكن الطيب الذي به حصول المطلوب في الدنيا، ونعمة المغفرة التي بها زوال المرهوب في الآخرة.

﴿فَأَعْرَضُوا﴾ الفاء: عاطفة؛ أي: فأعرضوا بقلوبهم، وتولوا بأبدانهم عن شكر الله تعالى وطاعته والاعتراف بنعمته، وعبادته وحده لا شريك له، وعدلوا إلى الشرك وعبادة الشمس من دون الله؛ كما قال هدهد سليمان: ﴿وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾﴾[النمل: ٢٢- ٢٤].

﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ﴾ الفاء: عاطفة، وتفيد السببية؛ أي: فبسبب إعراضهم أرسلنا عليهم سيل العرم، عقوبة لهم على إعراضهم وكفرهم، وانتقامًا منهم؛ ولهذا عدي الفعل «أرسلنا» بـ«على».

والعرم: الشديد الكثير الغزير، وإضافته إلى «سيل» من إضافة الصفة إلى الموصوف.

أي: السيل الغزير الجارف الشديد، الذي خرب سد مأرب العظيم، فانطلق ما كان محبوسًا فيه من المياه الكثيرة، وأتلف وأغرق ما بين يديه من البساتين والزروع والحروث والأشجار، وهدم الأبنية، وخرب الديار.

وقد كان لأهل سبأ سد عظيم قرب بلاد مأرب يسمى: «سد مأرب».

﴿وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ﴾ اللتين كانتا من أعظم الجنات، وكانتا آية من آيات الله في الزهو والاخضرار والأشجار، والزروع والفواكه والثمار، والمناظر الحسنة، والظلال الوارفة، والأنهار.

﴿جَنَّتَيْنِ﴾ دون الأولين وأدنى وأقل منهما.

﴿ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ﴾ قرأ أبو عمرو ويعقوب بضم الكاف مع الإضافة من غير تنوين: «أُكُلِ خَمْطٍ»، وقرأ نافع وابن كثير بسكون الكاف والتنوين: : «أُكْلٍ خَمْطٍ»، وقرأ الباقون بضم الكاف مع التنوين: ﴿أُكُلٍ خَمْطٍ﴾، أي: صاحبتي مأكول قليل، ليس بالكثير، ﴿خَمْطٍ﴾، أي: يخمط خمطًا مر غير لذيذ، وهو الأراك.

﴿وَأَثْلٍ﴾ هو شجر معروف لا ثمر له، وقيل: هو الطرفاء.

﴿وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾ وهو شجر النبق، كثير الشوك، قليل الثمر.

ولما كان السدر أحسن هذه الأنواع لم يعطوا منه إلا أقل القليل؛ ولهذا قال: ﴿وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ﴾ وهذا يدل على قلته، ثم أكد ذلك بقوله: ﴿قَلِيلٍ﴾.

قال ابن كثير[1]: «وقوله: ﴿وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾ لما كان أجود هذه الأشجار المبدل بها هو السدر، قال: ﴿وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾ فهذا الذي صار أمر تينك الجنتين

---

(١) في «تفسيره» ٦/ ٤٩٦.

إليه بعد الثمار النضجة، والمناظر الحسنة، والظلال العميقة، والأنهار الجارية، تبدلت إلى شجر الأراك والطرفاء، والسدر، ذي الشوك الكثير، والثمر القليل».

﴿ذَٰلِكَ﴾ الإشارة إلى إرسال سيل العرم عليهم، وتبديل جنتيهم العظيمتين بجنتين ذواتي أكل خمط وأثل، وشيء من سدر قليل.

﴿جَزَيْنَٰهُم﴾ هذا الجزاء بإغراق جنتيهم، وإتلاف أموالهم، وهدم بنائهم.

﴿بِمَا كَفَرُواْ﴾ الباء: سببية، و«ما»: مصدرية؛ أي: بسبب كفرهم وشركهم بالله بعبادتهم الشمس من دونه، وكفرهم بنعمته، فصارت بلادهم قاحلة بلا ماء ولا ثمر ولا مرعى، فاضطروا إلى مفارقتها والتفرق في غيرها من البلاد.

﴿وَهَلْ نُجَٰزِيٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ﴾ قرأ حمزة والكسائي وخلف ويعقوب وحفص بالنون: ﴿نُجَٰزِيٓ﴾، و﴿ٱلْكَفُورَ﴾ بالنصب.

وقرأ الباقون بالياء وفتح الزاي: «يُجازَى﴾، و«الكَفُورُ» بالرفع.

و«هل»: حرف استفهام، ومعناه هنا النفي؛ أي: وما نجازي؛ أي: وما نناقش ونجازي بالعقوبة.

﴿إِلَّا ٱلْكَفُورَ﴾، ﴿إِلَّآ﴾: أداة حصر، أي: إلا ذا الكفر، الذي كفر بالله، وأشرك به، وجحد نعمه وبطرها.

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ سِيرُواْ فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ۝١٨ فَقَالُواْ رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ۝١٩﴾:

قوله: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا﴾ الآية.

بعدما ذكر نعمة الله عليهم بالرخاء والبهجة وطيب الإقامة، ذكر نعمته عليهم بالأمن في أسفارهم وترحالهم، وتيسيرها عليهم.

أي: ومن إنعامنا على سبأ جعلنا؛ أي: صيرنا ﴿بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا﴾ بكثرة الخيرات والثمرات والأرزاق، و«القرية»: البلدة، صغيرة كانت أو كبيرة.

قيل: المراد: قرى اليمن، كصنعاء، وقيل: قرى الشام، وكل منهما، قد بارك فيها،

قال تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ﴾ [الإسراء: ١].

وقال ﷺ: «**اللهم بارك لنا في شامنا، اللهم بارك لنا في يمننا**»(١).

وكونها قرى الشام أعظم في الامتنان عليهم؛ لأنها أبعد مسافة.

ومن رجح أنها قرى اليمن قال: لأنه لا يعلم بين اليمن والشام قرى ظاهرة.

﴿قُرًى ظَٰهِرَةً﴾، أي: ظاهرة للعيان متواصلة، يرى بعضها من بعض، يطمئن المسافر بينها ويأمن، ولا يتيه.

﴿وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ﴾، أي: جعلنا السير بين هذه القرى مقدرًا على مراحل متقاربة ومتعادلة، يقطعها المسافر مرحلة مرحلة، دون مشقة شديدة، فيقيل في قرية، ويبيت في أخرى، مع كثرة أشجارها وثمارها وزروعها وثمارها بحيث لا يحتاج المسافر إلى حمل زاد ولا ماء، ولا غير ذلك، بل حيث نزل وجد ماءً وثمرًا، وكل ما يحتاجه.

﴿سِيرُوا۟ فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا﴾، أي: وقلنا لهم امتنانًا عليهم: ﴿سِيرُوا۟ فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا﴾، وهو قول قدري.

﴿ءَامِنِينَ﴾: حال؛ أي: آمنين في سيركم وسفركم في هذه القرى لا تخافون، لا في ليل ولا نهار، لا من عدو، ولا من تلف، أو فقد ماء أو طعام ولا غير ذلك.

وقدم «ليالي» للاهتمام في مقام الامتنان؛ لأن المسافرين أحوج إلى الأمن فيها منهم إليه في النهار؛ لأن الليل تعترضهم فيه القُطَّاع والسباع.

﴿فَقَالُوا۟ رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا﴾ قرأ أبو عمرو وابن كثير وهشام بكسر العين المشددة، من غير ألف: «بَعِّدْ»، وقرأ الباقون بالألف مع تخفيف العين: ﴿بَٰعِدْ﴾.

فملُّوا هذه النعمة العظيمة، وقابلوها بالأشر والبطر ﴿فَقَالُوا۟ رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا﴾ الفاء: عاطفة؛ أي: يا ربنا باعد بين مراحل أسفارنا؛ أي: اجعل بينها مفاوز بعيدة، ليس فيها هذه القرى الظاهرة، بحيث تكون أسفارًا شاقة فيها التعب والنصب، ومعاناة الحر

(١) أخرجه الترمذي في المناقب ٣٩٥٣؛ من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، وقال: «حديث حسن صحيح غريب». وأخرجه البخاري في الجمعة ١٠٣٧ موقوفًا على ابن عمر رضي الله عنهما.

والبرد والمخاوف، وحمل الزاد والمزاد، وغير ذلك.

﴿وَظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ﴾ بإعراضهم، وكفرهم بالله، وكفران نعمته، وبطرها، بطلبهم المباعدة بين أسفارهم.

وهذا نظير قول بني إسرائيل لموسى عليه السلام، وقد كانوا في عيش رغيد، وطيبات من الرزق، من المن والسلوى وغير ذلك: ﴿لَن نَّصۡبِرَ عَلَىٰ طَعَامٖ وَٰحِدٖ فَٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُخۡرِجۡ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلۡأَرۡضُ مِنۢ بَقۡلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَاۖ قَالَ أَتَسۡتَبۡدِلُونَ ٱلَّذِي هُوَ أَدۡنَىٰ بِٱلَّذِي هُوَ خَيۡرٌۚ﴾ [البقرة: ٦١].

﴿فَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَحَادِيثَ﴾ الفاء: عاطفة؛ أي: فصيرناهم عبرًا، وخبرًا بعد عين، وأحاديث يتناقلها الناس ويتحدثون بها، قرنًا بعد قرن، وكيف تبدلت حالهم وسلبوا ما هم فيه من النعم العظيمة بسبب كفرهم بالله ونعمه، قال التاجي[1]:

بينا يرى الإنسان فيها مخبرًا ... حتى يرى خبرًا من الأخبار

﴿وَمَزَّقۡنَٰهُمۡ كُلَّ مُمَزَّقٍۚ﴾، أي: وفرقناهم في البلاد كل مفرق، فذهبوا في الأرض في كل وجه، هلك منهم من هلك، وصاروا شذر مذر.

قال الشعبي: «أما غسان فقد لحقوا بالشام، وأما الأنصار فلحقوا بيثرب، وأما خزاعة فلحقوا بتهامة، وأما الأزد فلحقوا بعمان، فمزقهم الله كل ممزق»[2].

ولهذا يقال في المثل: «تفرقوا أيدي سبأ، أو أيادي سبأ[3]»؛ أي: تفرقوا كتفرق سبأ.

قال ذو الرمة[4]:

فيا لك من دار تفرق أهلها ... أيادي سبا عنها وطال انتقالها

وقال كثير عزة[5]:

---

(١) قال هذا في رثاء صغير له. انظر: «تاريخ دمشق» ٤٣/ ٢٢٢، و«فوات الوفيات» ٢/ ٢٦٩.

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ١٩/ ٢٦٧.

(٣) انظر : «المستقصى في أمثال العرب» ٢/ ٨٨.

(٤) انظر: «ديوانه» ص٥٠١، «لسان العرب» مادة «يدي».

(٥) انظر:«ديوانه» ص٣٢٨، «شرح شواهد المغني» ٢/ ٦٨٧.

أيادي سَبَا يا عَزَّ ما كنتُ بعدكم فلم يَحْلَ بالعينين بعدَكِ منظرُ

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾، أي: في الذي حلَّ بسبأ من النقمة والعذاب، وتبديل النعمة وسلبها منهم، وتفريقهم بعد الوحدة والاجتماع، بسبب إعراضهم وكفرهم بالله، وبطرهم نعمته، وظلمهم لأنفسهم؛ كما قال: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ ﴿٥٨﴾﴾[القصص: ٥٨]، وقال تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾﴾[النحل: ١١٢]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾﴾[الأعراف: ٩٦].

﴿لَآيَاتٍ﴾ لدلالات وعبر وعظات، ﴿لِّكُلِّ صَبَّارٍ﴾، «صبار» صيغة مبالغة؛ أي: ذي صبر على طاعة الله تعالى وعن معصيته، وعلى أقداره المؤلمة.

﴿شَكُورٍ﴾ لنعم الله تعالى، بنسبتها إليه عز وجل، واستعمالها في طاعته.

عن صهيب رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: **«عجبًا لأمر المؤمن، إن أمره كله خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرًا له»**(١).

وعن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: **«عجبت من قضاء الله للمؤمن؛ إن أصابه خير حمد ربه وشكر، وإن أصابته مصيبة حمد ربه وصبر»**(٢).

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴿٢١﴾﴾:

قوله: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ﴾ قرأ حمزة والكسائي وعاصم بتشديد الدال: ﴿صَدَّقَ﴾، وقرأ الباقون بتخفيفها: «صَدَقَ».

---

(١) أخرجه مسلم في الزهد، المؤمن أمره كله خير ٢٩٩٩.

(٢) أخرجه أحمد ١/ ١٧٣.

قال السعدي[1]: «ويحتمل أن قصة سبأ انتهت عند قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾، ثم ابتدأ، فقال: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ﴾، أي: على جنس الناس، فتكون الآية عامة في كل من اتبعه».

وهذا- والله أعلم- هو الظاهر، وعلى احتمال أن هاتين الآيتين تتمة لقصة سبأ، فمعناهما عام لهم ولغيرهم.

وعلى هذا فالضمير في ﴿عَلَيْهِمْ﴾ يعود على بني آدم كلهم، أو على الكفار منهم، أو على سبأ.

أي: ولقد حقق عليهم إبليس ظنه، وصدق فيهم حدسه في استجابتهم واتباعهم له، في تزيينه وإغوائه لهم؛ كما قال: ﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾﴾ [الأعراف: ١٦- ١٧]، وقال: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [ص: ٨٢- ٨٣]، وقال: ﴿بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾﴾ [الحجر: ٣٩- ٤٠]، وقال: ﴿أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾﴾ [الإسراء: ٦٢].

﴿فَٱتَّبَعُوهُ﴾ في تزيينه لهم الكفر وإغوائهم.

﴿إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ «إلا»: للاستثناء، ﴿فَرِيقًا﴾ منصوب على الاستثناء، ويحتمل أن يكون الاستثناء منقطعًا، وتكون «إلا» بمعنى: «لكن». و«من»: بيانية.

أي: فاتبعوه إلا فريقًا وهم المؤمنون لم يصدق عليهم ظنه ولم يتبعوه، بل حفظهم الله منه، فلم يستطع إغواءهم.

﴿وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم﴾، أي: وما كان له على الذين اتبعوه.

﴿مِّن سُلْطَٰنٍ﴾، «من»: زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة من حيث المعنى لعموم النفي؛ أي: وما كان له عليهم أيُّ سلطان؛ أي: أيُّ تسلط بقسرهم وقهرهم على الكفر،

---

(١) في «تيسير الكريم الرحمن» ٦/ ٢٧٣.

وإنما زين وحسن لهم الكفر والمعاصي فاتبعوه؛ كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ﴾ [إبراهيم: ٢٢].

﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ﴾ «إلا»: أداة حصر، ﴿لِنَعْلَمَ﴾ اللام: للتعليل؛ أي: لكن سُلطانه عليهم بتزيين الكفر لهم وإغوائهم؛ ﴿لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ ۗ﴾.

أي: لنعلم الذي يصدق بالدار الآخرة والبعث والمعاد والحساب والجزاء على الأعمال، ويستعد لذلك بالإيمان والعمل الصالح.

﴿مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ ۗ﴾، أي: من الذي هو من الآخرة في شك وتكذيب، لا يؤمن بها، ولا بما فيها من الحساب والجزاء، واتبع الشيطان. ومن كان من الآخرة في شك فهو كالمكذب بها سواء بسواء.

والمعنى: إلا لأجل أن يظهر ذلك في علمنا بعد وقوعه منهم، فنجازيهم عليه؛ لأنه عز وجل- وإن كان يعلم ذلك منهم قبل أن يعملوه، وهو الذي قدره عليهم- فإنه لا يجازيهم إلا بعد علمه بوقوع ذلك منهم؛ إقامة للحجة عليهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾﴾[محمد: ٣١].

وقال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾﴾[آل عمران: ١٤٢].

﴿وَرَبُّكَ﴾ يا محمد ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ﴾، أي: مطلع ورقيب، لا يغيب عنه شيء؛ لسعة علمه، وتمام قدرته، يحفظ الخلائق، ويحفظ عليهم أعمالهم، ويحفظ جزاءها فيوفيهم إياه كا ملًا وافرًا، وغير ذلك.

الفوائد والأحكام:

١- التذكير بقصة سبأ، وما امتن الله به عليهم من البساتين والفواكه، والزروع والثمار، ورغد العيش، وطيب البلد، والوعد بالمغفرة، وما أعقب ذلك لما أعرضوا عن طاعة ربهم وشكره، وكفروا به وجحدوا نعمته- من النقمة وتبديل حالهم، وما في ذلك من العظة والعبرة، والدلالة على عظيم قدرة الله تعالى وحكمته.

﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ۝١٥ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ﴾ الآيات.

٢- عظم ما أعطاه الله تعالى لسبأ من النعم والخيرات والأرزاق، والامتنان عليهم بذلك؛ لقوله تعالى: ﴿جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾.

٣- وجوب شكر الله تعالى على العباد؛ لما أولاهم من النعم الظاهرة والباطنة.

٤- إثبات ربوبية الله تعالى العامة لجميع الخلق، وربوبيته الخاصة للشاكرين؛ لقوله تعالى: ﴿كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾، وقوله: ﴿فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا﴾.

٥- أن البلاد منها ما هو طيب، ومنها ما هو خبيث؛ لقوله تعالى: ﴿بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ﴾.

وقال تعالى في سورة الأعراف: ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا﴾ [الأعراف: ٥٨].

٦- إثبات صفة المغفرة الواسعة لله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿غَفُورٌ﴾، فلا يتعاظمه ذنب أن يغفره.

٧- إثبات الأسباب والحكمة في أفعال الله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ﴾ الآية، وقوله: ﴿ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا﴾، فعاقبهم الله بهذا العقاب بسبب إعراضهم وكفرهم، وصار هذا السيل الذي هو في الأصل نعمة ورحمة صار عليهم وبالًا ونقمة.

٨- أن الجزاء من جنس العمل، فهؤلاء لما بطروا نعمة الله تعالى وكفروها ولم يشكروه: سلبها منهم، وبدلهم بها هو أدنى؛ لقوله تعالى: ﴿وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾.

٩- أن النعم إذا شكرت قرت، وإذا كفرت فرت، وأن الكفر والمعاصي سبب لزوال النعم؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ۝٧﴾ [إبراهيم: ٧].

١٠- أن ما حصل لسبأ من إرسال سيل العرم عليهم، وتبديل جنتيهم بجنتين أدنى وأقل، إنما هو بسبب كفرهم بالله، وكفرانهم نعمته؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟ۖ﴾.

١١- أن الله لا يجازي بالعقوبة إلا الكفور، ولا يجازي أحدًا إلا بفعله؛ لقوله تعالى: ﴿وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ﴾.

١٢- التحذير للمشركين وغيرهم ممن كفر نعمة الله، أن يبدل ما هم فيه من النعم؛ كما فعل بسبأ، والسعيد من وعظ بغيره.

١٣- أن من نعمة الله تعالى على سبأ أن يسر لهم سبل التنقل بين مسكنهم والقرى المباركة في اليمن أو الشام، بقرى بين ذلك ظاهرة متواصلة، يرى بعضها من بعض، فيأمنون في سفرهم، ولا يحتاجون لحمل الماء والطعام، ولا يشق عليهم السفر بينها؛ لتقاربها، فيقطعونها مرحلة مرحلة، يقيلون في قرية، ويبيتون في أخرى، ولهذا امتن الله عليهم بذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَۖ سِيرُوا۟ فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴿١٨﴾﴾.

١٤- أن الله قد بارك بالشام واليمن.

١٥- أن المسافر أحوج إلى الأمن في الليل؛ لأن فيه تسلط القطاع والسباع؛ بخلاف النهار؛ لهذا قدم الليالي في قوله: ﴿سِيرُوا۟ فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ﴾.

١٦- أن الأمن من أكبر النعم في الحضر والسفر، ولا يعرف قدره إلا من فقده؛ لهذا خُص بالذكر في الآية؛ كما قال تعالى: ﴿فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ﴿٣﴾ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ﴿٤﴾﴾ [قريش: ٣- ٤]، وقال تعالى: ﴿وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًاۚ﴾[النور: ٥٥].

١٧- مقابلتهم نعمة الله عليهم بتيسير أسفارهم بالأشر والبطر، وطلبهم المباعدة بين أسفارهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَقَالُوا۟ رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا﴾ قالوا هذا بلسان حالهم بكفرهم هذه النعمة، وبلسان مقالهم.

١٨- ظلمهم لأنفسهم بكفرهم نعم الله تعالى عليهم، وطلبهم المباعدة بين أسفارهم، واستبدالهم الذي هو أدنى بالذي هو خير؛ لقوله تعالى: ﴿وَظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾.

١٩- أن ارتكاب الذنوب والمعاصي ظلم من الإنسان لنفسه؛ لأنها وديعة عنده، لا يجوز له إيقاعها في التهلكة.

٢٠- عقوبة الله تعالى سبأ، بجعلهم خبرًا بعد عين، وأحاديث يتناقلها الناس، وتفريقهم في البلاد كل مفرّق، وذمهم وفضيحتهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾.

٢١- أن فيما حل بهم من النقمة، وتبديل نعمتهم، وتفريقهم بسبب إعراضهم، وكفرهم، وبطرهم نعمة الله، وظلمهم لأنفسهم، لدلالاتٍ على قدرة الله تعالى، وعظاتٍ وعِبرًا لمن يتعظ ويعتبر؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾.

٢٢- أنه لا يستفيد من الآيات والعظات والعبر إلا من كان ذا صبر على طاعة الله تعالى، وعن معصيته، وعلى أقداره المؤلمة، شكورًا لنعمه؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾.

٢٣- فضيلة الصبر والشكر؛ والصبر على الضراء، والشكر على السراء، فمن وفق لهما وفق لكل خير، قال ﷺ: «**عجبًا لأمر المؤمن إن أمره كله له خير، إن أصابته ضراء صبر فكان خيرًا له، وإن أصابته سراء شكر فكان خيرًا له**»(١).

٢٤- تحقق ظن إبليس وصدق حدسه في كثير من الخلق، في استجابتهم واتباعهم له، في تزيينه وإغوائه إياهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ﴾.

٢٥- حفظ الله تعالى عباده المؤمنين من إبليس، فلم يصدق عليهم ظنه، ولم يتبعوه؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

٢٦- أنه لا سلطان للشيطان على الذين اتبعوه بقسر وقهر على الكفر، وإنما دعاهم، فاستجابوا له؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَانٍ﴾.

٢٧- أن من تسلط عليه الشيطان ووقع في شراكه من المؤمنين، بارتكاب المعاصي، فإنما هو بسبب ضعف إيمانه؛ لأن الله لم يجعل له سلطانًا على المؤمنين؛ كما لم يجعل له

---

(١) سبق تخريجه.

تسلطًا بالقهر على أيّ من الخلق أجمعين. وفي الحديث: «**لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن**»(١).

٢٨حكمة الله تعالى في تسليط الشيطان على بني آدم، يزين لهم الكفر ويدعوهم إليه، وهي أن يعلم؛ أي: يظهر في علمه عز وجل- ظهورًا يترتب عليه الجزاء- من يصدق بالآخرة ويعمل لها، ممن يشك بها ويكذب، فلا يعمل لها؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْـَٔاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ﴾.

٢٩- إثبات الدار الآخرة، والحساب والجزاء على الأعمال، ووجوب الإيمان بذلك.

٣٠- أن الشك فيما يجب فيه اليقين كفر، فمن شك في الآخرة كفر، كمن كذب بها؛ لقوله تعالى: ﴿مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ﴾.

٣١- حفظ الله تعالى ورعايته لكل شيء: الخلائق وأعمالهم وجزاءهم، وغير ذلك؛ لسعة علمه وتمام قدرته؛ لقوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ﴾.

٣٢- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة للنبي ﷺ، وتشريفه بخطاب الله تعالى له، وإضافة اسم الرب أو وصفه إلى ضميره ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ﴾.

٣٣- الترغيب في طاعة الله تعالى، والتحذير من معصيته؛ لأنه حفيظ على أعمال العباد، وسيجازيهم عليها.

* * *

(١) أخرجه البخاري في المظالم ٢٤٧٥، ومسلم في الإيمان ٥٧، وأبو داود في السنة ٤٦٨٩، والنسائي في قطع السارق ٤٨٧٠، والترمذي في الإيمان ٢٦٢٥؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

قال الله تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾ ۞ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾ قُلْ أَرُونِىَ ٱلَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِۦ شُرَكَآءَ ۖ كَلَّا ۚ بَلْ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾﴾:

لما ذكر عز وجل قصة سبأ وما حل بهم من النقمة بسبب إعراضهم وكفرهم بالله، وعدم شكرهم نعمته، واتباعهم للشيطان، وفي ذلك ما لا يخفى من التعريض بأمثالهم من المشركين وغيرهم، أتبع ذلك بإبطال ما هم عليه من الشرك.

قوله: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾، أي: قل يا محمد لمشركي قريش ولغيرهم ممن يدعو غير الله.

والخطاب له ﷺ ولكل من يتوجه إليه الخطاب من أمته.

﴿ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾، أي: اسألوا الآلهة الذين زعمتم كذبًا أنهم شركاء ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾، أي: غير الله، واطلبوا منهم حوائجكم، هل يستجيبون لكم وينفعونكم أم لا؟

ويحتمل أيضًا: أن معنى ادعوهم؛ أي: نادوهم واحضروهم لنناقشهم، وهذا لا ينافي الأول.

﴿لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾، أي: لا يملك هؤلاء الآلهة الذين زعمتم من دون الله وعبدتموهم مع الله ﴿مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾، أي: زنة ذرة، وهي النملة الصغيرة، أو بيضة النملة التي تبدو حبيبة صغيرة بيضاء.

﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾، أي: لا يملكون زنة ذرة في ملك الله تعالى الواسع العظيم في السموات ولا في الأرض. وأعاد حرف النفي «لا»؛ للتوكيد والاهتمام.

والتقدير في قوله: ﴿مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ للمبالغة في القلة؛ أي: أنهم لا يملكون مثقال ذرة ولا ما دونه؛ كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾ [فاطر: ١٣].

﴿وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا﴾، أي: وما لهؤلاء الآلهة في السموات والأرض.

﴿مِن شِرْكٍ﴾ «من»: زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة من حيث المعنى لعموم النفي؛ أي: وما لهؤلاء الآلهة في السموات والأرض أيُّ شرك؛ أي: أيُّ شراكة في الخلق، فهم لا يملكون زنة ذرة ولا ما دونها استقلالًا، ولا على سبيل الشراكة.

﴿وَمَا لَهُۥ﴾ عز وجل ﴿مِنْهُم﴾، أي: من هؤلاء الآلهة ﴿مِّن ظَهِيرٍ﴾، أي: من معين، بل هو سبحانه المتفرد وحده بالخلق دون أيِّ شريك، وأيِّ معين، والخلق كلهم فقراء إليه، عبيد له.

﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ﴾، أي: ولا تنفع الشفاعة عند الله عز وجل.

وفي هذا نفي الشفاعة من الشافع، ونفي نفعها للمشفوع له؛ أي: فلا أحد يشفع عنده، ولا أحد يُشفع له عنده.

والشفاعة: التوسط للغير لجلب منفعة، أو دفع مضرة.

﴿إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ قرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي وخلف بضم الهمزة: «أُذِنَ لَهُ»، وقرأ الباقون بفتحها: ﴿أَذِنَ لَهُۥ﴾.

أي: إلا لمن أذن الله له بالشفاعة كونًا وشرعًا، مع رضاه عن المشفوع له؛ لعظمته عز وجل وكبريائه، وتفرده بالخلق والملك والتدبير؛ كما قال تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وقال تعالى: ﴿۞ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴿٢٦﴾﴾ [النجم: ٢٦].

ولهذا فإن سيد الخلق وهو أكبر شفيع عند الله عز وجل حين يقوم المقام المحمود؛ ليشفع في الخلق كلهم؛ لفصل القضاء بينهم، ويسجد تحت العرش ويدعو، لا يشفع

حتى يقال له: «**يا محمد، ارفع رأسك، وقل يسمع، واشفع تشفع**»[١].

قال ابن القيم[٢]: «فالمشرك إنما يتخذ معبوده لما يعتقد أنه يحصل له به من النفع، والنفع لا يكون إلا ممن فيه خصلة من هذه الأربع: إما مالك لما يريده عابده منه، فإن لم يكن مالكًا كان شريكًا للمالك، فإن لم يكن شريكًا له كان معينًا له ظهيرًا، فإن لم يكن معينًا ولا ظهيرًا كان شفيعًا عنده.

فنفى سبحانه المراتب الأربع نفيًا مترتبًا متنقلًا من الأعلى إلى ما دونه، فنفى الملك والشراكة والمظاهرة والشفاعة، التي يظنها المشرك، وأثبت شفاعة، لا نصيب فيها لمشرك، وهي الشفاعة بإذنه».

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمۡ﴾ قرأ ابن عامر ويعقوب: «فَزَّع» بفتح الفاء والزاي بالبناء للفاعل، وقرأ الباقون بضم الفاء وكسر الزاي: ﴿فُزِّعَ﴾ بالبناء للمفعول.

أي: حتى إذا أزال الله الخوف ﴿عَن قُلُوبِهِمۡ﴾، أي: عن قلوب الملائكة؛ كما دلت على ذلك السنة، وذلك أنه إذا تكلم الله بالوحي أخذت السموات منه رجفة من خوف الله، فإذا سمع ذلك أهل السموات صعقوا وخروا لله سجدًا، فإذا زال الفزع عن قلوبهم ﴿قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمۡۖ﴾، أي: قال بعضهم لبعض: ما الذي قاله ربكم؟ ﴿قَالُواْ ٱلۡحَقَّۖ﴾، أي: قال القول الحق؛ أي: القول الثابت والصدق؛ كما قال تعالى: ﴿وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدۡقٗا وَعَدۡلٗاۚ﴾ [الأنعام: ١١٥]؛ أي: صدقًا في الأخبار، وعدلًا في الأحكام.

﴿وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ﴾، أي: العلي فوق خلقه بذاته وصفاته، ذو العلو المطلق: علو الذات، وعلو الصفات، وعلو القدر، وعلو القهر؛ كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

﴿ٱلۡكَبِيرُ﴾ في ذاته وصفاته، ذو الكبرياء الذي هو أكبر من كل شيء، وكل المخلوقات بالنسبة له ليست بشيء.

---

(١) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء ٣٣٤٠، ومسلم في الإيمان ١٩٤، والترمذي في صفة القيامة ٢٤٣٤؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) انظر: «بدائع التفسير» ٣/ ٤٣٥.

عن النواس بن سمعان رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا أراد الله أن يوحي بأمره تكلم بالوحي، فإذا تكلم أخذت السموات منه رجفة- أو قال: رعدة شديدة- من خوف الله، فإذا سمع بذلك أهل السموات صعقوا وخروا لله سجدًا، فيكون أول من يرفع رأسه جبريل، فيكلمه الله من وحيه بما أراد، فيمضي به جبريل على الملائكة، كلما مر بسماء سماء سأله ملائكتها: ماذا قال ربنا يا جبريل؟ فيقول: قال الحق ﴿وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ﴾، فيقولون كلهم مثل ما قاله جبريل، فينتهي جبريل بالوحي حيث أمر الله من السماء والأرض**»[1].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه؛ أن النبي ﷺ قال: «**إذا قضى الله الأمر من السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعانًا لقوله؛ كأنه سلسلة على صفوان، فإذا ﴿فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمۡ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمۡ﴾؟ قالوا للذي قال: ﴿ٱلۡحَقَّۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ﴾ فيستمع مسترق السمع، ومسترق السمع هكذا بعضه فوق بعض- ووصف سفيان بيده فحرّفها وبدد بين أصابعه- فيسمع الكلمة، فيلقي إلى من تحته، ثم يلقي الآخر إلى من تحته، حتى يلقيها على لسان الساحر والكاهن، فربما أدركه الشهاب قبل أن يلقيها، وربما ألقاها قبل أن يدركه، فيكذب معها مئة كذبة، فيقال: أليس قد قال لنا يوم كذا وكذا: كذا وكذا؟ فيصدق بتلك الكلمة، التي سمعت من السماء**»[2].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: «**فإنها لا يرمى بها لموت أحد ولا لحياته، ولكن ربنا تبارك وتعالى إذا قضى أمرًا سبح حملة العرش، ثم سبح أهل السماء الذين يلونهم، حتى يبلغ هذه الدنيا، ثم يستخبر أهل السماء الذين يلون حملة العرش، فيقول الذين يلون حملة العرش لحملة العرش: ماذا قال ربكم: فيخبرونهم، ويخبر أهل كل سماء سماء حتى ينتهي الخبر إلى هذه السماء، وتخطف الجن، فيرمون، فما**

---

(١) أخرجه ابن خزيمة في التوحيد ص٩٥، والطبري في «جامع البيان» ١٩/ ٢٧٨، وذكره ابن كثير في «تفسيره» ٦/ ٥٠٤.

(٢) أخرجه البخاري في تفسير سورة سبأ ٤٧٠١، وأبو داود في الحروف ٣٩٨٩، والترمذي في تفسير سورة سبأ ٣٢٢٣، وابن ماجه في المقدمة ١٩٤.

جاؤوا به على وجهه، فهو حق، ولكنهم يفرقون فيه ويزيدون»(١).

وعن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا تكلم الله بالوحي سمع أهل السماء للسماء صلصلة كجر السلسلة على الصفا فيصعقون، فلا يزالون كذلك حتى يأتيهم جبريل، حتى إذا جاءهم جبريل فزع عن قلوبهم، قال: فيقولون: يا جبريل، ماذا قال ربك؟ فيقول: الحق، فيقولون: الحق الحق**»(٢).

وقيل: الضمير في قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾ يعود إلى المشفوع لهم؛ أي: حتى إذا زال الفزع والخوف من العذاب من قلوب المشفوع لهم بعد الإذن بالشفاعة لهم، ﴿قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ﴾، أي: قال بعضهم لبعض: ما الذي قال ربكم؟ ﴿قَالُواْ ٱلْحَقَّ﴾، أي: قال القول الحق؛ أي: أذن بالشفاعة.

وقيل: معنى قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ﴾، أي: حتى إذا كشف الغطاء عن قلوب الكفار والمشركين يوم القيامة، وتجلى لهم الأمر وزال ما كان على قلوبهم من الرين والغفلة ﴿قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ﴾، فقيل لهم: ﴿ٱلْحَقَّ﴾ كما قال تعالى: ﴿بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ﴾ [الأنعام: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿فَعَلِمُوٓاْ أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾ [القصص: ٧٥].

قوله تعالى: ﴿۞ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾ قُلْ أَرُونِيَ ٱلَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِۦ شُرَكَآءَ كَلَّا بَلْ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾﴾.

قوله: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ الخطاب للنبي ﷺ ولكل من يصلح له؛ أي: قل لهؤلاء المشركين وغيرهم ممن يعبدون غير الله: ﴿مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، الاستفهام: للتقرير المشرب بالتحدي؛ أي: من الذي ﴿يَرْزُقُكُم﴾، أي: يعطيكم ويمنحكم الرزق ﴿مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ بإنزال المطر وغير ذلك، وتقدير الرزق؛

(١) أخرجه مسلم في السلام، تحريم الكهانة وإتيان الكهان ٢٢٢٩، والترمذي في التفسير ٣٢٢٤، وأحمد ١/ ٢١٨.
(٢) أخرجه أبو داود في السنة ٤٧٣٨.

كما قال تعالى: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ وَمَا تُوعَدُونَ ٢٢﴾ [الذاريات: ٢٢].

﴿وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾ بإخراج الزرع منها والنبات والمعادن، وكثير من الخيرات.

﴿قُلِ ٱللَّهُۖ﴾، أي: قل الله الذي يرزقكم من السموات والأرض، وبادر بإجابتهم بنفسه؛ لأنهم يقرون ويعترفون بأن الله هو الرزاق لهم وحده، ولا ينكرون ذلك؛ كما قال تعالى في سورة يونس: ﴿قُلۡ مَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أَمَّن يَمۡلِكُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَمَن يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَيُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُۚ فَقُلۡ أَفَلَا تَتَّقُونَ ٣١﴾ [يونس: ٣١].

أي: قل الله يرزقكم من السموات والأرض، فلم تعبدون من دونه من لا يملك لكم رزقًا؟ كما قال تعالى: ﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمۡلِكُ لَهُمۡ رِزۡقٗا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ شَيۡـٔٗا وَلَا يَسۡتَطِيعُونَ ٧٣﴾ [النحل: ٧٣].

﴿وَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ لَعَلَىٰ هُدًى أَوۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ هذا من باب التنزل والتلطف معهم في الخطاب؛ ليقروا، ولثقته أنه ومن معه على الحق والصواب، وأن المشركين على الباطل؛ ولهذا قال: ﴿قُلۡ يَجۡمَعُ بَيۡنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفۡتَحُ بَيۡنَنَا بِٱلۡحَقِّ وَهُوَ ٱلۡفَتَّاحُ ٱلۡعَلِيمُ﴾.

وقال: ﴿لَعَلَىٰ هُدًى﴾ لأن المهتدي مستعلٍ بهداه، بينما قال: ﴿أَوۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ لأن صاحب الضلال منغمر في ضلاله، تائه حائر.

والكلام من باب اللف والنشر؛ أي: لا نخرج عن إحدى هاتين الحالتين: إما الهدى، وإما الضلال، ولا يمكن أن نكون كلنا على الهدى، ولا كلنا على الضلال؛ لتناقض ما بيننا، فلم يبق إلا أن نكون نحن على هدى، وأنتم في ضلال مبين، أو أنتم على هدى، ونحن في ضلال مبين، وليس هناك سبيل ثالث.

ونحن قد أقمنا البرهان على التوحيد، فدل على بطلان ما أنتم عليه من الشرك، وظهر أننا نحن الذين على الهدى والحق، وأنتم الذين في ضلال مبين، ﴿فَمَاذَا بَعۡدَ ٱلۡحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُۖ﴾ [يونس: ٣٢].

﴿قُل لَّا تُسۡـَٔلُونَ عَمَّآ أَجۡرَمۡنَا وَلَا نُسۡـَٔلُ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ «ما» في الموضعين موصولة.

والجرم والإجرام بمعنى: الذنب؛ أي: لا تسألون عن الذي وقعنا فيه من الإجرام والذنوب، بل نسأل عنها وحدنا.

﴿وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾، أي: ولا نسأل عن الذي تعملونه من إجرام أو غيره، بل تسألون عن ذلك وحدكم، فكل يُسأل عما اكتسب من جرم أو غيره؛ كما قال تعالى: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ١٣٤، ١٤١] وقال تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة: ٢٨٦]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ [الأنعام: ١٦٤].

لكن من دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئًا؛ كما أن من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئًا؛ كما قال ﷺ(١).

وفي التعبير بقوله: ﴿لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ من الغضاضة على النفس والتنزل مع الخصم أشد مما في قوله: ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾، وذلك أولًا: من حيث اللفظ؛ ففي قوله: ﴿لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا﴾ جاء التعبير بفعل الماضي «أجرمنا»، الدال على الوقوع، بينما جاء التعبير في قوله: ﴿وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ بالمضارع «تعملون»، والمضارع قد يقع وقد لا يقع.

وثانيًا من حيث المعنى: فإن قوله: ﴿أَجْرَمْنَا﴾ وصف لعملهم بأنه إجرام، بينما قال بالنسبة للخصم ﴿وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ ولم يقل: عما تجرمون. والعمل قد يكون إجرامًا، وقد يكون غير إجرام.

والمراد: أننا ندعوكم إلى عبادة الله تعالى وحده لا شريك له، فإن أجبتم فأنتم منا ونحن منكم، وإن كذبتم فنحن براء منكم وأنتم براء منا؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ۝٤١﴾ [يونس: ٤١]، وقال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ۝١ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ۝٣ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ۝٦﴾ [الكافرون: ١-٦].

---

(١) أخرجه مسلم في العلم ٢٦٧٤، وأبو داود في السنة ٤٦٠٩، والترمذي في العلم ٢٦٧٤؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا﴾، أي: يوم القيامة، يوم يجمع الله الخلائق كلهم في صعيد واحد.

﴿ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ﴾ الباء: للملابسة والمصاحبة؛ أي: ثم يقضي ويفصل ويحكم بيننا بالعدل، فيجزي كلًّا منا بعمله، خيرًا كان أو شرًّا؛ كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿١٦﴾﴾ [الروم: ١٤- ١٦]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ ﴿٦﴾ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿٨﴾﴾ [الزلزلة: ٦- ٨].

ويحتمل أن يكون الجمع في قوله: ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ﴾ في الدنيا أيضًا، في القتال، والفتح بينهم بالحق بنصر أوليائه وهزيمة أعدائهم؛ كما حصل في بدر وغيرها، قال تعالى: ﴿يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ﴾[الأنفال: ٤١]، ولا تنافي بين المعنيين.

﴿وَهُوَ الْفَتَّاحُ﴾ الذي يفتح بين عباده بالحق، ويفصل بينهم بالعدل، ويفتح لهم أبواب الرحمة والتوفيق والبركات والخيرات والنصر والعلم والفهم وغير ذلك، قال الله تعالى: ﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا﴾[فاطر: ٢]، وقال تعالى: ﴿وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾﴾ [الصف: ١٣]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾[الأعراف: ٩٦].

وقال ﷺ في حديث الشفاعة: «**ثم يفتح الله علي من محامده وحسن الثناء عليه شيئًا لم يفتحه على أحد قبلي**»[(١)].

﴿الْعَلِيمُ﴾، أي: ذو العلم الواسع بخلقه وبأعمالهم وأحوالهم، وبكل شيء؛ كما قال تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾ [الملك: ١٤]، وقال تعالى: ﴿وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾[طه: ٩٨].

﴿قُلْ أَرُونِيَ﴾ الأمر للتعجيز والتحدي، ﴿الَّذِينَ أَلْحَقْتُمْ بِهِ شُرَكَاءَ﴾، أي: الآلهة الذين ألحقتموهم بالله، وجعلتموهم شركاء معه في العبادة؛ أي: هاتوهم وأحضروهم،

(١) أخرجه البخاري في التفسير ٤٧١٢، ومسلم في الإيمان ١٩٤، والترمذي في صفة القيامة ٢٤٣٤؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وأروني وأعلموني: ماذا خلقوا؟ وماذا قدموا لكم من نفع؟ وماذا دفعوا عنكم من ضر؟

﴿كَلَّاۚ﴾: كلمة ردع وزجر؛ أي: ليس له شريك ولا نظير، ولا يملك الشركاء من دونه لا نفعًا ولا ضرًّا، ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ﴾ [يونس: ٦٦]، وقال تعالى: ﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡ﴾ [يونس: ١٨]، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ ٢٠ أَمۡوَٰتٌ غَيۡرُ أَحۡيَآءٖۖ وَمَا يَشۡعُرُونَ أَيَّانَ يُبۡعَثُونَ ٢١﴾ [النحل: ٢٠- ٢١]، وقال إبراهيم عليه السلام: ﴿يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعۡبُدُ مَا لَا يَسۡمَعُ وَلَا يُبۡصِرُ وَلَا يُغۡنِي عَنكَ شَيۡـٔٗا﴾ [مريم: ٤٢].

﴿بَلۡ هُوَ ٱللَّهُ﴾ «بل»: للإضراب الانتقالي؛ أي: بل هو الله وحده المعبود، لا شريك له.

﴿ٱلۡعَزِيزُ﴾ ذو العزة والقوة، والقهر والغلبة والامتناع.

﴿ٱلۡحَكِيمُ﴾ ذو الحكم التام، والحكمة البالغة في أفعاله وأقواله وشرعه وقدره.

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٢٨ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٢٩ قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوۡمٖ لَّا تَسۡتَـٔۡخِرُونَ عَنۡهُ سَاعَةٗ وَلَا تَسۡتَقۡدِمُونَ ٣٠﴾.

لما أبطل ما هم عليه من الشرك وعبادة غير الله، وأثبت الألوهية لله وحده، أتبع ذلك بإثبات صدق الرسول ﷺ، وإبطال طعنهم في رسالته.

قوله: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ﴾، «إلا»: أداة حصر؛ أي: وما أرسلناك إلا للناس كافة؛ أي: إلا للناس جميعًا؛ كما قال تعالى: ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨]، وقال تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡفُرۡقَانَ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦ لِيَكُونَ لِلۡعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ١﴾ [الفرقان: ١].

وقال ﷺ: «**وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة، وبعثت إلى الناس عامة**»[١].

وقال ﷺ: «**بعثت إلى كل أَحْمَرَ وَأَسْوَدَ**»[٢].

---

(١) سبق تخريجه.

﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾، أي: بشيرًا للمؤمنين بالجنة، ونذيرًا للكافرين والعصاة من النار.

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾، أي: لا يعلمون العلم الذي ينفعهم عند الله، وما في رسالتك من البشارة والإنذار؛ ولهذا ضل أكثرهم، ولم يؤمنوا.

ولهذا ينبغي عدم الاغترار بما عليه أكثر الخلق، فأكثرهم على جهل وضلال؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾﴾ [الأنعام: ١١٦]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾ [يوسف: ١٠٣].

﴿وَيَقُولُونَ﴾، أي: ويقول المشركون المكذبون للرسول ﷺ، ولما جاءهم به من الحق من إثبات البعث، والتبشير للمؤمنين، والإنذار للمكذبين، وغير ذلك؛ استبعادًا لذلك، وإنكارًا له، وتكذيبًا به.

﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ الاستفهام للإنكار والتحدي؛ أي: متى يأتي هذا الوعد بالعذاب الذي تتوعدوننا به؟

﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ بأن العذاب سيحل بنا، وأن هناك بعثًا وحسابًا وجزاء؛ كما قال تعالى: ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٧٦﴾ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٧﴾﴾ [الصافات: ١٧٦- ١٧٧]، وقال تعالى: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾ يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِي ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿١٨﴾﴾ [الشورى: ١٧- ١٨]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾ إِنْ هِىَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴿٣٥﴾ فَأْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٦﴾﴾ [الدخان: ٣٤- ٣٦].

﴿قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ﴾، أي: لكم وعد يوم مؤجل محدد معين، لعذابكم في الدنيا، أو عند الموت، أو يوم القيامة، قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأنعام: ٩٣]، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ

=

وأخرجه أحمد ٤/ ٤١٦؛ من حديث أبي ذر رضي الله عنه، و٥/ ١٤٥، ١٤٨؛ من حديث أبي موسى رضي الله عنه.

وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [الزمر: ٦٠].

﴿لَّا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ﴾، السين والتاء في الفعلين للمبالغة؛ أي: لا تستطيعون التأخر عنه ساعة، ولا التقدم عليه؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [نوح: ٤]، وقال تعالى: ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾﴾ [هود: ١٠٤].

وفي الآية تهديد لهم ووعيد ظاهر؛ كما قال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ إِن مَّتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَاءَهُم مَّا كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾﴾[الشعراء:٢٠٥- ٢٠٧].

ولهذا قدَّم قوله: ﴿لَّا تَسْتَأْخِرُونَ﴾ إيماء إلى أنه ميعاد بأس وعذاب؛ من شأنه أن يتمنوا تأخيره.

الفوائد والأحكام:

١- إبطال ما عليه المشركون من عبادة غير الله، وتحديهم أن تستجيب هذه الآلهة لدعائهم؛ لقوله تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ الآية.

٢- أن هذه الآلهة المدعوة من دون الله لا تستحق شيئًا من العبادة بوجه من الوجوه، فهم لا يملكون شيئًا لأنفسهم ولا لغيرهم، وما لهم أيّ شرك في الملك مع الله، وما له منهم أيّ معين، ولا يشفعون عنده؛ لقوله تعالى: ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾.

٣- إثبات تفرده عز وجل وحده بالملك، بلا شريك، ولا معين، ولا شفيع إلا بإذنه، وقطع كل سبب يتعلق به المشركون، حتى دعوى شفاعة هذه الآلهة لهم.

٤- إثبات الشفاعة بإذن الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾.

٥- إثبات عظمة الله تعالى وقوة سلطانه، فلا أحد يشفع، بل ولا يتقدم للشفاعة إلا بإذنه ورضاه؛ كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾﴾ [النبأ: ٣٨]، وقال تعالى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨].

٦- إثبات الكلام لله تعالى، وأنه يتكلم بكلام مسموع تسمعه الملائكة، ومن شاء

من خلقه؛ لقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمۡ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمۡۖ﴾.

وفي الحديث: «**إذا أراد الله أن يوحي بأمره تكلم بالوحي، فإذا تكلم أخذت السموات منه رجفة**- أو قال: **رعدة شديدة- فإذا سمع بذلك أهل السموات صعقوا وخروا لله سجدًا**»(١).

٧- عظمة كلامه عز وجل؛ حيث ترجف له السموات، ويصعق أهلها.

٨- أن قوله عز وجل كله حق، وعدل وصدق؛ لقوله تعالى: ﴿قَالُواْ ٱلۡحَقَّۖ﴾.

٩- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة لأوليائه، والعامة لجميع الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿مَاذَا قَالَ رَبُّكُمۡۖ﴾، وقوله: ﴿قُلۡ يَجۡمَعُ بَيۡنَنَا رَبُّنَا﴾.

١٠- إثبات وجود الملائكة، وشدة خوفهم من الله، وسماعهم لكلام الله، وفهمهم وعقلهم له، وأنهم يتكلمون؛ لقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمۡ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمۡۖ قَالُواْ ٱلۡحَقَّۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ﴾.

١١- إثبات اسم الله تعالى: «العلي»، وأنه عز وجل عالٍ فوق خلقه بذاته وصفاته؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ﴾، فله عز وجل علو الذات، وعلو الصفات، وعلو القدر، وعلو القهر.

١٢- إثبات اسم الله: «الكبير»، وأنه الكبير بذاته وصفاته، له الكبرياء وحده؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلۡكَبِيرُ﴾.

١٣- تقرير المشركين بتوحيد الربوبية الذي يعترفون به؛ لإلزامهم بتوحيد الألوهية؛ لقوله تعالى: ﴿۞قُلۡ مَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ قُلِ ٱللَّهُۖ﴾.

١٤- أن مِن لازم الإقرار لله بالربوبية: الإقرار له بالألوهية، والانقياد له.

١٥- أن الرزق من أبين مظاهر ربوبية الله تعالى للناس بعد خلقهم؛ ولهذا استدل به في الآية، ومثل به، وجاء هذا كثيرًا في القرآن.

١٦- أن المشركين يعترفون بأن الرازق هو الله وحده، وهم مع ذلك يعبدون من دونه من لا يملك لهم رزقًا؛ ولهذا أجاب عنهم في الآية بقوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُۖ﴾، أي: فلم

---

(١) سبق تخريجه.

تعبدون غير الله، وأنتم تقرون بأنه وحده الرازق لكم؟!

١٧- التنزل مع الخصم والتلطف معه؛ ليقر بالحق ويعترف به؛ لقوله: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ وإلا فالحقيقة أنه ﷺ يعلم أنه هو وأصحابه هم الذين على الحق، وأن الكافرين في ضلال مبين.

١٨- أنه لا يسأل أحد عن عمل غيره، ولا تزر وازرة وزر أخرى؛ لقوله تعالى: ﴿قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾﴾.

١٩- إثبات السؤال عن العمل، وأن كل إنسان مسؤول عن عمله، ومحاسب عليه، خيرًا كان أو شرًّا؛ لمفهوم قوله: ﴿قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾﴾، قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾﴾ [القصص: ٦٥]، وقال تعالى: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦﴾﴾ [الأعراف: ٦].

٢٠- تحمل الغضاضة والتنزل مع الخصم من المكذبين وغيرهم؛ للوصول إلى المقصود؛ لقوله تعالى: ﴿قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾﴾.

٢١- إثبات البعث، والجمع بين الخلائق بالحق يوم القيامة، والفصل بينهم بالعدل؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا﴾، وفي هذا تهديد ووعيد لكل من يخاصم ويناظر بالباطل، من المشركين وغيرهم، وبشارة ووعد لمن هم على الهدى والحق.

٢٢- أن حكم الله تعالى كله حق، وقضاءه كله عدل؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ﴾.

٢٣- إثبات اسم الله تعالى: «الفتاح»، وصفة الفتح، وأنه سبحانه يفتح على من يشاء من عباده ما يشاء من أسباب التوفيق، وأبواب الرحمة والخيرات، من النصر والعلم والفهم والبر والبركات وغير ذلك؛ كما يفتح بين العباد بالفصل بينهم يوم القيامة؛ لقوله: ﴿وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ﴾.

٢٤- في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ﴾ دلالة على أن أسماء الله تعالى إذا ذكرت وكانت متعدية؛ كالفتاح، والغفور، والرحيم، وغير ذلك يؤخذ منها إثبات الاسم وما تضمنه من الصفة والحكم والأثر؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣١]، وقوله تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ

رَّحِيمٌ﴾[البقرة: ٢١٨]، وغير ذلك.

٢٥- إثبات اسم الله تعالى: «العليم»، وأنه عز وجل ذو العلم الواسع الذي وسع كل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾.

٢٦- تحدي المشركين أن يحضروا آلهتهم الذين جعلوهم شركاء مع الله، وعبدوهم من دون الله، وماذا خلقوا؟ وماذا قدموا لهم من نفع، أو دفعوا عنهم من ضر؟ لقوله تعالى: ﴿قُلْ أَرُونِيَ ٱلَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِۦ شُرَكَآءَ﴾.

٢٧- ردع المشركين وزجرهم في إلحاقهم شركاء مع الله، ونفي أن يكون له شريك أو نظير؛ لقوله تعالى: ﴿كَلَّاۚ﴾.

٢٨- إثبات اسم الله: «العزيز»، وصفة العزة له عز وجل بأقسامها الثلاثة: عزة القوة، وعزة الغلبة والقهر، وعزة الامتناع؛ لقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ﴾.

٢٩- إثبات اسم الله: «الحكيم»، وأنه سبحانه ذو الحكم التام بأقسامه الثلاثة: الحكم الكوني، والشرعي، والجزائي، وذو الحكمة البالغة: الحكمة الغائية، والحكمة الصورية؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾.

٣٠- إثبات رسالة النبي ﷺ، وعمومها لجميع الناس، وتشريفه بخطاب الله تعالى له، وتفضيله على الأنبياء بعموم رسالته، والرد على منكري رسالته من العرب وغيرهم، وعلى منكري عمومها من أهل الكتاب؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ﴾.

٣١- أن الحكمة من إرساله ﷺ- كغيره من الرسل- البشارة للمؤمنين بالجنة، والإنذار للكافرين والعصاة من النار، وإقامة الحجة على الناس؛ لقوله تعالى: ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ كما قال تعالى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِۚ﴾[النساء: ١٦٥].

وليس إليه أمر إنزال الآيات، ولا هداية القلوب، فذلك إلى الله عز وجل.

٣٢- أن أكثر الناس لا يعلمون الحكمة من إرسال الرسول ﷺ، بل لا يعلمون حقيقة العلم الذي ينفعهم عند الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ولهذا ينبغي عدم الاغترار بما عليه أكثر الخلق، فأكثرهم على جهل وضلال.

٣٣- استعجال المشركين لِما توُعِّدوا به من العذاب في الدنيا والآخرة؛ استبعادًا

لذلك، وإنكارًا له؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾.

٣٤- تكذيبهم للرسل عليهم السلام؛ لقولهم: ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾.

٣٥- تهديدهم بالعذاب، وأن له ميعاد يوم مؤقت، لا يتأخر ولا يتقدم، سواء كان عذاب الدنيا، أو عذاب يوم القيامة؛ لقوله تعالى: ﴿قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ۝٣٠﴾.

٣٦- إثبات المعاد والحساب والجزاء على الأعمال.

٣٧- أن كل شيء عند الله عز وجل بميعاد، وبمقدار، وأجل مسمى.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُم ۖ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَن نَّكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا ۚ وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ ۚ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُم بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ ﴿٣٧﴾ وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ ۚ وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ ۖ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿٣٩﴾ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَٰؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿٤٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُم ۖ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَن نَّكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا ۚ وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ ۚ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾﴾:

قوله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ متمادين في كفرهم وطغيانهم وعنادهم وتكذيبهم: ﴿لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا الْقُرْآنِ﴾، أي: لن نصدق بهذا القرآن، وبما جاء به من أمر المعاد وغير ذلك، وعبروا بـ«لن» الدالة على تأكيد النفي، ولم يقولوا: «لا نؤمن بهذا القرآن»؛ تأكيدًا على انتفاء حصول الإيمان منهم به في المستقبل، وأشاروا إليه بقولهم: ﴿بِهَٰذَا الْقُرْآنِ﴾ تحقيرًا له، ﴿وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ «لا»: زائدة؛ لتأكيد النفي؛ أي: ولا نؤمن؛ أي: ولا

نصدق بالذي تقدمه من الكتب السابقة، كالتوراة والإنجيل والزبور.

ويحتمل أن يكون المراد بالذي بين يديه: ما يأتي بعده مما أخبر به، ومما ينزل منه بعد مقالتهم هذه.

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ «لو»: شرطية غير جازمة؛ أي: ولو ترى يا محمد ويا أيها الرائي والمشاهد ﴿إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾، أي: الكافرون المشركون، و«إذ»: ظرف بمعنى «حين».

وأظهر في مقام الإضمار؛ للتسجيل عليهم بوصف الظلم، وليشملهم هذا الوعيد هم وغيرهم من الظالمين.

﴿مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾، أي: محبوسون في موقف الحساب عند ربهم، وجواب الشرط محذوف؛ أي: لرأيت أمرًا عظيمًا فظيعًا.

﴿يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ﴾، أي: يرد بعضهم إلى بعض القول، يلقي كل منهم التبعة على الآخر، وقد فصله بقوله:

﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟﴾ منهم، وهم الأتباع، ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟﴾ وهم قادتهم وسادتهم وكبراؤهم.

﴿لَوْلَآ أَنتُمْ﴾ «لولا»: شرطية، وهي حرف امتناع لامتناع؛ أي: لولا أنتم صددتمونا عن الإيمان، وأضللتمونا، وزينتم لنا الكفر.

﴿لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾ اللام: رابطة لجواب الشرط؛ أي: لكنا مؤمنين مصدقين بما جاءت به الرسل من الحق، منقادين له. ومقصودهم بذلك: أن يكون العذاب على الرؤساء دونهم.

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟﴾ ردوا عليهم القول منكرين قولهم: ﴿أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم﴾ الاستفهام للإنكار والنفي؛ أي: لسنا الذين صددناكم عن الهدى حين جاءكم بقوتنا وقهرنا إياكم، وما فعلنا بكم أكثر من أنا دعوناكم فاخترتم الكفر واتبعتمونا، بلا برهان ولا دليل.

﴿بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ﴾ «بل»: للإضراب الانتقالي؛ أي: بل كنتم بأنفسكم قومًا مجرمين، مختارين الإجرام، متعمدين له بالشرك والكفر، واتباع شهواتكم. والإجرام: ارتكاب الجرائم؛ أي: الذنوب.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ بَلۡ مَكۡرُ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ «بل»: للإضراب؛ أي: بل صدنا عن الهدى مكركم بنا الليل والنهار؛ أي: احتيالكم علينا، وكيدكم وتدبيركم الشر لنا بالليل والنهار، وخديعتكم لنا.

﴿إِذۡ تَأۡمُرُونَنَآ أَن نَّكۡفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجۡعَلَ لَهُۥٓ أَندَادٗاۚ﴾ تفسير وبيان للمكر، و«إذ»: ظرف بمعنى «حين»؛ أي: حين تأمروننا ﴿أَن نَّكۡفُرَ بِٱللَّهِ﴾ «أن» والفعل «نكفر» في تأويل مصدر في محل جر بحرف جر محذوف؛ أي: إذ تأمروننا بالكفر بالله.

والكفر بالله يكون بإنكار وجوده وربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته وشرعه، أو التكذيب بشيء من ذلك.

﴿وَنَجۡعَلَ لَهُۥٓ أَندَادٗاۚ﴾، أي: ونصير له أشباهًا ونظراء بشبه توردونها علينا تضلوننا بها. وفي هذا دلالة على أنهم يؤمنون بوجود الله وربوبيته، لكنهم يشركون به.

﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ﴾، أي: وأسر الفريقان السادة المستكبرون، والأتباع المستضعفون؛ أي: أخفوا في أنفسهم الندامة والحسرة على كفرهم؛ لئلا يظهر للناس أنهم نادمون على ما صنعوا، فيعيبوهم ويعيروهم بذلك، على حد قول أبي ذؤيب الهذلي[1]:

وتجلدي للشامتين أريهم أني لريب الدهر لا أتضعضع

وقول الآخر:

كل المصائب قد تمر على الفتى وتهون غير شماتة الأعداء[2]

﴿لَمَّا رَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَۚ﴾، أي: حين أبصروا العذاب وشاهدوه، وأيقنوا أن لا خلاص لهم منه ولا مناص.

وقد يظهر منهم التحسر في بعض مواقف القيامة؛ كما قال تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوۡ كُنَّا نَسۡمَعُ أَوۡ نَعۡقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ۝١٠ فَٱعۡتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمۡ فَسُحۡقٗا لِّأَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ۝١١﴾ [الملك: ١٠- ١١]؛ ولهذا فسر بعضهم: ﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ﴾ بمعنى: أظهروا، واعتبروا الفعل «أسرَّ» من

---

(١) انظر: «ديوان الهذليين» ١/ ٣، «نهاية الأرب» ٣/ ٧٢.

(٢) البيت أنشده ابن الأعرابي؛ كما في «الكشف والبيان» ٢/ ٣٠٩، ونسب في «محاضرات الأدباء» ١/ ٣١٤ لابن أبي عيينة.

الأضداد يأتي بمعنى «أخفى»، وبمعنى «أظهر».

﴿وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ «الأغلال»: جمع «غُلّ» وهي السلاسل، ﴿فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ وهم الفريقان: المستكبرون المتبوعون، والضعفاء التابعون، ولم يقل: وجعلنا الأغلال في أعناقهم، للتسجيل عليهم بالكفر؛ أي: وصيرنا الأغلال في أعناق الذين كفروا إهانة وتعذيبًا لهم، حيث تربط أيديهم إحداهما بالأخرى وتعلق في رقابهم؛ كما قال تعالى: ﴿إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ ۝٧١﴾ [غافر: ٧١].

﴿هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ الاستفهام: للنفي؛ أي: لا ﴿يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ «إلا»: أداة حصر، و«ما»: موصولة؛ أي: إلا الذي كانوا يعملونه، أو مصدرية؛ أي: إلا عملهم؛ أي: جزاء عملهم، ولا يُظلم أحد منهم، فللقادة عذاب بحسبهم، وللأتباع عذاب بحسبهم؛ كما قال تعالى: ﴿لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٨].

ولم يقل: إلا جزاء ما كانوا يعملون، بل قال: ﴿إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ للدلالة على أن الجزاء من جنس العمل.

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ۝٣٤ وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ۝٣٥ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝٣٦ وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا۟ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ۝٣٧ وَٱلَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ۝٣٨ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ۝٣٩﴾.

قوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾:

لما ذكر تكذيب المشركين له ﷺ بما جاء به من الوعيد، وتكذيبهم بالقرآن، وتوعدهم، أتبع ذلك بتسليته ﷺ ببيان أنه ما أرسل في قرية من نذير إلا كذبه مترفوها، وكفروا بما جاءهم به.

قوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ﴾ «قرية»: نكرة في سياق النفي، فتعم؛ أي: وما أرسلنا في أيِّ قرية من القرى السابقة، والقرية: البلد، صغيرًا كان أو كبيرًا، قال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِىَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ﴾ [محمد: ١٣] فسمى مكة، وهي أم القرى وأكبرها آنذاك.

﴿مِّن نَّذِيرٍ﴾ «من»: زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة من حيث المعنى لعموم النفي؛ أي: أيِّ نذير؛ أي: رسول ينذرهم ويحذرهم عذاب الله في الدنيا والآخرة.

﴿إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ﴾ «إلا»: أداة حصر؛ أي: إلا قال أهل الترف والمنعمون فيها لرسلهم: ﴿إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ الجملة في محل نصب مقول القول، و«بما»: متعلق بالخبر: «كافرون»، وقدم عليه؛ لإفادة الحصر- كأنهم يقولون: لا نكفر إلا بالذي أرسلتم به- مع مراعاة الفواصل.

ومعنى ﴿كَٰفِرُونَ﴾، أي: جاحدون منكرون له، لا نؤمن به ولا نتبعه.

وإنما يتفوَّه بهذا المترفون والكبراء وأولو النعمة؛ أشرًا وبطرًا منهم؛ كما قال تعالى عن قوم نوح عليه السلام: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٣٤﴾ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ ۞ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [المؤمنون: ٣٣- ٣٦].

وقال تعالى: ﴿۞ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾﴾ [الشعراء: ١١١]، وقالوا: ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ﴾[هود: ٢٧].

وقال المستكبرون من قوم صالح عليه السلام، لمن آمن من المستضعفين منهم: ﴿أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾﴾ [الأعراف: ٧٥- ٧٦].

وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا۟ فِيهَا﴾ [الأنعام: ١٢٣].

ولهذا لما سأل هرقل أبا سفيان: «أأشراف الناس اتبعوه- يعني النبي ﷺ- أم ضعفاؤهم؟ فقال أبو سفيان: بل ضعفاؤهم. فقال هرقل: هم أتباع الرسل»[(١)].

﴿وَقَالُوا۟﴾، أي: وقال المترفون مفتخرين على من دونهم:

(١) أخرجه البخاري في بدء الوحي ٧؛ من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

﴿نَحۡنُ أَكۡثَرُ أَمۡوَٰلٗا وَأَوۡلَٰدٗا﴾، أي: أكثر أموالًا وأولادًا ممن آمن.

﴿وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ لأنه لا بعث ولا حساب ولا عذاب، وأيضًا فعلى سبيل الفرض لو كان هناك بعث فلن نعذب، بل سننعم كما نعمنا في الدنيا.

فاغتروا بكثرة أموالهم وأولادهم، واعتقدوا أن ذلك دليل على محبة الله لهم، ورضاه عنهم، وأنهم على حق، وأنه ما كان ليعطيهم هذا في الدنيا ثم يعذبهم في الآخرة، وهيهات لهم ذلك، قال تعالى: ﴿أَيَحۡسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٖ وَبَنِينَ ٥٥ نُسَارِعُ لَهُمۡ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ بَل لَّا يَشۡعُرُونَ ٥٦﴾ [المؤمنون: ٥٥ - ٥٦]، وقال تعالى: ﴿فَلَا تُعۡجِبۡكَ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُمۡۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَتَزۡهَقَ أَنفُسُهُمۡ وَهُمۡ كَٰفِرُونَ ٥٥﴾ [التوبة: ٥٥].

وقال تعالى: ﴿ذَرۡنِي وَمَنۡ خَلَقۡتُ وَحِيدٗا ١١ وَجَعَلۡتُ لَهُۥ مَالٗا مَّمۡدُودٗا ١٢ وَبَنِينَ شُهُودٗا ١٣ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمۡهِيدٗا ١٤ ثُمَّ يَطۡمَعُ أَنۡ أَزِيدَ ١٥ كَلَّآۖ إِنَّهُۥ كَانَ لِأٓيَٰتِنَا عَنِيدٗا ١٦ سَأُرۡهِقُهُۥ صَعُودًا ١٧﴾ [المدثر: ١١ - ١٧].

وقال تعالى عن صاحب الجنتين: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدٗا ٣٥ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةٗ وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهَا مُنقَلَبٗا ٣٦ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرۡتَ بِٱلَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلٗا ٣٧ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّي وَلَآ أُشۡرِكُ بِرَبِّيٓ أَحَدٗا ٣٨ وَلَوۡلَآ إِذۡ دَخَلۡتَ جَنَّتَكَ قُلۡتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالٗا وَوَلَدٗا ٣٩ فَعَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يُؤۡتِيَنِ خَيۡرٗا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرۡسِلَ عَلَيۡهَا حُسۡبَانٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصۡبِحَ صَعِيدٗا زَلَقًا ٤٠ أَوۡ يُصۡبِحَ مَآؤُهَا غَوۡرٗا فَلَن تَسۡتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبٗا ٤١ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصۡبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيۡهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُشۡرِكۡ بِرَبِّيٓ أَحَدٗا ٤٢﴾ [الكهف: ٣٥ - ٤٢].

﴿قُلۡ﴾، أي: قل يا محمد لهؤلاء المترفين الذين يفتخرون بأموالهم وأولادهم: ﴿إِنَّ رَبِّي يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ﴾، أي: يوسع الرزق، وهو العطاء؛ ابتلاء وامتحانًا للذي يشاء من عباده من مؤمن وكافر، ﴿وَيَقۡدِرُ﴾، أي: ويضيق الرزق والعطاء على من يشاء منهم، وله في ذلك الحكمة البالغة؛ كما قال تعالى: ﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ فَضَّلۡنَا بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ وَلَلۡأٓخِرَةُ أَكۡبَرُ دَرَجَٰتٖ وَأَكۡبَرُ تَفۡضِيلٗا ٢١﴾ [الإسراء: ٢١]، وقال تعالى: ﴿كُلّٗا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنۡ عَطَآءِ رَبِّكَۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحۡظُورًا ٢٠﴾ [الإسراء: ٢٠].

ومن أعظم الحكم في ذلك: الابتلاء والامتحان؛ كما قال سليمان عليه السلام: ﴿هَٰذَا مِن فَضۡلِ رَبِّي لِيَبۡلُوَنِيٓ ءَأَشۡكُرُ أَمۡ أَكۡفُرُۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشۡكُرُ لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيّٞ كَرِيمٞ﴾ [النمل: ٤٠].

ومن ذلك أن الله يختار للعبد ما هو أصلح له، فمن الناس من لا يصلحه إلا الغنى، ومنهم من لا يصلحه إلا الفقر.

ومن ذلك قيام مصالح الخلق، فلو كان الناس كلهم على حد سواء في الغنى والفقر لم يخدم بعضهم بعضًا، ولا قام بعضهم بمصالح بعض؛ كما قال تعالى: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ۝٣٢﴾[الزخرف: ٣٢].

قال الشاعر:

جل من قسّم الحظوظ فهذا يتغنى وذاك يبكي الديارا[(١)]

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ حقيقة ذلك، والحكمة فيه؛ ولهذا يعتقد كثير منهم أن بسط الرزق دليل على محبة الله ورضاه، وأن تضييقه دليل على عدم محبته ورضاه، والصحيح: أن ذلك خاضع لمشيئته عز وجل وحكمته، ولا ارتباط له بمحبته ورضاه، أو عدم ذلك، فإنه عز وجل يهب الدنيا لمن يحب ومن لا يحب، ولا يهب الدين إلا لمن أحب؛ ولهذا قال ﷺ: «**قد أفلح من رزق كفافًا، وقنعه الله بما آتاه**»[(٢)].

﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُم﴾ التي تفتخرون بها، ﴿بِالَّتِي﴾ الباء: زائدة لفظًا، مؤكدة من حيث المعنى ﴿تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ﴾، أي: تدنيكم عندنا منزلة ودرجة وقربى؛ أي: ليست دليلًا على محبتنا لكم، ورضانا عنكم، بل قد تكون سببًا لفتنتكم وبُعدكم عنا.

﴿إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ الاستثناء: منقطع، «من»: موصولة؛ أي: لكن الذي آمن وعمل عملًا صالحًا هو القريب عندنا؛ أي: إنما يقربكم عندنا زلفى الإيمان والعمل الصالح.

وإذا جعل الضمير في قوله: ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُم﴾ لجميع الناس، كان الاستثناء متصلًا.

---

(١) البيت لحافظ إبراهيم. انظر: «ديوانه» ص٢٥٢.

(٢) أخرجه مسلم في الزكاة، الكفاف والقناعة ١٠٥٤، والترمذي في الزهد ٢٣٤٨؛ من حديث عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه.

عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله لا ينظر إلى صوركم، إنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم**»(١).

﴿فَأُولَٰٓئِكَ لَهُمۡ جَزَآءُ ٱلضِّعۡفِ بِمَا عَمِلُواْ﴾ روى رويس: «جَزَاءً» بالنصب على الحال مع النصب، وكسره وصلًا، ورفع «الضِّعْفُ» بالابتداء، وقرأ الباقون برفع: ﴿جَزَآءُ﴾ من غير تنوين، وخفض ﴿ٱلضِّعۡفِ﴾: ﴿جَزَآءُ ٱلضِّعۡفِ﴾ على الإضافة، من إضافة الصفة إلى الموصوف؛ أي: فأولئك الذين آمنوا وعملوا صالحًا لهم الثواب المضاعف، الحسنة بعشر أمثالها، إلى سبع مئة ضعف، إلى أضعاف كثيرة.

كما قال تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشۡرُ أَمۡثَالِهَاۖ﴾ [الأنعام: ١٦٠]، وقال تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضۡعَافٗا كَثِيرَةٗۚ وَٱللَّهُ يَقۡبِضُ وَيَبۡصُۜطُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ٢٤٥﴾ [البقرة: ٢٤٥].

﴿بِمَا عَمِلُواْ﴾ الباء: للسببية، و«ما»: مصدرية أو موصولة؛ أي: بسبب عملهم، أو بسبب الذي عملوه.

﴿وَهُمۡ فِي ٱلۡغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ﴾ قرأ حمزة بإسكان الراء من غير ألف على الإفراد: «الغُرْفَةِ»، وقرأ الباقون بضمها مع الألف على الجمع: ﴿ٱلۡغُرُفَٰتِ﴾، وهي: جمع «غرفة»، وهي: المنازل العالية الرفيعة في الجنة، والغرفة: المنزل العالي، والحجرة: المنزل في الأرض.

﴿ءَامِنُونَ﴾، أي: مطمئنون آمنون من الموت، ومن الخروج منها، ومن كل بأس وخوف وأذى، ومن المكدرات والمنغصات من الحزن والغل والمرض وغير ذلك.

قال تعالى: ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ لَهُمۡ غُرَفٞ مِّن فَوۡقِهَا غُرَفٞ مَّبۡنِيَّةٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ﴾ [الزمر: ٢٠]، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ غُرَفٗا تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ [العنكبوت: ٥٨] وقال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُجۡزَوۡنَ ٱلۡغُرۡفَةَ بِمَا صَبَرُواْ﴾ [الفرقان: ٧٥].

وقال تعالى: ﴿وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَذۡهَبَ عَنَّا ٱلۡحَزَنَۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٞ شَكُورٌ ٣٤ ٱلَّذِيٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلۡمُقَامَةِ مِن فَضۡلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٞ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٞ ٣٥﴾ [فاطر: ٣٤- ٣٥]، وقال

---

(١) أخرجه البخاري في النكاح ٥١٤٤، ومسلم في البر، تحريم ظلم المسلم ٢٥٦٤، وأبو داود في البيوع ٣٤٣٨، والنسائي في النكاح ٣٢٣٩، والترمذي في النكاح ١١٣٤، وابن ماجه في الزهد ٤١٤٣، وأحمد ٢/ ٥٣٩.

تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ [الحجر: ٤٧].

عن علي رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن في الجنة لغرفًا ترى ظاهرها من بطونها، وبطونها من ظهورها**»، فقال أعرابي: لمن هي؟ قال: «**لمن أطاب الكلام، وأطعم الطعام، وأدام الصيام**»(١).

﴿وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ﴾.

لما ذكر جزاء المؤمنين وما أعد لهم من السكن الطيب والنعيم في الأرض، أتبع ذلك بذكر ما أعد لغيرهم من العذاب، جمعًا بين الوعد والعيد، والترغيب والترهيب، وهذا كقوله: ﴿وَالَّذِينَ سَعَوْ فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ﴾ [سبأ: ٥].

أي: والذين يسعون جاهدين على وجه التعجيز لنا، والتكذيب في آياتنا ورسلنا، والصد عن ديننا، ظانين أنهم سيفوتوننا ويعجزوننا.

﴿أُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾ خبر المبتدأ: ﴿وَالَّذِينَ﴾.

وقوله: ﴿فِي الْعَذَابِ﴾ متعلق بـ﴿مُحْضَرُونَ﴾، وقُدِّم عليه؛ لزيادة التهديد والوعيد والتحذير؛ أي: تحضرهم الزبانية إلى جهنم.

﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ﴾ أعاد هذا- والله أعلم- ليرتب عليه ما بعده، وهو قوله: ﴿وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾.

ولما كان هذا الثاني موجهًا للمؤمنين، أشير إلى تشريفهم بزيادة قوله: ﴿مِنْ عِبَادِهِ﴾، أي: المؤمنين، وضمير «له» عائد إلى «من».

قوله: ﴿وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ﴾ الواو: عاطفة، و«ما»: شرطية، و«من»: زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة من حيث المعنى لعموم النفي، و«شيء» نكرة في سياق النفي فتعم أيضًا؛ أي: وما أنفقتم من أيِّ شيء، قليلًا كان أو كثيرًا، من النفقات الواجبة كالزكاة، والنفقة على الأهل والأولاد، ونحو ذلك، والنفقات المستحبة، كالصدقات، والهدايا، ونحو ذلك، والنفقات المباحة.

﴿فَهُوَ يُخْلِفُهُ﴾ الفاء: رابطة لجواب الشرط، و﴿يُخْلِفُهُ﴾ من «أخلف» الرباعي؛

---

(١) ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٦/ ٥٠٩، ونسبه لابن أبي حاتم.

أي: أعطى الخُلف، وليس من «خَلَف» الثلاثي، بمعنى خلف غيره؛ أي: فهو عز وجل يأتي بخلفه، ويعطيكم ما يخلف عنه كمية بأن يزيد في أموالكم وأرباحها، وكيفية بأن يبارك لكم في أموالكم، قال ﷺ: «**ما نقصت صدقة من مال**»[١]. وقال ﷺ: «**أنفق ينفق عليك**»[١]. وقال ﷺ: «**ما من يوم يصبح العباد فيه إلا وملكان يناديان، يقول أحدهما: اللهم أعط منفقًا خلفًا، ويقول الآخر: اللهم أعط ممسكًا تلفًا**»[١].

فلا ينبغي أن يتوهم المنفق في الوجوه المشروعة أن الإنفاق ينقص الرزق؛ لأن الله عز وجل وعد المنفقين بالخلف؛ قال تعالى: ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ وَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغۡفِرَةٗ مِّنۡهُ وَفَضۡلٗاۗ﴾ [البقرة: ٢٦٨].

﴿وَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ فالأرزاق كلها منه وبيده، فيجب طلب الرزق منه، والتوكل عليه، مع بذل الأسباب.

وجمع «الرازقين»؛ لأن المخلوق قد يكون سببًا للرزق، فيسمى بهذا الاعتبار: رازقًا، وإلا فإن الرازق في الحقيقة هو الله تعالى وحده.

قوله تعالى: ﴿وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا ثُمَّ يَقُولُ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ۝٤٠ قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِمۖ بَلۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ٱلۡجِنَّۖ أَكۡثَرُهُم بِهِم مُّؤۡمِنُونَ ۝٤١ فَٱلۡيَوۡمَ لَا يَمۡلِكُ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٖ نَّفۡعٗا وَلَا ضَرّٗا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ۝٤٢﴾:

قوله: ﴿وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا﴾، أي: واذكر يوم القيامة، يوم يحشر الله الخلائق ويجمعهم جميعًا، ويحشر المشركين وآلهتهم التي عبدوها من دون الله من الملائكة وغيرهم، في ذلك اليوم العظيم؛ كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ يَوۡمٞ مَّجۡمُوعٞ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوۡمٞ مَّشۡهُودٞ﴾ [هود: ١٠٣]، وقال تعالى: ﴿يَوۡمَ يَجۡمَعُكُمۡ لِيَوۡمِ ٱلۡجَمۡعِۖ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلتَّغَابُنِۗ﴾ [التغابن: ٩]، وقال تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡأَوَّلِينَ وَٱلۡأٓخِرِينَ ۝٤٩ لَمَجۡمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ ۝٥٠﴾ [الواقعة: ٤٩ – ٥٠].

﴿ثُمَّ يَقُولُ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ﴾ على وجه التقريع لمن عبدوهم من دون الله: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ﴾ الاستفهام للتقريع والتوبيخ للمشركين الذين يزعمون أنهم كانوا يعبدون

---

(١) سبق تخريجه.

الملائكة؛ أي: أأنتم أمرتم هؤلاء بعبادتكم.

كما قال تعالى في سورة الفرقان: ﴿ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ﴾ [الفرقان: ١٧].

وكما يقول تعالى لعيسى عليه السلام: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [المائدة: ١١٦].

﴿قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ﴾، أي: قالت الملائكة: ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾، أي: تنزيهًا وتقديسًا لك عن النقص، وعن مشابهة المخلوقين، ومن أن يكون لك شريك، لا منا ولا من غيرنا.

كما قال عيسى عليه السلام: ﴿سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ﴾[المائدة: ١١٦].

﴿أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم﴾ «من»: زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة من حيث المعنى؛ أي: أنت وحدك ولينا: ربنا وإلهنا، ولا موالاة بيننا وبينهم، ونحن عبيدك مفتقرون إليك، فكيف ندعو غيرنا إلى عبادتنا؟ أم كيف نصلح أن نُتخذ من دونك أولياء وشركاء؟

﴿بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾ ﴿بَلْ﴾: للإضراب الانتقالي؛ أي: بل كان هؤلاء المشركون، ﴿يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ﴾، أي: يعبدون الشياطين ويطيعونهم؛ لأنهم هم الذين يزينون لهم عبادة غير الله، ويضلونهم؛ كما قال تعالى: ﴿إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾﴾ [النساء: ١١٧]، وقال تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾ [التوبة: ٣١].

وفي حديث عدي قال ﷺ: «**أليس يحرمون ما أحل الله فتحرمونه، ويحلون ما حرم الله فتحلونه؟**» قال: بلى. قال: «**فتلك عبادتهم**»(١).

ولهذا حذر عز وجل بني آدم من عبادة الشيطان؛ كما قال تعالى: ﴿۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾﴾[يس: ٦٠- ٦١].

﴿أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾، أي: أكثر المشركين بالجن ﴿مُّؤْمِنُونَ﴾، أي: مصدقون بهم، يصدقونهم فيما يقولون، وينقادون لهم، ويعوذون بهم، ويعتقدون فيهم جلب

---

(١) سبق تخريجه.

النفع ودفع الضر؛ كما قالت الجن: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ۝٦﴾ [الجن: ٦].

وقوله: ﴿أَكْثَرُهُم﴾ لأن منهم سادة وأتباعًا، فالسادة مصدقون للجن، والأتباع مقلدون لسادتهم.

﴿فَٱلْيَوْمَ﴾ «ال»: للعهد الذكري؛ أي: اليوم المذكور في قوله: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ﴾، أي: يوم القيامة ﴿لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ﴾ الخطاب للمشركين ومعبوداتهم من الجن وغيرهم، ﴿نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾، أي: لا يقدر بعضكم أن يقدم لبعض نفعًا، من شفاعة ولا غيرها، ولا يدفع عنه ضرًّا برفع العذاب، وتتقطع بكم الأسباب، فلا المعبود المؤمل فيه النفع ينفع عابده؛ كما أن العابد لا ينفع معبوده؛ كما قال تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾[يونس: ١٨]، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ۝٥ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ۝٦﴾ [الأحقاف: ٥-٦].

﴿وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾: معطوف على قوله: ﴿لَا يَمْلِكُ﴾، أي: واليوم نقول للذين ظلموا بالشرك والكفر والتكذيب بالنار؛ كما قال تعالى: ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٤]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾[لقمان: ١٣]، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام: ٨٢]؛ أي: بشرك.

أي: ونقول لهم؛ تبكيتًا وتقريعًا وتوبيخًا وإهانة لهم: ﴿ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾، أي: تجرعوا عذاب النار وقاسوه، وأحسوا بالألم الشديد.

وأظهر في مقام الإضمار فلم يقل: ونقول لكم، بل قال: ﴿وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ للتسجيل عليهم بالظلم، وليعمهم هذا الوعيد هم وغيرهم من الظالمين.

﴿ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾، أي: في الدنيا بقولكم: لا بعث، ولا حساب، ولا عذاب، ولا جنة، ولا نار؛ كما قال في سورة السجدة: ﴿ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ [السجدة: ٢٠].

الفوائد والأحكام:

١- شدة عتو كفار مكة وعنادهم؛ لنفيهم أن يؤمنوا بالقرآن، ولا بالذي بين يديه،

لا في الحال، ولا في الاستقبال؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾.

٢- تقليلهم من شأن القرآن، وتحقيرهم له؛ لقولهم: ﴿لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾، ولم يقولوا: «لن نؤمن بالقرآن»، بل قالوا: ﴿بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾، فأشاروا إليه بإشارة القريب تحقيرًا وانتقاصًا له.

٣- كفرهم بالكتب السابقة، وتماديهم بالطغيان؛ لقولهم: ﴿وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ لأن هذا يحتمل نفيهم الإيمان بما سبق القرآن من الكتب، ويحتمل نفيهم الإيمان بما يأتي مما أخبر به، ومما لم ينزل بعد منه.

٤- شدة حال الكافرين والظالمين المكذبين عند وقوفهم عند ربهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾، أي: لرأيت أمرًا عظيمًا، وهولًا جسيمًا.

٥- إثبات البعث والحشر، والوقوف بين يدي الله تعالى، والحساب والجزاء بالعذاب أو الثواب؛ لقوله تعالى: ﴿مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾، وقوله: ﴿لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ الآية، وقوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾، وقوله: ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا۟ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ﴾، وقوله: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ﴾، وقوله: ﴿وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾.

٦- إثبات ربوبية الله تعالى العامة لجميع الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾.

٧- تَرَادُّ الظالمين والكفرة القول بينهم، واتهام الأتباع منهم للمتبوعين، بأنهم هم الذين حالوا بينهم وبين الإيمان؛ لقوله تعالى: ﴿يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾.

٨- إثبات الأسباب؛ لقوله تعالى: ﴿لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾ فهم سبب كفرهم وضلالهم، لكنهم لا يعذرون بهذا؛ لقيام الحجة عليهم بمجيء الهدى إليهم، مع ما أعطاهم الله من العقول والقدرة والاختيار.

٩- تبرؤ المتبوعين من أتباعهم، وإنكارهم أن يكونوا هم الذين صدوهم عن الهدى، وأنه إنما صدهم عن ذلك كونهم مجرمين؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ

ٱسۡتُضۡعِفُوٓاْ أَنَحۡنُ صَدَدۡنَٰكُمۡ عَنِ ٱلۡهُدَىٰ بَعۡدَ إِذۡ جَآءَكُمۖ بَلۡ كُنتُم مُّجۡرِمِينَ ﴿٣٢﴾﴾.

١٠- إقرارهم بمجيء الهدى إليهم، ولكن في وقت لا ينفعهم ذلك؛ لقولهم: ﴿أَنَحۡنُ صَدَدۡنَٰكُمۡ عَنِ ٱلۡهُدَىٰ بَعۡدَ إِذۡ جَآءَكُمۖ﴾.

١١- مكر المستكبرين الكبَّار بالمستضعفين، وجرأتهم على أمرهم بالكفر بالله، وجعل الأنداد والشركاء له؛ قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ بَلۡ مَكۡرُ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ إِذۡ تَأۡمُرُونَنَآ أَن نَّكۡفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجۡعَلَ لَهُۥٓ أَندَادٗاۚ﴾.

١٢- وجوب الحذر من المستكبرين ودعاة الكفر والشرك والضلال؛ لأنهم سبب للحيلولة بين الإنسان وبين الإيمان والهدى، ووقوعه في الكفر والشرك والردى، وزعيمهم في ذلك إبليس الذي أخرج الأبوين من الجنة؛ كما قال تعالى: ﴿وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٖۚ﴾[الأعراف: ٢١- ٢٢].

ولهذا حذرنا الله منه ومن جنوده وذريته؛ كما قال تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ﴾ [الأعراف: ٢٧].

١٣- تقطع الأسباب بالكفار يوم القيامة، من الأتباع والمتبوعين والأخلاء، وتبرؤ بعضهم من بعض؛ كما قال تعالى: ﴿إِذۡ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ وَتَقَطَّعَتۡ بِهِمُ ٱلۡأَسۡبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوۡ أَنَّ لَنَا كَرَّةٗ فَنَتَبَرَّأَ مِنۡهُمۡ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّاۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعۡمَٰلَهُمۡ حَسَرَٰتٍ عَلَيۡهِمۡۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿١٦٧﴾﴾ [البقرة: ١٦٦- ١٦٧]، وقال تعالى: ﴿ٱلۡأَخِلَّآءُ يَوۡمَئِذِۭ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [الزخرف: ٦٧]، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُ بَعۡضُكُم بِبَعۡضٖ وَيَلۡعَنُ بَعۡضُكُم بَعۡضٗا﴾ [العنكبوت: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿قَالَ ٱدۡخُلُواْ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ فِي ٱلنَّارِۖ كُلَّمَا دَخَلَتۡ أُمَّةٞ لَّعَنَتۡ أُخۡتَهَاۖ﴾ [الأعراف: ٣٨].

١٤- إسرارهم الندامة والحسرة على كفرهم في أنفسهم يوم القيامة؛ خوف الخزي والفضيحة حين رؤيتهم العذاب؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَۚ﴾.

١٥- أن الندم لا ينفع عند معاينة العذاب؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَۚ وَجَعَلۡنَا ٱلۡأَغۡلَٰلَ فِيٓ أَعۡنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۖ﴾.

١٦- الجمع للكفار بين العذاب والإهانة؛ بربط أيديهم إلى أعناقهم بالأغلال؛

لقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾.

١٧- أن الجزاء من جنس العمل، وكما يدين المرء يدان، ولا يجازى أحد إلا بما عمل؛ لقوله تعالى: ﴿هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ فالمؤمنون يجازون بالفضل، والكفار يجازون بالعدل، ولا يظلم ربك أحدًا.

١٨- إرسال الرسل إلى جميع الأمم وأهل القرى؛ إعذارًا وإنذارًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ﴾، وقال تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤].

١٩- أن من حكمة إرسال الرسل: الإنذار والتحذير من عذاب الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ﴾، أي: من رسول ينذر من عصى منهم عذاب الله، ومن لازم ذلك أن يبلغهم رسالة الله، وأوامره ونواهيه، ويبشر من أطاع منهم بثواب الله.

٢٠- تكذيب المترفين في كل قرية للرسل، وكفرهم بما أرسلوا به؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾﴾.

٢١- التحذير من الترف؛ لأنه يحمل على الأشر والبطر والاستكبار، والطغيان ورد الحق، وعدم الإيمان بالرسل.

٢٢- اغترار المترفين وافتخارهم على غيرهم بكثرة أموالهم وأولادهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا﴾.

٢٣- أن كثرة الأموال والأولاد من أسباب الافتتان، ومما يحمل على الطغيان.

٢٤- نفيهم أن يعذبوا؛ زعمًا منهم أنه لا بعث ولا حساب ولا جزاء، أو أنهم إن كان ثمة بعث فسينعَّمون في الآخرة كما نُعِّموا في الدنيا؛ لقولهم: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ كما قال صاحب الجنتين: ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾ [الكهف: ٣٦].

وقال تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾ [فصلت: ٥٠].

٢٥- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة له ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّى﴾.

٢٦- حكمة الله تعالى البالغة في توسيع الرزق لمن يشاء من عباده، وتضييقه على من

يشاء، وأنه لا دلالة في ذلك على رضا الله ومحبته، أو عدم ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّ رَبِّي يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُ﴾، وقوله: ﴿قُلۡ إِنَّ رَبِّي يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُ لَهُۥٓۚ﴾.

٢٧- أن الرزق كله بيد الله، ومنه عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ﴾، وقوله: ﴿وَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾، وقال تعالى: ﴿۞ وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا﴾ [هود: ٦]، فيجب طلب الرزق منه وحده مع بذل الأسباب.

٢٨- إثبات الأفعال الاختيارية والمشيئة لله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَقۡدِرُ﴾، وقوله: ﴿وَيَقۡدِرُ لَهُۥٓۚ﴾.

٢٩- أن كثيرًا من الناس يجهلون حقيقة ما فيه سعادتهم في دنياهم وأخراهم؛ كما يجهلون حكمة الله في توسيع الرزق وتضييقه بمشيئته، وأنه لا ارتباط له برضا الله ومحبته، أو عدم ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾.

٣٠- نفي أن تكون كثرة الأموال والأولاد هي التي تقرب إلى الله زلفى؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُم بِٱلَّتِي تُقَرِّبُكُمۡ عِندَنَا زُلۡفَىٰٓ﴾.

وكما قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالٗا وَوَلَدًا ٧٧ أَطَّلَعَ ٱلۡغَيۡبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحۡمَٰنِ عَهۡدٗا ٧٨﴾ [مريم: ٧٧- ٧٨]، وقال تعالى: ﴿ذَرۡنِي وَمَنۡ خَلَقۡتُ وَحِيدٗا ١١ وَجَعَلۡتُ لَهُۥ مَالٗا مَّمۡدُودٗا ١٢ وَبَنِينَ شُهُودٗا ١٣ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمۡهِيدٗا ١٤ ثُمَّ يَطۡمَعُ أَنۡ أَزِيدَ ١٥ كَلَّآۖ إِنَّهُۥ كَانَ لِأٓيَٰتِنَا عَنِيدٗا ١٦ سَأُرۡهِقُهُۥ صَعُودًا ١٧﴾ [المدثر: ١١- ١٧].

٣١- أن الذي يقرب إلى الله تعالى زلفى هو الإيمان والعمل الصالح؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا﴾.

٣٢- لا بد من الجمع بين إيمان القلب وعمل الجوارح، وكون العمل صالحًا، خالصًا لله تعالى، موافقًا لشرعه.

٣٣- أن الذي يقربه ماله وولده إلى الله هو من آمن وعمل صالحًا، فعمل بالمال وفق شرع الله، وربى أولاده على طاعة الله؛ لقوله: ﴿إِلَّا مَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا﴾.

ولهذا قال ﷺ: «**إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم**

ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له»[١].

٣٤- مضاعفة جزاء وثواب من آمن وعمل صالحًا؛ لقوله تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُواْ﴾ الآية.

٣٥- علو منازلهم ومساكنهم في الجنة، وأمنهم فيها من جميع المخاوف: من الموت، ومن المرض، ومن الهرم، ومن انقطاع النعيم وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ﴾.

وعن أبي سعيد الخدري، وأبي هريرة رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ، قال: «**ينادي مناد: إن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبدًا، وإن لكم أن تحيوا فلا تموتوا أبدًا، وإن لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبدًا، وإن لكم أن تنعموا فلا تبأسوا أبدًا، فذلك قوله عز وجل: ﴿أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾** [الأعراف: ٤٣]»[٢].

٣٦- أن الإيمان والعمل الصالح سبب لدخول الجنة ومضاعفة الأجور، والتنعم بمنازلها العالية والأمن فيها، وليس عوضًا عن ذلك، كما يقول المعتزلة.

قال ﷺ: «**لن يدخل أحدًا عملُه الجنة**». قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «**لا، ولا أنا إلا أن يتغمدني الله بفضل ورحمة**»[٣].

٣٧- الوعيد والتهديد للذين يسعون في آيات الله معاجزين؛ لإبطالها، مغالبين لله، بأنهم لن يفلتوا من عقابه، وسيُحضرون في العذاب؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿٣٨﴾﴾.

٣٨- إثبات عبودية الخلق كلهم لله تعالى عبودية عامة؛ لقوله تعالى: ﴿مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ كما قال تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾﴾ [مريم: ٩٣].

٣٩- الترغيب بالإنفاق والحث عليه؛ لوعده عز وجل للمنفقين بضمان خلف ما

---

(١) أخرجه مسلم في التوحيد، ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته ١٦٣١، وأبو داود في الوصايا ٢٨٨٠، والنسائي في الوصايا ٣٦٥١، والترمذي في الأحكام ١٣٧٦؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) أخرجه البخاري في المرضى، تمني المريض الموت ٥٦٧٣، ومسلم في صفة القيامة، لن يدخل أحد الجنة بعمله بل برحمة الله ٢٨١٦؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

أنفقوه من قليل أو كثير في الدنيا والآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنفَقۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَهُوَ يُخۡلِفُهُۥۖ﴾.

٤٠- أنه يجوز أن يطلق على من كان سببًا في الرزق من المخلوقين أنه «رازق»، وإن كان الرزق كله من الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾.

٤١- التذكير بيوم القيامة يوم الحشر العظيم؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا﴾.

٤٢- إثبات القول والكلام لله تعالى بحرف وصوت؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَقُولُ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ﴾ الآية.

٤٣- إثبات وجود الملائكة، ومخاطبته عز وجل لهم، وتكليمهم له؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَقُولُ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ۝٤٠ قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِمۖ﴾ الآية.

٤٤- تنزيه الملائكة لله عز وجل، وتقديسهم له أن يكون له شريك لا منهم ولا من غيرهم، وتبرؤهم من المشركين ومن عبادتهم لهم؛ لقولهم: ﴿سُبۡحَٰنَكَ﴾.

٤٥- إثباتهم ولاية الله تعالى وربوبيته لهم دون سواه؛ لقولهم: ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِمۖ﴾.

٤٦- عبادة المشركين للجن والشياطين بطاعتهم لهم، باتخاذ الأنداد والشركاء مع الله، وتصديقهم والانقياد لهم، واعتقادهم أنهم يقدرون على جلب النفع، ودفع الضر؛ لقوله تعالى: ﴿بَلۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ٱلۡجِنَّۖ أَكۡثَرُهُم بِهِم مُّؤۡمِنُونَ﴾.

٤٧- إثبات وجود الجن، وهم عالم غيبي خلقوا من نار؛ لقوله تعالى: ﴿يَعۡبُدُونَ ٱلۡجِنَّۖ﴾، فيجب الإيمان بوجودهم، لكن لا تجوز عبادتهم.

٤٨- عدم قدرة المشركين ومعبوداتهم يوم القيامة على جلب نفع أو دفع ضر لبعضهم بعضًا؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ لَا يَمۡلِكُ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٖ نَّفۡعٗا وَلَا ضَرّٗا﴾.

٤٩- تقريع الظالمين وتبكيتهم؛ لتعذيب قلوبهم عذابًا معنويًّا مع ما هم فيه من العذاب الحسي في النار؛ لقوله تعالى: ﴿وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾.

٥٠- تكذيب الظالمين بالبعث والحساب، وبالنار وعذابها.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ وَقَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى ۚ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٣﴾ وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا ۖ وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ ﴿٤٤﴾ وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا۟ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَكَذَّبُوا۟ رُسُلِى ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٥﴾ ۞ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾ قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٤٧﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٤٨﴾ قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾ قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى ۖ وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴿٥٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ وَقَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى ۚ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٣﴾ وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا ۖ وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ ﴿٤٤﴾ وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا۟ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَكَذَّبُوا۟ رُسُلِى ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٥﴾﴾:

لما ذكر ما أعده للظالمين من العذاب الحسي والمعنوي في النار، بيَّن استحقاقهم لذلك بسبب تكذيبهم الرسول ﷺ وما جاء به من الحق.

قوله: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾، أي: وإذا تقرأ على هؤلاء الظالمين المكذبين.

﴿ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ﴾، أي: آيات القرآن الكريم واضحات، في ألفاظها ومعانيها وأحكامها وإعجازها، وأنها ليست من كلام البشر.

﴿قَالُوا۟﴾ تكذيبًا للرسول ﷺ ولما جاء به من الحق: ﴿مَا هَٰذَآ﴾ يعنون النبي ﷺ، وأشاروا إليه بقولهم: ﴿مَا هَٰذَآ﴾ كأنه قريب حاضر احتقارًا له، وتقليلًا لشأنه.

﴿إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ﴾ «إلا»: أداة حصر، و«أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل نصب مفعول به لـ«يريد»، و«ما» موصولة، وقولهم: ﴿إِلَّا رَجُلٌ﴾ بصيغة الإنكار كأنهم لا يعرفونه.

أي: ما هذا إلا رجل يريد صرفكم عن الذي كان يعبده آباؤكم وأجدادكم من الآلهة، وليس مراده الصلاح لكم، ولا الهداية والإصلاح، وإنما يريد صرفكم عن دين آبائكم، فاتهموه ﷺ بسوء القصد، ولم يقولوا: «يصدكم عما كنتم تعبدون»، بل قالوا:

﴿يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ﴾ لإثارة الحمية والعصبية في نفوسهم؛ للتمسك بما عليه آباؤهم، ولو كان باطلًا؛ كما قال الله تعالى عنهم: ﴿بَلْ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الزخرف: ٢٢]، وفي الآية الأخرى: ﴿وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾[الزخرف: ٢٣].

﴿وَقَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى﴾، أي: ما هذا القرآن، فطعنوا في الرسول ﷺ وفي قصده، وطعنوا في القرآن.

و«إلا»: أداة حصر؛ أي: ما هذا القرآن ﴿إِلَّآ إِفْكٌ﴾، أي: كذب بنفسه، ﴿مُّفْتَرًى﴾، أي: مختلق؛ أي: أنه ﷺ اختلقه من عند نفسه، وافتراه وتقوله على الله، وليس فيه شيء من الصدق، وليس من عند الله؛ كما قال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ﴾[الطور: ٣٣].

وقال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ﴾ [الفرقان: ٤]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾﴾ [النحل: ١٠٣].

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ﴾ أظهر في مقام الإضمار فلم يقل: «وقالوا»، بل قال: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾؛ لتسجيل الكذب عليهم، وليشملهم الوصف بالكفر هم وغيرهم ممن سلك سبيلهم؛ كما قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾﴾[الذاريات: ٥٢].

أي: وقال الذين كفروا للحق، وهو القرآن حين جاءهم من عند الله تعالى على لسان الرسول ﷺ.

﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ «إن»: نافية، بمعنى «ما»، و«إلا»: أداة حصر؛ أي: ما هذا إلا سحر بيّن واضح ظاهر.

﴿وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم﴾ الضمير يعود إلى مشركي العرب؛ أي: وما أنزلنا عليهم.

﴿مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا﴾ «من» في الموضعين زائدة، من حيث الإعراب، مؤكدة من حيث المعنى لعموم النفي؛ أي: وما آتيناهم من أيّ كتب يقرؤونها؛ أي: لم نؤتهم أيّ كتاب يقرؤونه قبل القرآن.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ﴾، أي: وما بعثنا إليهم قبلك يا محمد أيّ نذير.

أي: أن الله بعثه ﷺ في قوم أميين لا يقرؤون، ولم ينزل عليهم كتابًا قبل القرآن، ولم يرسل إليهم قبله ﷺ نذيرًا، وكانوا في أشد الحاجة إلى ذلك.

كما قال تعالى: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ [السجدة: ٣]؛ ولهذا امتن الله عليهم بذلك فقال:

﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ۝٢﴾ [الجمعة: ٢].

فكان الأليق بهم أن يفرحوا بإنزال القرآن، وبإرسالك إليهم، ويصدقوك، ويقبلوا ما جئت به، ولا يكذبوك، وقد كانوا يقولون: ﴿لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَـٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ﴾ [الأنعام: ١٥٧]؛ أي: أهدى من غيرنا.

فالآية على هذا المعنى فيها توبيخ لهم على تكذيبهم له ﷺ وللقرآن.

ويحتمل أن المراد: أن هؤلاء المكذبين من قومك لم يستندوا في تكذيبهم لك ولما جئتهم به على وحي منا، لا على كتب أنزلناها عليهم يدرسونها، ولا على علم من نذر أرسلناهم إليهم، وإنما مستندهم الجهل المركب، والتقليد الأعمى لآبائهم.

ولا تنافي بين المعنيين.

﴿وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُواْ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَـٰهُمْ فَكَذَّبُواْ رُسُلِى ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾

لما ذكر تكذيب المشركين له ﷺ ولرسالته، أتبع ذلك بذكر تكذيب الذين من قبلهم لرسلهم، وعقابه إياهم، تسلية له ﷺ، وتهديدًا للمكذبين.

قوله: ﴿وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾، أي: من الأمم؛ أي: كذبوا رسلهم، وما جاؤوا به من الحق من عند الله، مثل قوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط، وفرعون، وغيرهم.

﴿وَمَا بَلَغُواْ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَـٰهُمْ﴾ «المعشار»: واحد من عشرة؛ أي: العشر، و«ما» موصولة؛ أي: وما بلغ المكذبون من قومك يا محمد عشر الذي آتينا أولئك الأقوام، من القوة والأموال والأولاد، وطول الأعمار؛ أي: ولم ينفعهم ذلك أو يدفع عنهم عذاب الله؛ ولهذا قال:

﴿فَكَذَّبُواْ رُسُلِى ۖ﴾ إليهم؛ أي: كذبوهم بما أرسلتهم به من الحق، ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ الفاء: عاطفة؛ أي: فكيف كان إنكاري عليهم ونكالي بهم، وانتصاري لرسلي؛

أي: ما أشد إنكاري عليهم، وعقابي إياهم.

كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [الأحقاف: ٢٦].

وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ ۖ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾﴾ [الروم: ٩].

وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۚ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ ۚ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾﴾ [فاطر: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿۞ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٢١﴾﴾ [غافر: ٢١]، وقال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [غافر: ٨٢].

أي: وما دفع عنهم ما مكنوا فيه وما أعطوه من القوة والنعم عذاب الله، وما رده، بل دمر الله عليهم، وللكافرين أمثالها؛ كما قال تعالى: ﴿۞ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ۖ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا ﴿١٠﴾﴾ [محمد: ١٠].

وقال تعالى: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [العنكبوت: ٤٠].

قوله تعالى: ﴿۞ قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾﴾.

قوله: ﴿قُلْ﴾، أي: قل يا محمد لهؤلاء المكذبين لك، الزاعمين أنك مجنون.

﴿إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ﴾ «إنما»: أداة حصر، ﴿أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ﴾، أي: آمركم بخصلة واحدة فقط؛ أي: ما آمركم- لتقريب شقة الخلاف بيننا وبينكم، وطي بساط

المناظرة- إلا بخصلة واحدة، وهي طريقة نصف: ﴿أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ﴾ «أن» والفعل «تقوموا» في تأويل مصدر في محل جر بدل من «واحدة»، أو في محل رفع خبر لمبتدأ محذوف؛ أي: هي واحدة، والجملة صفة لواحدة.

﴿لِلَّهِ﴾ اللام: للتعليل؛ أي: قيامًا خالصًا لله تعالى، وبحثًا عن الحق والصواب، من غير هوى ولا عصبية، ولا مراعاة لي، ولا لأحد من الخلق، والمراد بقوله: ﴿أَن تَقُومُواْ﴾، أي: أن تثبتوا على شيء.

﴿مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ﴾ حال؛ أي: حال كونكم مثنى وفرادى؛ أي: اثنين اثنين فأكثر، وجماعات، وفردًا فردًا؛ أي: واحدًا واحدًا.

﴿ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ﴾، أي: تتأملوا فيما بينكم مجتمعين، وكل فرد مع نفسه خاصة.

﴿مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ﴾ «من»: زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة من حيث المعنى لعموم النفي؛ أي: ما بصاحبكم محمد أيّ جنة كما تزعمون؛ كما في قولهم: ﴿أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌ﴾ [سبأ: ٨].

وفي قوله: ﴿بِصَاحِبِكُم﴾ زيادة في التشنيع عليهم، والتوبيخ لهم، كيف يصفونه بالجنون والسحر ونحو ذلك وهو صاحبهم، يعرفون عقله وصدقه وأمانته؟! وكان الأجدر بهم أن يكونوا أول من يصدقه ويؤازره، ويؤمن بما جاء به.

كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١٨٤﴾﴾ [الأعراف: ١٨٤]، وقال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌۢ بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [المؤمنون: ٧٠].

وقوله: ﴿مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ﴾ يحتمل أن يكون معناه: نفي وإبطال قولهم؛ أي: ثم تتفكروا وتتأملوا أنه ما بصاحبكم من جنة.

ويحتمل أن المعنى: ثم تتفكروا وتتأملوا، فيظهر لكم أنه ما بصاحبكم من جنة، فيكون قوله: ﴿مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ﴾ نتيجة تفكرهم.

قال ابن القيم: «فأشار بقيامهم اثنين اثنين إلى المناظرة، وفرادى إلى النظر والتفكر.

وكل منها ينقسم إلى محمود ومذموم؛ فالنظر المحمود: النظر في الطريق الصحيح؛ ليتوصل به إلى معرفة الحق.

والنظر المذموم نوعان: أحدهما النظر في الطريق الباطل- وإن قصد به التوصل إلى الحق- فإن الطريق الباطل لا يفضي إلى الحق.

والثاني: النظر والتفكر الذي يقصد به رد قول خصمه مطلقًا، حقًّا أو باطلًا، فهو ينظر نظرًا يرد به قول من يبغضه ويعاديه بأي وجه كان.

فأما المناظرة فتنقسم إلى محمودة ومذمومة، والمحمودة نوعان، والمذمومة نوعان، وبيان ذلك: أن المناظر إما أن يكون عالمًا بالحق، وإما أن يكون طالبًا له، وإما ألا يكون عالمًا به ولا طالبًا له، وهذا الثالث هو المذموم، وأما الأولان: فمن كان عالمًا بالحق فمناظرته التي تحمد: أن يبين لغيره الحجة التي تهديه، إن كان مسترشدًا طالبًا للحق، أو تقطعه أو تكسره إن كان معاندًا غير طالب للحق، ولا متبع له، أو توقفه وتبعثه على النظر في أدلة الحق، إن كان يظن أنه على الحق وقصده الحق»[1].

﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا نَذِيرٞ لَّكُم بَيۡنَ يَدَيۡ عَذَابٖ شَدِيدٖ﴾.

لَمَّا نفى أن يكون به ﷺ جنة كما زعموا، بيَّن لهم حقيقة أمره، فقال:

﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا نَذِيرٞ لَّكُم﴾ «إن»: نافية بمعنى: «ما»، و«إلا»: أداة حصر؛ أي: ما هو ﷺ إلا نذير لكم، ينذركم ويحذركم عذاب الله؛ ولهذا قال:

﴿بَيۡنَ يَدَيۡ عَذَابٖ﴾، أي: قبل عذاب قريب في الدنيا والآخرة، في الدنيا كما حصل لهم في بدر وغيرها من القتل والسبي والأسر والإذلال، وفي الآخرة بعذاب النار، وهو آتٍ، وكل آتٍ قريب، ﴿شَدِيدٖ﴾ قوي شاق، لا يطاق.

عن ابن عباس رضي الله عنه، قال: صعد النبي ﷺ الصفا ذات يوم، فقال: «**يا صباحاه**». فاجتمعت إليه قريش، قالوا: ما لك؟ قال: «**أرأيتم لو أخبرتكم أن العدو يصبحكم ويمسيكم، أما كنتم تصدقوني؟**»، قالوا: بلى. قال: «**فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد**». فقال أبو لهب: تبًّا لك، ألهذا جمعتنا؟! فأنزل الله: ﴿تَبَّتۡ يَدَآ أَبِي لَهَبٖ وَتَبَّ﴾[2].

وعن بريدة رضي الله عنه، قال: خرج علينا النبي ﷺ يومًا فنادى ثلاث مرات،

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٣/ ٤٣٩.

(٢) أخرجه البخاري في تفسير سورة سبأ ٤٨٠١، والترمذي في التفسير ٣٣٦٣.

فقال: «**أيها الناس، تدرون ما مثلي ومثلكم؟**» قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «**إنما مثلي ومثلكم مثل قوم خافوا عدوًّا يأتيهم، فبعثوا رجلًا يتراءى لهم، فبينما هم كذلك أبصر العدو، فأقبل لينذرهم، وخشي أن يدركه العدو قبل أن ينذر قومه، فأهوى بثوبه: أيها الناس، أُتيتم، أيها الناس، أُتيتم، ثلاث مرات**»[(١)].

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٤٧﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿٤٨﴾ قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾ قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴿٥٠﴾﴾:

قوله: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾.

لما نفى ما زعموه من أن به جنة، وبيَّن لهم حقيقة أمره، وأنه إنما هو نذير لهم بين يدي عذاب شديد، أتبع ذلك ببيان أنه ما سألهم على ذلك أجرًا، فيستثقلوا المغرم، بل الأجر في ذلك لهم، وأجره على الله.

قوله: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ﴾ «ما»: شرطية؛ أي: أيُّ أجر سألته منكم فهو لكم. أو موصولة؛ أي: الذي سألته منكم ﴿مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ﴾.

و«من»: بيانية؛ أي: قل يا محمد للمكذبين لك: ﴿مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ﴾ على إنذاري لكم، وتبليغي رسالة الله إليكم ﴿فَهُوَ لَكُمْ﴾.

والأجر هو: ما يعطى مقابل عمل أو استيفاء نفع؛ أي: لا أريد منكم مقابل ذلك أجرًا وجعلًا وعطاءً، فتعدون ذلك غرمًا مانعًا لكم من تصديقي واتباعي؛ كما قال تعالى: ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [الطور: ٤٠، القلم: ٤٦].

وقوله: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ﴾ هذا على سبيل التنزل مع الخصم؛ أي: على فرض أني سألتكم أجرًا فهو لكم، علمًا أنه لم يسألهم؛ كما قال تعالى: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾﴾ [ص: ٨٦].

﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾ «إن»: نافية بمعنى «ما»، و«إلا»: أداة حصر؛ أي: ما أجري وثوابي في تبليغكم رسالة ربي إلا على الله تعالى وحده.

---

(١) أخرجه أحمد ٥/ ٣٤٨.

﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾، أي: محيط بكل شيء، عليم به، مطلع عليه، يشهد على تبليغي رسالته إليكم، وعلى تكذيبكم إياي، وعلى جميع أعمالكم يحصيها ويحفظها عليكم، ثم يجازيكم بها.

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ قرأ حمزة والكسائي وأبو بكر: «الغِيُوبِ» بكسر الغين، وقرأ الباقون بضمها: ﴿الْغُيُوبِ﴾.

أي: قل يا محمد: ﴿إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ﴾، أي: يرمي بقوة بالقول الحق وحججه وبراهينه على الباطل فيمحوه ويزهقه؛ كما قال تعالى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾[الأنبياء: ١٨].

﴿عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ «علّام» على وزن «فعّال» صيغة مبالغة، وفيه دلالة على سعة علمه وإحاطته بالغيوب كلها على كثرتها، ودقة علمه فيها.

و«الغيوب»: جمع «غيب»؛ وهو: كل ما غاب عن الناس فلم يدركوه بحواسهم؛ في الحاضر والماضي والمستقبل، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ۝٥﴾ [آل عمران: ٥]، وقال تعالى: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [النمل: ٦٥]، وقال تعالى: ﴿وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ۝٧٥﴾[النمل: ٧٥].

﴿قُلْ جَاءَ الْحَقُّ﴾، أي: الأمر الثابت والدين الحق الذي بعث الله به محمدًا ﷺ بالكتاب والسنة.

﴿وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ «الباطل»: ضد الحق، وهو الكفر، كذب في الأخبار، وظلم في الأحكام. والإبداء: الإتيان بالشيء ابتداء. والإعادة: الإتيان به مرة أخرى؛ كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ [الروم: ٢٧].

ومعنى: ﴿وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾: أن الباطل ينهار أمام قوة الحق، فلا يبدئ ولا يعيد، ولا يُقدم ولا يُؤخر، فلا يقوى على مقاومة الحق ولو لحظة، بل يزهق ويضمحل ويذهب؛ كما قال تعالى: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ۝٨١﴾ [الإسراء: ٨١].

ولهذا لما دخل رسول الله ﷺ المسجد الحرام يوم الفتح ووجد تلك الأصنام منصوبة حول الكعبة جعل يطعنها بعود معه ويقول: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ﴾، ﴿جَاءَ

﴿ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَـٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ [سبأ: ٤٩][(١)].

﴿قُلْ إِن ضَلَلْتُ﴾، أي: قل يا محمد لهؤلاء المكذبين: ﴿إِن ضَلَلْتُ﴾، أي: إن ضللت عن الحق كما تزعمون، وهذا من باب التنزل مع الخصم، وإلا فهو ﷺ يعلم أنه أهدى الناس، ﴿فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى﴾، أي: فإنما إثم ضلالي على نفسي، وليس عليكم من ذلك من شيء.

﴿وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ﴾ إلى الحق، ﴿فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ﴾ الفاء: رابطة لجواب الشرط، والباء: للسببية، و«ما»: موصولة، أو مصدرية؛ أي: فبسبب الذي يوحيه إلي ربي، أو فبسبب وحي ربي إلي من القرآن والسنة، ففي ذلك الهدى والنور.

كما قال تعالى: ﴿كِتَـٰبٌ أَنزَلْنَـٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝١﴾ [إبراهيم: ١]، وقال تعالى: ﴿وَلَـٰكِن جَعَلْنَـٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورى: ٥٢].

وقال تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَـٰبٌ مُّبِينٌ ۝١٥ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَـٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝١٦﴾ [المائدة: ١٥-١٦].

قال ابن القيم: «فهذا نص صريح في أن هدى الرسول إنما يحصل بالوحي، فيا عجبًا كيف يحصل الهدى لغيره من الآراء والعقول والأقوال المضطربة، ولكن من يهد الله فهو المهتد، ومن يضلل فلن تجد له وليًّا مرشدًا.

فأي ضلال أعظم من ضلال من زعم أن الهداية لا تحصل بالوحي، ثم يحيل فيها إلى عقل فلان ورأي فلان، وقول زيد وعمرو؟ ولقد عظمت نعمة الله على عبد عافاه من هذه البلية العظمى والمصيبة الكبرى، والحمد لله رب العالمين»[(٢)].

﴿إِنَّهُۥ سَمِيعٌ﴾، أي: إنه سميع مجيب لدعائي، ودعاء عباده، ذو السمع الواسع،

---

(١) أخرجه البخاري في المغازي ٤٢٨٧، ومسلم في الجهاد والسير ١٧٨١، والترمذي في التفسير ٣١٣٨، وأحمد ١/ ٣٧٧، من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.
وأخرجه مسلم بمعناه ١٧٨٠، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) انظر: «بدائع التفسير» ٣/ ٤٤٠.

الذي يسمع جميع الأقوال والأصوات.

﴿قَرِيبٌ﴾ إلى عباده، يجيب دعوة الداعي إذا دعاه؛ كما قال ﷺ في حديث أبي موسى رضي الله عنه: «**أربعوا على أنفسكم؛ فإنكم لا تدعون أصم ولا غائبًا، لكن تدعون سميعًا بصيرًا**»(١).

وفي رواية: «**إن الذي تدعونه أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته**»(٢).

الفوائد والأحكام:

١- إقامة الحجة على المشركين المكذبين للنبي ﷺ وما جاء به، بتلاوة آيات الله تعالى البينات عليهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ﴾.

٢- شدة عتوهم وتكذيبهم له ﷺ، واحتقارهم له، واتهامهم إياه بسوء القصد، وأنه إنما يريد أن يصدهم عما يعبد آباؤهم؛ لقوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ﴾.

٣- تقليدهم آباءهم على جهل وضلال، وإثارتهم الحمية في التمسك بما هم عليه من الباطل وعبادة غير الله؛ لقولهم: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ﴾.

٤- إثبات الإرادة للإنسان؛ لقوله تعالى: ﴿يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ﴾.

٥- تكذيبهم القرآن، وزعمهم بأن الرسول ﷺ اختلقه من عند نفسه وافتراه على الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى﴾.

٦- زعمهم أن ما جاءهم به الرسول ﷺ ما هو إلا سحر بين واضح؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾.

٧- أن ما جاء به الرسول ﷺ هو الحق، دون سواه.

٨- جمعهم أوصاف الكفر كلها من تكذيبه ﷺ، وتكذيب القرآن، وزعمهم بأنه سحر؛ ولهذا أظهر في مقام الإضمار، فقال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ الآية؛ لتسجيل

---

(١) أخرجه البخاري في الدعوات، الدعاء إذا علا عقبة ٦٣٨٤، ومسلم في الذكر، استحباب خفض الصوت بالذكر ٢٧٠٤.

(٢) جاء هذا في إحدى روايات مسلم لحديث أبي موسى رضي الله عنه ٢٧٠٤.

الكفر عليهم، وليعمهم وصف الكفر ومن سلك مسلكهم.

٩- أن أهل الباطل لا يتورعون من وصف الحق ومن جاء به بأبشع الأوصاف للتنفير من ذلك، فوصفوا الرسول ﷺ بسوء القصد، وبأنه مفترٍ، ووصفوا القرآن بأنه كذب مفترى وسحر.

١٠- أن الله عز وجل لم ينزل على العرب كتابًا قبل القرآن، ولم يرسل إليهم رسولًا قبل محمد ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا ۖ وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ ﴿٤٤﴾﴾.

١١- الامتنان عليهم بإنزال القرآن عليهم، وبعثه فيهم رسولًا منهم؛ كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ﴾ [الجمعة: ٢].

وقال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾[آل عمران: ١٦٤].

١٢- إثبات رسالته ﷺ، وتشريفه بخطاب الله تعالى له؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ﴾، وقوله: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم﴾، وقوله: ﴿فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ ۚ﴾.

١٣- أن الله لم يبعث في العرب رسولًا إلا محمدًا ﷺ.

١٤- أن من أعظم مهمات الرسل عليهم السلام: الإنذار والتحذير من عذاب الله تعالى. ومن لازم ذلك: بيان الأوامر والنواهي التي يُنذر ويحذر من عدم امتثالها، ويبشر من امتثلها؛ لقوله تعالى: ﴿مِن نَّذِيرٍ﴾، وقوله: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم﴾ الآية.

١٥- أنه ليس لدى من كذب الرسول ﷺ من مشركي مكة، وطعن في رسالته وما جاء به: مستند من كتاب، ولا أثرة من علم رسول؛ لأنه لم يأتهم كتاب قبل القرآن، ولا رسول قبل محمد ﷺ، فيزعموا أنه ﷺ خالف ما جاءهم قبله.

١٦- تسليته ﷺ بذكر تكذيب الأمم السابقة لرسلهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا۟ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَكَذَّبُوا۟ رُسُلِى ۖ﴾ الآية.

١٧- تهديد المكذبين له ﷺ بذكر شدة عقابه للمكذبين قبلهم، مع أن أولئك الأقوام أقوى منهم، وأكثر أموالًا وأولادًا، وأطول أعمارًا، وما نفعهم ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا۟ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَكَذَّبُوا۟ رُسُلِى ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٥﴾﴾.

١٨- تشريف الله عز وجل للرسل بإضافتهم إليه؛ لقوله تعالى: ﴿رُسُلِيۖ﴾.

١٩- أن السعيد من وعظ بغيره فاتعظ.

٢٠- إثبات قياس الأولى؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا بَلَغُواْ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ﴾ الآية، فإذا كان عز وجل أخذ أولئك الأقوام مع قوتهم وشدتهم وكثرة أموالهم وأولادهم لما كذبوا، ولم ينفعهم ذلك، فمن دونهم من باب أولى.

٢١- دعوة المعاندين له ﷺ دعوة إنصاف بخصلة واحدة فقط؛ تقريبًا لشقة الخلاف، وهي أن يقوموا قومة خالصة لله جماعات وفرادى، ثم يتفكروا فيما رموه به ﷺ من الجنون؛ لتظهر لهم حقيقة الأمر، وأنه العاقل الرشيد، وما به من جنة؛ لقوله تعالى: ﴿۞قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍۖ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍۚ﴾.

٢٢- ينبغي لمن يطلب الحق في أيّ خلاف يحصل، أن يكون مخلصًا لله تعالى متجردًا من الهوى وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ﴾.

٢٣- مشروعية التعاون، وإعمال الفكر للوصول إلى الحق؛ لقوله تعالى: ﴿أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْۚ﴾.

٢٤- نفي اتصافه ﷺ بالجنون؛ كما كانوا يزعمون، والإشارة إلى أنهم يعلمون أنه الرشيد العاقل الأمين؛ لأنه صاحبهم يعرفونه؛ لقوله تعالى: ﴿مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍۚ﴾.

٢٥- إثبات الآخرة والحساب، والتحذير للمكذبين من عذاب قريب شديد في الدنيا والآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾.

٢٦- أن من بلاغة القرآن الاكتفاء بما يناسب المقام؛ فقد اكتفى في هذه الآيات بذكر الإنذار؛ لأن المقام مقام تحذير وتخويف.

٢٧- أنه ﷺ لم يطلب من أحد أجرًا على تبليغ الرسالة والإنذار، وكذا غيره من المرسلين؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْۖ﴾.

٢٨- سد الذرائع التي قد يتعلل بها من أراد رد دعوة الرسل؛ كما قال تعالى: ﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ۝٤٠﴾ [الطور: ٤٠، القلم: ٤٦].

٢٩- أنه لا يجوز أخذ الأجر على الدعوة إلى الله ونشر العلم الشرعي الواجب نشره.

٣٠- إخلاصه ﷺ في دعوته وتبليغ رسالة ربه، وطلبه الأجر من الله، وضمان الله

عز وجل له ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ﴾.

٣١- إثبات علم الله تعالى الواسع، واطلاعه وشهادته على كل شيء، ومن ذلك شهادته عز وجل على صدقه في تبليغ رسالته؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾. كما قال تعالى: ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ﴾ [النساء: ١٦٦]، وفي هذا تقوية وتأييد له.

كما يشهد عز وجل على تكذيب المشركين له، وفي هذا تهديد لهم.

٣٢- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة له ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿رَبِّي﴾.

٣٣- قذفه عز وجل بقوة وشدة بالحق- وهو ما أرسل به رسله- على الباطل؛ فإذا هو زاهق زائل؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ﴾.

٣٤- علم الله تعالى وإحاطته بجميع الغيوب؛ لقوله تعالى: ﴿عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾.

٣٥- زهوق الباطل وزواله، وعدم ثباته أمام قوة الحق، واضمحلاله؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾.

٣٦- التنزل مع الخصم ولو كان في ذلك غضاضة على النفس بقصد الوصول إلى المقصود؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي﴾، أي: فإنما إثم ضلالي على نفسي، وليس ذلك عليكم، وحاشاه ﷺ من الضلال.

٣٧- أن الهداية والتوفيق بيد الله تعالى، وباتباع وحيه؛ لقوله ﷺ: ﴿وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِيٓ إِلَيَّ رَبِّيٓ﴾.

٣٨- أن ما يصيب الإنسان من حسنة فمن الله، وما يصيبه من سيئة فمن نفسه، فمن ضل فضلاله من نفسه، ومن اهتدى فهدايته من الله.

٣٩- أن هدى الله هو الهدى؛ كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ﴾ [البقرة: ١٢٠]، وهو سبب الاهتداء، لمن تدبره واتبعه.

٤٠- إثبات الأسباب وتأثيرها؛ لقوله تعالى: ﴿فَبِمَا يُوحِيٓ إِلَيَّ رَبِّيٓ﴾.

٤١- إثبات صفة السمع الواسع لله تعالى، وقربه بذاته من عباده وسماعه دعاءهم واستجابته لهم؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُوا۟ فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا۟ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٥١﴾ وَقَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۖ وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ فِى شَكٍّ مُّرِيبٍۭ ﴿٥٤﴾﴾.

لما ذكر تكذيب المشركين له ﷺ ولما جاء به من الآيات البينات، وزعمهم أن ذلك ما هو إلا إفك مفترى، وسحر مبين، أتبع ذلك بذكر شدة فزعهم عند الموت، ويوم القيامة وأخذهم بالعذاب.

قوله: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ﴾ الخطاب للنبي ﷺ، ولكل من يصلح له.

﴿إِذْ فَزِعُوا۟﴾، أي: خافوا أشد الخوف، وذلك عند الموت، ويوم القيامة حين ينفخ في الصور، قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [النمل: ٨٧]، وقال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ﴾ [يس: ٥١- ٥٢].

﴿فَلَا فَوْتَ﴾ الفاء: تعليلية، و«لا»: نافية للجنس، ﴿فَوْتَ﴾: اسمها منصوب، وخبرها محذوف؛ أي: فلا يفوتون الله، ولا يعجزونه ولا مفر لهم ولا مهرب، ولا محيد ولا مناص؛ كما قال تعالى: ﴿وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾ [ص: ٣].

وجواب «لو» محذوف للتهويل والتعظيم؛ أي: لرأيت أمرًا عظيمًا، ومنظرًا فظيعًا، وهولًا جسيمًا.

﴿وَأُخِذُوا۟ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾، أي: وأخذوا بالعذاب من مكان قريب، ليس ببعيد؛ أي: أخذوا من الدنيا بالموت، أو من قبورهم، أو من المحشر.

﴿وَقَالُوٓا۟﴾، أي: عند فزعهم وأخذهم بالعذاب: ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ﴾، أي: آمنا وصدقنا بما كنا مكذبين به من الحق، فآمنا بالله وبكتبه ورسله؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾﴾ [السجدة: ١٢].

﴿وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ قرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي وخلف وأبو بكر بالمد والهمز: «التَّنَاؤُش»، وقرأ الباقون بالواو بعد الألف من غير همز: ﴿ٱلتَّنَاوُشُ﴾.

﴿وَأَنَّىٰ﴾ استفهام بمعنى الاستبعاد، و﴿ٱلتَّنَاوُشُ﴾ معناه: أخذ الشيء وتناوله من بعيد؛ أي: وأنى لهم تناوش الإيمان وتناوله ﴿مِن مَّكَانٍۢ بَعِيدٍ﴾، أي: عند الموت، أو يوم القيامة؛ لأن ما عند الموت حالة اضطرار لا يقبل فيها الإيمان ولا ينفع، ولأن القيامة دار جزاء لا دار عمل.

وبين قوله: ﴿مِن مَّكَانٍۢ بَعِيدٍ﴾، وقوله قبله: ﴿مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ طباق.

﴿وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ﴾ الواو: حالية؛ أي: كيف يحصل لهم الإيمان عند الموت أو يوم القيامة، والحال أنهم قد كفروا به قبل الموت، وفي الدنيا قبل الآخرة.

﴿وَيَقْذِفُونَ﴾، أي: ويرمون ويرجمون ﴿بِٱلْغَيْبِ﴾، أي: بالظن الكاذب؛ كما قال تعالى: ﴿رَجْمًۢا بِٱلْغَيْبِ﴾[الكهف: ٢٢].

وفي هذا إشارة إلى أنهم لم يحاولوا الدنو والقرب والنظر والتأمل فيه، وفيما جاء به ﷺ، فتارة يقولون عن النبي ﷺ: شاعر، وتارة: ساحر، وتارة: كاهن، وتارة: مجنون؛ كما قالوا عن القرآن تارة: إنه سحر، وتارة: إفك مفترى، وتارة: أساطير الأولين، وغير ذلك.

كما كذبوا بالبعث والحساب، وبالجنة والنار، وغير ذلك، وقالوا: ﴿إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾[الجاثية: ٣٢].

﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾، أي: جعل حائلًا بينهم وبين الذي يشتهونه من النجاة وقبول الإيمان والتوبة عند الموت، أو يوم القيامة؛ لفوات وقت ذلك؛ كما حيل بينهم وبين شهواتهم وملذاتهم الدنيوية، وارتهنوا بأعمالهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ﴾ [الأنعام: ٩٤].

﴿كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ﴾، أي: كما فعل بأشباههم وأمثالهم في الكفر والتكذيب من الأمم الماضية؛ حيث حيل بينهم وبين شهواتهم وارتهنوا بأعمالهم، ولم ينفعهم الإيمان حين جاءهم بأس الله؛ كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾ [غافر: ٨٤- ٨٥].

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ فِى شَكٍّ مُّرِيبٍۭ﴾: تعليل لما قبلها؛ أي: إنهم كانوا في الدنيا هم وأشياعهم من قبل ﴿فِى شَكٍّ مُّرِيبٍۭ﴾، أي: في شك محدث للريبة، وتكذيب وكفر.

الفوائد والأحكام:

١- شدة فزع المكذبين والكفار عند الموت ويوم القيامة؛ لعظم الهول وفظاعة الخطب؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُوا۟﴾.

٢- أنهم لا يفوتون الله ولا يعجزونه، ولا مفر لهم ولا مهرب من أمر الله وعذابه؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَا فَوْتَ﴾.

٣- أخذهم بالعذاب من مكان قريب؛ لأنهم لا يقدرون على الهروب والفوت؛ لقوله تعالى: ﴿وَأُخِذُوا۟ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾.

٤- إيمانهم عند رؤية العذاب بعد فوات وقته؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾.

٥- هيهات أن يقبل منهم الإيمان، وأن ينفعهم آنذاك؛ لأنه إن كان عند الموت فهو إيمان اضطرار لا اختيار، وإن كان في الآخرة فإن الآخرة دار جزاء لا دار عمل؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾.

٦- التبكيت والتنديم لهم، وأن سبب عدم قبول الإيمان لما رأوا العذاب هو كفرهم من قبل في الدنيا حين كان الإيمان مقبولًا ونافعًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ﴾.

٧- شدة جهلهم وكفرهم ورجمهم بالغيب والظنون الكاذبة، والأقاويل الباطلة؛ في تنقصه ﷺ، وما جاء به، من غير أن يحاولوا القرب والنظر؛ ليتفهموا ما جاء به ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾.

٨- الحيلولة بينهم وبين ما يشتهون ويتمنون من الإيمان عند الموت؛ كما حيل بينهم وبين شهواتهم وملذاتهم الدنيوية، وارتهنوا بأعمالهم؛ كما حيل بينهم يوم القيامة وبين الرجوع إلى الدنيا بعد معاينتهم العذاب؛ لقوله تعالى: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [الأنعام: ٢٧]، وهم في هذا كاذبون؛ ولهذا قال تعالى بعد ذلك: ﴿وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٨].

٩- عدل الله عز وجل في مجازاة المكذبين سابقهم ولاحقهم، ووجوب الاعتبار

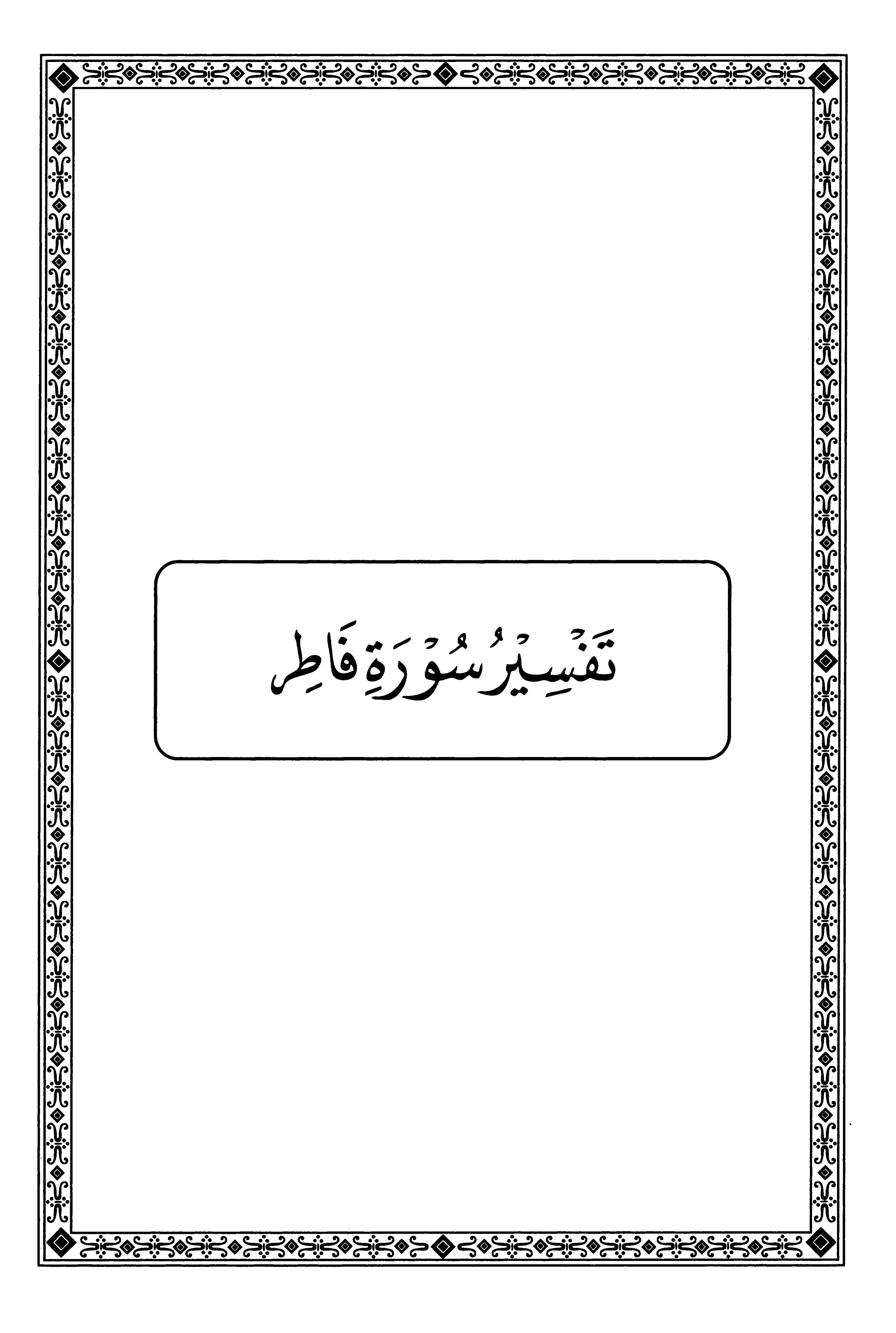
بأحوال السابقين؛ لقوله تعالى: ﴿كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ﴾.

١٠- أن هؤلاء المذكورين إنما أخذوا بالعذاب، ولم يقبل منهم الإيمان، وحيل بينهم وبين ما يشتهون؛ كما فعل بأمثالهم من قبل؛ لأنهم كانوا في شك وريب وتكذيب وكفر في الدنيا؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ﴾.

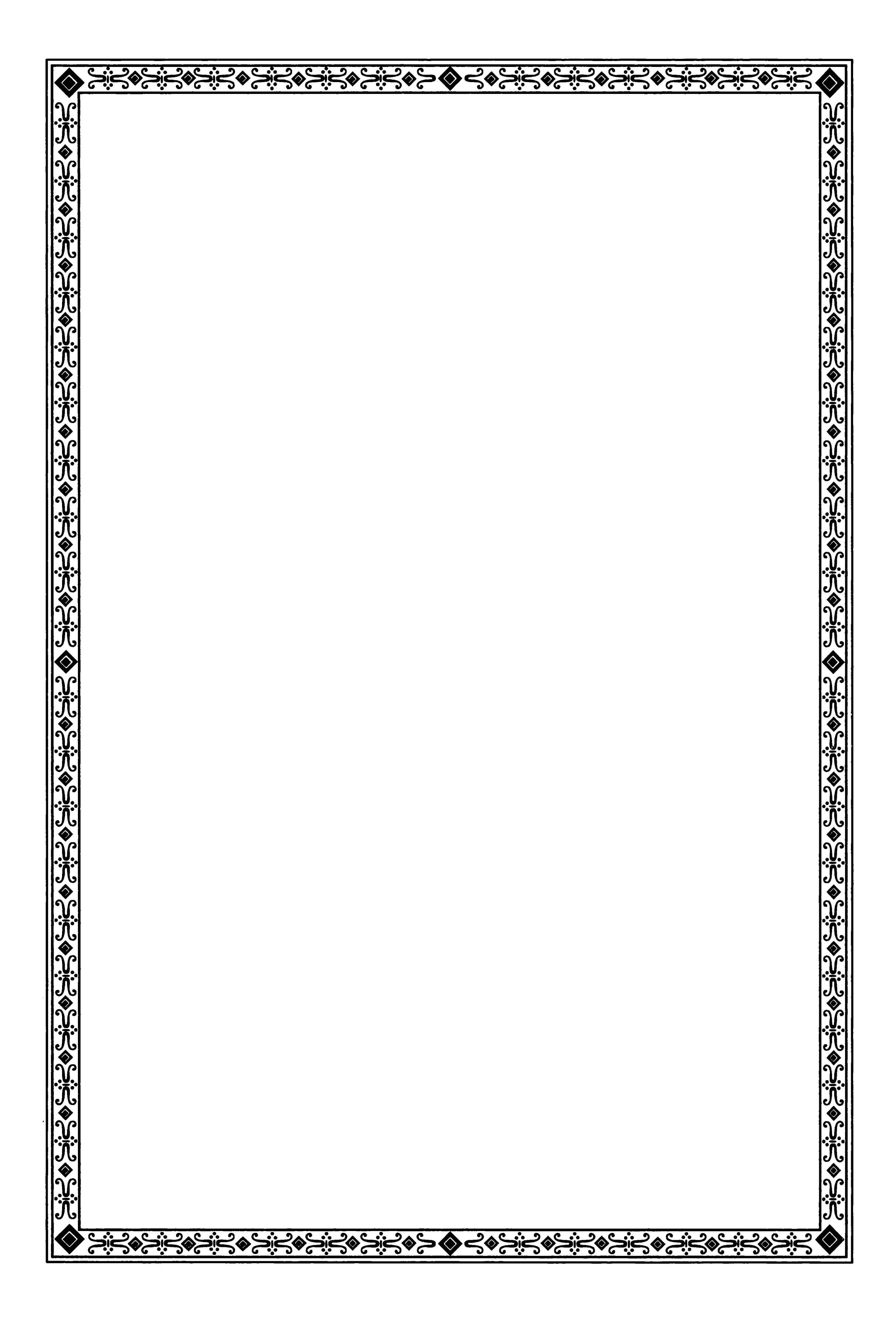
١١- أن من شك فيما يجب الإيمان به، فهو كافر وليس بمؤمن.

١٢- إثبات الحكمة في أفعال الله تعالى، وإثبات الأسباب؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ﴾.

* * *



تَفْسِيرُ سُورَةِ فَاطِرٍ



المقدمة

أ- اسم السورة:

سميت هذه السورة «سورة فاطر»؛ لقوله تعالى في مطلعها: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الآية: ١].

وتسمى: «سورة الملائكة»؛ لأنه ذكر في أولها وصف الملائكة في قوله تعالى: ﴿جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾ [الآية: ١].

ب- مكان نزولها:

مكية.

جـ- موضوعاتها:

١- افتتحت السورة بالثناء على الله تعالى، وبيان اختصاصه عز وجل بالحمد وصفات الكمال، وذكر مظاهر تمام قدرته ورحمته ونعمته، في خلق السموات والأرض والملائكة وتمام تدبيره وعزته وحكمته، وتفرده بالخلق والرزق، والألوهية وتوبيخ المشركين.

٢- تسليته ﷺ تجاه تكذيب قومه له: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ [فاطر: ٤]، وقال تعالى: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ [فاطر: ٨].

٣- بيان أن وعد الله بالبعث والحساب والجزاء حق، والتحذير من الاغترار بالدنيا، ومن غرور الشيطان، وبيان عداوته: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٥﴾ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [فاطر: ٥-، ٦].

٤- وعيد الكافرين بالعذاب الشديد، ووعد الذين عملوا الصالحات بالمغفرة والأجر الكبير.

٥- شتان بين من زين له عمله فرآه حسناً وأضله الله، وبين من هداه الله تعالى ووفقه.

٦- بيان مظاهر قدرة الله تعالى ونعمته في إرسال الرياح تثير السحاب، وسوقه إلى بلد ميت وإحياء الأرض به بعد موتها، والاستدلال بذلك على البعث والنشور.

٧- تفرده عز وجل بالعزة إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه، والوعيد للذين يمكرون السيئات بالعذاب الشديد والبوار.

٨- تذكير العباد بأصل خلقهم، وتمام علمه عز وجل وقدرته: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا ۚ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [فاطر: ١١].

٩- بيان مظاهر قدرته عز وجل ونعمته في إيجاد البحرين لا يستويان، هذا عذاب فرات سائغ شرابه، وهذا ملح أجاج، وما فيهما من المنافع، من الحيتان والحلية، وجريان الفلك. وفي إيلاج الليل في النهار، والنهار في الليل، وتسخير الشمس والقمر يجريان لأجل مسمى، وما في ذلك من المصالح العظيمة للعباد، ومن الدلالة على كمال ربوبية الله تعالى، واختصاصه بالملك- دون ما يعبده المشركون من دونه، ممن لا يملكون شيئًا، ولا يسمعون ولا يستجيبون، بل يكفرون بهم، وبشركهم يوم القيامة.

١٠- بيان حاجة الناس وافتقارهم إلى الله عز وجل، وغناه عز وجل عن جميع الخلق، وقدرته على إذهابهم، واستبدالهم بخلق جديد ﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ [فاطر: ١٧].

١١- تمام عدله عز وجل، فلا تحمل نفس مذنبة ذنب نفس أخرى، ولا أحد يحمل ذنب أحد، ولو كان ذا قربى، وإنما يجازى كل بعمله، وبيان أنه إنما ينتفع بالإنذار الذين يخشون ربهم وأقاموا الصلاة ﴿وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ [فاطر: ١٨].

١٢- شتان بين المؤمن والكافر، وبين من كان على هدى ومن كان على ضلال، فلا يستوى الأعمى والبصير، ولا الظلمات والنور، ولا الظل والحرور، ولا الأحياء والأموات.

١٣- تسليته ﷺ، وبيان أن الله يسمع ويهدي من يشاء، وأنه ﷺ لا يستطيع إسماع المكذبين وهدايتهم، وهم كالموتى في القبور، وأن مهمته الإنذار والبشارة، وأنه ليس أول من كذبه قومه، فقد كذب الذين من قبلهم، وقد جاءتهم رسلهم بالبينات والزبر والكتاب المنير، فأخذهم الله وعاقبهم.

١٤- بيان وتقرير مظاهر قدرته ونعمته في إنزال الماء من السماء، وإخراج الثمرات، وفي إيجاد الجبال المختلفة الألوان، وكذا الناس والدواب والأنعام، وبيان أنه إنما يخشى الله من عباده العلماء الذين يتفكرون في آيات الله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ [فاطر: ٢٨].

١٥- التنويه بشأن الذين يتلون كتاب الله وأقاموا الصلاة وانفقوا مما رزقهم الله سرا وعلانية وعظم ما أعد لهم من التجارة الرابحة ﴿ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴾ [فاطر: ٣٠].

١٦- امتداح الله تعالى للقرآن الكريم، وبيان أنه هو الحق مصدقًا للكتب قبله، وبيان انقسام الناس في العمل به إلى ظالم لنفسه، ومقتصد، وسابق بالخيرات بإذنه وذلك الفضل الكبير، لما أعد لأهله من الجنات وما فيها من النعيم المقيم، وذهاب الحزن، والسلامة من النصب والتعب.

١٧- الوعيد والتهديد للذين كفروا بذكر ما أعد لهم من عذاب جهنم ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ۖ فَذُوقُوا۟ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴾ [فاطر: ٣٦- ٣٧].

١٨- بيان سعة علمه عز وجل، وشموله غيب السموات والأرض وعلمه بذات الصدور.

١٩- الامتنان على الناس بجعلهم خلائف في الأرض، والوعيد لمن كفر منهم، ومقتهم وخسرانهم، والتقريع لهم في عبادتهم من دون الله آلهة لم تخلق شيئا من الأرض، وما لهم شرك في السموات، وبلا كتاب ولا دليل ولا برهان، بل ظلمًا منهم وغرورًا من بعضهم لبعض.

٢٠- بيان عظيم قدرته عز وجل وواسع حلمه ومغفرته في إمساك السموات والأرض ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ [فاطر: ٤١].

٢١- إقسام المشركين غاية الأيمان- جهلًا منهم- لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من غيرهم، وكذبهم ونفورهم لما جاءهم واستكبارهم ومكرهم، وتهديدهم ووعيدهم بانتظار العذاب كما هي سنته عز وجل في المكذبين الأولين، وعاقبتهم الوخيمة، وكانوا أشد منهم قوة ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴾ [فاطر: ٤٤].

٢٢- بيان سعة حلمه عز وجل، وعدم معاجلته الناس بكسبهم، وأنه يمهل ولا يهمل: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا﴾ [فاطر: ٤٥].

* * *

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ جَاعِلِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُوْلِيٓ أَجۡنِحَةٖ مَّثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۚ يَزِيدُ فِي ٱلۡخَلۡقِ مَا يَشَآءُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ١ مَّا يَفۡتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحۡمَةٖ فَلَا مُمۡسِكَ لَهَاۖ وَمَا يُمۡسِكۡ فَلَا مُرۡسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٢ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡۚ هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ ٣ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدۡ كُذِّبَتۡ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِكَۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ٤ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ ٥ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمۡ عَدُوّٞ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ إِنَّمَا يَدۡعُواْ حِزۡبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ٦ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٌ ٧ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنٗاۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۖ فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ ٨﴾.

قوله: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ سبق الكلام عليه في مطلع سورة سبأ.

﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾، أي: خالق السموات والأرض ومبدعها على غير مثال سبق.

عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: «كنت لا أدري ما فاطر السموات والأرض حتى أتاني أعرابيان يختصمان في بئر، فقال أحدهما: أنا فطرتها، قال: ابتدأتها».

وعنه أيضًا: ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ قال: «بديع السموات والأرض»(١).

﴿جَاعِلِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ﴾، أي: مصيّر الملائكة كونًا وقدرًا ﴿رُسُلًا﴾: مفعول به لـ«جاعل»؛ أي: جاعل الملائكة رسلًا في تدبير أوامره القدرية؛ كما قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ تَوَفَّتۡهُ رُسُلُنَا وَهُمۡ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ [الأنعام: ٦١]؛ أي: رسلنا من الملائكة، وهم: ملك الموت، وأعوانه.

وأيضًا: رسلًا ووسائط بينه وبين خلقه في تبليغ أوامره الدينية، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ٦﴾ [التحريم: ٦].

والمراد بقوله: ﴿جَاعِلِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا﴾، أي: جاعل منهم رسلًا، وليس كلهم؛ بدليل

---

(١) أخرجهما ابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/ ٣١٧٠.

قوله تعالى في سورة الحج: ﴿ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ﴾ [الحج: ٧٥].

﴿أُوْلِيٓ أَجۡنِحَةٖ﴾: نعت لـ«رسلًا»؛ أي: أصحاب أجنحة يطيرون بها بسرعة فائقة- لتنفيذ ما يأمرهم الله به- تفوق سرعة الجن وغيرهم.

﴿مَّثۡنَىٰ﴾: نعت لـ«أجنحة»، وكذلك: ﴿وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۚ﴾، وهي ألفاظ ممنوعة من الصرف للوصفية والعدل؛ لأنها معدولة عن اثنين وثلاثة وأربعة، وتدل على المكرر من نوعها؛ أي: اثنين اثنين بلا حصر، وثلاثة ثلاثة بلا حصر، وأربعة أربعة بلا حصر؛ أي: منهم من له جناحان، ومنهم من له ثلاثة، ومنهم من له أربعة، بحسب ما اقتضته حكمته، ومنهم من له أكثر من ذلك؛ لقوله: ﴿يَزِيدُ فِي ٱلۡخَلۡقِ مَا يَشَآءُۚ﴾.

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، قال: «رأى رسول الله ﷺ جبريل له ستمئة جناح»(١).

﴿يَزِيدُ فِي ٱلۡخَلۡقِ مَا يَشَآءُۚ﴾، أي: يزيد في خلق الملائكة الذي يشاؤه من الأجنحة أكثر من أربعة وغير ذلك؛ كما يزيد في المخلوقات كلها الذي يشاؤه من الزيادة في بعضها على بعض، في صفتها وقوتها، وكثرة أعضائها، وفي حسنها وجمالها، وحسن صوتها، وغير ذلك.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾: تعليل لما قبله؛ أي: لا يعجزه شيء؛ لكمال قدرته، وسعة علمه.

﴿مَّا يَفۡتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحۡمَةٖ فَلَا مُمۡسِكَ لَهَاۖ وَمَا يُمۡسِكۡ فَلَا مُرۡسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ﴾ بعدما ذكر تفرده بالخلق والتدبير، ذكر تفرده بالعطاء والمنع، والبسط والقبض.

قوله: ﴿مَّا يَفۡتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ﴾ «ما» في الموضعين: اسم شرط جازم.

﴿مِن رَّحۡمَةٖ﴾ «من»: بيان لـ«ما»؛ أي: ما يفتح الله للناس من أيِّ رحمة دينية أو دنيوية، من علم وعبادة، وولد ومال، وغير ذلك.

﴿فَلَا مُمۡسِكَ لَهَاۖ﴾ الفاء: رابطة لجواب الشرط؛ أي: فلا أحد يستطيع إمساك رحمته

---

(١) أخرجه البخاري في بدء الخلق ٣٢٣٢، ومسلم في الإيمان ١٧٤، والترمذي في التفسير ٣٢٧٧، وأحمد ١/ ٣٩٥.

وردها عمن فتحها الله تعالى عليه، مهما حاول منعها بالحسد والتشويه.

﴿وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ﴾ حذف متعلق: «يمسك»، فلم يقل: «وما يمسك من رحمة»؛ ليفيد العموم؛ أي: وما يمسك من أيِّ شيء، من رحمة أو نقمة، من خير أو شر، نفع أو ضرر.

﴿فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ﴾ الإرسال: ضد الإمساك، وجاء الضمير في «لَهُۥ» مذكرًا؛ مراعاة للفظ «ما»؛ أي: فلا مرسل ولا جالب لما أمسكه الله ومنعه، مهما بذل في ذلك من الأسباب.

﴿مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ الضمير يعود إلى الله عز وجل؛ أي: فلا مرسل له من بعد الله؛ أي: غير الله؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝١٠٧﴾ [يونس: ١٠٧].

وعن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه، قال: سمعت رسول الله ﷺ إذا انصرف من الصلاة قال: «**لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، اللهم لا مانع لما أعطيت، ولا معطي لما منعت، ولا ينفع ذا الجد منك الجد. وسمعته ينهى عن قيل وقال، وكثرة السؤال، وإضاعة المال، وعن وأد البنات، وعقوق الأمهات**، ومنع وهات»(١).

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: كان رسول الله ﷺ إذا رفع رأسه من الركوع، قال: «**سمع الله لمن حمده، ربنا ولك الحمد ملء السموات والأرض، وملء ما شئت من شيء بعد، أهل الثناء والمجد، أحق ما قال العبد، وكلنا لك عبد، اللهم لا مانع لما أعطيت، ولا معطي لما منعت، ولا ينفع ذا الجد منك الجد**»(٢).

وقال ﷺ لابن عباس رضي الله عنهما: «**واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك بشيء، لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك، لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك**»(٣).

---

(١) أخرجه البخاري في الرقاق ٦٤٧٣، ومسلم في المساجد ٥٩٣، وأحمد ٤/ ٢٥٤، ٢٥٥.

(٢) أخرجه مسلم في الصلاة ٤٧٧، وأبو داود في الصلاة ٨٤٧، والنسائي في التطبيق ١٠٦٨.

(٣) سبق تخريجه.

﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾، أي: ذو العزة التامة، عزة القوة والقهر والغلبة والامتناع.

﴿ٱلۡحَكِيمُ﴾ ذو الحكم التام، والحكمة البالغة.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡۚ هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ ۝٣ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدۡ كُذِّبَتۡ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِكَۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ۝٤﴾.

قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡۚ﴾، أي: اذكروا نعمة الله تعالى عليكم، واشكروها بقلوبكم؛ اعترافًا بها، وبألسنتكم ثناءً على الله بها، كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثۡ ۝١١﴾ [الضحى: ١١]، وبجوارحكم انقيادًا له عز وجل.

روي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، قال: «أفضل مِن ذكر الله باللسان، ذكر الله عند أمره ونهيه»(١).

ومن ذكر النعمة وشكرها بالجوارح: أن يظهر أثر نعمة الله على العبد؛ كما قال ﷺ: «**إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده**»(٢).

و«نعمة»: مفرد مضاف إلى معرفة، وهو لفظ الجلالة «الله»، فيعم كل نعم الله التي لا تحصى، من نعمة الإيجاد والإعداد والإمداد وغير ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ﴾ [إبراهيم: ٣٤، النحل: ١٨].

﴿هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ لما أمرهم بذكر نعمته عليهم، التي تعم جميع نعمه عليهم، نبه على أصول النعم، وهي: نعمة الخلق والرزق.

﴿هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ غَيۡرُ ٱللَّهِ﴾ قرأ أبو جعفر وحمزة والكسائي وخلف بكسر الراء: «غَيْرِ الله»؛ نعت لـ«خالق» على اللفظ، وقرأ الباقون برفعها: ﴿غَيۡرُ ٱللَّهِ﴾ نعت لـ«خالق» على المَحل.

والاستفهام بمعنى النفي المشرب بالتحدي، و«من»: زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة من حيث المعنى لعموم النفي؛ أي: لا خالق إلا الله.

---

(١) انظر: «الرسالة» للقيرواني ص١٦١، «التحرير والتنوير» ١/ ٤٥١.

(٢) أخرجه أحمد ٤/ ٤٣٨؛ من حديث عمر ان بن حصين رضي الله عنه، وأخرجه الترمذي في الأدب ٢٨١٩؛ من حديث عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه، وقال: «حديث حسن».

﴿يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ الرزق: العطاء؛ أي: يرزقكم من السماء بإنزال المطر، وبتقدير أرزاقكم في السماء.

﴿وَٱلْأَرْضِ﴾، أي: ويرزقكم من الأرض بإخراج النبات منها، والأشجار والثمار والمعادن، وغير ذلك من خيراتها.

﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾، أي: لا معبود بحق إلا هو عز وجل؛ لانفراده بالخلق والرزق، وغير ذلك من أفعال الربوبية، وإنما خص بالذكر الخلق والرزق؛ لأنهما أظهر دلائل إلهيته عند الناس.

﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ الفاء رابطة لجواب شرط مقدر، و«أنى»: اسم استفهام للتعجب والتقريع والتوبيخ؛ أي: فكيف تصرفون عن عبادة الخالق الرازق، الذي تُقرون وتعترفون به ربًّا إلى عبادة المخلوق المرزوق، الذي لا يملك من الأمر شيئًا؟!

﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ﴾، أي: وإن يكذبك يا محمد هؤلاء المشركون؛ أي: ينسبوك إلى الكذب فيما دعوتهم إليه من عبادة الله وحده لا شريك له، وفيما أخبرتهم به من البعث والحساب والجزاء، فيقولوا: لست برسول، بل أنت كاذب أو ساحر أو شاعر أو مجنون، ولا بعث ولا حساب، ونحو ذلك.

﴿فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ﴾ الفاء رابطة لجواب الشرط؛ أي: فقد كُذب رسل كثيرون من قبلك، كذبهم أقوامهم فيما جاؤوهم به من الدعوة إلى توحيد الله، فلك فيهم سلوة، فلست أول من كُذِّب، قال ﷺ: «**عرضت علي الأمم، فرأيت النبي ومعه الرهط، والنبي ومعه الرجل والرجلان، والنبي وليس معه أحد**»(١).

وقد لبث نوح عليه السلام في قومه ألف سنة إلا خمسين عامًا يدعوهم إلى الله، وما آمن معه إلا قليل.

﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾، أي: وإلى الله وحده تصير الأمور كلها في الدنيا والآخرة، فينصر رسله وأولياءه، ويجازي كلًّا بعمله؛ كما قال تعالى: ﴿أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾ الشورى: ٥٣، وقال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ

---

(١) أخرجه البخاري في الطب ٥٧٠٥، ومسلم في الإيمان ٢٢٠؛ من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

﴿ٱلْأَشْهَٰدُ ۝٥١﴾ [غافر: ٥١].

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ۝٥ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ۝٦﴾.

قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ كرر النداء: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ للتأكيد والعناية والاهتمام.

﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ﴾، أي: إن وعد الله بالبعث والحساب، والثواب والعقاب، ونصر أوليائه، وخذلان أعدائه، وغير ذلك، كله ﴿حَقٌّ﴾، أي: ثابت وصادق، كائن لا محالة ولا بد، لا شك فيه ولا مرية؛ كما دلت على ذلك الأدلة السمعية، والبراهين العقلية.

﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ الفاء: عاطفة؛ أي: فلا تخدعنكم الحياة الدنيا، ولا تفتننكم وتلهينكم بشهواتها ولذاتها وزخارفها وزهرتها الفانية، عما خلقتم له، وعن الاستعداد لوعد الله ولقائه.

﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾، أي: ولا يخدعنكم بالله في حلمه وإمهاله، وما يجب له من التعظيم والطاعة، والتصديق بوعده، والاستعداد للقائه، ﴿ٱلْغَرُورُ﴾، أي: الشيطان، بدليل قوله بعده: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ﴾.

قال تعالى في آخر سورة لقمان: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ [الآية: ٣٣]، وقال تعالى: ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ۝١٣ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ۝١٤﴾ [الحديد: ١٣، ١٤].

﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ﴾ «إن» للتوكيد، وقدم الخبر ﴿لَكُمْ﴾ لإفادة الحصر؛ أي: لكم يا بني آدم خاصة، فعداوته لكم متأصلة وقديمة؛ لعداوته لأبويكم، وسعيه في إخراجهما من الجنة؛ كما قال تعالى: ﴿فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ۝١١٧﴾ [طه: ١١٧].

﴿فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾، أي: فاجعلوه عدوًّا؛ أي: فعادوه أنتم أشد العداوة، وأبغضوه، وأطيعوا الله وحده، وخالفوا الشيطان، ولا تطيعوه؛ كما قال تعالى: ﴿۞ أَلَمْ أَعْهَدْ

إِلَيْكُمْ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ۝﴾ [يس: ٦٠ ، ٦١]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [البقرة: ١٦٨ ، البقرة ٢٠٨، الأنعام: ١٤٢].

قال ابن القيم: «والأمر باتخاذه عدوًّا تنبيه على استفراغ الوسع في محاربته، ومجاهدته؛ كأنه عدو لا يفتر ولا يقصر في محاربة العبد على عدد الأنفاس»[(١)].

﴿إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ تعليل لما سبق من النهي عن غرور الشيطان، وبيان عداوته، والأمر باتخاذه عدوًّا.

﴿إِنَّمَا﴾: أداة حصر؛ أي: ما يدعو حزبه إلا ﴿لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾، واللام: للتعليل؛ أي: لأجل أن يكونوا من أصحاب السعير، وهي النار المستعرة المتوقدة الشديدة.

أي: إنما يدعو أتباعه؛ ليضلوا كما ضل، فيكونوا معه من أصحاب السعير؛ كما قال تعالى محذرًا عنه: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ۝﴾ [الكهف: ٥٠].

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ۝ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۖ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ۝﴾.

قوله: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾:

لما ذكر عداوة الشيطان لبني آدم، وحذرهم منه، أتبع ذلك ببيان انقسامهم في ذلك إلى قسمين: كفار اتبعوا الشيطان، فلهم عذاب شديد، ومؤمنون خالفوه وعملوا الصالحات، فلهم مغفرة وأجر كبير.

قوله: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾، أي: الذين جحدوا ما جاءت به الرسل، وما دلت عليه الكتب، واتبعوا الشيطان، وعصوا الرحمن.

﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾، أي: لهم خاصة عذاب شديد؛ أي: قوي، مخلدون فيه في نار جهنم.

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٣/ ٤٤٣.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بقلوبهم، ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، أي: وعملوا الأعمال الصالحات الخالصة لله تعالى، الموافقة لشرعه، بجوارحهم.

﴿لَهُم﴾ خاصة ﴿مَّغۡفِرَةٞ﴾ بستر ذنوبهم عن الخلق، والتجاوز عن عقوبتها.

﴿وَأَجۡرٞ كَبِيرٌ﴾، أي: وثواب كبير في ذاته وفي صفته، لا يَقْدر قَدْر كبره إلا من منحهم إياه، ووصفه بذلك، وهو العلي الكبير.

وفي تسمية جزائهم وثوابهم «أجرًا»، إخبار بتكفله عز وجل بذلك، وضمانه لهم، وإيجابه عز وجل ذلك على نفسه.

وقدم المغفرة على الأجر؛ لأن التخلية قبل التحلية.

فجازى عز وجل الكافرين بالعذاب الشديد؛ بسبب كفرهم، وجازى المؤمنين بالمغفرة والأجر الكبير؛ لإيمانهم وعملهم الصالحات.

﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾ الهمزة للاستفهام، ومعناه: الإنكار، و«من»: اسم موصول في محل رفع مبتدأ، والخبر محذوف، تقديره: كمن لم يزين له سوء عمله، وهداه الله إلى الصراط المستقيم؟ يدل على هذا قوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۖ﴾.

و﴿سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾ من إضافة الصفة إلى الموصوف؛ أي: عمله السيئ، و«عمل»: مفرد مضاف، فيعم جميع أعماله السيئة من الكفر والشرك والظلم والمعاصي.

و«التزيين»: التحسين؛ أي: أفمن حُسِّن له سوء عمله؛ أي: حُسِّن له عمله السيئ، وبني الفعل لما لم يسم فاعله ليعم، فيحتمل أن يكون المعنى: أفمن زين الله له قدرًا وكونًا سوء عمله؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَهُمۡ يَعۡمَهُونَ ۝٤﴾ [النمل: ٤].

ويحتمل أن يكون التقدير: أفمن زين له الشيطان أو نفسه الأمارة بالسوء أو الهوى، أو غير ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [النمل: ٢٤].

﴿فَرَءَاهُ حَسَنٗاۖ﴾، أي: فرأى عمله السيئ حسنًا، وهذا من أعظم البليات، وأشد المصائب، أن يزين للمرء عمله السيئ فيراه حسنًا، فيتمادى في الباطل، ولا يستمع لقول ناصح أو عذل عاذل، فيبوء بالصفقة الخاسرة؛ كما قال تعالى: ﴿قُلۡ هَلۡ نُنَبِّئُكُم بِٱلۡأَخۡسَرِينَ أَعۡمَٰلًا ۝١٠٣ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعۡيُهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ يُحۡسِنُونَ صُنۡعًا ۝١٠٤﴾ [الكهف: ١٠٣- ١٠٤].

قال الشاعر:

يقضـــى عـــلى المـــرء في أيـــام محنتـــه   حتـى يـرى حسـنًا مـا لـيس بالحسـن

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۖ﴾ الجملة مستأنفة، أو تعليلية؛ أي: فلا تأسف على ذلك، فكل ذلك كائن بقدر الله تعالى، يضل الذي يشاء من الخلق بعدله، ويهدي الذي يشاء منهم؛ أي: يوفقه بفضله، له الحكمة البالغة، والحجة الدامغة، لا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون.

﴿فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍۚ﴾ قرأ أبو جعفر بضم التاء وكسر الهاء ونصب السين: «فَلَا تُذْهِبْ نَفْسَكَ»، وقرأ الباقون بفتح التاء والهاء وضم السين: ﴿فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ﴾.

والفاء: رابطة لجواب شرط مقدر؛ أي: فلا تهلك نفسك على هؤلاء المكذبين.

و﴿حَسَرَٰتٍۚ﴾ منصوب على المفعول لأجله؛ أي: لأجل الحسرات؛ أي: حزنًا وهمًّا وغمًّا على كفر هؤلاء الضالين؛ كما قال تعالى: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ٣﴾ [الشعراء: ٣].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ﴾ تعليل للنهي السابق، و«ما»: موصولة أو مصدرية؛ أي: عليم بالذي يصنعونه؛ أي: بالذي يفعلونه، أو عليم بصنعهم؛ أي: بفعلهم.

أي: فيجازيهم بأعمالهم، فليس عليك هدايتهم ولا حسابهم، ما عليك إلا البلاغ.

الفوائد والأحكام:

١- ثبوت الحمد الكامل لله تعالى، واختصاصه باستحقاق ذلك وحده؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ وفي هذا حمد منه عز وجل لنفسه، وأمر لعباده أن يحمدوه.

٢- تفرده عز وجل بخلق السموات والأرض وما فيهما من المخلوقات، وتمام قدرته وحكمته؛ لقوله تعالى: ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾.

٣- إثبات وجود الملائكة، وتسخير الله تعالى لهم، بجعلهم رسلًا لتنفيذ أوامره القدرية، ووسائط بينه وبين خلقه في تبليغ أوامره الدينية، وكمال طاعتهم لربهم، وانقيادهم لأمره؛ لقوله تعالى: ﴿جَاعِلِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا﴾.

٤- عظمة قوة الملائكة وقدراتهم، وشدة خلقهم، وأن الله جعل لهم أجنحة

يطيرون فيها بسرعة فائقة؛ لتنفيذ أوامره الكونية والشرعية؛ لقوله تعالى: ﴿أُوْلِيٓ أَجۡنِحَةٖ مَّثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۚ﴾.

٥- اختلاف الملائكة في قوتهم، وعدد أجنحتهم، وأشكالهم، وقدراتهم، وفق ما وُكل إليهم من الأعمال.

٦- أن له عز وجل التصرف التام، والتدبير المطلق في الخلق، يزيد فيه ما يشاء؛ لقوله تعالى: ﴿يَزِيدُ فِي ٱلۡخَلۡقِ مَا يَشَآءُۚ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخۡتَارُۗ﴾ [القصص: ٦٨].

٧- إثبات المشيئة لله تعالى؛ وهي: الإرادة الكونية، وهي مقرونة بالحكمة؛ لقوله تعالى: ﴿مَا يَشَآءُۚ﴾، وقوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۖ﴾.

٨- قدرته تعالى التامة على كل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾.

وفي هذا رد على القدرية الذين يقولون: إن أفعال العباد غير مخلوقة لله تعالى، ولا مقدرة له.

٩- تفرده عز وجل بالعطاء والمنع، والرحمة؛ لقوله تعالى: ﴿مَّا يَفۡتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحۡمَةٖ فَلَا مُمۡسِكَ لَهَاۖ وَمَا يُمۡسِكۡ فَلَا مُرۡسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ﴾.

١٠- وجوب التعلق بالله تعالى، والافتقار إليه من جميع الوجوه دون سواه؛ لأن بيده القبض والبسط، والعطاء والمنع.

١١- إثبات اسم الله تعالى: ﴿ٱلۡعَزِيزُ﴾، وأنه سبحانه ذو العزة والقوة والقهر، والغلبة والامتناع؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ﴾.

١٢- إثبات اسم الله تعالى: ﴿ٱلۡحَكِيمُ﴾ وما يدل عليه من إثبات صفة الحكم التام، والحكمة البالغة له عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلۡحَكِيمُ﴾.

١٣- تصدير الخطاب بالنداء؛ للتنبه والعناية والاهتمام؛ لقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾.

١٤- إثبات عموم رسالته ﷺ لجميع الناس، وتأكيد ذلك؛ لقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾.

١٥- وجوب ذكر نعمة الله تعالى وشكرها اعترافًا بها في القلوب، وثناء على الله تعالى بها بالألسن، وانقيادًا له تعالى بالجوارح؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡۚ﴾.

١٦- تقرير وإثبات ربوبية الله تعالى، وأنه لا خالق ولا رازق إلا الله تعالى وحده؛ لقوله تعالى: ﴿هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

١٧- أن من أعظم نعم الله تعالى على الناس، وأظهرها، وأدلها على تمام ربوبيته، وكمال ألوهيته: نعمة الخلق والرزق؛ ولهذا خصها بالذكر، ودلل بها على تفرده بالألوهية؛ لقوله تعالى: ﴿هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾.

١٨- أن توحيد الربوبية يستلزم توحيد الألوهية.

١٩- أن الاسم المفرد إذا أضيف إلى معرفة أفاد العموم؛ لقوله تعالى: ﴿نِعْمَتَ ٱللَّهِ﴾، أي: جميع نعمه؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [إبراهيم: ٣٤، النحل: ١٨]، وقال تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣].

٢٠- أن رزق الله للخلق من السماء والأرض؛ بإنزال المطر من السماء، وتقدير الأرزاق فيها، وبإنبات النبات والأشجار والزروع والثمار من الأرض والمعادن، وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

٢١- أنه لا إله ولا معبود بحق إلا الله تعالى وحده لا شريك له؛ لقوله تعالى: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾.

٢٢- الإنكار على المشركين، وتسفيههم في انصرافهم عن عبادة الله تعالى الخالق الرازق، وعبادة آلهة من دونه لا يملكون شيئًا؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾.

٢٣- تسليته ﷺ تجاه تكذيب قومه له، بذكر تكذيب الأمم السابقة للرسل من قبله، فله بهم أسوة؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ﴾.

٢٤- أن المصائب إذا عمت خفت، فإذا علم ﷺ أن الرسل كُذبت من قبله، خف عليه وهان تكذيب قومه له، قالت الخنساء في رثاء أخيها صخر[1]:

ولولا كثرة الباكين حولي ... على إخوانهم لقتلت نفسي

وما يبكون مثل أخي ولكن ... أسلي النفس عنه بالتأسي

(١) انظر: «ديوانها» ص٨٤.

٢٥- أن مرجع الأمور كلها، ومصيرها إلى الله عز وجل وحده، ينصر رسله وأولياءه في الدنيا والآخرة، ويهلك أعداءه، ويجازي كلًّا بما عمل؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾.

٢٦- أن شكوى الحال ينبغي أن يكون إلى الله تعالى وحده؛ لأن بيده الأمر كله، وإليه يرجع الأمر كله.

٢٧- إثبات وتأكيد أن وعد الله تعالى بالبعث والحساب، والثواب والعقاب، ولقاء الله تعالى، كل ذلك حق وصدق؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾.

٢٨- النهي عن الاغترار بالحياة الدنيا، وشهواتها، ولذاتها، وزينتها الفانية، والانشغال بها عن طاعة الله تعالى، وعن الاستعداد لوعده ولقائه؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾.

وقد قال ﷺ: «**فوالله، ما الفقر أخشى عليكم، ولكني أخشى أن تبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من كان قبلكم، فتنافسوها كما تنافسوها، وتهلككم كما أهلكتهم**»[(١)].

٢٩- التحذير من الشيطان وغروره وخداعه؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾.

٣٠- إثبات عداوة الشيطان الشديدة القديمة لبني آدم، ووجوب اتخاذه عدوًّا، والحذر منه، ومن طاعته؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾.

٣١- أنه إنما يدعو أتباعه؛ ليضلهم عن طريق الحق؛ ليكونوا معه في النار؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾.

٣٢- التحذير من الكفر، والوعيد للكفار ببيان ما أعد لهم من العذاب الشديد، والترغيب في الإيمان والعمل الصالح ببيان ما أعد للذين آمنوا وعملوا الصالحات من المغفرة والأجر الكبير؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ۝٧﴾ وفي هذا جمع بين الترغيب والترهيب.

---

(١) أخرجه البخاري في المغازي ٤٠١٥، ومسلم في الزهد والرقائق ٢٩٦١، والترمذي في صفة القيامة ٢٤٦٢، وابن ماجه في الفتن ٣٩٩٧؛ من حديث عمرو بن عوف رضي الله عنه.

٣٣- لا بد من الجمع بين الإيمان بالقلب، وعمل الصالحات بالجوارح، ولا بد من كون العمل صالحًا؛ أي: خالصًا لله تعالى، موافقًا لشرعه.

٣٤- تكفله عز وجل بثواب من آمن وعمل صالحًا، وضمانه له؛ ولهذا سماه أجرًا.

٣٥- أن التخلية قبل التحلية؛ لتقديم المغفرة على الأجر.

٣٦- أنه لا حيلة فيمن زين له سوء عمله فرآه حسنًا؛ لقوله: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًاۖ﴾ كما قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيۡتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلۡمٖ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمۡعِهِۦ وَقَلۡبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةٗ فَمَن يَهۡدِيهِ مِنۢ بَعۡدِ ٱللَّهِۚ﴾ [الجاثية: ٢٣].

٣٧- شتان بين من زين له سوء عمله فرآه حسنًا، وبين من هداه الله إلى الصراط المستقيم، فلا يستوي هذا وذاك، شتان بين مشرِّق ومغرِّب.

٣٨- نفوذ مشيئة الله تعالى في العباد، يضل من يشاء بعدله، ويهدي من يشاء بفضله؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ﴾.

وفي هذا رد على القدرية، الذين يقولون: إن أفعال العباد لا تتعلق بها مشيئة الله.

٣٩- نهي الله عز وجل له ﷺ أن يهلك نفسه حسرات وحزنًا على ضلال من ضل من الكفار؛ لأن مهمته البلاغ، وليس عليه هداية القلوب؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍۚ﴾.

وفي هذا درس للدعاة إلى الله، والمربين والمصلحين من الآباء والأمهات والمعلمين وغيرهم، فلا يحزنهم، ولا يفت في عضدهم من لم يستجب لدعوتهم.

٤٠- شدة شفقته ﷺ على أمته، وحزنه الشديد على ضلال من ضل منهم؛ كما قال تعالى: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ٣﴾ [الشعراء: ٣].

٤١- أنه ﷺ كغيره من البشر، ينتابه الحزن والفرح والسرور، وفي هذا رد على الذين يغلون به، ويصرفون له شيئًا من خصائص الإلهية.

٤٢- إثبات وتأكيد علم الله عز وجل التام بالذي يفعله الكفار من الضلال والكفر، وأنه سيحاسبهم ويجازيهم على ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ﴾ وفي هذا تهديد ووعيد لهم.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابٗا فَسُقۡنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٖ مَّيِّتٖ فَأَحۡيَيۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ۝٩ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ جَمِيعًاۚ إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥۚ وَٱلَّذِينَ يَمۡكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۖ وَمَكۡرُ أُوْلَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ۝١٠ وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ جَعَلَكُمۡ أَزۡوَٰجٗاۚ وَمَا تَحۡمِلُ مِنۡ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلۡمِهِۦۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٖ وَلَا يُنقَصُ مِنۡ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِي كِتَٰبٍۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ۝١١ وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡبَحۡرَانِ هَٰذَا عَذۡبٞ فُرَاتٞ سَآئِغٞ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلۡحٌ أُجَاجٞۖ وَمِن كُلّٖ تَأۡكُلُونَ لَحۡمٗا طَرِيّٗا وَتَسۡتَخۡرِجُونَ حِلۡيَةٗ تَلۡبَسُونَهَاۖ وَتَرَى ٱلۡفُلۡكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ۝١٢ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ لَهُ ٱلۡمُلۡكُۚ وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمۡلِكُونَ مِن قِطۡمِيرٍ ۝١٣ إِن تَدۡعُوهُمۡ لَا يَسۡمَعُواْ دُعَآءَكُمۡ وَلَوۡ سَمِعُواْ مَا ٱسۡتَجَابُواْ لَكُمۡۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُونَ بِشِرۡكِكُمۡۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثۡلُ خَبِيرٖ ۝١٤﴾.

قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابٗا فَسُقۡنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٖ مَّيِّتٖ فَأَحۡيَيۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ۝٩ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ جَمِيعًاۚ إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥۚ وَٱلَّذِينَ يَمۡكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۖ وَمَكۡرُ أُوْلَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ۝١٠ وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ جَعَلَكُمۡ أَزۡوَٰجٗاۚ وَمَا تَحۡمِلُ مِنۡ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلۡمِهِۦۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٖ وَلَا يُنقَصُ مِنۡ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِي كِتَٰبٍۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ۝١١﴾:

قوله: ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ﴾ قرأ ابن كثير وحمزة والكسائي وخلف: «الرِّيحَ»؛ بالإفراد، وقرأ الباقون: ﴿ٱلرِّيَٰحَ﴾ بالجمع.

و«الريح» بالإفراد هي بمعنى الجمع؛ لأن «أل» للاستغراق والشمول، فتشمل كل الرياح.

وتستعمل «الرياح» غالبًا في الخير، و«الريح» بالإفراد بضد ذلك، وقد روي أن النبي ﷺ قال في دعاء الريح: «**اللهم اجعلها رياحًا، ولا تجعلها ريحًا**»[(١)].

أي: الله وحده الذي أرسل الرياح وسخرها.

---

(١) أخرجه الشافعي في «مسنده» ٥٠٢، وأبو يعلى في «المسند» ٢٤٥٦، والطبراني في «المعجم الكبير» ١١/ ٢١٣ رقم ١١٥٣٣؛ من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

﴿فَتُثِيرُ سَحَابًا﴾ الفاء: عاطفة في المواضع الثلاثة؛ أي: فتثير سحابًا وتحركه، و«السحاب» هو: المزن والغيم في الجو، وسمي سحابًا؛ لانسحابه في الجو، وسحب الرياح له.

﴿فَسُقْنَاهُ﴾، نحن، بتسخيرنا الرياح لسوقه؛ كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ﴾ [السجدة: ٢٧].

﴿إِلَى بَلَدٍ مَّيِّتٍ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر ويعقوب بسكون الياء: «مَيْتٍ»، وقرأ الباقون بكسرها مشددة: ﴿مَّيِّتٍ﴾، أي: مجدب، لا نبات فيه.

﴿فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ الباء: للسببية؛ أي: فأحيينا بسببه.

﴿الْأَرْضَ﴾، أي: أرض البلد الميت، بالنبات والزرع والكلأ.

﴿بَعْدَ مَوْتِهَا﴾، أي: بعد يبسها وجدبها، وخلوها من النبات؛ كما قال تعالى: ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ [الحج: ٥].

﴿كَذَٰلِكَ النُّشُورُ﴾، الكاف: للتشبيه، والنشور: بعث الخلائق من قبورهم يوم القيامة، ونشرهم على وجه الأرض أحياء؛ أي: كما سقنا السحاب إلى بلد ميت وأنزلنا منه الماء فأحيينا به الأرض بعد موتها بالنبات والأشجار والزروع والثمار.

كذلك النشور، وبعث الأجساد حية من القبور، إذا أراد الله بعثها ونشرها، أنزل من تحت العرش مطرًا يعم الأرض جميعًا، فتنبت الأجساد في قبورها؛ كما ينبت الحب في الأرض.

عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**ثم ينزل الله من السماء ماء، فينبتون كما ينبت البقل، ليس من الإنسان شيء إلا يبلى، إلا عظمًا واحدًا وهو: عجب الذنب، ومنه يركب الخلق يوم القيامة**»(١).

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ﴾ «من»: اسم شرط جازم، يفيد العموم، و«كان» فعل الشرط، والعزة: القوة والغلبة والمنعة والشرف والسؤدد؛ أي: أيُّ أحد، أو أيُّ إنسانٍ يريد العزة؛ أي: يطلبها ويحب أن يكون عزيزًا في الدنيا والآخرة.

---

(١) أخرجه البخاري في التفسير ٤٩٣٥، ومسلم في الفتن ٢٩٥٥، وأبو داود في السنة ٤٧٤٣، والنسائي في الجنائز ٢٠٧٧، وابن ماجه في الزهد ٤٢٦٦.

﴿فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ الفاء: رابطة لجواب شرط مقدر، والجملة تعليل للجواب المقدر، واللام في «لله» للاختصاص، وهو متعلق بمحذوف خبر قُدِّم؛ لإفادة الحصر، و«العزة»: مبتدأ، و«جميعًا»: حال.

أي: من كان يريد العزة فليطلبها من الله تعالى وحده بطاعته، فإنها لا تطلب إلا منه، ولا تنال إلا بطاعته؛ لأن له عز وجل العزة جميعًا؛ أي: بجميع أنواعها ملكًا وتصرفًا في السموات والأرض، وفي الدنيا والآخرة؛ كما قال تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ﴾ [آل عمران: ٢٦]؛ ولهذا قال هنا بعد هذه الآية: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾.

أي: فليطلب العزة من الله بالكلم الطيب والعمل الصالح؛ لأنها منه، وتنال بطاعته؛ ولهذا قال في الآية الأخرى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨].

وفي هذا رد على الذين يعبدون من دون الله آلهة ليتعززوا بهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾﴾ [مريم: ٨١ ، ٨٢]، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾﴾ [النساء: ١٣٩].

فالعز كل العز، ورفع الرأس عاليًا فوق هام السحاب وفوق الثريّا، يكون بطاعة الله تعالى، والذل كل الذل، وتنكيس الرأس في الثرى، يكون بمعصية الله تعالى؛ ولهذا كان من دعاء الإمام أحمد وبعض السلف: «اللهم أعزني بطاعتك، ولا تذلني بمعصيتك»(١).

وكان عامة دعاء إبراهيم بن أدهم: «اللهم انقلني من ذل المعصية إلى عز الطاعة»(٢).

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «إنا قوم أعزنا الله بالإسلام، فمهما ابتغينا العزة من غيره أذلنا الله»(٣).

وقال الحسن البصري: «إنهم وإن طقطقت بهم البغال، وهملجت بهم البراذين، إن

---

(١) انظر: «لطائف المعارف» لابن رجب ص٦٤، «حلية الأولياء» ٣/ ١٩٦، «الجواب الكافي» ص٥٩.

(٢) انظر: «لطائف المعارف» ص٦٤.

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة في «المصنف» ١٨/ ٣٢٠، والحاكم في «المستدرك» ١/ ٦٢.

ذل المعصية لا يفارق قلوبهم، أبى الله إلا أن يذل من عصاه»[١].

وقال عبدالله بن المبارك»[٢]:

رأيت الذنوب تميت القلوب وقد يورث الذل إدمانها

وترك الذنوب حياة القلوب وخير لنفسك عصيانها

﴿إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥ﴾، أي: بهذا تكون العزة، بالكلم الطيب، والعمل الصالح.

أي: إليه عز وجل يرتفع ويعرج الكلم الطيب الحسن، وهو ذكر الله؛ بتلاوة القرآن، والتسبيح والتحميد، والتهليل والتكبير، والدعاء، ونحو ذلك.

﴿وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ﴾ الذي توفر فيه الإخلاص لله تعالى، ومتابعة شرعه، من صلاة وزكاة وصوم وحج، وبر للوالدين، وصلة للأرحام، وجهاد في سبيل الله، وغير ذلك.

﴿يَرۡفَعُهُۥ﴾، أي: يرفعه الله عز وجل إليه كالكلم الطيب.

ويحتمل أن المعنى: والعمل الصالح يرفع الكلم الطيب؛ أي: أن الكلم الطيب لا يرفع إلا إذا عمل صاحبه أعمالًا صالحة، فلا يقبل قول بلا عمل.

﴿وَٱلَّذِينَ يَمۡكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ بالكفر والشرك والرياء والمعاصي، وكل ما يسوء فعله، ويضر بفاعله أو غيره في الدنيا والآخرة.

﴿لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۖ﴾، أي: لهم خاصة عذاب شديد قوي حسيًّا على الأبدان في إيلامه، وفي كثرته وتنوعه وغير ذلك، ومعنويًّا على القلوب يذلهم ويهينهم؛ لأنهم طلبوا العزة من غير الله.

﴿وَمَكۡرُ أُوْلَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾، أي: يبطل، ويضمحل، ويهلك؛ كما قال تعالى: ﴿وَأَحَلُّواْ قَوۡمَهُمۡ دَارَ ٱلۡبَوَارِ ٢٨ جَهَنَّمَ يَصۡلَوۡنَهَاۖ وَبِئۡسَ ٱلۡقَرَارُ ٢٩﴾ [إبراهيم: ٢٨، ٢٩].

وأشار إليهم بإشارة البعيد «أولئك» تحقيرًا لهم.

﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ جَعَلَكُمۡ أَزۡوَٰجٗاۚ﴾ الآية.

---

(١) انظر: «الجواب الكافي» ص٥٩، «غذاء الألباب في شرح منظومة الآداب» ١/ ٨٩.

(٢) انظر: «ديوانه» ص٢٢. بدائع التفسير» ٣/ ٤٤٣.

ذكر عز وجل دلائل قدرته في الآفاق بقوله: ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ﴾ الآية، ثم أتبع ذلك بذكر دلائل قدرته في الأنفس؛ كما قال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣].

قوله: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾، أي: ابتدأ خلقكم من تراب بخلق أبيكم آدم من تراب؛ كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الروم: ٢٠]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾ [الحج: ٥].

﴿ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾ من ماء قليل، وهي المني؛ كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾﴾ [النجم: ٤٥- ٤٦]، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾﴾ [القيامة: ٣٧].

﴿ثُمَّ﴾، أي: ثم لم يزل عز وجل ينقلكم طورًا بعد طور بقدرته؛ لطفًا منه ورحمة حتى ﴿جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا﴾، أي: ذكورًا وإناثًا، يتزوج الذكر الأنثى، فيحصل بينهما- بتوفيق الله- الأنس والمودة، وإنجاب الذرية، قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم: ٢١].

﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ﴾ الواو: عاطفة، و«ما»: نافية، والجملة معطوفة على قوله: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾.

و«من»: زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة من حيث المعنى لعموم النفي، و«أنثى» نكرة في سياق النفي، فتعم، و«إلا»: أداة حصر؛ أي: وما تحمل أيُّ أنثى من النساء، وغيرها من إناث الحيوانات.

﴿وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ﴾، أي: ولا تضع حملها إلا بعلمه، فيعلم متى تحمل، ويعلم متى تضع حملها؛ كما يعلم حملها وأحواله وأطواره؛ كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾﴾ [الرعد: ٨].

﴿وَمَا يُعَمَّرُ﴾: معطوفة على «خلقكم»، أو: على «تحمل»، ومعنى ﴿يُعَمَّرُ﴾، أي: يزاد في عمره، ﴿مِن مُّعَمَّرٍ﴾ «من»: زائدة من حيث الإعراب مؤكدة من حيث المعنى لعموم النفي،

و«معمر»: نكرة في سياق النفي، فتعم؛ أي: وما يعمر أيّ معمر، ومعنى «معمر»؛ أي: طويل العمر.

﴿وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ﴾ قرأ روح عن يعقوب بفتح الياء وضم القاف: «يَنْقُصُ»، وقرأ الباقون بضم الياء وفتح القاف: ﴿يُنقَصُ﴾، أي: فلا يعمر؛ أي: فلا يزاد في عمره.

والمعنى: وما يعمر من أحد ولا ينقص من عمره.

عن أنس رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**من أحب أن يبسط له في رزقه، وينسأ له في أثره، فليصل رحمه**»(١).

﴿إِلَّا فِي كِتَٰبٍۚ﴾ «إلا»: أداة حصر؛ أي: إلا مكتوب مسطور محفوظ ﴿فِي كِتَٰبٍۚ﴾ وهو اللوح المحفوظ؛ أي: فكل ذلك معلوم لله تعالى، ومكتوب عنده قبل كونه.

﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ الإشارة إلى ما سبق من الزيادة في العمر، والنقص، وكتابة ذلك كله في اللوح المحفوظ.

﴿عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾، أي: سهل، هين؛ لسعة علمه، وإحاطته بكل شيء.

قوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌۖ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَاۖ وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾﴾:

قوله: ﴿وَمَا يَسْتَوِي﴾، أي: وما يتساوى ويتماثل ﴿ٱلْبَحْرَانِ﴾ مثنى «بحر»، والبحر: الماء الكثير، ﴿هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌۖ﴾ تفسير وبيان لـ﴿ٱلْبَحْرَانِ﴾ ﴿هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ﴾، أي: أحدهما عذب حلو، ﴿فُرَاتٌ﴾ شديد العذوبة والحلاوة، ﴿سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ﴾، أي: مستساغ شربه، سهل ميسر مروره في الحلق، وفي عروق النباتات والغراس.

﴿وَهَٰذَا﴾، أي: والثاني ﴿مِلْحٌ أُجَاجٌۖ﴾، أي: شديد الملوحة مرٌّ زعاف، وهو ماء البحار الكبيرة الساكنة، جعله الله مالحًا لئلا يفسد الهواء المحيط بالأرض بسبب روائح

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب ٥٩٨٦، ومسلم في البر، صلة الرحم، وتحريم قطيعتها ٢٥٥٧، وأبو داود في الزكاة، صلة الرحم ١٦٩٣.

ما يموت في البحر من الحيوانات، ولأنه ساكن لا يجري فملوحته تمنعه من التغير، ولتكون حيواناته أحسن وألذ وأطيب.

والجواب: أنه لا يستوي البحر العذب الفرات السائغ شرابه، والبحر الملح الشديد الملوحة، وشتان ما بينهما؛ كما لا يستوي المؤمن والكافر.

﴿وَمِن كُلٍّ﴾، أي: ومن كل من البحرين العذب والمالح.

﴿تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا﴾ وهو السمك، ﴿طَرِيًّا﴾، أي: لم يتغير بنتن، وإن مات فإنه طري؛ لأن الله أحل صيد البحر، وهو ما أخذ منه حيًّا، وطعامه، وهو ما أخذ منه ميتًا، قال تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ﴾ [المائدة: ٩٦].

﴿وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً﴾ معطوف على «تأكلون»؛ أي: وتستخرجون من كل منهما حلية من اللؤلؤ والمرجان، وغير ذلك، ﴿تَلْبَسُونَهَا﴾، أي: تتحلون وتتجملون بها؛ كما قال تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾﴾ [الرحمن: ٢٢].

قيل: الحلية إنما تخرج من الملح فقط، أو منهما بعد اختلاط الملح بالعذب، ولا تخرج من العذب وحده، وظاهر القرآن أنها تخرج منهما؛ أي: من كل منهما[1].

وقال هنا ﴿وَتَسْتَخْرِجُونَ﴾ بينما قال في أخذ السمك: ﴿تَأْكُلُونَ لَحْمًا﴾؛ لأن أخذ السمك سهل لا يحتاج إلى كلفة؛ ولهذا عبر بالأكل مباشرة بينما الحلية يُحتاج للحصول عليها إلى كلفة وغوص وتعب؛ ولهذا قال: ﴿وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً﴾.

﴿وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ﴾ الخطاب عام؛ أي: وترى- أيها المشاهد- السفن، أي: وتبصرها ﴿فِيهِ﴾، أي: في كل من البحرين.

﴿مَوَاخِرَ﴾، أي: تمخر عباب البحر وماءه؛ أي: تشقه في مقدمها المسنَّم، وتجري على ظهره مقبلة ومدبرة، مع كبرها وسعتها وثقلها؛ لكثرة ما على ظهرها من الناس والبضائع والأرزاق وغير ذلك؛ وذلك من أكبر وأعظم الآيات؛ ولهذا قال: ﴿وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ﴾.

---

(١) انظر الكلام على قوله تعالى في سورة الرحمن: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾﴾ [الرحمن:٢٢].

﴿لِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ﴾ اللام: للتعليل؛ أي: لأجل أن تبتغوا؛ أي: تطلبوا من فضله تعالى الرزق والتجارة، بالتنقل عبر البحر على ظهور هذه السفن في تجاراتكم وأسفاركم من قطر إلى قطر، ومن إقليم إلى إقليم، ومن بلد إلى آخر، وهذا من أعظم النعم على العباد؛ لما فيه من المصالح والمنافع لهم؛ ولهذا قال: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾، أي: ولأجل أن تشكروا الله على هذه النعم بالاعتراف بها بقلوبكم، وأنها من الله عز وجل وحده، والثناء على الله عز وجل بها بألسنتكم، واستعمالها في طاعته بجوارحكم، والاستعانة بها على ذلك.

قوله تعالى: ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ۝١٣ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُواْ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُواْ مَا ٱسْتَجَابُواْ لَكُمْ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ۝١٤﴾:

قوله تعالى: ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ﴾ الآية.

لما ذكر دلائل قدرته ونعمته في تسخير البحر يأكلون ويلبسون مما فيه ويركبونه، أتبع ذلك بذكر دلائل قدرته ونعمته في تسخير الليل والنهار والشمس والقمر.

قوله: ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ﴾، أي: يدخل عز وجل شيئًا فشيئًا وبنظام محكم دقيق من ساعات الليل في النهار، فيقصر الليل ويطول النهار، وهذا في الصيف، ﴿وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ﴾، أي: ويدخل من ساعات النهار في الليل، فيطول الليل ويقصر النهار، وهذا في الشتاء.

وفي هذا من المصالح العظيمة، والمنافع الكثيرة ما لا يعلمه إلا الله لبني آدم في أبدانهم، وحيواناتهم وأشجارهم وزروعهم وحروثهم وثمارهم وغير ذلك.

﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾.

لما ذكر إيلاجه الليل في النهار والعكس، ذكر ما جعله الله سببًا لذلك، وهو جريان الشمس، وذكر القمر بالتبع لما يحصل به من نور الليل، والعلم بالحساب وعدد السنين، وغير ذلك.

﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾، أي: سخرهما لمصالح عباده؛ كما قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ

لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ﴾ [إبراهيم: ٣٣]؛ أي: مستمرين.

﴿كُلٌّ يَجْرِي﴾، أي: كل من الشمس والقمر يسير في فلكه؛ كما قال تعالى: ﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ۝٣٨ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ۝٣٩﴾ [يس: ٣٨- ٣٩].

﴿لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾، أي: إلى وقت معين محدد مقدر؛ كما قال تعالى في سورة لقمان: ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [لقمان: ٢٩].

أي: إلى يوم القيامة، حين تكور الشمس، ويخسف القمر، ويجمع الشمس والقمر، وتلفان ويذهب بنورهما؛ كما قال تعالى: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝١﴾ [التكوير: ١]، وقال تعالى: ﴿وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۝٩﴾ [القيامة: ٩].

﴿ذَٰلِكُمُ﴾، أي: ذلكم الذي انفرد بخلق هذه المخلوقات، وسخرها بقدرته، وأنعم عليكم بها ﴿ٱللَّهُ﴾، أي: الإله المعبود بحق محبة وتعظيمًا، الذي يجب أن تعبدوه وحده، ﴿رَبُّكُمْ﴾، أي: خالقكم ومالككم ومدبركم.

﴿لَهُ ٱلْمُلْكُ﴾، أي: له وحده الملك كله؛ كما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [المائدة: ١٧].

﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ﴾، أي: والذين تعبدون من الأوثان والأصنام، وتدعونهم دعاء مسألة، ودعاء عبادة، ﴿مِن دُونِهِۦ﴾، أي: من دون الله؛ أي: غير الله.

﴿مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾ «من» زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة من حيث المعنى لعموم النفي؛ أي: ما يملكون أيَّ قطمير. و«القطمير»: هو اللفافة والقشرة الرقيقة البيضاء على النواة. والمعنى: لا يملكون شيئًا مهما قل.

﴿إِن تَدْعُوهُمْ﴾، أي: ومع كون هؤلاء الذين تدعون من دون الله ما يملكون من قطمير، فهم ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ﴾؛ لأنهم جمادات وأموات، وعن دعاء من دعاهم غافلون؛ كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ۝٢٠ أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ۝٢١﴾ [النحل: ٢٠- ٢١].

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ

عَن دُعَآئِهِمۡ غَٰفِلُونَ ۝٥﴾ [الأحقاف: ٥].

﴿وَلَوۡ سَمِعُواْ﴾، أي: على وجه الفرض والتقدير.

﴿مَا ٱسۡتَجَابُواْ لَكُمۡۖ﴾، أي: ما أجابوكم؛ لأنهم لا يملكون من الأمر شيئًا، فلا يقدرون على ما تطلبون منهم، بل ولا رضوا بعبادتكم إياهم؛ ولهذا قال:

﴿وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُونَ بِشِرۡكِكُمۡۚ﴾، أي: يتبرؤون منكم، ويقولون: ﴿سُبۡحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِمۖ﴾ [سبأ: ٤١]، ﴿سُبۡحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِي لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنۡ أَوۡلِيَآءَ﴾ [الفرقان: ١٨].

كما قال تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمۡ عِزّٗا ۝٨١ كَلَّاۚ سَيَكۡفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمۡ وَيَكُونُونَ عَلَيۡهِمۡ ضِدًّا ۝٨٢﴾ [مريم: ٨١- ٨٢]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمۡ أَعۡدَآءٗ وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمۡ كَٰفِرِينَ ۝٦﴾ [الأحقاف: ٦]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱتَّخَذۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡثَٰنٗا مَّوَدَّةَ بَيۡنِكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ ثُمَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُ بَعۡضُكُم بِبَعۡضٖ وَيَلۡعَنُ بَعۡضُكُم بَعۡضٗا وَمَأۡوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٥].

﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ﴾، أي: ولا أحد يخبرك بأحوال الدنيا والآخرة، وبأحوال هؤلاء العابدين ومعبوداتهم خاصة، وأنهم لا يملكون شيئًا، ولا يسمعون دعاءهم، ولو سمعوا ما استجابوا لهم، ويوم القيامة يتبرؤون منهم.

﴿مِثۡلُ خَبِيرٖ﴾، أي: مثل خبير بذلك كله، مطلع عليه، عالم به، وهو الله عز وجل، الخبير ببواطن الأمور وظواهرها، ودقائقها وجلائلها، وخفياتها وجلياتها.

ولهذا يقولون في المثل: «على الخبير سقطت»؛ أي: على الخبير الذي يخبرك الخبر اليقيني.

الفوائد والأحكام:

١- إثبات البعث والمعاد، وقدرة الله تعالى التامة على ذلك، والتدليل على ذلك بقياسه على قدرته على إحيائه الأرض بعد موتها بإرسال الرياح تثير السحاب، وسوقه إلى بلد ميت؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابٗا فَسُقۡنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٖ مَّيِّتٖ فَأَحۡيَيۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ۝٩﴾، وقوله: ﴿وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُونَ بِشِرۡكِكُمۡۚ﴾.

٢- أن من منافع الرياح وفوائدها: إثارتها للسحاب، وسوقها إياه حيث شاء الله

من البلاد.

٣- كمال قدرة الله تعالى وعظمته، ونعمته على العباد، بإرسال الرياح تثير السحاب وتسوقه، وإنزال المطر وإحياء الأرض بعد موتها.

٤- إثبات الأسباب، وأن الله قد جعل لكل شيء سببًا، وجواز إضافة الشيء إلى سببه المعلوم، فالرياح سبب لإثارة السحاب، والمطر سبب لحياة الأرض ونباتها.

٥- الحث على طلب العزة من الله عز وجل وحده، وأنها لا تطلب إلا منه عز وجل دون سواه؛ لقوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾.

٦- إثبات الإرادة والاختيار للإنسان، وأنه ليس مجبورًا على أفعاله؛ كما تقول الجبرية؛ لقوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ﴾.

٧- أن لله تعالى وحده العزة جميعًا، يعز من يشاء بطاعته، ويذل من يشاء بمعصيته؛ لقوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾.

٨- أن العزة لا تنال إلا بطاعة الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾.

٩- إثبات علو الله تعالى، على خلقه؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ﴾.

١٠- أن الله عز وجل طيب لا يقبل إلا طيبًا.

١١- أنه لا يصعد إليه عز وجل من الكلم إلا ما كان طيبًا، ولا يرفع إليه من الأعمال إلا ما كان صالحًا، خالصًا لله تعالى، موافقًا لشرعه.

١٢- أن الكلم منه ما هو طيب، ومنه ما هو خبيث، وليس بطيب؛ كما أن العمل منه ما هو صالح، ومنه ما هو فاسد، وليس بصالح.

١٣- الترغيب في الكلم الطيب: من الذكر، وقراءة القرآن، والتسبيح، والتحميد، والتهليل، والتكبير، وغير ذلك، وفي العمل الصالح: من الصلاة، والصدقة، والبر، والإحسان، وغير ذلك.

١٤- أن العزة مطلب لكل أحد، لكن أكثر الخلق يطلبها من غير طريقها، فمنهم من يطلبها بالمال وما أكثرهم، ومنهم من يطلبها بالمناصب والجاه، ومنهم من يطلبها بغير ذلك من مُتع الدنيا، وأبى الله أن تكون العزة إلا بطاعته.

١٥- التهديد والوعيد للذين يمكرون السيئات بالكفر والشرك والمعاصي؛ بالعذاب الشديد، وبوار مكرهم واضمحلاله؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَمَكْرُ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾.

١٦- أن السيئات كلها مكر وخداع وباطل، سواء ما كان منها خفية أو علانية.

١٧- بيان تمام قدرة الله تعالى في ابتداء خلق بني آدم من تراب، ثم من نطفة، إلى أن جعلهم أزواجًا، والامتنان عليهم بذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا ۚ﴾.

١٨- أن من حكمة الله تعالى ورحمته، ونعمته على بني آدم؛ أن جعلهم أزواجًا، يسكن بعضهم إلى بعض، ويأنس بعضهم ببعض، وجعل بينهم مودة ورحمة؛ لتطيب الحياة، ويحصل النسل ويبقى ويتكاثر.

١٩- إحاطة علم الله بالحمل والأجنة حملًا ووضعًا، وغير ذلك، وبكل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ﴾ [فاطر: ١١].

٢٠- تقدير الله عز وجل للأعمار طويلها وقصيرها، وما فيها من الزيادة والنقصان، وكتابة ذلك كله باللوح المحفوظ؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ ۚ﴾.

٢١- أن خلقه عز وجل لبني آدم وغيرهم، وإحاطة علمه بما تحمل كل أنثى وما تضعه، وبكل شيء، وكتابته الأعمار كلها، طويلها وقصيرها، وغير ذلك في اللوح المحفوظ، كل ذلك عليه يسير؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾.

٢٢- بيان قدرة الله تعالى التامة، ونعمته في إيجاده من الماء هذين البحرين: العذب والمالح، وكونهما لا يستويان، فهذا في غاية العذوبة مستساغ شربه، وهذا في غاية الملوحة لا يطاق شربه؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَـٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَـٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ۖ﴾، وهكذا فلا يستوي المؤمن والكافر، والحق والباطل.

٢٣- حكمة الله تعالى ورحمته في جعله لكل من البحرين خاصيته؛ لما في ذلك من المصالح العظيمة للعباد.

٢٤- الامتنان على العباد بما أودع عز وجل في هذين البحرين من المنافع؛ يأكلون

مما فيهما من الحيتان، ويستخرجون منهما حلية يلبسونها، ويركبون ظهر البحر على الفلك، في أسفارهم وتجاراتهم؛ طلبًا للرزق؛ لقوله تعالى: ﴿وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ﴾.

٢٥- مشروعية طلب الرزق، وبذل الأسباب في ذلك؛ بل ذلك واجب في حدود ما يُستغنى به عن الناس؛ لقوله تعالى: ﴿لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ﴾.

٢٦- وجوب شكر نعمة الله عز وجل على إيجاد هذين البحرين، وما فيهما من المنافع والمصالح، وعلى جميع نعمه بالقلب واللسان والجوارح، ونسبة هذه النعم إليه وحده، واستعمالها في طاعته، والاستعانة بها على مرضاته؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

٢٧- بيان قدرة الله تعالى وحكمته ونعمته، بإدخال الليل في النهار، والنهار في الليل، وتسخير الشمس والقمر يجريان في فلكهما، وما في ذلك من المصالح العظيمة، والمنافع الكثيرة، للإنسان والحيوان والنبات وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾.

٢٨- أن تعاقب الليل والنهار، واختلافهما طولًا وقصرًا، بسبب جريان الشمس.

٢٩- أن لكل من الشمس والقمر أجلًا محددًا ووقتًا معينًا يتوقف فيه جريانهما، وينقطع فيه سلطانهما، وذلك عند قيام الساعة، وانتهاء هذه الدنيا؛ لقوله تعالى: ﴿كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾.

٣٠- التدليل بإيجاد هذه المخلوقات العظيمة- الليل والنهار، وتعاقبهما زيادة ونقصًا، وتسخير الشمس والقمر يجريان في منازلهما- على وحدانيته عز وجل في ألوهيته وربوبيته العامة لجميع الخلق، وتفرده واختصاصه وحده بالملك كله؛ لقوله تعالى: ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ﴾.

٣١- إثبات ربوبية الله تعالى العامة؛ لقوله تعالى: ﴿رَبُّكُمْ﴾.

٣٢- تحقير جميع ما يدعى من دون الله من الآلهة والأنداد والأوثان والأصنام، وأنها لا تملك أقل الأشياء وأحقرها وهو القطمير؛ لقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن

دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴾.

٣٣- بلوغ القرآن الكريم الغاية في تحقير ما يريد التنفير منه.

٣٤- تسفيه عقول المشركين في عبادتهم من دون الله من لا يسمعون دعاءهم؛ لأنهم أموات وجمادات، وغافلون عنهم، ولو سمعوا- على الفرض والتقدير- ما استجابوا لهم؛ لأنهم لا يملكون من الأمر شيئًا؛ لقوله تعالى: ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ﴾.

٣٥- كفر هؤلاء المعبودين وجحودهم شرك من أشرك بهم، وتبرؤهم منهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾.

٣٦- إثبات القيامة والبعث والحساب؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾.

٣٧- أنه لا أحد أصدق خبرًا من الله تعالى؛ لإحاطة علمه بكل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿۞ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿١٨﴾ وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ ﴿٢٢﴾ إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿۞ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿١٨﴾﴾:

قوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ﴾، أي: المحتاجون إلى الله من جميع الوجوه، وفي جميع الأحوال، والخلق كلهم مفتقرون إلى الله.

وإنما خص الناس؛ لأنهم هم العقلاء المكلفون، المخاطبون بالشرع، ولأن منهم من قد يطغيه ما أعطي من الدنيا- بخلاف سائر المخلوقات- فيظن أنه في غنى عن الله؛ كما قال تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ﴿٦﴾ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ ﴿٧﴾﴾ [العلق: ٦، ٧].

بل لقد قال اليهود لعنة الله عليهم: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ [آل عمران: ١٨١].

﴿وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ «هو»: ضمير فصل يفيد الحصر والتوكيد، والله وحده هو الغني؛ أي: ذو الغنى الواسع التام من جميع الوجوه، الغني عما سواه؛ كما قال تعالى: ﴿فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوا وَّاسْتَغْنَى اللَّهُ﴾ [التغابن: ٦].

﴿الْحَمِيدُ﴾، أي: الحميد في ذاته وصفاته، وفي شرعه وقدره وجزائه، المحمود على غناه؛ لجوده وكرمه وإحسانه، فهو عز وجل الحميد في غناه، الغني في حمده.

قال ابن القيم: «بيّن سبحانه في هذه الآية أن فقر العباد إليه أمر ذاتي لهم لا ينفك عنهم؛ كما أن كونه غنيًّا حميدًا ذاتي له، فغناه وحمده ثابت له لذاته، لا لأمر أوجبه، وفقر

سواه إليه ثابت لذاته، لا لأمر أوجبه؛ كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية:

فالفقر لي وصفُ ذاتٍ لازمٌ أبدًا كما الغنى أبدًا وصفٌ له ذاتي

فالعالم كله فقير بذاته إلى ربه الغني بذاته، فالفقر المطلق من كل وجه ثابت لذواتهم وحقائقهم من حيث هي، والغنى المطلق من كل وجه ثابت لذاته تعالى، وحقيقته من حيث هي، فيستحيل أن يكون العبد إلا فقيرًا، ويستحيل أن يكون الرب سبحانه إلا غنيًّا؛ كما أنه يستحيل أن يكون العبد إلا عبدًا، والرب إلا ربًّا»[1].

﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾، أي: إن يشأ عز وجل يذهبكم أيها الناس ويهلككم، ويأتِ بآخرين أطوع لله منكم؛ كما قال تعالى: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيرًا ﴿١٣٣﴾﴾ [النساء: ١٣٣]، وقال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِن بَعْدِكُم مَّا يَشَاءُ كَمَا أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ ﴿١٣٣﴾﴾ [الأنعام: ١٣٣]، وقال تعالى: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم﴾ [محمد: ٣٨].

ويحتمل أن المراد: إثبات البعث والنشور؛ أي: ويبعثكم خلقًا جديدًا يوم القيامة؛ كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾﴾ [إبراهيم: ١٩- ٢٠]، وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾﴾ [الإسراء: ٤٩].

ويدل على هذا المعنى قوله بعده: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ الآية.

﴿وَمَا ذَلِكَ﴾، أي: وما إذهابكم وإهلاككم والإتيان بخلق جديد ﴿عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾، أي: بممتنع ولا معجز له؛ لأنه عز وجل لا يعجزه شيء؛ لتمام قدرته، وسعة علمه.

﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ ﴿وَازِرَةٌ﴾ تحتمل معنيين: إما أن تكون بمعنى: مذنبة، أو بمعنى: أنها من ذوات الوزر؛ أي: مكلَّفة. فالمعنى: ولا تحمل نفس مذنبة أو مكلفة- وإن لم تذنب- ذنب نفس أخرى يوم القيامة، بل يجازَى كلٌّ بعمله، ولا يحمل أحد ذنب

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٣/ ٤٤٤.

أحد، ولا يُحمَّل أحد ذنب غيره.

﴿وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ﴾ لما ذكر أنه لا تحمل نفس وازرة وزر نفس أخرى ابتداءً، أتبع ذلك بذكر أنه حتى لو كان ذلك بطلبٍ منها لثقل حملها؛ فإنه لا يحمل منه شيء.

﴿وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ﴾ الواو: عاطفة، ﴿مُثْقَلَةٌ﴾: نكرة في سياق الشرط فتعم؛ أي: وإن تدع أيّ نفس مثقلة بالأوزار ﴿إِلَىٰ حِمْلِهَا﴾؛ ليحمل عنها أو بعضه.

﴿لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ﴾ جواب الشرط؛ أي: لا يحمل من حملها ووزرها شيء.

و«شيء»: نكرة في سياق الشرط، فتعم؛ أي: لا يحمل منه أيّ شيء مهما قل؛ لأن كل إنسان مرتهن بعمله؛ كما قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ۝﴾ [المدثر: ٣٨]، وقال تعالى: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ۝﴾ [النجم: ٣٩].

﴿وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ﴾، أي: ولو كان المدعو للحمل عنها ﴿ذَا قُرْبَىٰٓ﴾، أي: ذا قرابة منها، أبًا أو ابنًا أو غير ذلك، فإنه لا يحمل عنها شيئًا؛ لانشغال كل بنفسه وحاله؛ كما قال تعالى: ﴿وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [لقمان: ٣٣]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ۝ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ۝ وَصَـٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ۝ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ۝﴾ [عبس: ٣٤- ٣٧]، وقال تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ۝﴾ [المؤمنون: ١٠١].

والناس في الدنيا يتناصرون فيما بينهم بالحق وبالباطل، ويقول قائلهم:

أخـاك أخـاك إن مـن لا أخـا لـه ... كسـاع إلى الهيجـا بـدون سـلاح[1]

ولكن في الآخرة هيهات لهم ذلك، قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبِعُوا۟ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَـٰيَـٰكُمْ وَمَا هُم بِحَـٰمِلِينَ مِنْ خَطَـٰيَـٰهُم مِّن شَىْءٍ ۖ إِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ ۝﴾ [العنكبوت: ١٢].

﴿إِنَّمَا تُنذِرُ﴾: «إنما» أداة حصر. والحصر: إثبات الحكم للمذكور، ونفيه عما عداه؛ أي: إنما تنذر يا محمد؛ أي: تخوف وتحذر من عذاب الله.

(١) البيت لمسكين الدارمي. انظر: «ديوانه» ص٢٩.

﴿ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم﴾، أي: يخافون ربهم ويعظمونه في قلوبهم؛ لعلمهم ومعرفتهم به.

﴿بِٱلۡغَيۡبِ﴾، أي: وهو عز وجل غيب لم يروه، وإنما استدلوا عليه بآياته الكونية والشرعية؛ كما قال تعالى: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيۡلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُۚ لَا تَسۡجُدُواْ لِلشَّمۡسِ وَلَا لِلۡقَمَرِ وَٱسۡجُدُواْۤ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ٣٧﴾ [فصلت: ٣٧].

وهذا غاية الإحسان؛ كما قال ﷺ: «**الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك**»[(١)].

وأيضًا: ﴿يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ﴾، أي: وهم في غيبة عن أعين الناس. فهم في خشيتهم لله تعالى ومراقبتهم له في حال سرهم وغيبتهم عن الناس؛ كحال علانيتهم وكونهم في مشهد من الناس.

﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَۚ﴾، أي: وأقاموا الصلاة فرضها ونفلها بجوارحهم، إقامة تامة بشروطها وأركانها وواجباتها وخشوعها وسننها، وحافظوا عليها.

وخص الصلاة؛ لأنها أعظم العبادات، وعمود الإسلام، وقاعدته التي يدور عليها رحاه، وميزان الأعمال، ونور المسلم.

وإنما خص بالإنذار الذين يخشون ربهم بالغيب وأقاموا الصلاة؛ لأنهم هم المنتفعون بالإنذار دون من عداهم؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ﴾ [فاطر: ٢٨]، وإلا فهو ﷺ نذير للناس كافة؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سبأ: ٢٨].

﴿وَمَن تَزَكَّىٰ﴾ «من»: شرطية؛ أي: ومن تزكى؛ أي: ومن تطهر من الشرك والمعاصي والرياء، وغير ذلك من أمراض القلوب والجوارح، وزكى باطنه بخشية الله تعالى في السر والعلانية، وظاهره بإيتاء الزكاة والأعمال الصالحة.

﴿فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفۡسِهِۦۚ﴾ الفاء: رابطة لجواب الشرط، و«إنما»: أداة حصر؛ أي: فإنما يعود نفع تزكيه لنفسه هو، لا إلى غيره، والله عز وجل لا ينتفع بذلك؛ كما قال تعالى:

---

(١) سبق تخريجه.

﴿إِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُواْ يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [الزمر: ٧].

﴿وَإِلَى ٱللَّهِ﴾ وحده ﴿ٱلْمَصِيرُ﴾: المرجع والمآل والمآب؛ أي: إليه وحده مصير الأمور كلها، في الدنيا والآخرة، ومرجع الخلائق كلهم يوم القيامة إليه إيابهم، وعليه حسابهم؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ۝٢٥ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ۝٢٦﴾ [الغاشية: ٢٥- ٢٦].

وفي هذا وعد لمن خشي الله وأطاعه، ووعيد لمن كفر به وعصاه.

قوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ۝١٩ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ۝٢٠ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ۝٢١ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ ۝٢٢ إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ۝٢٣ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۚ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ۝٢٤ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ۝٢٥ ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ۝٢٦﴾.

قوله: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ۝١٩ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ۝٢٠ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ۝٢١ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ﴾:

في هذه الآيات ضرب الله أربعة أمثال؛ لبيان الفرق الشاسع، والبون الواسع، بين المؤمن والكافر، وبين الإيمان والكفر.

قوله: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ۝١٩﴾، أي: وما يستوي الأعمى، فاقد البصر، الذي لا يرى طريقه، ولا يشاهد ما حوله، ﴿وَٱلْبَصِيرُ﴾ الذي يبصر طريقه، ويرى ويشاهد ما حوله، وكذلك لا يستوي المؤمن الذي اهتدى للطريق المستقيم فهو على نور من ربه، والكافر الذي يتخبط في ظلمات الجهل والكفر حائرًا مذبذبًا؛ كما قال تعالى: ﴿۞ مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ ۚ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝٢٤﴾ [هود: ٢٤]، وقال تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ ۚ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ۝٥٨﴾ [غافر: ٥٨]، وقال تعالى: ﴿۞ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ۝١٩﴾ [الرعد: ١٩].

قال عبدالله بن رواحة رضي الله عنه يمتدح النبي ﷺ:

أرانا الهدى بعد العمى فقلوبنا ... به موقنات أن ما قال واقع[١]

﴿وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ﴾ «لا»: زائدة لتأكيد النفي في المواضع الخمسة؛ أي: ولا تستوي الظلمات التي تجعل المرء حائرًا لا يدري أيّ طريق يسلك، ولا بأي اتجاه يسير.

﴿وَلَا ٱلنُّورُ﴾ الذي يستنير به صاحبه، ويعرف به الطريق الموصل إلى مقصوده، وكذلك لا يستوي الكفر ولا الإيمان، فالكفر جهل وظلام وحيرة وقلق وتذبذب، والإيمان علم ونور وبصيرة، وطمأنينة وثبات؛ كما قال تعالى: ﴿ ۞ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ﴾ [النور: ٣٥]، وقال تعالى: ﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ۚ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا ۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾﴾ [النور: ٤٠].

ولهذا جمع الظلمات؛ لأن طرق الكفر كثيرة متشعبة، يسير فيها الكافر على غير هدى متشعب القلب في اتجاهات متعددة منحرفة في كل وادٍ.

وأفرد النور؛ لأن طريق الإيمان واحد، وهو صراط الله المستقيم، قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

﴿وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ﴾، أي: ولا يستوي الظل ولا الحرور، وهو حر الشمس أو الريح الحارة والسموم، فالظل بارد مريح لمن جلس فيه، والحرور مزعج متعب لمن ابتلي به، وكذلك لا يستوي الإيمان والكفر، فالإيمان طمأنينة وسعادة لأهله، والكفر قلق وشقاء لأهله.

ولا يستوي المؤمن والكافر، لا في ذاتيتهما، ولا في عملهما ومنهجهما، ولا في مآلهما ومستقرهما.

وقدم الظل على الحرور- والله أعلم- لمراعاة الفاصلة.

﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ۚ﴾؛ لأن الأحياء يتحركون ويذهبون ويجيئون

---

(١) أخرجه البخاري في التهجد ١١٥٥، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

ويسمعون ويعقلون ويأكلون ويشربون وغير ذلك، والأموات كالجمادات لا شيء عندهم من ذلك، وكذلك لا يستوي المؤمنون، الذين أحيا الله قلوبهم بالإيمان، والكفار الذين أمات الكفر قلوبهم؛ كما قال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢].

قال ابن القيم: «فجعل من اهتدى بهداه واستنار بنوره بصيرًا حيًّا في ظل يقيه من حر الشبهات والضلال والبدع والشرك مستنيرًا بنوره، والآخر أعمى ميتًا في حر الكفر والشرك والضلال، منغمسًا في الظلمات»[1].

﴿إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ﴾، أي: إن الله يسمع الذي يشاء من عباده؛ أي: يسمعهم الحق سماع فهم وقبول؛ لأنه سبحانه هو الهادي الموفق.

﴿وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ﴾ الباء: زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة من حيث المعنى؛ أي: وما أنت بمسمع الذين في القبور؛ لأنهم موتى لا يسمعون ولا يعقلون؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ۝٨٠﴾ [النمل: ٨٠].

أي: وما أنت بمسمع موتى القلوب من الكفار؛ لأنهم كالأموات.

﴿إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾ «إن»: نافية بمعنى «ما»، و«إلا»: أداة حصر؛ أي: ما أنت إلا نذير، وليس عليك أن توصل الهداية إلى قلوب الكفار، واقتصر على الإنذار؛ لأن السياق مع الكفار.

وأيضًا: فإن من لازم الإنذار تبليغ الأوامر والنواهي، التي يُنذر ويحذر من مخالفتها، ومفهوم ذلك أن من امتثلها فله البشارة؛ ولهذا قال:

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾، أي: إنا أرسلناك يا محمد ﴿بِالْحَقِّ﴾ الباء: للملابسة والمصاحبة؛ أي: بالدين الحق والعدل والصدق والهدى؛ كما قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ﴾ [التوبة: ٣٣، الفتح: ٢٨، الصف: ٩].

﴿بَشِيرًا﴾ للمؤمنين بالجنة والسعادة في الدنيا والآخرة، ﴿وَنَذِيرًا﴾ للكافرين من النار والشقاء في الدنيا والآخرة.

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٣/ ٤٤٥.

﴿وَإِن مِّنۡ أُمَّةٍ﴾ الواو: عاطفة، و«إن»: نافية، بمعنى: «ما»، و«من»: زائدة للتوكيد؛ أي: وما من أمة من الأمم الخالية الماضية.

﴿إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ «إلا»: أداة حصر؛ أي: إلا مضى فيها نذير، إقامة للحجة عليهم، فلست بدعًا من الرسل؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌۖ وَلِكُلِّ قَوۡمٍ هَادٍ﴾ [الرعد: ٧]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ فَمِنۡهُم مَّنۡ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنۡهُم مَّنۡ حَقَّتۡ عَلَيۡهِ ٱلضَّلَٰلَةُۚ﴾ [النحل: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿رُّسُلٗا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ﴾ [النساء: ١٦٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَوۡ أَنَّآ أَهۡلَكۡنَٰهُم بِعَذَابٖ مِّن قَبۡلِهِۦ لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوۡلَآ أَرۡسَلۡتَ إِلَيۡنَا رَسُولٗا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبۡلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخۡزَىٰ ١٣٤﴾ [طه: ١٣٤].

﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ﴾، أي: وإن يكذبك يا محمد هؤلاء المشركون من قومك.

﴿فَقَدۡ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾، أي: فقد كذب الذين من قبلهم من الأمم رسلهم، فليس ببدع أن يكذبك قومك؛ لأن الذين من قبلهم كذبوا الرسل؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ كُذِّبَتۡ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَىٰ مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ﴾ [الأنعام: ٣٤].

﴿جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ الباء في المواضع الثلاثة للمصاحبة؛ أي: جاءتهم رسلهم مصطحبين الآيات البينات، والدلائل الواضحات، والمعجزات الظاهرات، الدالة على صدقهم وصدق ما جاؤوا به من الحق.

﴿وَبِٱلزُّبُرِ﴾، أي: وجاءتهم بالزبر، و«الزبر»: جمع «زبور» وهي: الكتب المجموع فيها كثير من الأحكام كزبور داود، قال تعالى: ﴿وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا ١٦٣﴾ [النساء: ١٦٣].

﴿وَبِٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُنِيرِ﴾، أي: وجاءتهم بالكتاب المنير، والكتاب: اسم جنس، يشمل كل كتاب بعث به عز وجل أحدًا من رسله؛ كما قال تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ﴾ [البقرة: ٢١٣]، وقال تعالى: ﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلۡنَا مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمِيزَانَ﴾ [الحديد: ٢٥].

﴿ٱلۡمُنِيرِ﴾: المضيء الواضح البين الذي لا لبس فيه، الهادي إلى الحق وإلى الطريق المستقيم؛ أي: ومع هذا كله كذب أولئك رسلهم، فيما جاؤوهم به.

﴿ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾، أي: ثم عاقبت الذين كفروا من أولئك الأقوام بسبب تكذيبهم رسلهم، وما جاؤوهم به من الآيات والبراهين والمعجزات.

﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ الاستفهام للتقرير؛ أي: فكيف كان إنكاري عليهم وعقابي لهم؟ أي: ما أشد إنكاري عليهم وعقابي لهم؛ أي: أنه واقع موقعه، وعين الحكمة والصواب؛ لشدة كفرهم.

أي: فليحذر قومك من تكذيبك فيما جئتهم به من الحق، فيصيبهم ما أصاب أولئك الأقوام من النكال والعذاب الأليم.

الفوائد والأحكام:

١- تصدير الخطاب بالنداء للتنبيه والعناية والاهتمام؛ لقوله: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾.

٢- أن رسالته ﷺ وما جاء به من الوحي عام لجميع الناس؛ لقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾.

٣- افتقار الناس كلهم إلى الله تعالى، وحاجتهم المطلقة إليه عز وجل من جميع الوجوه؛ لقوله تعالى: ﴿أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ﴾.

٤- إثبات اسم الله تعالى: «الغني»، وأنه سبحانه بذاته ذو الغنى الواسع الكامل المطلق، المختص بذلك من جميع الوجوه؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ﴾.

٥- إثبات اسم الله تعالى: ﴿ٱلْحَمِيدُ﴾ وأنه سبحانه الحميد في أسمائه وصفاته، وأقواله وأفعاله، وفي قدره وشرعه وجزائه، وفي غناه.

٦- في اقتران اسميه عز وجل: «الغني» و«الحميد» في الآية، وفي مواضع عدة في القرآن الكريم دلالة على كمال غناه؛ لأنه عز وجل المحمود في غناه لكرمه وجوده وإحسانه.

٧- إثبات المشيئة لله تعالى وهي الإرادة الكونية؛ لقوله تعالى: ﴿إِن يَشَأْ﴾، وقوله: ﴿يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ﴾.

٨- إثبات تمام قدرته تعالى على إذهاب الناس وإعادتهم خلقًا جديدًا يوم القيامة، وعلى إهلاك المكذبين والإتيان بخير منهم، وعلى كل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ١٦﴾.

٩- أن إذهاب الناس وإهلاكهم، والإتيان بخلق جديد ليس بممتنع على الله تعالى

ولا معجز له؛ لأنه على كل شيء قدير؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ۝١٧﴾.

١٠- التحذير من مخالفة أمر الله تعالى، والتولي عنه؛ كما قال: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم﴾ [محمد: ٣٨].

١١- كمال عدل الله عز وجل بين الخلائق يوم القيامة، فلا تحمل نفس وزر نفس أخرى، بل كل يجازى بعمله؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾.

١٢- أنه لا يقبل التحميل إلا من كان أهلًا لذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَازِرَةٌ﴾ لأن غير الوازرة لا تحمل إثم نفسها فضلًا عن إثم غيرها.

١٣- أنه لو سألت نفس مثقلة بالأوزار أن يحمل عنها من ذلك، لم يحمل عنها أحد شيئًا من ذلك، ولو كان من أقرب الناس إليها، فكل مرتهن بعمله، وكل مشغول بخلاص نفسه؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَىْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ﴾، فلا يستطيع أحد أن يحمل عن أحد، ولا هو يقبل ذلك لو مُكِّن منه.

١٤- أنه إنما ينتفع بالإنذار الذين جمعوا بين صلاح الباطن، بخشية ربهم وهو غيب لم يروه، وهم غُيَّبٌ عن أعين الناس، وصلاح الظاهر، بإقام الصلاة؛ لأن الله خصهم بالذكر في قوله: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ علمًا أنه ﷺ نذير للناس جميعًا.

١٥- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة لأهل خشيته وأوليائه؛ لقوله تعالى: ﴿رَبَّهُم﴾.

١٦- أهمية صلاح القلب والباطن، وأنه سبب لصلاح الظاهر؛ لهذا قدمت الخشية في الآية.

١٧- عظم مكانة الصلاة في الإسلام، وأنها أعظم العبادات البدنية؛ لهذا خصت بالذكر في الآية من بين العبادات.

١٨- أن من تزكى وتطهر بخشية الله تعالى بالغيب، وصلاح الباطن، وبإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وغير ذلك من الأعمال الظاهرة، فإنما يعود نفع ذلك لنفسه، ولا ينال الله من ذلك شيئًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ﴾، وقال تعالى في الحديث القدسي: «**يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم، وإنسكم وجنكم، كانوا على أتقى**

قلب رجل واحد منكم، ما زاد ذلك في ملكي شيئًا»[١].

١٩- الترغيب والحث على تزكية النفس باطنًا وظاهرًا بالإخلاص والأعمال الصالحة، وترك الأعمال السيئة، والبعد عنها.

٢٠- أن مصير الأمور، ومرجع الخلائق كلهم إلى الله تعالى، إليه إيابهم، وعليه حسابهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ وفي هذا وعد لمن زكى نفسه بالأعمال الصالحة، ووعيد لمن دنسها بالكفر والمعاصي.

٢١- أنه كما لا يستوي الأعمى والبصير، ولا الظلمات ولا النور، ولا الظل ولا الحرور، ولا الأحياء ولا الأموات؛ فإنه لا يستوي الكافر والمؤمن، ولا يستوي الكفر والإيمان، ولا يستوي مستقر المؤمنين الجنة، ومستقر الكافرين النار، ولا يستوي أهل العلم والمعرفة بالله أحياء القلوب، وأهل الجهل والسفه موتى القلوب؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ۝١٩ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ۝٢٠ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ۝٢١ وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ﴾.

٢٢- أن طريق الإيمان والحق واحد، وطرق الكفر والباطل كثيرة متشعبة؛ لهذا جمع الظلمات وأفرد النور؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ۝٢٠﴾.

٢٣- أن الله يُسمع الحق من يشاء من عباده سماع فهم وقبول؛ لأن التوفيق بيده؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ﴾، فيجب طلب الهداية منه وحده.

٢٤- أن أفعال العباد واقعة بتقدير الله تعالى ومشيئته؛ لقوله تعالى: ﴿يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ﴾، وفي هذا رد على القدرية المنكرين لذلك.

٢٥- أن موتى القلوب من الكفار، لا يمكن أن يسمعوا سماع فهم؛ لأنهم كأصحاب القبور الذين لا يسمعون مطلقًا.

٢٦- أن إسماع الناس الحق، سماع فهم وهدايتهم ليست إليه ﷺ، إنما هو نذير محذر من عذاب الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي ٱلْقُبُورِ ۝٢٢ إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾، قال تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ﴾ [القصص: ٥٦].

---

(١) سبق تخريجه.

٢٧- إثبات وتأكيد رسالته ﷺ من عند الله عز وجل، بشيرًا للمؤمنين بالجنة، ونذيرًا للكافرين من النار؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗاۚ﴾.

٢٨- تشريفه ﷺ، وتكريمه بخطاب الله تعالى له، واصطفائه للرسالة.

٢٩- أن ما جاء به الرسول ﷺ من القرآن والسنة هو الحق الثابت؛ لقوله تعالى: ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾، صدقٌ في الأخبار، وعدلٌ في الأحكام.

٣٠- رحمة الله تعالى بالعباد، وإقامته الحجة عليهم، بإرسال الرسل إلى جميع الأمم؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنۡ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٞ﴾.

٣١- أنه ﷺ ليس بدعًا من الرسل، فقد خلت من قبله الرسل؛ كما قال تعالى: ﴿قُلۡ مَا كُنتُ بِدۡعٗا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٩].

٣٢- تسليته ﷺ تجاه تكذيب قومه له، ولما جاء به من الحق بذكر تكذيب الأمم لرسلهم من قبل؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدۡ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾.

٣٣- أن المكذبين من الأمم السابقة كذبوا رسلهم بعدما أقاموا عليهم الحجة بالآيات البينات والزبر والكتاب المنير، ولم ينجع ذلك فيهم؛ كما كذبه المشركون وقد جاءهم بالقرآن الكريم، أفصح كتب الله تعالى، وأبينها وأفضلها؛ لقوله تعالى: ﴿جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُنِيرِ﴾.

٣٤- اشتمال الكتب السماوية على ما فيه هداية الناس من الآيات البينات، والأحكام والمواعظ، والهدى والنور.

٣٥- شدة أخذه عز وجل وعقابه للذين كفروا، وإنكاره عليهم، وتحذير المكذبين للنبي ﷺ أن يحل بهم ما حل بالمكذبين قبلهم؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَخَذۡتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۖ فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ ٢٦﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَٰلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾ وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ ﴿٣١﴾ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾﴾.

قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ الاستفهام للتقرير، والخطاب للنبي ﷺ ولكل من يصلح له؛ أي: ألم تشاهد وتبصر أن الله أنزل من السماء؛ أي: من السحاب الذي في العلو، ﴿مَاءً﴾ وهو المطر.

﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا﴾ الفاء: عاطفة، وفي «أخرجنا» التفات من الغيبة إلى التكلم؛ لتنبيه المخاطب، ولتعظيم نفسه عز وجل؛ لأن إخراج الثمرات بالماء أعظم من إنزاله بالنسبة للنعمة على العباد؛ فإنه لو نزل المطر ولم يخرج النبات لم ينتفع الناس؛ ولهذا قال ﷺ: «**ليست السنة بألا تمطروا، ولكن السنة أن تمطرا وتمطروا، ولا ينبت لكم**»(١).

والباء في قوله ﴿بِهِ﴾: للسببية؛ أي: فأخرجنا بسبب الماء الذي أنزلناه من السماء ﴿ثَمَرَاتٍ﴾ كثيرة؛ كما قال تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا﴾ [الأنعام: ٩٩].

﴿مُّخْتَلِفًا﴾ صفة لـ«ثمرات» منصوب، ﴿أَلْوَانُهَا﴾ فاعل لاسم الفاعل «مختلفًا»؛ أي: مختلفًا ألوانها أحمر وأصفر وأخضر، وغير ذلك، ومختلفًا أصنافها وأشكالها وطعومها وروائحها ومنافعها؛ كما قال تعالى: ﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ

(١) أخرجه مسلم في الفتن، باب في سكنى المدينة ٢٩٠٤؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾﴾ [الرعد: ٤].

﴿وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا﴾ الواو: استئنافية، ﴿وَمِنَ ٱلْجِبَالِ﴾ جار ومجرور متعلق بمحذوف خبر مقدم، و﴿جُدَدٌۢ﴾ مبتدأ مؤخر.

﴿بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ﴾ صفات لـ«جدد»، ﴿أَلْوَٰنُهَا﴾ فاعل لاسم الفاعل «مختلف».

و«جدد»: جمع «جُدَّة»؛ وهي الطرق في الجبل والخطوط المختلفة عنه في لونها: بيض وحمر وصفر وغير ذلك، وفي ماهيتها.

﴿وَغَرَابِيبُ﴾: معطوف على ﴿جُدَدٌۢ﴾، و«غرابيب»: جمع غربيب، والغربيب: الشيء الأسود الحالك؛ أي: شديد السواد.

﴿سُودٌ﴾: بدل من «غربيب»، أو عطف بيان على نية التأكيد، وهي جمع «أسود».

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ﴾ الجملة معطوفة على جملة ﴿وَمِنَ ٱلْجِبَالِ﴾.

و«الناس»: البشر، بنو آدم.

﴿وَٱلدَّوَآبِّ﴾ كل ما يدب على وجه الأرض من الحيوانات، والطيور، والحشرات، وغير ذلك.

﴿وَٱلْأَنْعَٰمِ﴾: الإبل والبقر والضأن والمعز، وكل ما ينتفع به؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ﴾ [الزخرف: ١٢]، وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾ [يس: ٧١- ٧٣]، وقال تعالى: ﴿أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ [المائدة: ١].

﴿مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ﴾ فالناس منهم الأبيض والأسود والأحمر، وما بين ذلك، وغير ذلك؛ كما قال تعالى: ﴿وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ﴾ [الروم: ٢٢].

والدواب كذلك مختلفة الألوان والأشكال، وكذلك الأنعام منها الأبيض والأسود والأحمر وغير ذلك، ومنها ما يجمع بين لونين كالأبلق، الذي يجمع بين البياض والسواد.

كما تختلف أجناس الناس وأشكالهم وصفاتهم وغير ذلك، وكذلك الدواب

والأنعام، فتبارك الله أحسن الخالقين.

﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾.

لما ذكر دلائل كمال قدرته وعظمته في إنزال المطر، وإخراج الثمرات المختلفة، وإيجاد الجبال مختلفة الألوان، والناس والدواب والأنعام، ذكر أنه إنما يخشى الله بالتأمل في دلائل قدرته العلماء.

﴿إِنَّمَا﴾ أداة حصر، ﴿يَخْشَى ٱللَّهَ﴾، أي: يخافه أشد الخوف ويعظمه، ﴿ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾، أي: العلماء العارفون بالله، وما يجب له، العالمون بشرعه، العاملون به، فمن كان بالله أعلم كان له أخشى.

ولهذا كان ﷺ أتقى الناس لربه، وأخشاهم لله[1].

وليس المراد بالعلماء: طلاب المناصب والأموال والبدلات، الذين يرون أنفسهم كالأُجراء، ولا يحتسبون لله شيئًا في عملهم، وتثور حفيظتهم لو تأخرت مرتباتهم، أو انتقص منها درهم.

قال ابن القيم: «يقتضي الحصر من الطرفين: ألا يخشاه إلا العلماء، ولا يكون عالمًا إلا من يخشاه، فلا يخشاه إلا عالم، وما من عالم إلا وهو يخشاه، فإذا انتفى العلم انتفت الخشية، وإذا انتفت الخشية دلت على انتفاء العلم».

وقال أيضًا: «ومقام الخشية جامع لمقام المعرفة بالله، والمعرفة بحق عبوديته، فمتى عرف الله وعرف حقه اشتدت خشيته لله؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ فالعلماء به وبأمره هم أهل خشيته»[2].

قال بعضهم: العلماء ثلاثة: عالم بالله عالم بأمر الله، وعالم بالله ليس بعالم بأمر الله، وعالم بأمر الله ليس بعالم بالله.

فالعالم بالله وبأمر الله: الذي يخشى الله ويعلم الحدود والفرائض. قلت: وما أقل هؤلاء!

---

(١) أخرجه مسلم في الصيام ١١٠٨؛ من حديث عمر بن أبي سلمة رضي الله عنه.

(٢) انظر: «بدائع التفسير» ٣/ ٤٤٥، ٤٤٨.

والعالم بالله ليس بعالم بأمر الله: الذي يخشى الله، ولا يعلم الحدود والفرائض.

والعالم بأمر الله ليس بعالم بالله: الذي يعلم الحدود والفرائض، ولا يخشى الله عز وجل(١).

قلت: وما أكثر هؤلاء، لا كثّرهم الله، وهم أول من تسعر بهم النار؛ كما جاء في الحديث(٢).

قال الشاعر:

وعــــالم بعلمــــه لم يعملــــنْ معــذب مــن قبــل عبــاد الــوثنْ(٣)

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾، أي: له العزة التامة: عزة القوة، وعزة القهر، وعزة الامتناع.

﴿غَفُورٌ﴾، أي: واسع المغفرة، يغفر ذنوب عباده، بسترها، والتجاوز عنها.

فمن تاب إليه من أي ذنب حتى الشرك غفر له، ومن لقيه لا يشرك به شيئًا غفر له.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَـٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَـٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾﴾:

امتدح الله عز وجل في الآية السابقة العلماء، فحصر خشيته فيهم، ثم أبان عن صفتهم وأعمالهم، عما أعده لهم من الأجور والزيادة من فضله في هاتين الآيتين.

قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَـٰبَ ٱللَّهِ﴾، أي: يقرؤون كتاب الله القرآن الكريم، ويتبعونه، فيتدبرون ألفاظه ومعانيه، ويصدقون أخباره، ويعملون بأحكامه، وهم المؤمنون أهل العلم والمعرفة بالله؛ كما قال تعالى: ﴿بَلْ هُوَ ءَايَـٰتٌۢ بَيِّنَـٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ﴾ [العنكبوت: ٤٩].

وعن أبي عبدالرحمن السلمي، قال: حدثنا من كان يقرئنا القرآن من أصحاب النبي الله ﷺ أنهم كانوا يقترؤن من رسول الله ﷺ عشر آيات، فلا يأخذون في العشر الأخرى حتى يتعلموا ما في هذه من العلم والعمل، قالوا: «فعلمنا العلم والعمل»(٤).

---

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» ٦/ ٥٣١.

(٢) سيأتي تخريجه.

(٣) البيت لابن رسلان الشافعي. انظر: «غاية البيان شرح زبد ابن رسلان» ص٤.

(٤) أخرجه أحمد ٥/ ٤١٠.

﴿وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ إقامة تامة كما شرعها الله عز وجل، فرضها ونفلها، وحافظوا عليها.

﴿وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ﴾ «من»: تبعيضية، أو للجنس؛ أي: وأخرجوا من الذي أعطيناهم من الأموال النفقات الواجبة؛ كالزكاة والنفقة على الأهل والأولاد وغير ذلك، والنفقات المستحبة من الصدقات والهدايا ونحو ذلك.

﴿سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾، أي: خفيةً وجهرًا، حسب مقتضى الحال، فقد يكون الإسرار أفضل؛ لأنه أقرب إلى الإخلاص وأسلم من الرياء، وقد يكون الإعلان أولى إذا كان بقصد تشجيع الآخرين على الصدقة والمنافسة، وغير ذلك، وقدّم الإسرار؛ لأنه أفضل وأولى من حيث العموم، قال تعالى: ﴿إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ﴾ [البقرة: ٢٧١].

وقال ﷺ: «**ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه**»(١).

﴿يَرْجُونَ تِجَٰرَةً﴾ الجملة في محل رفع خبر «إن»؛ أي: يطلبون ويؤملون تجارة.

والتجارة في الأصل: اسم يقع على عقود المعاوضات التي تطلب بها الأرباح، كالبيع والشراء والإجارة وغير ذلك.

والمراد بها هنا: المتاجرة مع الله بالأعمال الصالحة، التي هي سبب لنيل ثوابه عز وجل وجنته، والتي لا تقدر بعوض.

﴿لَّن تَبُورَ﴾، أي: لن تكسد ولن تفسد، بل هي أجلُّ التجارات وأعلاها، وأربحها وأعظمها وأبقاها؛ كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ۝١٠ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝١١ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ۝١٢﴾ [الصف: ١٠- ١٢].

وقال تعالى: ﴿۞ وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ۝١٣٣﴾ [آل عمران: ١٣٣].

---

(١) أخرجه البخاري في الزكاة ١٤٢٣، ومسلم في الزكاة ١٠٣١، والنسائي في آداب القضاة ٥٣٨٠، والترمذي في الزهد ٢٣٩١؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وقال ﷺ: «**ألا إن سلعة الله غالية ألا إن سلعة الله الجنة**»(١).

قال ابن القيم(٢):

يا سلعة الرحمن لست رخيصة ... بل أنت غالية على الكسلان

يا سلعة الرحمن ليس ينالها ... بالألف إلا واحد لا اثنان

﴿لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ﴾ اللام: للتعليل؛ أي: لأجل أن يعطيهم الله أجورهم وافية كاملة من غير نقص، الحسنة بعشر أمثالها، إلى سبعمئة ضعف، إلى أضعاف كثيرة.

أي: أجور وثواب أعمالهم الصالحة، من تلاوة كتاب الله تعالى، وإقام الصلاة، والإنفاق مما رزقهم الله سرًّا وعلانية.

وسُمي ثواب أعمالهم أجورًا- مع أنه لا يجب على الله تعالى شيء لخلقه- إيذانًا بضمان ذلك لهم؛ لأن الأجر لا بد أن يدفع لمن قام بالعمل؛ كما قال عز وجل في الحديث **ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة: رجل أعطى بي ثم غدر، ورجل باع حرًّا فأكل ثمنه، ورجل استأجر أجيرًا فاستوفى منه ولم يعطه أجره**»(٣).

﴿وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ﴾، أي: ويزيدهم على أجورهم ﴿مِّن فَضْلِهِۦٓ﴾، أي: مما عنده من الفضل العظيم، والزيادة والإحسان لهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ﴾ [البقرة: ٢٦١]، وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾ [النساء: ١٧٣].

وقال ﷺ: «**كل عمل ابن آدم له، الحسنة بعشر أمثالها، إلى سبعمئة ضعف، إلى أضعاف كثيرة، إلا الصوم فإنه لي وأنا أجزي به**»(٤).

ويزيدهم من فضله في دينهم؛ بأن يحبب إليهم الازدياد من العمل الصالح؛ لأن

---

(١) أخرجه الترمذي في صفة القيامة ٢٤٥٠؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وقال: «حسن غريب».

(٢) «النونية» ص ٢٤٨.

(٣) أخرجه البخاري في البيوع، إثم من باع حرًّا ٢٢٢٧، وابن ماجه في الأحكام ٢٤٤٢؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) سبق تخريجه.

الحسنة سبب لعمل الحسنة بعدها، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ زَادَهُمۡ هُدٗى وَءَاتَىٰهُمۡ تَقۡوَىٰهُمۡ ١٧﴾ [محمد: ١٧].

ويزيدهم من فضله أيضًا في دنياهم بالخلف العاجل؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَنفَقۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَهُوَ يُخۡلِفُهُۥۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ [سبأ: ٣٩].

﴿إِنَّهُۥ غَفُورٞ شَكُورٞ﴾: تعليل لما قبله؛ أي: لأنه عز وجل ذو مغفرة واسعة لمن تاب إليه.

﴿شَكُورٞ﴾، أي: يعطي الثواب الجزيل على العمل القليل، ويعطي العامل أجره ويزيده من فضله، ويجازي من أحسن العمل بإحسان الجزاء؛ كما قال تعالى: ﴿هَلۡ جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ ٦٠﴾ [الرحمن: ٦٠].

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ هُوَ ٱلۡحَقُّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرُۢ بَصِيرٞ ٣١ ثُمَّ أَوۡرَثۡنَا ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَيۡنَا مِنۡ عِبَادِنَاۖ فَمِنۡهُمۡ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ وَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞ وَمِنۡهُمۡ سَابِقُۢ بِٱلۡخَيۡرَٰتِ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ ٣٢﴾:

قوله: ﴿وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾، أي: والذي أوحينا إليك يا محمد من الكتاب؛ أي: القرآن.

﴿هُوَ ٱلۡحَقُّ﴾ «هو»: ضمير فصل يفيد الحصر والتوكيد، فالجملة فيها توكيد وحصر بكونها اسمية معرَّفة الطرفين، وبضمير الفصل «هم».

أي: والذي أوحينا إليك من الكتاب هو الحق وحده دون ما عداه؛ أي: هو الحق الثابت والصدق والعدل؛ كما قال تعالى: ﴿وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدۡقٗا وَعَدۡلٗاۚ﴾ [الأنعام: ١١٥]، أي: صدقًا في الأخبار، وعدلًا في الأحكام.

﴿مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِۗ﴾، أي: لما سبقه من الكتب والرسل؛ لأنها بشرت وأخبرت به؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِي زُبُرِ ٱلۡأَوَّلِينَ ١٩٦﴾ [الشعراء: ١٩٦]؛ أي: وإنه لمذكور في كتب الأولين، وقال تعالى: ﴿وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيۡتُكُم مِّن كِتَٰبٖ وَحِكۡمَةٖ ثُمَّ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مُّصَدِّقٞ لِّمَا مَعَكُمۡ لَتُؤۡمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥۚ قَالَ ءَأَقۡرَرۡتُمۡ وَأَخَذۡتُمۡ عَلَىٰ ذَٰلِكُمۡ إِصۡرِيۖ قَالُوٓاْ أَقۡرَرۡنَاۚ قَالَ فَٱشۡهَدُواْ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ٨١﴾ [آل عمران: ٨١].

فلما جاء ظهر به صدقها، فكان مصداق ما أخبرت؛ كما أنه شاهد بصدقها؛ لما فيه من ذكر الرسل وكتبهم التي أنزلت عليهم؛ كما أنه شاهد بصدقها، وهي شاهدة بصدقه؛ لتطابق أخبارهما، وتطابقهما في أصول الشرائع، من الدعوة إلى التوحيد، والتحذير من الشرك ونحو ذلك.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرُۢ بَصِيرٌ﴾ «الخبير»: المطلع على بواطن الأمور ودقائقها وخفياتها، و«البصير»: المطلع على ظواهر الأمور وجلائلها وجلياتها، والأمور المبصرة والمحسوسة؛ فهو عز وجل خبير بصير بأحوالهم وأعمالهم، يعطي كلًّا منهم ما يستحق، ويجازي كلًّا منهم بما عمل، وفي هذا وعد لمن صدّق بالقرآن وآمن به، ووعيد لمن كذبه وكفر به.

﴿ثُمَّ أَوۡرَثۡنَا ٱلۡكِتَٰبَ﴾، أي: ثم أعطينا ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾، أي: الكتاب العظيم المهيمن على جميع الكتب قبله، وهو القرآن الكريم، المصدق لما بين يديه من الكتاب.

﴿ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَيۡنَا﴾، أي: الذين اخترناهم واجتبيناهم من عبادنا، وهم أمة محمد ﷺ، اصطفاهم الله تعالى، واختارهم من بين الأمم، وجعلهم يرثون الكتاب المهيمن على جميع الكتب قبله.

﴿فَمِنۡهُمۡ﴾، أي: فمن هؤلاء الذين أورثناهم الكتاب واصطفيناهم من عبادنا، وهم هذه الأمة.

﴿ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ﴾ منتقص بعض حقها، مفرط في فعل بعض الواجبات، مرتكب لبعض المحرمات، قال بعضهم: وهم الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعۡتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمۡ خَلَطُواْ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡۚ﴾ [التوبة: ١٠٢].

﴿وَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞ﴾ مكتفٍ بفعل الواجبات، وترك المحرمات.

﴿وَمِنۡهُمۡ سَابِقُۢ بِٱلۡخَيۡرَٰتِ﴾، أي: مجتهد بفعل الواجبات والمستحبات، وترك المحرمات والمكروهات.

﴿بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ﴾، أي: بأمر الله تعالى الكوني، يعطي من يشاء بفضله، ويمنع من يشاء بعدله.

عن ابن عباس رضي الله عنهما: «﴿ثُمَّ أَوۡرَثۡنَا ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَيۡنَا مِنۡ عِبَادِنَاۖ فَمِنۡهُمۡ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ وَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞ وَمِنۡهُمۡ سَابِقُۢ بِٱلۡخَيۡرَٰتِ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَضۡلُ

﴿ٱلۡكَبِيرُ ٣٢﴾، قال: هم أمة محمد ﷺ، ورثهم الله كل كتاب أنزله، فظالمهم يغفر له، ومقتصدهم يحاسب حسابًا يسيرًا، وسابقهم يدخل الجنة بغير حساب»[(١)].

قال ابن كثير[(٢)]: «فإن الآية عامة في جميع الأقسام الثلاثة من هذه الأمة، فالعلماء أغبط الناس بهذه النعمة، وأولى الناس بهذه الرحمة». ثم ذكر حديث أبي الدرداء رضي الله عنه أنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**من سلك طريقًا يطلب فيه علمًا، سلك الله به طريقًا إلى الجنة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضًا لطالب العلم، وإنه ليستغفر للعالم من في السموات والأرض حتى الحيتان في الماء، وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب، وإن العلماء ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورثوا دينارًا ولا درهمًا، إنما ورثوا العلم، فمن أخذ به أخذ بحظ وافر**»[(٣)].

﴿ذَٰلِكَ﴾ الإشارة تعود إلى توريث الكتاب العظيم لمن اصطفاهم الله تعالى من عباده، وهم هذه الأمة، وأشار إلى ذلك بإشارة البعيد «ذلك» تعظيمًا له.

﴿هُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ﴾ «هو»: ضمير فصل يفيد التوكيد والحصر، فالجملة فيها توكيد وحصر بكونها اسمية معرفة الطرفين، وبضمير الفصل «هو»؛ أي: ذلك هو العطاء الكبير في كيفيته الكثير في كميته وعدده، الذي لا فضل أكبر منه على الإطلاق، ولا نعمة أعظم منه؛ كما قال تعالى: ﴿قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ هُوَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ ٥٨﴾ [يونس: ٥٨].

قوله تعالى: ﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَلُؤۡلُؤٗاۖ وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ ٣٣ وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَذۡهَبَ عَنَّا ٱلۡحَزَنَۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٞ شَكُورٌ ٣٤ ٱلَّذِيٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلۡمُقَامَةِ مِن فَضۡلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٞ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٞ ٣٥﴾.

لما ذكر توريثه الكتاب للذين اصطفاهم الله تعالى من هذه الأمة، ونيلهم بذلك

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ١٩/ ٣٦٨، وروي بأطول من هذا من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، أخرجه أحمد ٥/ ١٩٨.

(٢) في «تفسيره» ٦/ ٥٣٦.

(٣) أخرجه أبو داود في العلم، الحث على طلب العلم ٣٦٤١، والترمذي في العلم، فضل الفقه في العبادة ٢٦٨٢، وابن ماجه في المقدمة، فضل العلماء والحث على طلب العلم ٢٢٣، وأحمد ٥/ ١٩٦.

الفضل الكبير، ذكر ما أعد لهم من الثواب العظيم. نسأل الله من فضله.

قوله: ﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٍ يَدۡخُلُونَهَا﴾ «جنات»: جمع «جنة» وهي ما أعده الله تعالى لأوليائه يوم القيامة من البساتين العظيمة، والمنازل الرفيعة، والغرفات العالية.

و﴿عَدۡنٍ﴾ بمعنى: «إقامة»؛ أي: جنات الإقامة والخلود الأبدي التي لا يظعن أهلها، ولا يخرجون منها، ولا يفنون، ولا يبغون عنها حولًا.

﴿يَدۡخُلُونَهَا﴾ الضمير يعود للذين أورثهم الله تعالى الكتاب، واصطفاهم من عباده من هذه الأمة الذين نالوا الفضل الكبير.

وقدّم- والله أعلم- وصفها بـ«عدن» قبل ذكر دخولهم إياها؛ تعظيمًا لشأنها، وبشارة لهم بالخلود فيها.

﴿يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَلُؤۡلُؤٗاۖ﴾ قرأ عاصم وأبو جعفر: ﴿وَلُؤۡلُؤٗاۖ﴾ بالنصب معطوفة على محل ﴿أَسَاوِرَ﴾ وقرأ الباقون بالجر: «وَلُؤْلُؤٍ»؛ معطوفة على «ذَهَبٍ».

أي: يحلون في الجنان؛ أي: يزينون ويلبسون فيها ذكورهم وإناثهم.

﴿مِنۡ أَسَاوِرَ﴾ «من» تبعيضية، و«أساور»: جمع سوار، وهو ما تسور وتزين به الأيدي. وفي الحديث: «**تبلغ الحلية من المؤمن كما يبلغ الوضوء**»[1].

﴿مِن ذَهَبٖ وَلُؤۡلُؤٗاۖ﴾ «اللؤلؤ»: الدر والجمان والجوهر. فحليتهم فيها من الذهب واللؤلؤ، ومن الفضة أيضًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَحُلُّوٓاْ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٖ﴾ [الإنسان: ٢١].

﴿وَلِبَاسُهُمۡ﴾ ذكورهم وإناثهم، ﴿فِيهَا﴾، أي: في الجنة، ﴿حَرِيرٞ﴾ من سندس وإستبرق أخضر، من أنعم اللباس وأرقه؛ كما قال تعالى: ﴿يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَيَلۡبَسُونَ ثِيَابًا خُضۡرٗا مِّن سُندُسٖ وَإِسۡتَبۡرَقٖ﴾ [الكهف: ٣١]، وقال تعالى: ﴿عَٰلِيَهُمۡ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضۡرٞ وَإِسۡتَبۡرَقٞۖ وَحُلُّوٓاْ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٖ﴾ [الإنسان: ٢١]، وقال تعالى: ﴿يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَلُؤۡلُؤٗاۖ وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ﴾ [الحج: ٢٣].

وقد كان الذهب والحرير في الدنيا محرمًا على الذكور؛ كما قال ﷺ: «**هذان**- يعني:

---

(١) سبق تخريجه.

الذهب والحرير- **حرام على ذكور أمتي**»(١) فأحلهما الله لهم كرامة لأهل الجنة.

﴿وَقَالُوا﴾، أي: وقال أهل الجنات بعد دخولهم الجنات: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾، أي: الحمد لله وحده ﴿ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ﴾، أي: الذي أزال وأبعد عنا الحزن، و«أل» في «الحزن» للاستغراق، و«الحزن»: الأسى والغمّ على ما مضى، والهمّ والخوف مما يستقبل.

أي: الحمد لله الذي أزال عنا الحزن، بإكمال النعمة علينا، وسلامتنا من جميع الأكدار والمنغصات، فلا نأسى على شيء، وهذا من أعظم نعيم أهل الجنة؛ لأن الحزن هو الذي نكّد على أهل الدنيا حياتهم، وكدر صفو عيشهم.

قال الشاعر:

لا طيب للعيش ما دامت منغصة لذاته بادكار الموت والهرم(٢)

وفي الحديث: «**يؤتى بأشد الناس بؤسًا في الدنيا من أهل الجنة، فيصبغ صبغة في الجنة، فيقال: يا ابن آدم، هل رأيت بؤسًا قط؟ هل مر بك شدة قط؟ فيقول: لا والله يا رب، ما مر بي بؤس قط، ولا رأيت شدة قط**»(٣).

﴿إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ﴾ اللام: للتوكيد؛ أي: لذو مغفرة واسعة، يغفر ما دون الشرك؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨، ١١٦]، ويغفر لمن تاب إليه جميع الذنوب حتى الشرك.

﴿شَكُورٌ﴾ لمن أطاعه وامتثل أمره، يعطي العطاء الجزيل على العمل القليل، ويضاعف الحسنة بعشر أمثالها، إلى سبعمئة ضعف، إلى أضعاف كثيرة.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «غفر الله لهم الكثير من السيئات، وشكر لهم اليسير من الحسنات»(٤).

﴿ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ﴾، أي: الذي أنزلنا وأسكننا دار الإقامة الدائمة، التي لا

---

(١) أخرجه أبو داود في اللباس ٤٠٥٧، والنسائي في الزينة ٥١٤٤؛ من حديث علي رضي الله عنه.

(٢) البيت بلا نسبة. انظر: «أوضح المسالك» ١/ ٢٤٢.

(٣) أخرجه مسلم في صفة القيامة والجنة والنار، صبغ أنعم أهل الدنيا في النار ٢٨٠٧.

(٤) ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٦/ ٥٣٧.

يرغب ساكنها التحول عنها، ولا يُخرج منها.

﴿مِن فَضْلِهِۦ﴾ «من»: سببية؛ أي: بسبب فضله علينا، وعطائه لنا، وجوده وكرمه وإحسانه إلينا، لا بعملنا؛ كما قال ﷺ: **«لن يدخل أحد منكم عمله الجنة»**، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: **«ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل»**(١).

﴿لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾، أي: إننا في راحة تامة تامة، لا يصيبنا فيها ﴿نَصَبٌ﴾، أي: تعب ومشقة، بسبب حر أو برد، أو غير ذلك.

﴿وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ أعاد النفي والفعل للتأكيد؛ أي: ولا يصيبنا فيها لغوب؛ أي: إعياء وفتور، وهو ما يحصل أحيانًا نتيجة التعب، وأحيانًا بدون ذلك.

الفوائد والأحكام:

١- التقرير والتنبيه والبيان لكمال قدرة الله تعالى، وتمام نعمته، وبديع حكمته، في إنزاله من السماء ماء، وإخراجه به النباتات المتنوعة، المختلفة الألوان والطعوم، مع اتحاد مادتها: ماء واحد، وأرض واحدة؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا﴾.

٢- إثبات الأسباب؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ﴾، وقوله: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ﴾.

٣- كمال عظمته عز وجل وبديع صنعه في خلق الجبال العظيمة، مختلفة الألوان والطرائق والأشكال؛ لقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾.

٤- تمام قدرته تعالى ونعمته، وبالغ حكمته في خلق الناس والدواب والأنعام مختلفة الألوان والأشكال؛ لقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ﴾.

٥- أنه إنما يخشى الله ويخافه العلماء العارفون بالله وما يجب له، فهم الذين يتأملون

---

(١) سبق تخريجه.

في آيات الله، وكمال قدرته، وتمام نعمته، وبديع صنعه في إنزال الماء من السماء، وإخراج الثمرات المختلفة، وخلق الجبال والناس والدواب والأنعام مختلفة الألوان وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾.

٦- إثبات عبودية الخلق كلهم لله تعالى عبودية عامة؛ لقوله تعالى: ﴿مِنْ عِبَادِهِ﴾، وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ﴾.

٧- فضيلة العلم وأهله العاملين به؛ لأن الله امتدحهم وأثنى عليهم، وخصهم بخشيته؛ لأن العلم سبب لخشيته عز وجل.

٨- أن من خشي الله فآمن وعمل صالحًا فهو عالم مهما قلّ علمه؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ۝٧ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ ۝٨﴾ [البينة: ٧، ٨].

٩- أن من لم يخش الله فهو جاهل، جهلًا مركبًا، أجهل من حمار أهله، مهما بلغ من العلم؛ لأن ثمرة العلم هي خشية الله تعالى، وماذا علم من لم يعرف قدر ربه، خالقه ومالكه ومدبر أمره.

١٠- إثبات صفة العزة التامة لله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾.

١١- إثبات صفة المغفرة الواسعة لله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿غَفُورٌ﴾، وقوله: ﴿لَغَفُورٌ﴾.

١٢- امتداح الله عز وجل للذين يتلون كتابه، وأقاموا الصلاة، وأنفقوا مما رزقهم الله سرًّا وعلانية، وبيان عظم ما أعد لهم من الأجور والزيادة من فضله؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ۝٢٩ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ﴾.

١٣- الترغيب في اتباع كتاب الله تعالى، وقراءته وتدبر ألفاظه ومعانيه وأحكامه، والعمل به؛ وإقام الصلاة، والإنفاق من رزق الله عز وجل في الوجوه الواجبة والمستحبة؛ لأن الله امتدح المتصفين بذلك، ووعدهم عليه بالأجر العظيم.

١٤- أنه إنما يمدح من جمع بين تلاوة القرآن والعمل به، بإقام الصلاة، والإنفاق من رزق الله، وغير ذلك؛ أي: من أقام حروفه وحدوده، لا من أقام حروفه وضيع

حدوده؛ كما هو حال كثير من القراء اليوم، وقد جاء في حديث أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ في ذكر الثلاثة الذين أول ما يقضى يوم القيامة عليهم، وأول من تسعر بهم النار، قال: رجل استشهد- فذكره- ثم قال: «**ورجل تعلم العلم، وقرأ القرآن، فأتي به، وعرفه نعمه، فعرفها، قال، فما عملت فيها؟ قال: تعلمت العلم وعلمته، وقرأت فيك القرآن. قال: كذبت، ولكنك تعلمت العلم؛ ليقال: عالم، وقرأت القرآن ليقال: قارئ، فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار**» الحديث[1].

١٥- عظم مكانة الصلاة في الإسلام؛ لأن الله قدّم ذكرها في الآية.

١٦- فضيلة الإنفاق في الوجوه الواجبة كالزكاة وغيرها، والمستحبة كالصدقة، ونحو ذلك؛ لأن الله ذكر ذلك بعد الصلاة.

١٧- أن الرزق كله من الله تعالى، فلا ينبغي البخل في الإنفاق منه ولا طلبه من غير الله؛ لقوله تعالى: ﴿رَزَقْنَٰهُمْ﴾.

١٨- جواز الإنفاق وإخراج الزكاة والصدقات ونحو ذلك سرًّا وعلانية، والإسرار أفضل؛ ولهذا قُدِّم في الآية، ما لم تدع حاجة إلى الإعلان بذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾.

١٩- أن التجارة مع الله تعالى هي التجارة الرابحة، التي لا تكسد ولا تخسر، ولا ينقطع ربحها وثوابها، وذلك بالأعمال الصالحة ابتغاء جنته وثوابه العظيم، وفضله العميم؛ لقوله تعالى: ﴿يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ۝٢٩ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ﴾.

٢٠- وجوب الإخلاص لله تعالى في العمل، وطلب الأجر والثواب منه، وابتغاء مرضاته، بلا رياء ولا سمعة؛ لقوله تعالى: ﴿يَرْجُونَ﴾.

٢١- فضيلة الرجاء وحسن الظن بالله، إذا قارن ذلك الإيمان والعمل الصالح، بل الواجب أن يجمع المؤمن بينهما.

٢٢- أن طلب الفضل والأجر من الله غاية عظيمة؛ كما قال تعالى في وصف نبيه ﷺ والمؤمنين: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ

---

(١) أخرجه مسلم في الإمارة ١٩٠٥، والنسائي في الجهاد ٣١٣٧، والترمذي في الزهد ٢٣٨٢.

فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗاۖ﴾ [الفتح: ٢٩].

وفي هذا رد على غلاة الصوفية الذين يقولون: نعبد الله لله، لا رجاءً في ثوابه، ولا خوفًا من عقابه.

٢٣- توفية المؤمنين أجورهم تامة غير ناقصة، وضمانه عز وجل إياها لهم؛ لهذا سماها: «أجورهم»، وزيادتهم على ذلك من فضله عليها.

٢٤- أن الله عز وجل شكور يعطي الأجر والثواب الجزيل على العمل القليل؛ لقوله تعالى: ﴿شَكُورٞ﴾.

٢٥- إثبات أن القرآن هو كلام الله، أوحاه إلى نبيه ﷺ، وأنه هو الحق الثابت المصدق لما سبقه من كتب الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ هُوَ ٱلۡحَقُّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِۗ﴾ فهو مصداق ما أخبرت وبشرت به، وهو شاهد على صدقها.

٢٦- إثبات رسالته ﷺ وتشريفه ﷺ وتكريمه بخطاب الله تعالى له، وبما أوحي إليه من هذا القرآن العظيم.

٢٧- اطلاع الله عز وجل التام على أحوال العباد، بواطنها ودقائقها وخفياتها، وعلى ظواهرها وجلائلها وجلياتها، وتمام خبرته وبصره بهم؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرُۢ بَصِيرٞ﴾، وفي هذا وعد لمن آمن بالقرآن وعمل بما فيه، ووعيد لمن كفر به، وخالفه.

٢٨- امتنان الله عز وجل على هذه الأمة بتوريثهم الكتاب العظيم: «القرآن الكريم» أفضل كتب الله عز وجل، المهيمن على جميع الكتب السابقة، والحاكم عليها، واختيارهم واجتباؤهم لذلك؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوۡرَثۡنَا ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَيۡنَا مِنۡ عِبَادِنَاۖ﴾.

٢٩- أن هذه الأمة أفضل الأمم؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَيۡنَا مِنۡ عِبَادِنَاۖ﴾، وكما قال تعالى: ﴿كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

٣٠- الإشارة لطول الفترة بين عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوۡرَثۡنَا﴾.

٣١- إثبات عبودية المؤمنين لله تعالى خاصة؛ لقوله تعالى: ﴿مِنۡ عِبَادِنَاۖ﴾.

٣٢- انقسام الذين أورثهم الله تعالى الكتاب إلى أقسام ثلاثة: ظالم لنفسه بالتفريط في بعض الواجبات، وارتكاب بعض المحرمات، ومقتصد مكتفٍ بفعل الواجبات، وترك

المحرمات، وسابق بالخيرات بإذن الله، مجتهد بفعل الواجبات والمستحبات، وترك المحرمات والمكروهات؛ لقوله تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾.

٣٣- إثبات زيادة الإيمان ونقصانه؛ لأن تفاضل الأعمال يدل على تفاضل الإيمان وزيادته ونقصانه.

٣٤- إثبات الإذن الكوني لله تعالى، وأن كل ما يفعله المرء من خير أو شر، فهو بإذن الله الكوني وإرادته الكونية ومشيئته؛ لقوله تعالى: ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾.

وفي هذا رد على القدرية الذين يقولون: إن أفعال العباد ليست بتقدير الله، ولا مخلوقة له، بل ولا معلومة له قبل فعلهم لها. تعالى الله عن قولهم.

٣٥- أن ما ييسر للإنسان من سبق في الخير فهو بتوفيق الله وتقديره، فلا ينبغي أن يفخر بذلك وينسبه إلى نفسه، أو يمنَّ به.

٣٦- أن أكبر فضل يتفضل الله به على عبده: أن يوفقه للإيمان والعمل الصالح؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾.

٣٧- عظم ما أعده الله تعالى لمن أورثهم الكتاب واصطفاهم من عباده، من دخولهم جنات عدن يقيمون فيها ولا يظعنون، ويتنعمون بما فيها من أنواع الفواكه وأصناف الثمار، ويتجملون فيها بالحلي، ولبس الحرير، والناعم من الثياب؛ لقوله تعالى: ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾﴾.

٣٨- أن الجنة دار ثواب وجزاء، وليست دار تكليف وعمل؛ ولهذا يتنعم أهلها بكل ما شاؤوا من أنواع المآكل والمشارب، والحلية واللباس، وغير ذلك، ولا يمنعون من شيء مما كان محرمًا على أهل الدنيا كالتحلي بالذهب ولبس الحرير للرجال.

٣٩- اغتباط أهل الجنة، وثناؤهم على الله تعالى الذي أذهب عنهم الحزن، وأولاهم النعم، ودفع عنهم النقم، وغفر لهم، وجازاهم بالثواب الجزيل على العمل القليل؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾﴾.

٤٠- كمال الفرح والسرور لأهل الجنة؛ لقولهم: ﴿ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ﴾ والصفات السلبية يؤتى بها لإثبات كمال ضدها، فهم في غاية السرور، فلا يأسون على

ما مضى، ولا يغتمون ولا يهتمون لما يستقبل، وهذا من أعظم نعيم أهل الجنة.

٤١- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة بأوليائه؛ لقول أهل الجنة: ﴿إِنَّ رَبَّنَا﴾.

٤٢- ثناؤهم على الله تعالى بأن أسكنهم الجنة دار المقامة بفضله، لا يصيبهم فيها تعب ولا إعياء؛ لقولهم: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ۝٣٥﴾.

٤٣- أن دار الجنة دار إقامة، من دخلها لا يريد الظعن منها، ولا التحول عنها، ويخلد فيها أبدًا.

٤٤- أنه لا أحد يدخل الجنة بعمله، وإنما بفضل الله عز وجل ورحمته؛ لقوله تعالى: ﴿مِن فَضْلِهِۦ﴾ كما قال ﷺ: «**لن يدخل أحدًا عملُه الجنة**»، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «**ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل**»[1].

٤٥- كمال راحة أهل الجنة، فلا يصيبهم فيها تعب ولا إعياء؛ لقوله تعالى: ﴿لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ والصفات المنفية يؤتى بها لإثبات كمال ضدها.

٤٦- أن أهل الجنة لا ينامون؛ لأن النوم إنما يحتاج إليه لنقض التعب والإعياء، وهم لا يحصل لهم تعب ولا إعياء؛ كما أن النوم نقص؛ لأنه أخو الموت، فهو الموتة الصغرى.

* * *

(١) سبق تخريجه.

قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ ۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ ۖ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾ إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٣٨﴾ هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ ۚ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ ۖ وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا ۖ وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا ﴿٣٩﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ ۚ بَلْ إِن يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴿٤٠﴾ * إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّن بَعْدِهِ ۚ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ ۖ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ ۚ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ ۚ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۚ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ ۚ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا ﴿٤٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ ۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ ۖ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾﴾.

هذا من أظهر الأدلة على أن الأقسام الثلاثة: الظالم لنفسه، والمقتصد، والسابق بالخيرات بإذن الله؛ كلهم من المؤمنين من هذه الأمة؛ لأن الله قابل بينهم وبين جزائهم بذكر الكافرين وجزائهم، فبعد أن ذكر ما أعده لأوليائه من الجنات والنعيم وطيب المقام، أتبع ذلك بذكر ما أعد للكفار، من النار، والعذاب الشديد، والتقريع، وسوء المقام، جمعًا بين الوعد والوعيد، والترغيب والترهيب.

قوله: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾، أي: كفروا بالله، وكذبوا رسله، وجحدوا آياته، وأنكروا لقاءه ﴿لَهُمْ﴾ خاصة ﴿نَارُ جَهَنَّمَ﴾ ليس لهم سواها، يعذبون فيها أشد العذاب؛ كما قال تعالى: ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤].

و«نار جهنم»: من إضافة الموصوف إلى صفته، وسميت «جهنم»؛ لجهمتها؛ أي: ظلمتها، وبعد قعرها، وشدة حرها.

﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ بالموت؛ أي: لا يحكم عليهم كونًا بالموت.

﴿فَيَمُوتُوا﴾ الفاء للسببية؛ أي: فيموتوا ويستريحوا؛ كما قال تعالى: ﴿وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ ۝٧٧﴾ [الزخرف: ٧٧]، وقال تعالى: ﴿الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَىٰ ۝١٢ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ۝١٣﴾ [الأعلى: ١٢، ١٣].

وقال ﷺ: «**أما أهل النار الذين هم أهلها فلا يموتون فيها ولا يحيون**»[1].

فلا هم يموتون فيستريحون، ولا يحيون حياة طيبة، بل هم في عذاب دائم يتمنون الموت فلا يحصل لهم.

﴿وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا﴾ لا من شدته، ولا من دوامه واستمراره، ولو يومًا أو لحظة، بل هو شديد ومستمر لا ينقطع أبدًا؛ كما قال: ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ۝٧٤ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ۝٧٥﴾ [الزخرف: ٧٤، ٧٥].

وقال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ ۝٤٩ قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَىٰ قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ۝٥٠﴾ [غافر: ٤٩، ٥٠]، وقال تعالى: ﴿كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾ [الإسراء: ٩٧]، وقال تعالى: ﴿فَذُوقُوا فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ۝٣٠﴾ [النبأ: ٣٠].

﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ﴾ قرأ أبو عمرو بالياء في: «يُجْزَى»، ورفع «كلُّ».

وقرأ الباقون بالنون وفتحها وكسر الزاي ونصب «كلَّ»: ﴿نَجْزِي كُلَّ﴾.

أي: مثل هذا الجزاء الشديد الأليم بنار جهنم نجزي كل كفور، و«كفور» صفة مشبهة؛ أي: كل متصف بالكفر.

﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ﴾: مبالغة من «يصرخون»؛ لأن زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى، و«الصراخ»: الصياح الشديد؛ أي: يصيحون في النار بشدة، ويصرخون فيها أشد الصراخ ويستغيثون ويقولون: ﴿رَبَّنَا﴾، أي: يا ربنا، فاستغاثوا به عز وجل؛ لأنهم

---

(١) أخرجه مسلم في الإيمان ١٨٥، وابن ماجه في الزهد ٤٣٠٩، من حديث أبي سعيد رضي الله عنه.

عرفوا أنه لا مُنجي إلا الله، وقد كانوا بالأمس يستغيثون بغير الله، من الأصنام والأوثان: ﴿أَخْرِجْنَا﴾ من النار.

﴿نَعْمَلْ صَٰلِحًا﴾، ﴿نَعْمَلْ﴾ مجزوم؛ لأنه جواب الطلب؛ أي: إن تخرجنا نعمل؛ أي: إن تخرجنا من النار نعمل عملًا صالحًا خالصًا لوجهك، موافقًا لشرعك.

﴿غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ﴾، أي: غير العمل الذي كنا نعمل قبل ذلك؛ أي: فاعترفوا بذنبهم، وأن الله عدل معهم ولم يظلمهم، وسألوا الرجعة، ولكن هيهات، وقد علم الله أنهم كاذبون، وأنهم لو ردوا لعادوا لما نهوا عنه؛ كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ۝١٠ فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ۝١١﴾ [الملك: ١٠ - ١١].

وقال تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٨]، ولهذا وبّخهم بقوله:

﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ﴾ الاستفهام للتقريع والتوبيخ والتنديم والتقرير، و«ما»: موصولة؛ أي: أولم نعمركم الذي يتذكر فيه من تذكر؟ و«التعمير»: تطويل العمر.

أي: أولم نعمركم؛ أي: نعطيكم من العمر والحياة الوقت الذي يتمكن فيه من أراد التذكر من التذكر والعمل؟

وقد اختلف في مدة العمر المراد هنا، فقيل: أربعون سنة، وقيل: ستون سنة، وقيل: أقل من ذلك، ولا دليل على شيء من ذلك، ولا مصلحة للأمة في تحديده.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**أعذر الله إلى امرئ، أخّر أجله حتى بلغ ستين سنة**»(١).

وهذا هو الغالب على أعمار الأمة؛ ولهذا قال ﷺ: «**أعمار أمتي بين الستين إلى السبعين، وأقلهم من يجوز ذلك**»(٢).

﴿وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ﴾، أي: الرسول المنذر والمحذر لكم من عذاب الله تعالى؛ كما قال

---

(١) أخرجه البخاري في الرقاق، من بلغ ستين سنة، فقد أعذر الله إليه ٦٤١٩، وأحمد ٢/ ٢٧٥.

(٢) أخرجه الترمذي في الدعوات ٣٥٥٠، وابن ماجه في الزهد ٤٢٣٦؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وقال: «حسن غريب».

تعالى: ﴿هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ ۝٥٦﴾ [النجم: ٥٦]، وقال تعالى: ﴿كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ۝٨ قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ ۝٩﴾ [الملك: ٨- ٩]، وقال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥].

والمعنى: قد عمرناكم الوقت الذي يتمكن فيه من أراد التذكر من التذكر، وأرسلنا إليكم الرسل، وأقمنا عليكم الحجة بذلك.

﴿فَذُوقُوا۟﴾ الأمر للإهانة؛ أي: فذوقوا عاقبة تكذيبكم، أو فذوقوا العذاب؛ أي: تجرعوا العذاب وغصصه بسبب كفركم.

﴿فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ أظهر في مقام الإضمار، فلم يقل: فما لكم، بل قال: فما للظالمين؛ ليبين أن سبب تعذيبهم في النار، وانتفاء النصير لهم هو ظلمهم بالكفر والشرك، وليشملهم هذا العذاب هم وغيرهم من الظالمين.

و«من»: زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة لعموم النفي من حيث المعنى؛ أي: فما للظالمين أيّ نصير ينصرهم، فيخرجهم من النار، أو يخفف عنهم من عذابها، ويدفع الشر عنهم، أو يجلب لهم الخير.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ غَيْبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٣٨ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا ۝٣٩﴾:

لما ذكر عز وجل الفريقين من أهل الإيمان والكفر، وجزاء كل منهم، أخبر عن سعة علمه واطلاعه على غيب السموات والأرض وعلمه بما في الصدور، فيهدي كلًّا لما خلق له، ويجازي كلًّا بما عمل.

قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ غَيْبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ﴾، أي: عالم كل ما غاب في السموات والأرض عن الخلق، فلم يدركوه بأبصارهم، ولا بأسماعهم، ولا بغير ذلك من حواسهم، من الغيوب السابقة والحاضرة والمستقبلة.

﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ﴾، أي: إنه عز وجل ذو علم تام ﴿بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾، أي: بصاحبة الصدور، وهي القلوب، وما فيها من الأسرار والمكنونات، وما تنطوي عليه من المضمرات، وسيجازى كلًّا بعمله.

﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمْ﴾، أي: هو وحده عز وجل الذي صيركم.

﴿خَلَٰٓئِفَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ «خلائف»: جمع «خليفة»؛ أي: يخلف بعضكم بعضًا في الأرض، فيذهب قرن وجيل، ويأتي بعده قرن وجيل آخر، ويذهب ملك، ويأتي بعده ملك آخر، وهكذا؛ كما قال تعالى: ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ﴾ [النمل: ٦٢].

﴿فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ﴾، أي: فإنما يعود وبال كفره على نفسه، ويعذب به وحده، دون غيره، ولا يضر الله شيئًا؛ كما قال تعالى: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا﴾ [فصلت: ٤٦].

﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا﴾ «إلا» في الموضعين: أداة حصر؛ أي: إلا بغضًا وغضبًا شديدًا بسبب كفرهم، واستمرارهم على الكفر، فكلما استمروا على الكفر ازداد مقت الله تعالى لهم، وبغضه لهم، وغضبه الشديد عليهم، فيزداد بذلك انتقامه منهم، وعذابه لهم؛ كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ [الزخرف: ٥٥].

﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا﴾ وهذا نتيجة لشدة بغض الله إياهم، فبسبب كفرهم واستمرارهم على الكفر، مقتهم الله، وأبغضهم بغضًا شديدًا، فازداد خسرانهم، وخاب سعيهم، فخسروا دينهم، ودنياهم وأنفسهم وأهليهم؛ كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾ [الزمر: ١٥].

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ ۚ بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴿٤٠﴾ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾﴾:

قوله: ﴿قُلْ﴾ الخطاب للنبي ﷺ؛ أي: قل يا محمد للمشركين مبينًا بطلان آلهتهم وكمال نقصها وضعفها.

﴿أَرَءَيْتُمْ﴾ الاستفهام للتقرير؛ أي: أخبروني.

﴿شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾، أي: شركاءكم من الأصنام والأنداد الذين تعبدون؛ أي: الذين تدعونهم دعاء عبادة، ودعاء مسألة، ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾، أي: غير الله.

﴿أَرُونِى﴾ الأمر للتعجيز والتحدي؛ أي: أخبروني.

﴿مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ﴾ «ما»: اسم استفهام، و«ذا»: اسم موصول؛ أي: ما الذي خلقوه من الأرض؟

ويحتمل كون «ماذا» كلها اسم استفهام في محل نصب مفعول به لـ«خلقوا».

أي: ما الذي خلقوه من الأرض؟ هل خلقوا الجبال، أو الرمال، أو القفار، أو الأشجار، أو الأنهار، أو البحار؟ والاستفهام بمعنى النفي؛ أي: أنهم لم يخلقوا شيئًا من الأرض.

﴿أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ﴾.

لما نفى أن يكونوا خلقوا شيئًا من الأرض في العالم السفلي، أتبع ذلك بنفي مشاركتهم في السموات في العالم العلوي.

﴿أَمْ﴾ في الموضعين هي المنقطعة التي بمعنى: «بل» التي للإضراب الانتقالي، وهمزة الاستفهام الإنكاري؛ أي: بل ألهم ﴿شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ﴾، أي: ألهم مشاركة في السموات، خلقًا أو ملكًا أو غير ذلك؟ والجواب: ليس لهم شرك في السموات.

ولم يقل هنا: ماذا خلقوا من السموات؟ بل قال: ﴿أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ﴾ لأن السموات ليست في متناول أحد من الخلق.

والمشركون يقرون بهذا وذاك، فيقرون أن معبوداتهم من دون الله لم يخلقوا شيئًا من الأرض، وليس لهم شرك في خلق السموات، وأن خالق السموات والأرض هو الله تعالى وحده، ومع ذلك يشركون به غيره، قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ۝٩﴾ [الزخرف: ٩].

﴿أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ﴾.

لما ذكر الدليل العقلي على وجوب عبادته تعالى وحده، وبطلان عبادة من سواه، أتبع ذلك بذكر الدليل السمعي على ذلك، فقال:

﴿أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ﴾، أي: بل آتيناهم كتابًا من عندنا بأن معبوداتهم شركاء لله؟ كما قال تعالى: ﴿أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ ۝٣٥﴾ [الروم: ٣٥]؛ أي: لم ننزل عليهم سلطانًا بذلك.

﴿فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو وحمزة وخلف وحفص بغير ألف

على الإفراد: ﴿بَيِّنَتٍ﴾، وقرأ الباقون بالألف على الجمع: «بَيِّنَاتٍ».

أي: فهم على حجة منه بأن معبوداتهم شريكة لله؛ أي: ليس الأمر كذلك، فلم نؤتهم كتابًا بذلك، بل رسلنا إلى جميع الأمم كلهم دعوا إلى توحيد الله؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾ [البينة: ٥].

فإذا كان هؤلاء الشركاء من دون الله لم يخلقوا من الأرض شيئًا، وليس لهم شرك في خلق السموات، ولم نؤتهم كتابًا بأنهم شركاء لله، فعبادتهم إياهم باطلة؛ ولهذا قال: ﴿بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا﴾ «بل»: للإضراب الانتقالي، و«إن»: نافية بمعنى: «ما»؛ أي: ما يَعد الظالمون بعضهم بعضًا ﴿إِلَّا غُرُورًا﴾ «إلا»: أداة حصر؛ أي: إلا وعدًا غرورًا، وخداعًا باطلًا، بقول بعضهم لبعض: هذه الأصنام تشفع لكم عند الله، وتزيين بعضهم لبعض الكفر والشرك والمعاصي.

كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾﴾ [الفرقان: ٢٧- ٢٩].

وقال تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الأعراف: ٢٨].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا﴾.

لما نفى أن يكون لمعبودات المشركين شرك في خلق السموات والأرض وتدبيرهما، أتبع ذلك ببيان أنه القيوم وحده على السموات والأرض.

أي: إن الله عز وجل- بقوته العظيمة، وقدرته التامة، وعظيم سلطانه، وإحكامه مخلوقاته، ورحمته وحلمه ومغفرته- ﴿يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ التي هي من أكبر المخلوقات وأعظمها.

﴿أَن تَزُولَا﴾ «أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل جر بحرف جر محذوف؛

أي: من الزوال؛ أي: من أن تتحركا وتضطربا، وتزولا عن أماكنهما؛ كما قال تعالى: ﴿وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحج: ٦٥]، وقال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ﴾ [الروم: ٢٥].

﴿وَلَئِن زَالَتَآ﴾ الواو عاطفة، واللام موطئة للقسم؛ أي: والله لئن زالتا؛ أي: لئن زالت السموات والأرض.

﴿إِنْ أَمْسَكَهُمَا﴾ «إن»: حرف نفي بمعنى: «ما»؛ أي: ما أمسكهما؛ أي: ما يمسكهما ﴿مِنْ أَحَدٍ﴾ «من»: زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة من حيث المعنى لعموم النفي؛ أي: ما يمسكهما أيُّ أحد.

﴿مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ﴾، أي: من بعد الله؛ أي: غيره عز وجل؛ أي: أنه لا يستطيع أحد أيًّا كان إمساكهما وإرجاعهما وإبقاءهما غيره عز وجل.

﴿إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا﴾، أي: ذا حلم واسع، لا يعاجل من عصاه بالعقوبة، بل يمهل ولا يهمل. والجملة تعليل لما قبلها، قال ابن القيم(١):

وهو الحليم فلا يعاجل عبده ... بعقوبة ليتوب من عصيان

﴿غَفُورًا﴾، أي: ذا مغفرة واسعة لمن تاب إليه.

ومن حلمه عز وجل الواسع، ومغفرته، عدم معاجلته العباد بالعقوبة، وهم يكفرون به ويعصونه، ولولا ذلك لأطبق السماء على الأرض، وأهلكهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ﴾ [فاطر: ٤٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ﴾ [النحل: ٦١]، وقال تعال: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۖ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا۟ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ﴾ [الكهف: ٥٨].

قوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ ۚ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ۚ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾﴾:

قوله: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ﴾، أي: وأقسم مشركو العرب؛ أي: حلفوا بالله، ﴿جَهْدَ

(١) «النونية» ص ١٤٨.

﴿أَيۡمَٰنِهِمۡ﴾، أي: غاية الأيمان وأغلظها وأشدها وآكدها.

﴿لَئِن جَآءَهُمۡ نَذِيرٞ﴾ اللام: موطئة للقسم؛ أي: والله لئن جاءهم نذير؛ أي: لئن أتاهم نذير؛ أي: رسول من عند الله عز وجل.

﴿لَّيَكُونُنَّ أَهۡدَىٰ مِنۡ إِحۡدَى ٱلۡأُمَمِۖ﴾ اللام: واقعة في جواب القسم؛ أي: ليكونن أعظم هداية.

﴿مِنۡ إِحۡدَى ٱلۡأُمَمِۖ﴾، أي: من اليهود والنصارى، أو من جميع الأمم السابقة.

كما قال تعالى: ﴿أَن تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلۡكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيۡنِ مِن قَبۡلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمۡ لَغَٰفِلِينَ ١٥٦ أَوۡ تَقُولُواْ لَوۡ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا ٱلۡكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهۡدَىٰ مِنۡهُمۡۚ فَقَدۡ جَآءَكُم بَيِّنَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞۚ فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنۡهَاۗ﴾ [الأنعام: ١٥٦، ١٥٧]، وقال تعالى: ﴿وَإِن كَانُواْ لَيَقُولُونَ ١٦٧ لَوۡ أَنَّ عِندَنَا ذِكۡرٗا مِّنَ ٱلۡأَوَّلِينَ ١٦٨ لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ١٦٩ فَكَفَرُواْ بِهِۦۖ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ١٧٠﴾ [الصافات: ١٦٧ - ١٧٠].

﴿فَلَمَّا جَآءَهُمۡ نَذِيرٞ﴾ الفاء: عاطفة، و«لما»: شرطية؛ أي: فلما جاء هؤلاء المشركين نذير، وهو محمد ﷺ أفضل رسل الله عز وجل، الذي أنزل الله تعالى عليه أفضل كتبه القرآن الكريم.

﴿مَّا زَادَهُمۡ إِلَّا نُفُورًا﴾ جواب الشرط، و«إلا»: أداة حصر؛ أي: لم يهتدوا، فضلًا عن أن يكونوا أهدى الأمم كما قالوا، بل ﴿مَّا زَادَهُمۡ﴾ مجيء الرسول ﷺ إليهم إلا نفورًا عن الهدى، وبعدًا عن الحق، وزيادة ضلال على ضلالهم، وكفرًا إلى كفرهم.

كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسۡجُدُواْۤ لِلرَّحۡمَٰنِ قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحۡمَٰنُ أَنَسۡجُدُ لِمَا تَأۡمُرُنَا وَزَادَهُمۡ نُفُورٗا۩ ٦٠﴾ [الفرقان: ٦٠].

﴿ٱسۡتِكۡبَارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾، «استكبارًا» بدل من ﴿نُفُورًا﴾، وتفسير له، أو مفعول لأجله، أو مصدر في موضع الحال؛ أي: ما زادهم مجيء النذير إليهم إلا استكبارًا في الأرض. والسين والتاء للمبالغة؛ أي: تكبرًا في الأرض عن اتباع لحق، وعلى الخلق.

﴿وَمَكۡرَ ٱلسَّيِّيِٕۚ﴾ قرأ حمزة بإسكان الهمزة في الوصل: «السَّيِّئْ»، وقرأ الباقون بكسرها: ﴿ٱلسَّيِّيِٕۚ﴾.

﴿وَمَكۡرَ ٱلسَّيِّيِٕۚ﴾: معطوف على ﴿ٱسۡتِكۡبَارٗا﴾، وهو من إضافة الموصوف إلى صفته؛

أي: المكر السيئ، أو مكر العمل السيئ، فتكون «السيئ» صفة لمحذوف، وهو «العمل». ومكر السيئ: الخديعة وتدبير الكيد الخفي للرسول ﷺ ولدعوته، وصد الناس عن دين الله.

وخص هذا؛ لأنه أشنع وأعظم قبحًا؛ لأن فيه جمعًا بين عمل السوء والكذب والمكر والخداع، وإلا فإنهم قد جمعوا بين محاربة الرسول ﷺ ودعوته، والصد عن دين الله ظاهرًا وباطنًا.

﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ﴾، أي: ولا يحيط المكر السيئ ولا ينزل ﴿إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ «إلا»: أداة حصر؛ أي: ما يعود وباله وضرره إلا على أهله، دون غيرهم.

كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم﴾ [يونس: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾ [الفتح: ١٠]، وقال تعالى: ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٥١﴾ [النمل: ٥١].

رُوي أن كعب الأحبار قال لابن عباس رضي الله عنهما: «من حفر حفرة وقع فيها». فقال ابن عباس رضي الله عنهما: أنا أجد ذلك في القرآن الكريم: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾»[1].

وفي المثل: «من حفر بئرًا لأخيه أوقعه الله فيه»، «ومن حفر لأخيه قليبا، أوقعه الله فيه قريبا»[2].

ومفهوم قوله: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ أن المكر قد يكون حسنًا، وذلك كمكر الله عز وجل بالماكرين مجازاة لهم على مكرهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠].

﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ﴾ الفاء: عاطفة، وهل: للاستفهام، ومعناه: النفي؛ أي: فما ينتظرون ويترقبون.

﴿إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ «إلا»: أداة حصر؛ أي: إلا سنة الله تعالى الكونية في أمثالهم من

---

(١) انظر: «تفسير الثعلبي» ٨/ ١١٦، «تفسير ابن جزي» ٢/ ١٧٧.

(٢) انظر: «كشف الخفا» ٢/ ٢٩٢ (٢٤٦٤)، «المقاصد الحسنة» ص٦٤٤ (١١١٤)، «الجد الحثيث في بيان ما ليس بحديث» ص٢٢٨ (٥٠٦، ٥٠٧).

المكذبين الأولين، وهي أخذهم وإهلاكهم، بسبب تكذيبهم رسله، ومخالفتهم أمره.

﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ﴾، أي: فلن تجد لسنة الله تعالى الكونية في إهلاك المكذبين وتعذيبهم، ﴿تَبۡدِيلٗاۖ﴾، أي: تغييرًا، بأن ينجوا من العذاب، أو ينعموا بدل أن يعذبوا.

﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلًا﴾ أعاد النفي للتأكيد؛ أي: ولن تجد لسنة الله في إهلاك المكذبين تحويلًا، بأن يحوّل العذاب عنهم إلى غيرهم.

أي: أن سنته عز وجل ثابتة لا تتبدل ولا تتغير ولا تتحول، يُهلك المكذبين، وينجي أولياءه المؤمنين؛ لكمال حكمته وعدله، وتمام سلطانه.

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَكَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعۡجِزَهُۥ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمٗا قَدِيرٗا ﴿٤٤﴾ وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهۡرِهَا مِن دَآبَّةٖ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗىۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرَۢا ﴿٤٥﴾﴾:

قوله: ﴿أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ الاستفهام للتقريع والتوبيخ.

قوله: ﴿أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾، أي: أولم يسر هؤلاء المكذبون لك يا محمد في الأرض، بأقدامهم، وأبدانهم، وقلوبهم.

﴿فَيَنظُرُواْ﴾ بأبصارهم، ويتأملوا ويتفكروا ببصائرهم وعقولهم، ويعتبروا، فكم من سائر في الأرض ناظر فيها لم ينتفع بذلك؛ لعمى قلبه وغفلته؛ كما قال تعالى: ﴿لَهُمۡ قُلُوبٞ لَّا يَفۡقَهُونَ بِهَا وَلَهُمۡ أَعۡيُنٞ لَّا يُبۡصِرُونَ بِهَا وَلَهُمۡ ءَاذَانٞ لَّا يَسۡمَعُونَ بِهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

﴿كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾، أي: كيف كان مآل ونهاية الذين من قبلهم من المكذبين للرسل، كانت عاقبتهم أسوأ العواقب، دمر الله عليهم وللكافرين أمثالها.

كما قال تعالى: ﴿۞أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۖ وَلِلۡكَٰفِرِينَ أَمۡثَٰلُهَا ﴿١٠﴾﴾ [محمد: ١٠]، وقال تعالى: ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَا وَهِيَ ظَالِمَةٞ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئۡرٖ مُّعَطَّلَةٖ وَقَصۡرٖ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾ أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَتَكُونَ لَهُمۡ قُلُوبٞ يَعۡقِلُونَ بِهَآ أَوۡ ءَاذَانٞ يَسۡمَعُونَ بِهَاۖ فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾ [الحج: ٤٥ - ٤٦]، وقال تعالى: ﴿فَكُلًّا أَخَذۡنَا بِذَنۢبِهِۦۖ فَمِنۡهُم مَّنۡ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِ حَاصِبٗا وَمِنۡهُم مَّنۡ أَخَذَتۡهُ ٱلصَّيۡحَةُ وَمِنۡهُم مَّنۡ خَسَفۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ وَمِنۡهُم مَّنۡ أَغۡرَقۡنَاۚ وَمَا

كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ۝٤٠﴾ [العنكبوت: ٤٠].

﴿وَكَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗۚ﴾، أي: وكان أولئك المكذبون ﴿أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗۚ﴾، أي: أقوى منهم قوة؛ كعاد الذين قالوا: من أشد منا قوة، فما نفعتهم قوتهم، وما منعت ولا دفعت عنهم عذاب الله؛ كما قال تعالى: ﴿۞أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُواْ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَانُواْ هُمۡ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗ وَءَاثَارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمۡ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٖ ۝٢١﴾ [غافر: ٢١]، وقال تعالى: ﴿أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَانُوٓاْ أَكۡثَرَ مِنۡهُمۡ وَأَشَدَّ قُوَّةٗ وَءَاثَارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ۝٨٢﴾ [غافر: ٨٢]، وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا عَادٞ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَقَالُواْ مَنۡ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةًۖ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَهُمۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ ۝١٥﴾ [فصلت: ١٥].

﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعۡجِزَهُۥ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ الواو: استئنافية، واللام: لام الجحود، و«من»: زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة من حيث المعنى لعموم النفي؛ أي: وما كان الله ليعجزه أيُّ شيء في السموات ولا في الأرض؛ أي: لا يحول بينه وبين ما يريد عجزٌ في قدرته، بل هو على كل شيء قدير، لا يعجزه شيء ولا يفوته ولا يسبقه، قال تعالى: ﴿أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسۡبِقُونَاۚ سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ ۝٤﴾ [العنكبوت: ٤].

﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمٗا قَدِيرٗا﴾ تعليل لكونه عز وجل لا يعجزه شيء في السموات ولا في الأرض؛ أي: لكونه عليمًا قديرًا؛ أي: ذا علم واسع بكل شيء، وقدرة تامة على كل شيء، فلسعة علمه عز وجل وتمام قدرته، يخلق ما يشاء ويختار، ويفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد؛ كما قال عز وجل: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ وَمِنَ ٱلۡأَرۡضِ مِثۡلَهُنَّۖ يَتَنَزَّلُ ٱلۡأَمۡرُ بَيۡنَهُنَّ لِتَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عِلۡمَۢا ۝١٢﴾ [الطلاق: ١٢].

والعلم: إدراك الشيء على ما هو عليه إدراكًا جازمًا، والقدرة: التمكن من الفعل بلا عجز.

﴿وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ﴾.

لما حذر المكذبين له ﷺ وهددهم بما حل بالمكذبين قبلهم، أتبع ذلك بذكر حلمه وإنظاره لهم، وأنه لو يؤاخذهم بما كسبوا لأهلكهم جميعًا، ولكنه يمهل ولا يهمل، ويؤخرهم إلى أجل مسمى.

الواو: استئنافية، ولو: حرف شرط غير جازم؛ أي: ولو يعاقب الله الناس.

﴿بِمَا كَسَبُوا﴾ الباء: سببية، و«ما»: مصدرية، أو موصولة؛ أي: بسبب كسبهم، أو بسبب الذي كسبوه من الكفر والذنوب والمعاصي.

﴿مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ﴾ «من»: زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة من حيث المعنى لعموم النفي؛ أي: ما ترك على ظهر الأرض أيَّ دابة؛ أي: لأهلك الناس والدواب جميعًا بسبب شؤم الكفر والذنوب والمعاصي.

قال تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾﴾ [الروم: ٤١].

﴿وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ﴾ أي: يُنظرهم ويمهلهم ﴿إِلَىٰ أَجَلٍ﴾، أي: إلى مدة ووقت وزمن ﴿مُّسَمًّى﴾، أي: معين، محدد عند الله تعالى، وهو يوم القيامة.

كما قال تعالى: ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾﴾ [هود: ١٠٤]؛ أي: إلى أجل مسمى لا بد من مجيئه؛ ولهذا قال: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ﴾، أي: فإذا انتهت المدة، وقامت القيامة.

﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا﴾ جواب الشرط «إذا»؛ أي: بصيرًا بهم وبأعمالهم وأحوالهم، تام الإحاطة بهم في ذلك الوقت وقبله وبعده، فيعاقب من يشاء بعدله، ويعفو عمن يشاء بفضله، ويثيب المؤمنين، ويعذب الكافرين، ويجازي كلًّا بما عمل؛ كما قال تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿٨﴾﴾ [الزلزلة: ٧، ٨].

الفوائد والأحكام:

١- الوعيد والتهديد للكافرين بنار جهنم التي أعدت لهم، وعذابها الشديد؛ لقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ﴾ الآية.

٢- جمع القرآن بين الترغيب والترهيب، فبعد أن ذكر أولياءه المؤمنين وما أعد لهم من الثواب العظيم، ذكر الكفار وما أعد لهم من العذاب الأليم.

٣- أن أهل النار لا يموتون، ولا يخفف عنهم من عذابها، بل هم في عذاب مقيم شديد مستمر؛ لقوله تعالى: ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا﴾.

وفي هذا رد على من يقول من المعتزلة وغيرهم أن أهل النار يكونون فيها جهنميين

لا يتألمون.

٤- أن هذا العذاب العظيم أعده الله لكل كفور، والجزاء من جنس العمل؛ لقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ﴾.

٥- شدة عذاب الكفار في النار، وصراخهم فيها واستغاثتهم للخروج منها، وهيهات لهم ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾.

٦- إثبات ربوبية الله تعالى العامة لجميع الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا﴾، ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾.

٧- إقرارهم واعترافهم وهم في النار بربوبية الله تعالى، وأنه بأنه لا يملك دفع الضرر عنهم إلا الله؛ لقولهم: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا﴾.

٨- اعترافهم بما كانوا عليه من عمل غير صالح، وندمهم حين لا ينفع الندم، وزعمهم أنهم سيعملون صالحًا لو أخرجوا منها، وهم كاذبون؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٨].

٩- تقريعهم وتوبيخهم وتيئيسهم من الخروج من النار وتنديمهم؛ لأن الله قد أقام الحجة عليهم، وأعذر منهم، بتعميرهم في الدنيا ما فيه كفاية للتذكر، وبإرسال الرسل إليهم، ينذرونهم ويحذرونهم؛ لقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ﴾.

وفي هذا رد على الجبرية الذين يحتجون بالقدر على المعاصي، ويقولون: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٤٨].

١٠- ينبغي اغتنام الفرص المناسبة؛ لأنها إذا فاتت قد لا تعود.

١١- أن من بلغته الرسالة وعمر ما يمكنه فيه التذكر؛ فقد قامت عليه الحجة.

١٢- إهانة الظالمين وتبكيتهم في النار، وتعذيبهم عذابًا معنويًا ينصبُّ على قلوبهم، وتيئيسهم من الخلاص من النار، ومن النصير والشفيع؛ لقوله تعالى: ﴿فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾.

١٣- أن الكفر ظلم، وأن نار جهنم مثوى الكافرين والظالمين.

١٤- إثبات سعة علم الله عز وجل، وإحاطته بغيب السموات والأرض، وما تخفيه الصدور، فيهدي كل مخلوق، فييسره لما خلق له، ويجازي كلًّا بما عمل؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ غَيۡبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ٣٨﴾.

وفي هذا وعد لمن أطاع الله واتقاه، ووعيد لمن خالف أمره وعصاه.

١٥- الإشارة إلى أن مدار صلاح الجسد، وصلاح الأعمال على القلوب، مما يوجب تعاهدها، والعمل على صلاحها وسلامتها، ففي ذلك صلاح الظاهر والباطن.

١٦- تفرده عز وجل بتدبير الخلق؛ لتمام قدرته، وعظم سلطانه، وامتنانه على العباد بجعلهم خلائف في الأرض، يخلف بعضهم بعضًا؛ لقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمۡ خَلَٰٓئِفَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾.

١٧- أن من كفر فعليه إثم كفره وعذابه؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَن كَفَرَ فَعَلَيۡهِ كُفۡرُهُۥۖ﴾.

١٨- أن كفر الكافرين لا يزيدهم عند ربهم إلا مقتًا وبغضًا، يترتب عليه انتقامه منهم، وكلما ازداد كفرهم ازداد مقت الله لهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلۡكَٰفِرِينَ كُفۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ إِلَّا مَقۡتٗاۖ﴾.

١٩- إثبات صفة المقت لله تعالى وهي البغض الشديد، وهي من الصفات الفعلية الاختيارية لله عز وجل التي تتعلق بمشيئة الله تعالى، وتقترن بسببها، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنَادَوۡنَ لَمَقۡتُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُ مِن مَّقۡتِكُمۡ أَنفُسَكُمۡ﴾ [غافر: ١٠].

٢٠- أن كفر الكافرين لا يزيدهم إلا خسارًا في الدنيا والآخرة، خسارًا لأنفسهم وأهليهم، ودينهم ودنياهم وأخراهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلۡكَٰفِرِينَ كُفۡرُهُمۡ إِلَّا خَسَارٗا﴾، أي: أنهم خاسرون كل الخسران بسبب كفرهم، وكلما ازداد كفرهم ازداد خسرانهم.

٢١- الإنكار على المشركين وتحديهم، وبيان بطلان عبادتهم من دون الله معبودات لا يستحقون- عقلًا- أن يعبدوا؛ لأنهم لم يخلقوا من الأرض شيئًا، وليس لهم شرك في خلق السموات، ولم يدل دليل سمعي على صحة عبادتهم؛ لقوله تعالى: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ لَهُمۡ شِرۡكٞ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَمۡ ءَاتَيۡنَٰهُمۡ كِتَٰبٗا فَهُمۡ عَلَىٰ بَيِّنَتٖ مِّنۡهُۚ﴾.

٢٢- أن وعود الظالمين بعضهم لبعض ما هي إلا غرور وخداع وباطل بتزيين بعضهم لبعض الكفر والشرك، وأن شركاءهم يشفعون لهم؛ لقوله تعالى: ﴿بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا﴾.

٢٣- عظمة الله تعالى، وكمال قوته وسلطانه، وتمام قدرته؛ لقيام السماء والأرض بأمره، وإمساكه إياهما من الزوال إلا بإذنه؛ لقوله تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا﴾.

٢٤- أن السموات والأرض لو زالتا لم يستطع أيّ أحد أن يمسكهما غير الله إلا بإذنه؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ﴾.

ويتفرع على هذا أن ما يقع في هذه المخلوقات العظيمة من كسوف وصواعق وزلازل وبراكين، وغير ذلك هو من الآيات التي يخوف الله بها عباده، فيجب اللجوء إلى الله تعالى وحده، والتضرع إليه بالصلاة والدعاء لرفع ذلك.

٢٥- إثبات سعة حلم الله عز وجل، فلا يعاجل من عصاه بالعقوبة، وسعة مغفرته، فيغفر للتائبين، ولمن لقيه لا يشرك به شيئًا؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾.

٢٦- إقسام المشركين من قريش الأيمان المؤكدة المغلظة: لئن أتاهم رسول ليكونن أعظم هداية من اليهود والنصارى، أو الأمم السابقة؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ﴾.

٢٧- كذبهم وحنثهم في أيمانهم، وازديادهم نفورًا عن الهدى، وبعدًا عن الحق؛ لما جاءهم الرسول ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾.

٢٨- لا ينبغي للإنسان أن يلزم نفسه ما قد لا يستطيع القيام به، من نذر أو غير ذلك؛ كما قال تعالى: ﴿۞ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُل لَّا تُقْسِمُوا۟ طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ﴾ [النور: ٥٣]، وقال تعالى: ﴿۞ وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾﴾ [التوبة: ٧٥- ٧٦].

٢٩- لا ينبغي للإنسان أن يعتد بنفسه ويفتخر إذا رأى من ابتلي بالتقصير، فيقول: لو كنت مكانه لعملت كذا وكذا، فإنه قد يبتلى بذلك التقصير أو بأشد منه، وفي الأثر:

«لا تظهر الشماتة بأخيك، فيعافيه، أو فيرحمه الله ويبتليك»(١).

قال الشاعر:

احفـظ لسـانك أن تقـول فتبـتلى ... إن الـبلاء موكـل بـالمنطق(٢)

٣٠- استكبارهم في الأرض عن اتباع الحق، وعلى الخلق، ومكرهم السيئ، بكيدهم للنبي ﷺ ولدعوته، وصدهم الناس عن دين الله؛ لقوله تعالى: ﴿ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ﴾.

٣١- أن الاستكبار من أعظم أسباب رد الحق وغمط الخلق.

٣٢- أن المكر السيئ لا يحيق ولا ينزل إلا بأهله، وأن الجزاء من جنس العمل، فمن مَكر مُكِر به؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾، وقال تعالى: ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [الأحقاف: ٢٦].

٣٣- أن المكر قد يكون حسنًا؛ لمفهوم قوله: ﴿ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ﴾، وذلك كمكر الله بالماكرين.

٣٤- تهديد المكذبين للنبي ﷺ، وأنهم ما ينتظرون في استمرارهم على الكفر وتكذيب الرسول ﷺ إلا أن تحل بهم سنة الله تعالى في إهلاك المكذبين؛ لقوله تعالى: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾.

٣٥- أن سنة الله تعالى في إهلاك المكذبين، وإنجاء الرسل وأتباعهم ثابتة، لا تتبدل ولا تتغير ولا تتحول؛ لقوله تعالى: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾﴾.

٣٦- تقريع المشركين وتوبيخهم لما لم يعتبروا كيف كانت عاقبة الذين من قبلهم لما كذبوا رسل الله، وكانوا أشد منهم قوة، فلم ينفعهم ذلك، ولم يدفع عنهم عذاب الله، لما حل بهم؛ لقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوٓا۟ أَشَدَّ

---

(١) أخرجه الترمذي في صفة القيامة ٢٥٠٦، والطبراني في «المعجم الكبير» ١٢٧، والبيهقي في «شعب الإيمان» ٦٣٥٥، من حديث واثلة بن الأسقع. وقال الترمذي: «حسن غريب».

(٢) البيت ينسب لأبي بكر الصديق رضي الله عنه. انظر: «العقد الفريد» ٣/ ١٦.

﴿مِنۡهُمۡ قُوَّةٗ﴾.

٣٧- أن في التاريخ عبرًا، وأن في الأرض خبرًا، لمن يعتبر ويعقل.

٣٨- إثبات علم الله عز وجل وتمام قدرته وأنه سبحانه لا يعجزه أيُّ شيء في السموات ولا في الأرض؛ لسعة علمه، وتمام قدرته؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعۡجِزَهُۥ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمٗا قَدِيرٗا﴾.

٣٩- سعة حلم الله عز وجل، مع تمام قدرته على العقوبة، فلو يؤاخذ الناس بما كسبوا من الظلم والآثام لعجل لهم العذاب، ولأهلك كل من على ظهر الأرض من الدواب، ولكنه حليم لا يعاجل من عصاه بالعقوبة؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهۡرِهَا مِن دَآبَّةٖ﴾.

٤٠- شؤم الذنوب والمعاصي، وأنها سبب لهلاك العباد والبلاد، والحرث والنسل.

٤١- إثبات الكسب للناس، وفي هذا رد على الجبرية الذين يقولون: إن العبد مجبر على فعله، لا اختيار ولا كسب له.

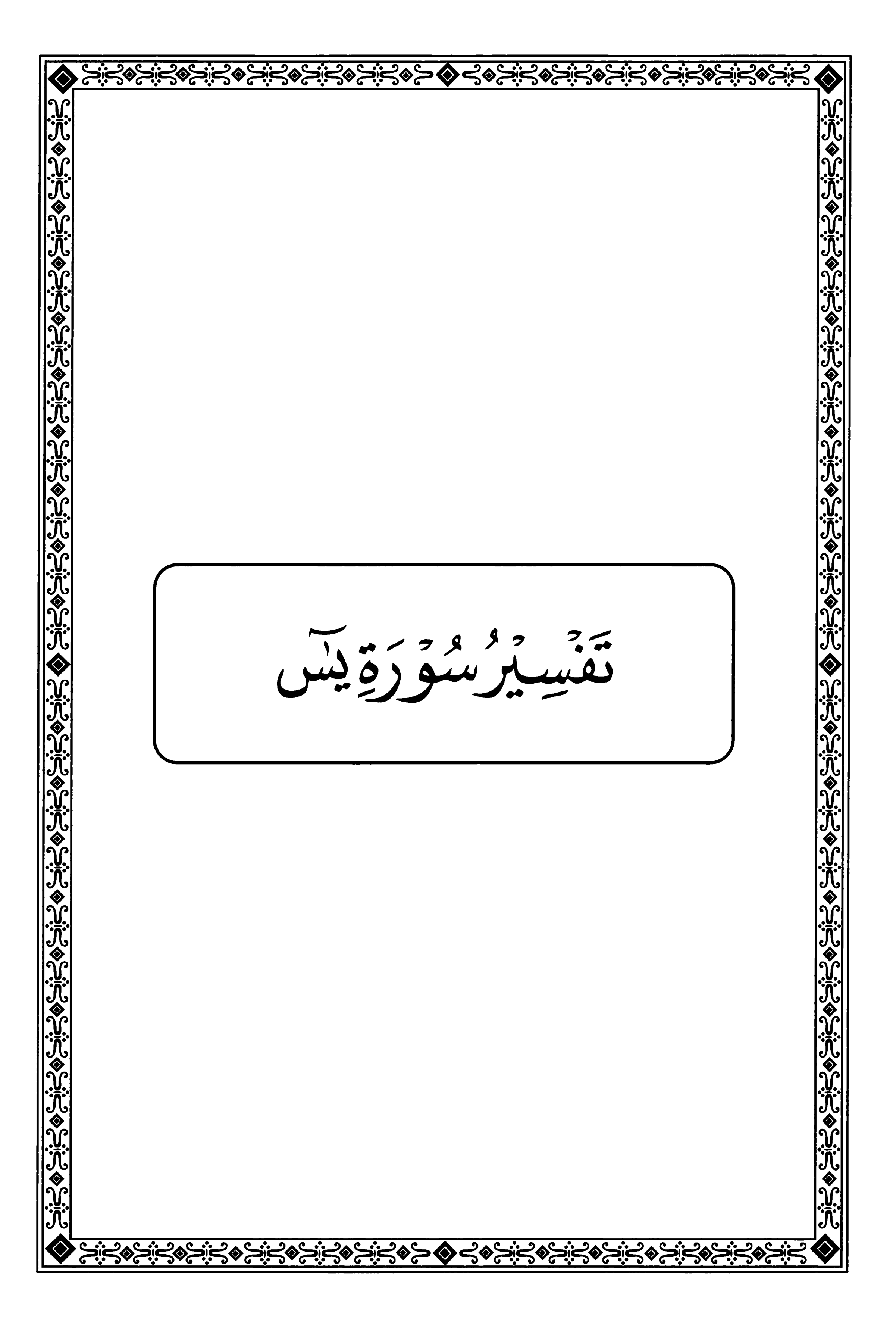
٤٢- أنه عز وجل يمهل ولا يهمل، ويؤخر عقوبة المكذبين إلى أجل مسمى؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗىۖ﴾.

٤٣- إثبات القيامة؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى﴾.

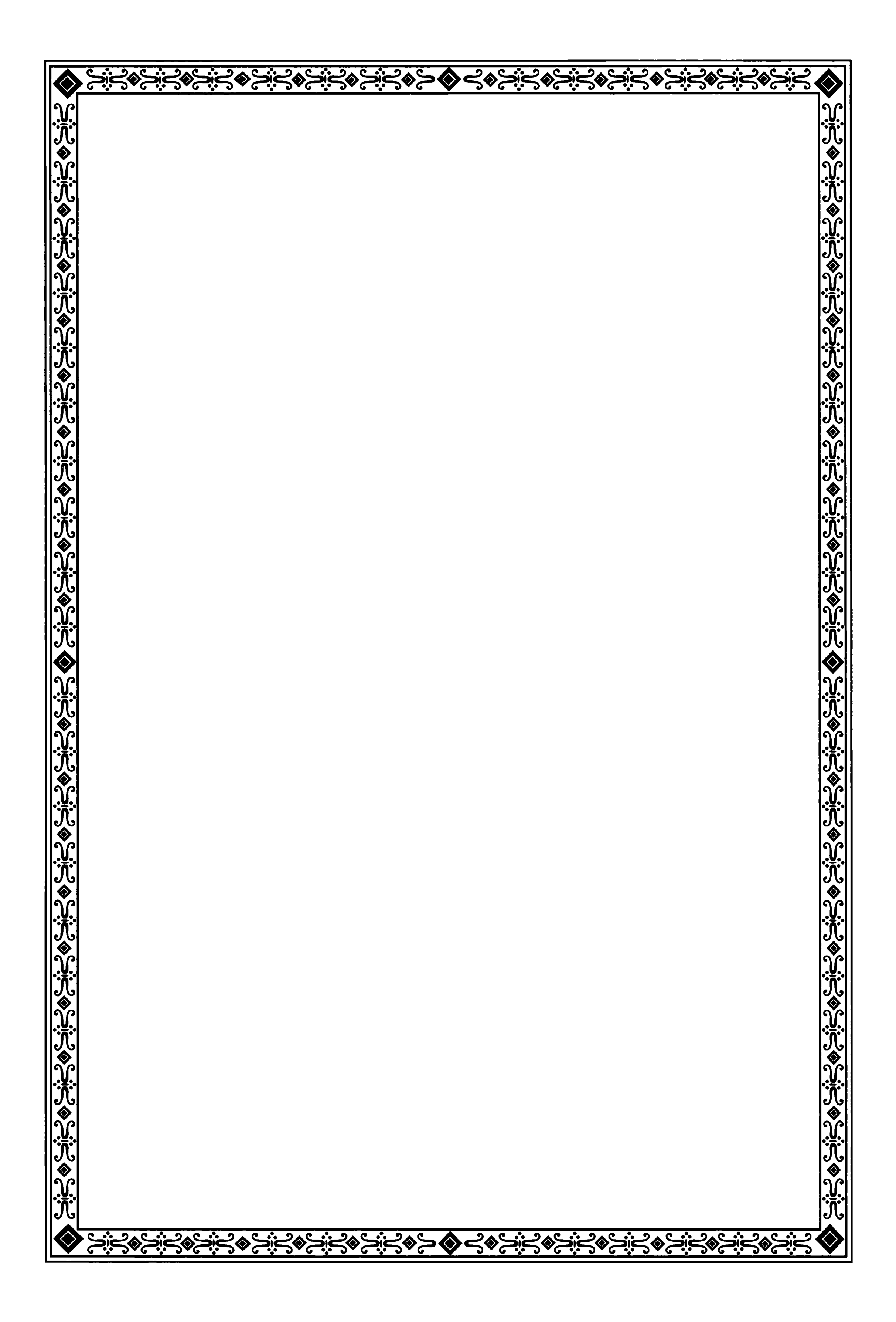
٤٤- إحاطة الله تعالى التامة بالعباد وأعمالهم، ومجازاة كل منهم بما عمل يوم القيامة، إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشر؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرَۢا﴾.

٤٥- إثبات عبودية الخلق كلهم لله تعالى عبودية عامة؛ لقوله تعالى: ﴿بِعِبَادِهِۦ﴾.

* * *



تَفْسِيرُ سُورَةِ يسٓ



المقدمة

أ- اسم السورة:

سميت هذه السورة «سورة يس»؛ لقوله تعالى في مطلعها: ﴿يسٓ﴾؛ لأنها انفردت في مطلعها من بين السور بهذين الحرفين، من الحروف المقطعة أوائل السور.

ويقال لها: «قلب القرآن».

ب- مكان نزولها:

مكية.

جـ- فضلها:

عن أبي هريرة رضي الله عنه سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**من قرأ «يس» في ليلة أصبح مغفورًا له، ومن قرأ حم التي يذكر فيها الدخان أصبح مغفورًا له**»(١).

وعن جندب بن عبد الله رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**من قرأ «يس» في ليلة ابتغاء وجه الله غفر له**»(٢).

د- موضوعاتها:

١- افتتحت السورة بتعظيم القرآن، وبيان إعجازه، وتأكيد صدق الرسول ﷺ، وبيان الحكمة من إرساله وهي الإنذار وتخويف المكذبين الغافلين، وتأكيد أنه قد حق القول كونا على أكثرهم بعدم الإيمان، والحيلولة بينهم وبينه، فلا يبصرون الحق، ولا يؤمنون به، ولا ينفعهم الإنذار، وبيان أنه لا ينتفع بالإنذار إلا من خشي الرحمن بالغيب، وبشارتهم بمغفرة وأجر كريم.

٢- إثبات وتأكيد تمام قدرته عز وجل على الإحياء والإماتة، وكتابته ما قدّم العباد وآثارهم وإحصائه في اللوح المحفوظ.

٣- ضرب المثل لمشركي مكة بقصة أصحاب القرية الذين أرسل الله إليهم عددًا من الرسل، فطعنوا في رسالتهم لكونهم بشرًا، وتطيروا بهم؛ وهددوهم برجمهم

---

(١) أخرجه الحافظ أبو يعلى فيما ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٦/ ٥٤٧- وقال ابن كثير: «إسناد جيد».

(٢) أخرجه ابن حبان في صحيحه- فيما ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٦/ ٥٤٧.

وتعذيبهم. وتأكيد رسلهم أنهم رسل الله إليهم، وما عليهم إلا البلاغ المبين.

٤- ذكر قصة الرجل الذي جاء من أقصى المدينة يسعى ناصحًا لهم باتباع المرسلين ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّىٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ ﴿٢٥﴾ قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ ۖ قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾ ۞ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴿٢٨﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ ﴿٢٩﴾ يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ ۚ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [يس: ٢٠- ٣٠].

٥- توبيخ المكذبين وتقريرهم بما أهلك من القرون قبلهم، لا يرجعون إليهم، وإثبات وتأكيد بعثهم وإحضارهم للحساب كلهم جميعًا.

٦- الاستدلال على إحياء الموتى وتمام قدرته عز وجل على ذلك، وسابغ نعمته من آياته العظيمة في إحياء الأرض بعد موتها، وإخراج النبات منها والجنات، وخلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون، وسلخ النهار من الليل، وجريان الشمس والقمر، وحمل ذريتهم في الفلك المشحون، وجعله لهم من مثله ما يركبون. قال تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا﴾ إلى قوله: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴿٤٣﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾ [يس: ٣٣- ٤٤].

٧- تقريع المكذبين وتوبيخهم لعدم تقواهم، ولإعراضهم عن الآيات، وعدم إطعامهم مما رزقهم الله، ولكفرهم، وتكذيبهم وتضليلهم من يدعوهم إلى الحق ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُواْ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٥﴾ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤٦﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [يس: ٤٥- ٤٧].

٨- استبعادهم البعث والحساب تكذيبًا به، وتهديدهم بقربه ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ

تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [يس: ٤٨- ٥٤]

٩- بشارة المؤمنين بما أعد لهم من النعيم الحسي والمعنوي ﴿إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَٰكِهُونَ ﴿٥٥﴾ هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِي ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ﴿٥٦﴾ لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ﴿٥٧﴾ سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ [يس: ٥٥- ٥٨].

١٠- تقريع المجرمين وتوبيخهم؛ لعبادتهم الشيطان، وعدو لهم عن عبادة الرحمن. وتوعدهم وتهديدهم بجهنم واصطلائها بسبب كفرهم، والختم على أفواهم، وتكليم أيديهم وشهادة أرجلهم بما كانوا يكسبون. ﴿وَٱمْتَٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾ ۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ۖ أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ إلى قوله ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ فَٱسْتَبَقُوا۟ ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ ﴿٦٦﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ﴾ [يس: ٥٩- ٦٧].

١١- حقارة الدنيا، وأن الإنسان لو عمر فيها رجع إلى أرذل العمر ﴿وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي ٱلْخَلْقِ ۖ أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾ [يس: ٦٨].

١٢- الرد على المكذبين في زعمهم أن الرسول ﷺ شاعر، وأن ما جاء به من قبيل الشعر: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [يس: ٦٩، ٧٠].

١٣- الامتنان على العباد بما خلق الله لهم من الأنعام وذللها لهم: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَمَشَارِبُ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ [يس: ٧١- ٧٣].

١٤- ذم المشركين في اتخاذهم من دون الله آلهة لينتصروا بهم، لا يستطيعون نصرهم ولا نصر أنفسهم.

١٥- تسليته ﷺ وتقوية قلبه فلا يأسى لقوهم؛ لأن الله محيط بهم يعلم سرهم

وعلانيتهم وسيعصمه منهم.

١٦- تذكير الإنسان بأصل خلقه وأن الذي خلقه من العدم والضعف، وأوجد من الشجر الأخضر نارًا، وخلق السموات والأرض قادر على إحيائه بعد موته ﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [يس: ٧٧- ٨٣].

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿يسٓ ﴿١﴾ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣﴾ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤﴾ تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٥﴾ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٦﴾ لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٧﴾ إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾ وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ ۖ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴿١١﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿١٢﴾﴾.

قوله: ﴿يسٓ ﴿١﴾﴾ من الحروف المقطعة التي افتتحت بها بعض سور القرآن الكريم، ليس لها معنى في ذاتها؛ لأنها كغيرها من حروف الهجاء، لكن لها مغزى وحكمة، وهي إثبات إعجاز القرآن، والتحدي به. وقد سبق الكلام عليها مستوفى في مطلع سورة البقرة.

﴿وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾﴾ الواو: للقسم، أي: وأقسم بالقرآن الكريم. والقرآن مشتق من «قرأ» بمعنى: تلا؛ لأنه متلو، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾ [البقرة: ١٢١]، أي: يتبعونه.

أو: من «قرى» بمعنى: «جمع»؛ لأنه مجموع وجامع لسور وآيات كثيرة، ومنه سميت «القرية»؛ لأنها تجمع أناسًا كثيرين، وسمي مجمع الماء: «قَرْوًا»؛ لاجتماع الماء فيه.

وهو كلام الله عز وجل، المنزل على رسوله ﷺ، المتعبد بتلاوته، والعمل به، المعجز بأقصر سورة منه.

﴿ٱلْحَكِيمِ﴾: صفة للقرآن، كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْءَايَٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ﴾ [آل عمران: ٥٨]، وقال تعالى: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ﴾ [يونس:١، لقمان:٢].

أي: ذي الإحكام والحكمة والحكم:

ذو الإحكام، أي: المحكم؛ لأن الله أحكمه، أي: أتقنه وحفظه، وصانه عن التبديل والتغيير، والاختلاف والباطل، قال تعالى: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾[فصلت: ٤٢]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾[النساء: ٨٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾﴾[الحجر: ٩]، وقال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ﴾[الأنعام: ١١٥]، أي: صدقًا في الأخبار، وعدلًا في الأحكام.

وذو الحكمة، أي: الذي وَصْفه الحكمة، وهي: وضع كل شيء موضعه من الأوامر والنواهي، وذكر الأحكام الشرعية والكونية والجزائية مقرونة بالحكمة، وغير ذلك.

وذو الحكم، أي: الحاكم على غيره، الذي يجب الرجوع إليه، قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾[المائدة: ٤٨]، وقال تعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾[النساء: ٥٩].

﴿إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣﴾﴾ جواب القسم، و«إن» حرف توكيد، واللام: للقسم، أي: إنك يا محمد لمن جملة المرسلين، فلست بدعًا من الرسل، وفي هذا رد لقول الذين كفروا: ﴿لَسْتَ مُرْسَلًا﴾[الرعد: ٤٣].

قال ابن القيم: «وأقسم سبحانه بكتابه على صدق رسوله، وصحة نبوته ورسالته، فتأمل قدر المقسم به، والمقسم عليه»(١).

فما أعظم هذا القسم وأجله! لأنه قسم من العظيم، بكتابه العظيم، على صحة نبوة أفضل الرسل وسيد الخلق أجمعين.

﴿عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤﴾﴾ خبر ثانٍ لـ«إن»، أي: على طريق معتدل، ودين قويم، موصل إلى الله تعالى، وإلى مرضاته؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى﴾[الشورى: ٥٢؛٥٣].

﴿تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٥﴾﴾ قرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي وخلف وحفص عن عاصم بنصب اللام: ﴿تَنزِيلَ﴾ مفعول مطلق لفعل محذوف؛

وقرأ الباقون برفع اللام: «تَنْزِيلُ» خبر لمبتدأ محذوف، أي: هذا تنزيلُ.

أي: هذا القرآن الحكيم والصراط المستقيم الذي أنت عليه، ﴿تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٥﴾﴾، وفي هذا تشريف للقرآن الكريم، ولما يهدي إليه من الصراط المستقيم.

و«تنزيل»: مصدر «نَزَّلَ يُنَزِّلُ»؛ لأنه نزل مفرقًا، شيئًا فشيئًا؛ كما قال تعالى: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾﴾[الإسراء: ١٠٦].

أي: أن الذي نزله عليك ﴿ٱلْعَزِيزِ﴾، أي: ذو العزة التامة، عزة القوة، وعزة القهر

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٣/ ٤٧٣.

والغلبة، وعزة الامتناع.

﴿الرَّحِيمِ﴾، أي: ذو الرحمة الواسعة الذاتية الثابتة صفة له عز وجل، وذو الرحمة الفعلية التي يوصلها إلى من شاء من خلقه؛ كما قال تعالى: ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴿٢١﴾﴾[العنكبوت: ٢١].

فبعزته عز وجل نزَّلَ القرآن الحكيم، وبعث به محمدًا يهدي إلى الصراط المستقيم، وأحكمه وصانه عن التبديل والتغيير والباطل.

وبرحمته عز وجل جعل إرسال محمد ﷺ بهذا الكتاب رحمة للعالمين؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾[الأنبياء: ١٠٧].

﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَـٰفِلُونَ ﴿٦﴾﴾.

لما أقسم على صدق رسالته ﷺ، وأقام الأدلة عليها، بيَّنَ شدة الحاجة إليها، واقتضاء الضرورة لها.

قوله: ﴿لِتُنذِرَ﴾ اللام للتعليل، أي: لأجل أن تنذر، أي: تخوِّف وتحذر.

والإنذار: الإخبار المقرون، أو المتضمن للتخويف والتحذير، ﴿قَوْمًا﴾ هم العرب الأميون.

﴿مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ﴾ «ما» نافية، أي: لم ينذر آباؤهم في زمن الفترة، وأما قبل ذلك فقد أنذروا بواسطة إسماعيل بن إبراهيم عليهما الصلاة والسلام؛ فإنه مرسل للعرب إلى قومه، وبعد ذلك ما جاءهم نذير من قبلك؛ كما قال تعالى: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَـٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾[القصص: ٤٦].

فبعثته ﷺ منة من الله تعالى عليهم خصوصًا؛ كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾﴾ [آل عمران: ١٦٤]، وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾ وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا۟ بِهِمْ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣﴾ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤﴾﴾[الجمعة: ٢- ٤].

كما أنها منة على الناس عمومًا؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، وقال تعالى: ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾[الأعراف: ١٥٨].

﴿فَهُمْ غَٰفِلُونَ﴾، أي: فهم غافلون عما خلقوا له، ساهون لاهون فيما هم فيه من الجهل والفجور، وشرب الخمور، واللهو والميسر، والكفر والشرك والضلال، وغير ذلك.

كما قال تعالى: ﴿وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾[آل عمران: ١٦٤، الجمعة: ٢].

﴿لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ﴾ اللام: لام القسم لقسم مقدر، و«قد»: حرف تحقيق، أي: والله لقد حق القول على أكثرهم.

أي: لقد وجب وتحتم القول كونًا وقدرًا على أكثرهم، أي: على أكثر الذين بعث فيهم الرسول ﷺ، بالكفر والعذاب؛ كما قال تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾[النحل: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[الزمر: ٧١]

وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٦﴾﴾[غافر: ٦]، وقال تعالى: ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِى ٱلنَّارِ ﴿١٩﴾﴾[الزمر: ١٩].

﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ الفاء تعليلية، أي: فهم لا يؤمنون؛ لأن الله كتب عليهم الكفر وأوجب عليهم العذاب؛ كما قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓا۟ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[يونس:٣٣]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[يونس:٩٦].

قال السعدي(١): «﴿لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٧﴾﴾، أي: نفذ فيهم القضاء والمشيئة: أنهم لا يزالون في كفرهم وشركهم.

وإنما حق عليهم القول بعد أن عرض عليهم الحق فرفضوه، فحينئذٍ عوقبوا بالطبع على قلوبهم».

قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾ وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ ۖ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴿١١﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿١٢﴾﴾.

قوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا﴾ «أعناق»: جمع «عنق» وهو: الرقبة، و«أغلالًا»: جمع «غُلّ»، وهي القيود والأوثاق، أي: إنا صيرنا في أعناقهم أغلالًا جمعت بين أيديهم

(١) في «تيسير الكريم الرحمن» ٦/ ٣٣٤- ٣٣٥.

وأعناقهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾[الإسراء: ٢٩].

﴿فَهِيَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ﴾ الضمير يعود إلى الأغلال، أي: فأغلالهم واصلة إلى الأذقان قد أحاطت بها؛ لعِرَضها وسمكها، و«الأذقان»: جمع ذقن، وهو مجمع اللحيين.

وقيل: الضمير يعود إلى الأيدي وإن لم تذكر؛ لدلالة السياق عليها، فالغل يكون في العنق فتجمع إليه اليد، فالمعنى: فأيديهم مغلولة إلى أذقانهم.

﴿فَهُم مُّقْمَحُونَ﴾ جمع «مقمح»، و«المقمح»: من جعل في عنقه غل، فجُمعت يداه مع عنقه تحت ذقنه، فارتفع رأسه، فصار مقمحًا لا يستطيع خفض رأسه.

فرؤوسهم مقمحة مرتفعة بسبب غل أيديهم مع أعناقهم تحت أذقانهم، فلا يستطيعون خفضها ولا تحريكها، ولا التصرف فيها.

وأيديهم مغلولة موثوقة بأعناقهم لا يستطيعون بسطها إلى أيِّ خير.

﴿وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا﴾ قرأ حمزة والكسائي وحفص وخلف ﴿سَدًّا﴾ بفتح السين، وقرأ الباقون بضمها: «سُدًّا».

أي: وجعلنا أمامهم حاجزًا ومانعًا، ومن خلفهم حاجزًا ومانعًا، يمنعانهم عن الإيمان، وعن معرفة الحق.

﴿فَأَغْشَيْنَٰهُمْ﴾، أي: فأغشينا أبصارهم وغطيناها، وأعمينا بصائرهم عن الحق.

﴿فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾، أي: فهم عمي الأبصار والبصائر، لا يرون الآيات بأبصارهم، ولا يتفكرون فيها ببصائرهم، ولا يعرفون طريق الحق، ولا يهتدون إليه.

﴿وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ﴾ الواو: عاطفة، و«سواء»: خبر مقدم، بمعنى: «مستوٍ».

﴿ءَأَنذَرْتَهُمْ﴾ مبتدأ مؤخر، و«أم»: حرف عطف معادلة للهمزة، والتقدير: إنذارك وعدمه سواء عليهم.

﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ لأنهم قد غشيت أبصارهم، وختم على قلوبهم بالضلالة؛ كما قال تعالى: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ﴾[البقرة: ٦ - ٧]، وكما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾﴾[يونس: ٩٦؛ ٩٧].

﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ ﴾ «إنما»: أداة حصر، أي: ما تنذر إلا من اتبع الذكر، و«من» موصولة، و«الذكر»: القرآن الكريم؛ كما قال تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [الحجر: ٩]، وقال تعالى: ﴿صٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ﴿١﴾﴾ [ص: ١]، وقال تعالى: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ﴾[الزخرف: ٤٤].

لأن الله ذكر فيه المواعظ والأحكام والأخبار والجزاء على الأعمال، وشرَّف فيه النبي ﷺ والعرب.

أي: إنما ينتفع بإنذارك وتخويفك، ويستفيد منه الذين اتبعوا القرآن الكريم وهم المؤمنون، الذين صدقوا أخباره، وعملوا بأحكامه.

﴿وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ ﴾، أي: خافه عن علم به، وتعظيم له، وفي اختيار اسم «الرحمن» هنا إشارة إلى رحمته لمن خشيه.

﴿بِٱلْغَيْبِ ﴾، أي: وهو عز وجل غيب لم يره، لكن استدل عليه بآياته البينة الظاهرة؛ كأنه يراه؛ كما قال ﷺ: **«الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»**[(١)].

وخشي الرحمن أيضًا وخافه بالغيب، أي: وهو في غيبة عن أعين الناس، لا يراه إلا الله، الذي لا تخفى عليه خافية.

﴿فَبَشِّرْهُ ﴾ الضمير الهاء عائد إلى «من» باعتبار لفظها، أي: فبشر من اتبع الذكر وخشي الرحمن بالغيب ﴿بِمَغْفِرَةٍ﴾ من الله تعالى لذنوبه، بسترها عن الخلق، والتجاوز عن عقوبتها.

﴿وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴾، أي: وثواب واسع كبير، مضاعف حسن جميل؛ كما قال تعالى في سورة الملك: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٢﴾﴾ [الملك: ١٢]، وقال تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾[الأنعام: ١٦٠]، وقال تعالى: ﴿ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ﴾[فاطر: ٣٠].

﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ ﴾.

لما ذكر انقسام المنذَرين إلى فريق حق عليه القول فهم لا يؤمنون، وفريق آمن واتبع الذكر، ذكر أنه يحيي الموتى ويكتب أعمالهم وآثارهم، وسيجازيهم بها، وفي هذا بشارة

(١) سبق تخريجه.

ووعد لمن آمن، وتحذير ووعيد لمن كفر.

قوله: ﴿إِنَّا﴾ تكلم عز وجل بضمير الجمع تعظيمًا لنفسه؛ لكمال عظمته، ﴿نَحْنُ﴾ ضمير فصل يفيد التخصيص، أي: نحن خاصة، لا غيرنا.

﴿نُحْيِ الْمَوْتَى﴾، أي: نبعثهم من قبورهم يوم القيامة؛ لنحاسبهم ونجازيهم على أعمالهم.

قال ابن كثير(١): «وفيه إشارة إلى أن الله يحيي قلب من يشاء من الكفار الذين ماتت قلوبهم بالضلالة، فيهديهم بعد ذلك إلى الحق؛ كما قال بعد ذكر قسوة القلوب: ﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾﴾[الحديد: ١٧]».

﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا﴾ «ما»: موصولة، أي: ونكتب الذي قدموه من الأعمال في صحائف الأعمال، ونحفظه؛ لنحاسبهم ونجازيهم عليه خيرًا كان أو شرًّا.

كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَاتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾﴾ [الانفطار: ١٠- ١٢].

وقال تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿٨﴾﴾ [الزلزلة: ٧- ٨].

﴿وَآثَارَهُمْ﴾، أي: ونكتب آثارهم. والآثار: جمع «أثر»، والأثر: ما أعقب الشيء، ومنه أثر القدم بعد المشي؛ فإنه يعقبه.

والمراد بآثارهم: ما يجري ويستمر لهم أجره أو وزره بعد وفاتهم مما عملوه في حياتهم، أو سنوه وكانوا قدوة فيه، خيرًا كانت أو شرًّا.

كما قال ﷺ فيما رواه جرير بن عبدالله رضي الله عنه: «**من سن في الإسلام سنة حسنة، فله أجرها وأجر من عمل بها من بعده، من غير أن ينقص من أجورهم شيء، ومن سن في الإسلام سنة سيئة، كان عليه وزرها ووزر من عمل بها، من بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شيء**»(٢).

---

(١) في «تفسيره» ٦/ ٥٥١.

(٢) أخرجه مسلم في الزكاة، الحث على الصدقة ١٠١٧، والنسائي في الزكاة ٢٥٥٤، والترمذي في العلم =

وفي رواية زيادة: «وتلا هذه الآية: ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ﴾»(١).

وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه؛ أن رسول الله ﷺ قال: «**إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاثة: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له**»(٢).

فما عَلَّمه الإنسان من علم، ودعاء إليه من خير، من صلاة وزكاة وصدقة وبر وإحسان، وغير ذلك، أو عمله فاقتدى به غيره، فله أجر ذلك بلا انقطاع.

وما أَلَّفه من كتب ينتفع بها، وما بناه من مساجد ومرافق ينتفع بها، وما أوقفه من أعمال بر وخير، وما خلفه من ذرية صالحة يدعون له، كل ذلك أجره مستمر له.

كما أن من كان قدوة في الشر بعلمه وعمله ودعوته ونفقاته وأوقافه، وكتاباته، وفساد ذريته، فوزر ذلك مستمر عليه.

وقيل: المراد بآثارهم: آثار مشي أقدامهم إلى الطاعات؛ كالمشي إلى الصلوات؛ كما قال ﷺ لبني سلمة: «**دياركم تكتب آثاركم**»(٣).

والصحيح: أن كل ما عملوه في حياتهم هو مما قدموه، فهو داخل في قوله: ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ﴾.

﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ﴾ ﴿وَكُلَّ﴾: مفعول لفعل محذوف يفسره ما بعده، أي: أحصينا كل شيء، أي: عددناه وضبطناه، وكتبناه وأثبتناه، وسمي العد والضبط إحصاءً؛ لأن العرب كانوا يعدون الشيء ويضبطونه بالحصى، قال الشاعر:

ولست بالأكثر منهم حصى ... وإنما العزة للكاثر(٤)

﴿فِي إِمَامٍ مُبِينٍ﴾، أي: في كتاب مرجع جامع، بيّن واضح، مبين عن كل شيء، مظهر للحقائق، وهو اللوح المحفوظ، وأم الكتاب، والذكر؛ كما قال تعالى: ﴿فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ﴾

٢٦٧٥، وابن ماجه في المقدمة ٢٠٣.

(١) أخرجها ابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/ ٣١٩٠- ٣١٩١.

(٢) أخرجه مسلم في الوصية ١٦٣١، وأبو داود في الوصايا ٢٨٨٠، والنسائي في الوصايا ٣٦٥١، والترمذي في الأحكام ١٣٧٦.

(٣) أخرجه مسلم في المساجد ٦٦٥، من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه.

(٤) البيت للأعشى. انظر: «ديوانه» ص١٤٣.

[البروج: ٢٢]، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٤﴾﴾ [الزخرف: ٤]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥].

ويجوز أن يكون المراد بـ«إمام»: كتاب وصحائف الأعمال؛ كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا۟ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَٰمِهِمْ﴾ [الإسراء: ٧١]، أي: بكتاب أعمالهم. وقال تعالى: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾ [الكهف: ٤٩]، وقال تعالى: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِا۟ىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ﴾ [الزمر: ٦٩].

الفوائد والأحكام:

١- إثبات إعجاز القرآن والتحدي به؛ لقوله تعالى: ﴿يسٓ ﴿١﴾﴾.

٢- تعظيم الله عز وجل للقرآن، وإقسامه به؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾﴾.

٣- ثناء الله عز وجل على القرآن، بتسميته ووصفه: «الحكيم»، وأنه ذو الإحكام، والحكمة، والحكم؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلْحَكِيمِ﴾.

٤- إثبات وتأكيد رسالته ﷺ، وأنه من جملة المرسلين، وليس بدعًا من الرسل؛ لإقسامه عز وجل على ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣﴾﴾.

٥- إثبات استقامة طريقه ﷺ فيما يدعو إليه، واعتدال منهجه؛ لقوله تعالى: ﴿عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤﴾﴾.

٦- إثبات علوه عز وجل على خلقه بذاته وصفاته؛ لقوله تعالى: ﴿تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٥﴾﴾.

٧- إثبات أن القرآن الكريم منزل من عند الله عز وجل غير مخلوق، وفي هذا رد على المعتزلة القائلين بخلق القرآن.

٨- إثبات اسمي الله عز وجل: «العزيز» و«الرحيم»، وصفتي: العزة التامة، بأقسامها، والرحمة الواسعة بأنواعها؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ﴾، فبعزته عز وجل ورحمته أنزل القرآن وصانه من التغيير والتبديل، وبعث به محمدًا ﷺ رحمة للعالمين.

٩- في اقتران اسميه عز وجل: «العزيز» و«الرحيم»، وصفتي: العزة والرحمة في حقه عز وجل كمال إلى كمال.

١٠- أن الحكمة من إرساله ﷺ إنذار قومه وأمته؛ لقوله تعالى: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ۝٦﴾، ومعلوم أن من لازم ذلك التبليغ، والتحذير من الطريق الموجب للعذاب، والترغيب في طريق السلامة، بل والبشارة لمن سلك ذلك.

١١- أنه لم يأت العرب نذير ولا رسول من قبله ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ۝٦﴾.

١٢- غفلة العرب قبل بعثته ﷺ، وسهوهم عما خلقوا له، وانشغالهم بما هم عليه من الشرك والكفر والضلال والفجور، وشرب الخمور، واللهو والميسر، وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿فَهُمْ غَٰفِلُونَ﴾.

١٣- نفوذ قضاء الله وقدره بكفر أكثرهم، وعدم إيمانهم، وفي تعذيبهم؛ لقوله تعالى: ﴿لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٧﴾.

ومفهوم هذا: أن منهم من يؤمن وينجو من العذاب.

١٤- أن من وجب عليهم القول الكوني القدري بالكفر والعذاب لا يؤمنون أبدًا؛ لقوله تعالى: ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

١٥- الحيلولة بينهم وبين الإيمان، بسبب إعراضهم بما جعل الله من الأسباب والموانع القدرية، فهم كمن غلت أيديهم وأعناقهم، فجمعت أيديهم إلى أعناقهم تحت أذقانهم فهم مقمحون، رافعو رؤوسهم، لا يستطيعون تحريك رؤوسهم، ولا بسط أيديهم، وجعل بينهم وبين الإيمان حاجزًا أمامهم، وآخر خلفهم، وأغشيت أبصارهم، وعميت بصائرهم، فانسدت سبل الهداية والإيمان في وجوههم؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ۝٨ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ۝٩﴾.

١٦- أن من أراد الله إضلاله، وحال بينه وبين الهدى والإيمان قدرًا، فلا سبيل له إلى إبصار الحق، والاهتداء؛ ولهذا يجب على العبد صدق اللجوء إلى ربه، وسؤاله الهداية.

١٧- أنه يستوي بالنسبة لهؤلاء- الذين حال الله بينهم وبين الإيمان، وأعمى عنه

بصائرهم وأبصارهم- الإنذار وعدمه؛ لقوله تعالى: ﴿ وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾ ﴾.

١٨- تسليته ﷺ، فلا يضيق صدره ويأسى على عدم إيمانهم؛ لأن الله كتب عليهم الضلال.

١٩- أنه إنما ينتفع بإنذاره ﷺ من اتبع القرآن، وخشي الرحمن وخافه وهو غيب لم يره وكأنه يراه، وخشيه وهو في غيبة عن أعين الناس لا يراه إلا الله؛ لقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ ﴾.

٢٠- أن من أسماء القرآن: «الذكر»؛ لما تضمنه من المواعظ والعبر والحكم، والأحكام والأخبار، والجزاء على الأعمال، والشرف للنبي ﷺ ولقومه.

٢١- إثبات اسم الله: «الرحمن»، وصفة الرحمة الواسعة له عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنَ ﴾.

٢٢- البشارة لمن اتبع القرآن وخشي ربه بالغيب، بما أعد الله له من مغفرة لذنوبه، وأجر واسع عظيم، مقابل عمله الصالح؛ لقوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴾.

٢٣- أن من اتبع القرآن قاده إلى الحذر مما أنذر منه، وإلى خشية الله بالغيب؛ كما أن من خشي الله تأثر بالقرآن، وانتفع به.

٢٤- الترغيب في اتباع القرآن وخشية الله تعالى والثناء على من اتصف بذلك؛ لقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴾.

٢٥- إثبات بعث الناس بعد الموت للحساب والجزاء، وقدرة الله تعالى التامة على ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾.

٢٦- الإشارة إلى قدرته عز وجل على إحياء القلوب الميتة بالكفر، بردها إلى الإيمان؛ لقوله تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾.

٢٧- كتابة كل ما قدم العباد من أعمال في الخير أو الشر، قليلة أو كثيرة، وحسابهم ومجازاتهم عليها؛ لقوله تعالى: ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ ﴾.

٢٨- كتابة آثارهم بعد الموت مما عملوه من أعمال يستمر لهم أجرها؛ كالصدقة الجارية، والعلم الذي ينتفع به، والولد الصالح يدعو لهم، وما أحيوه من سنن حسنة

يتبعهم الناس عليها، وكذا ما عملوه من أعمال سيئة يستمر عليهم وزرها؛ لقوله تعالى: ﴿وَءَاثَٰرَهُمْ﴾، أي: ونكتب آثارهم.

٢٩- أن الأعمال لا تنقطع بالموت.

٣٠- إحصاؤه عز وجل كل شيء من أعمال العباد وغيرها، وضبطه وكتابته وإثباته في إمام مبين، وهو اللوح المحفوظ وصحائف الأعمال؛ لقوله تعالى: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِيٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ ۝١٣ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ۝١٤ قَالُوا مَا أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمَٰنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ۝١٥ قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ۝١٦ وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ۝١٧ قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝١٨ قَالُوا طَائِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ۝١٩﴾.

قوله تعالى: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ ۝١٣ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ۝١٤ قَالُوا مَا أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمَٰنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ۝١٥ قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ۝١٦ وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ۝١٧﴾:

قوله: ﴿وَاضْرِبْ﴾، أي: واضرب يا محمد، أي: اتخذ واجعل للمكذبين من قومك ﴿مَّثَلًا﴾؛«المثل»: الشبه، أي: واضرب لهم في تكذيبهم ما أرسلناك به إليهم مثلًا يكون عظة وعبرة لهم.

﴿أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ﴾ «أصحاب» بدل من «مثلًا»، أو مفعول ثانٍ لـ«اضرب»، أي: أهل القرية.

﴿إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ «إذ»: ظرف بمعنى: «حين»، والضمير الهاء يعود إلى ﴿الْقَرْيَةِ﴾، أي: حين جاءها المرسلون الثلاثة من عند الله عز وجل يأمرونهم بعبادة الله تعالى وحده وطاعته، ويحذرونهم من الشرك بالله ومعصيته.

وما جرى منهم من تكذيب رسلهم، وما حل بهم من عقاب الله ونكاله؛ ليحذر المكذبون من قومك أن يحل بهم من العقوبة مثل ما حل بأصحاب هذه القرية، والسعيد من وعظ بغيره.

﴿إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ﴾ «إذ»: بدل من التي قبلها، أي: حين أرسلنا إليهم رسولين اثنين في بداية الأمر.

﴿فَكَذَّبُوهُمَا﴾، أي: فبادروا إلى تكذيبهما، ونفي صحة إرسالهما، ورد خبرهما.

﴿فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ﴾ قرأ أبو بكر عن عاصم بتخفيف الزاي الأولى: «فَعَزَزْنَا»، وقرأ الباقون بتشديدها: ﴿فَعَزَّزْنَا﴾، أي: فقويناهما وأيدناهما وشددنا أزرهما برسول ثالث.

كما قال موسى عليه السلام: ﴿وَٱجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ۝٢٩ هَٰرُونَ أَخِي ۝٣٠ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِي ۝٣١﴾ [طه: ٢٩- ٣١].

﴿فَقَالُوٓاْ﴾، أي: فقال الرسل الثلاثة لأصحاب القرية:

﴿إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ﴾، أي: من عند الله عز وجل، ندعوكم إلى عبادة الله تعالى وحده لا شريك له.

﴿قَالُواْ﴾، أي: قال أصحاب القرية لرسلهم مكذبين لهم ومعاندين ومكابرين: ﴿مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾، أي: فكيف أوحي إليكم وأنتم مثلنا؟ ولم يوحَ إلينا مثلكم؟ وما الذي فضّلكم علينا، ولو كنتم رسلًا لكنتم ملائكة؟

كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا﴾ [التغابن: ٦]، وقال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٤]، وقال بعض المكذبين لرسلهم: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ [إبراهيم: ١٠]، وقال بعضهم: ﴿وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ﴾ [المؤمنون: ٣٤].

كما قال كفار قريش: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ٧].

﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَيْءٍ﴾ «من» زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة من حيث المعنى لعموم النفي، أي: ما أنزل الرحمن أيّ شيء. وهذا منهم إنكار لعموم الرسالات والكتب.

﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ﴾ «إن»: نافية بمعنى «ما»، و«إلا»: أداة حصر، أي: ما أنتم إلا تكذبون فيما تدعونه من الرسالة، فكذبوا رسلهم المرسلين لهم خاصة، بعدما أنكروا عموم الرسالات والكتب.

﴿قَالُواْ﴾، أي: قال لهم رسلهم:

﴿رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ﴾ الجملة مؤكدة بثلاثة مؤكدات؛ الأول: كونها جارية مجرى القسم؛ فكأنهم قالوا: ربنا يعلم والله إنا إليكم لمرسلون، والثاني: «إنا»، والثالث: لام التوكيد في قولهم: ﴿لَمُرْسَلُونَ﴾.

أي: لمرسلون حقًّا من عنده، وسينصرنا ويظهرنا عليكم، ولو كنا كاذبين لانتقم منا وبادرنا بالعقوبة؛ كما قال تعالى: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ۖ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ

وَٱلْأَرْضِۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُواْ بِٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [العنكبوت: ٥٢]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [الحاقة: ٤٤-٤٦].

﴿وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٧﴾﴾ «إلا»: أداة حصر، أي: وما علينا بالنسبة لكم إلا البلاغ المبين، أي: إلا إبلاغكم الرسالة البلاغ البيِّن الواضح، المبين للحق بالأدلة الظاهرة، وقد قمنا بذلك، فبلغناكم رسالة الله بلاغًا بيِّنًا واضحًا، وأوصلناها إليكم.

قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهُواْ لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾ قَالُواْ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْۚ أَئِن ذُكِّرْتُمۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿١٩﴾﴾.

قوله: ﴿قَالُوٓاْ﴾، أي: قال أصحاب القرية لرسلهم: ﴿إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْۖ﴾، أي: تشاءمنا بكم، أي: لم نر في قدومكم علينا خيرًا، ولا على وجوهكم إلا شرًّا.

وتطيرهم بالرسل لا لشيء، وإنما لمجرد تشويه صورتهم وما جاءوا به من الحق، ولما يصيبهم من العقوبات من أجل مخالفتهم، ولحد الشرائع لهم من بلوغ مآربهم في اتباع أهوائهم وشهواتهم.

ثم أقسموا متوعدين لهم بقولهم: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهُواْ﴾ اللام: موطئة للقسم، أي: والله لئن لم تنتهوا عن دعوتنا إلى اتباعكم، وترك ما نحن عليه، ﴿لَنَرْجُمَنَّكُمْ﴾ جواب القسم، واللام: واقعة في جواب القسم، أي: لنرمينكم بالحجارة، ونقتلنكم رجمًا بها أشنع القتلات.

﴿وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، أي: وليصيبنكم منا عذاب مؤلم موجع، وعقاب شديد.

وهذا من أعظم المصائب، وغاية الخذلان؛ أن تنقلب المفاهيم، وصدق الله العظيم: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًاۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِي مَن يَشَآءُۖ﴾ [فاطر: ٨].

﴿قَالُواْ﴾، أي: قالت لهم رسلهم:

﴿طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْۚ﴾، أي: شؤمكم معكم، ملازم لكم، ومحيط بكم، بسبب كفركم المقتضي لزوال الخير عنكم، ونزول الشر والعقوبة بكم؛ كما قال تعالى عن قوم فرعون: ﴿فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ﴾ [الأعراف: ١٣١].

وقال قوم صالح: ﴿ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَۚ قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِۖ﴾ [النمل: ٤٧]، وقال تعالى:

﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ ۚ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٧٨].

﴿أَئِن ذُكِّرْتُم﴾ قرأ أبو جعفر بفتح الهمزة الثانية: «أَأَنْ»، وقرأ الباقون بكسرها: ﴿أَئِن﴾.

وقرأ أبو جعفر بتخفيف الكاف: «ذُكِرْتُمْ»، وقرأ الباقون بتشديدها: ﴿ذُكِّرْتُم﴾.

والهمزة الأولى في قوله: ﴿أَئِن﴾ للاستفهام الإنكاري التوبيخي التعجبي، و«إن»: شرطية، وفعل الشرط: «ذكرتم»، وجوابه محذوف، تقديره: تطيرتم وتوعدتم.

أي: أبسبب أنا ذكَّرناكم، ووعظناكم، ودعوناكم إلى توحيد الله تعالى، تشاءمتم بنا، وتوعدتمونا؟!

والاستفهام منصب على جواب الشرط المحذوف، وهو تطيرهم بالرسل، وتوعدهم لهم.

﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ «بل» للإضراب الانتقالي، أي: بل أنتم قوم متجاوزون للحد في كفركم وإجرامكم، وعتوكم وعنادكم، كذبتم الرسل بلا حجة ولا دليل، وتطيرتم بهم وهددتموهم.

الفوائد والأحكام:

١- ضرب الأمثال في القرآن للعظة والاعتبار، والترغيب في الخير، والتحذير من الشر، وهذا من رحمة الله ومنته؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾﴾ الآيات.

٢- إقامة الله عز وجل الحجة على أصحاب هذه القرية، فقد أرسل إليهم رسولين، ثم عززهما بثالث لما كذبوهما، ولم ينجع ذلك فيهم؛ لقوله تعالى: ﴿إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾﴾.

٣- أن الله عز وجل قد يرسل للقرية الواحدة أكثر من رسول؛ تقوية وتعزيزًا للرسالة.

٤- طعن أصحاب هذه القرية في رسلهم بكونهم بشرًا مثلهم، وليسوا بملائكة؛ كما هي عادة المكذبين قبلهم؛ لقولهم: ﴿مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾.

٥- شدة مكابرتهم بإنكارهم الرسالات، وإنزال الكتب عمومًا، وتكذيبهم لرسلهم؛ لقولهم: ﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ﴾.

٦- إثبات اسم الله تعالى: «الرحمن»، وما يدل عليه من صفة الرحمة الواسعة: ذاتية وفعلية، عامة وخاصة.

٧- إقرار هؤلاء المكذبين من أصحاب القرية باسم «الرحمن».

٨- تأكيد هؤلاء الرسل لقومهم أنهم مرسلون إليهم بما يشبه القسم، وبـ«إنا»، ولام التوكيد؛ لقولهم: ﴿رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ﴾.

٩- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة برسله؛ لقول الرسل: ﴿رَبُّنَا﴾.

١٠- إثبات علم الله عز وجل المحيط بكل شيء؛ لقول الرسل: ﴿رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ﴾ الآية.

١١- أن مهمة الرسل بالنسبة لأقوامهم هي إبلاغهم رسالات ربهم البلاغ المبين، وليس عليهم هداية الخلق؛ لقولهم: ﴿وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٧﴾﴾.

١٢- تشاؤم أصحاب هذه القرية وتطيرهم برسلهم، وتوعدهم لهم، وتهديدهم إياهم إن لم يكفوا عن دعوتهم، برجمهم وقتلهم أو تعذيبهم؛ لقولهم: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا۟ لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

١٣- جرأة أعداء الرسل على القول عليهم ما لم يكن منهم؛ تشويها لهم، وتنفيرًا من دعوتهم، وجرأتهم على أذيتهم وقتلهم.

١٤- ثقة هؤلاء الرسل بنصر الله لهم، وأن تطير هؤلاء المكذبين ملازم لهم أنفسهم، ومحيط بهم؛ لما هم عليه من الكفر والتكذيب والعناد؛ لقوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ﴾.

١٥- إنكار هؤلاء الرسل على قومهم تطيرهم بهم، وتهديدهم لهم، لا لشيء إلى أنهم ذكروهم ووعظوهم، ودلوهم على الخير؛ لقولهم: ﴿أَئِن ذُكِّرْتُم﴾.

١٦- الإنكار على من ذُكِّر ووُعِظ ودُعِي إلى الخير، فقابل ذلك بالإعراض والإساءة لمن دعاه.

١٧- إسراف هؤلاء المكذبين ومجاوزتهم الحد في الكفر والعناد؛ إذ كيف يكذبون من يذكرهم ويعظهم، بل ويتشاءمون به ويهددونه بالرجم والقتل؟! لقولهم: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّىٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ ﴿٢٥﴾ قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ ۖ قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾ ۞ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴿٢٨﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ ﴿٢٩﴾ يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ ۚ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٠﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٣١﴾ وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٣٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّىٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ ﴿٢٥﴾﴾:

قوله: ﴿وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ﴾، أي: من أبعدها طرفًا. والمراد بالمدينة: القرية المذكورة في قوله: ﴿أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ﴾.

﴿رَجُلٌ يَسْعَىٰ﴾، أي: يشتد ويركض ويسرع في مشيته؛ لئلا تفوته الفرصة؛ حرصًا منه على نصح قومه، حين سمع ما دعت إليه الرسل وآمن به، وعلم ما رد به قومه عليهم.

﴿قَالَ﴾ ناصحًا لقومه، ومشفقًا عليهم، وحاضًا لهم، ومتوددًا إليهم.

﴿يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ «ال»: للعهد، أي: المرسلين إليكم، أي: صدقوهم بما جاؤوكم به، وما دعوكم إليه من الإيمان وعبادة الله وحده، وانقادوا لهم.

﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾﴾ كرر الأمر بالاتباع من باب التوكيد؛ معللًا لذلك، ومرغبًا فيه، بذكر انتفاء المانع من ذلك، والموجب له؛ فقال: ﴿مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾، أي: الذي لا يسألكم أجرًا، من دنيا أو رياسة على إبلاغكم رسالة الله، وهم الرسل عليهم السلام.

﴿وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ الواو: عاطفة، أو حالية، أي: وهم مهتدون على صراط مستقيم فيما يدعون إليه من عبادة الله تعالى وحده لا شريك له، وفي هذا بيان الموجب لاتباعهم.

﴿وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ الاستفهام للإنكار، أي: أيّ شيء يمنعني أن أعبد الله وحده الذي خلقني؟ أي: المستحق للعبادة وحده، دون سواه، أي: وأنتم كذلك لم لا

تعبدونه؟ أو لم تعبدون غيره؟

وإنما لم يقل: ما لكم لا تعبدون الذي فطركم؟ بل أضاف الأمر إلى نفسه تلطفًا معهم.

قال ابن القيم: «أخرج الحجة عليهم في معرض المخاطبة لنفسه؛ تأليفًا لهم، ونبه على أن عبادة العبد لمن فطره أمر واجب في العقول، مستهجن تركها، قبيح الإضلال بها، فإن خلقه لعبده أصل إنعامه عليه، ونعمه كلها تابعة لإيجاده وخلقه، وقد جبل الله العقول والفطر على شكر المنعم، ومحبة المحسن»(١).

﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾، أي: وإليه وحده تردون يوم القيامة، وجميع الخلائق، فيحاسبكم ويجازيكم على أعمالكم خيرها وشرها، وهذا مما يؤيد أنه يريد قومه بقوله: ﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾.

﴿ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً﴾ الاستفهام: للنفي والإنكار، أي: لا أجعل من دون الله، أي: غير الله، آلهة أعبدهم، لا يملكون من الأمر شيئًا؛ ولهذا قال:

﴿إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ﴾ تعليل لما قبلها، أي: ﴿إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ﴾ دنيوي من مرض أو فقر أو غير ذلك، أو ضر أخروي بعذاب.

﴿لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ﴾، أي: لا تنفعني ولا تدفع عني شفاعتهم التي زعموها، ﴿شَيْـًٔا﴾ نكرة في سياق النفي فتعم أيَّ شيء مهما قل.

﴿وَلَا يُنقِذُونِ﴾، أي: ولا ينقذوني، وحذفت الياء لمراعاة الفاصلة، أي: ولا يخلصوني مما أراده الله بي من ضر؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ﴾ [يونس: ١٠٧].

﴿إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾﴾ «إذن»: حرف جواب، واللام للتوكيد.

﴿إِنِّىٓ إِذًا﴾، أي: إني إذن إن اتخذت من دون الله آلهة أعبدهم هذه صفتهم، ﴿لَّفِى ضَلَٰلٍ﴾، أي: لفي بعد وتيه عن الحق.

﴿مُّبِينٍ﴾، أي: بيِّن واضح.

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٣/ ٤٧٧.

﴿إِنِّىٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ﴾، أي: بوجوده وربوبيته وإلهيته وأسمائه وصفاته، وانقدت له ظاهرًا وباطنًا، والخطاب لقومه، ولم يقل: «بربي»، بل قال: ﴿بِرَبِّكُمْ﴾ مع أن رب الجميع واحد، هو الله عز وجل؛ ليذكرهم بنعمة ربوبية الله تعالى عليهم؛ ليشكروه ويؤمنوا به.

﴿فَٱسْمَعُونِ﴾ الفاء: عاطفة، أي: فاسمعوا قولي: إني آمنت بربكم.

وفي هذا الإعلان منه بإيمانه مراغمة لقومه، وإقامة للحجة عليهم، وعدم اكتراثه بما سيصدر منهم تجاهه؛ ولهذا قتلوه.

ويحتمل: أن يكون خطابه بقوله: ﴿ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ﴾ للرسل، ﴿فَٱسْمَعُونِ﴾، أي: فاسمعوا قولي؛ لتشهدوا لي عند ربي بما أقول لكم: إني آمنت بربكم واتبعتكم.

قوله تعالى: ﴿قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾ ۞ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴿٢٨﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ ﴿٢٩﴾﴾:

﴿قِيلَ﴾، أي: قيل تكريمًا له بعد أن قتله قومه واستشهد: ﴿ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ﴾.

وهذا من نعيم القبر، كما جاء في الحديث: «**أن أرواح الشهداء في حواصل طير خضر، تأكل من ثمار الجنة**»[(١)].

وأغمض عن كونهم قتلوه؛ كي لا يسر المشركين أن قومه قتلوه، فيطمعوا في قتله ﷺ.

ولم يلهه دخول الجنة عن حال قومه، وما تمنى هلاكهم، ولا الشماتة بهم، بل قال: ﴿يَٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾﴾.

قال السعدي[(٢)]: «قيل له في الحال: ﴿ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ﴾، ﴿قَالَ﴾ مخبرًا بما وصل إليه من الكرامة على توحيده وإخلاصه، وناصحًا لقومه بعد وفاته؛ كما نصح لهم في حياته».

﴿يَٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ﴾ «يا»: حرف تنبيه، و«ليت» للتمني، ﴿يَعْلَمُونَ﴾، أي: يعرفون.

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) في «تيسير الكريم الرحمن» ٦/ ٣٤٢.

أو «يا»: حرف نداء، والمنادى محذوف، والتقدير: يا رب، ليت قومي يعلمون.

﴿بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي﴾ «ما»: مصدرية، أي: بغفران ربي لي، أو موصولة، أي: بالذي غفر لي ربي، أي: بستر ذنوبي، والتجاوز عني.

﴿وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ﴾ بإدخالي الجنة دار كرامته، ومنحي من فضله المطلوب.

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «نصح قومه في حياته بقوله: ﴿اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ﴾ وبعد مماته بقوله: ﴿يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾﴾»(١).

ومقصوده: لعلهم إذا علموا ما منَّ الله به عليه من المغفرة والكرامة أن يؤمنوا ويتبعوا المرسلين.

﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُندٍ مِّنَ السَّمَاءِ﴾ «ما»: نافية، وفي الإتيان بـ«من» ثلاث مرات محسن جناس.

أي: وما أنزلنا على قومه من بعد هلاكه وموته على أيديهم ﴿مِن جُندٍ﴾ «من»: زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة من حيث المعنى لعموم النفي، ﴿مِّنَ السَّمَاءِ﴾ «من»: لابتداء الغاية.

أي: وما أنزلنا على قومه بعد قتلهم له وموته، لما أردنا إهلاكهم، أيَّ جند من السماء، أي: ملائكة.

﴿وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ﴾ أيَّ جند لإهلاكهم؛ لعدم حاجتنا إلى ذلك؛ لأنهم أضعف وأقل، والأمر علينا أيسر وأسهل من ذلك؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾﴾ [النحل: ٤٠].

﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾ قرأ أبو جعفر: «صَيْحَةٌ»؛ بالرفع في الموضعين، وقرأ الباقون بالنصب فيهما.

و«إن»: نافية؛ بمعنى: «ما»، و«إلا»: أداة حصر، أي: ما كانت إلا صيحة واحدة شديدة أهلكتهم، فقطعت قلوبهم في أجوافهم؛ ولهذا قال: ﴿فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ﴾ الفاء:

---

(١) ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٦/ ٥٥٧، ونسبه لابن أبي حاتم.

عاطفة، و«إذا»: هي الفجائية، أي: فإذا هم فجأة خامدون، أي: ميتون هامدون، قد سكنت جميع حركاتهم.

قوله تعالى: ﴿يَٰحَسۡرَةً عَلَى ٱلۡعِبَادِۚ مَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ٣٠ أَلَمۡ يَرَوۡاْ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّنَ ٱلۡقُرُونِ أَنَّهُمۡ إِلَيۡهِمۡ لَا يَرۡجِعُونَ ٣١ وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيۡنَا مُحۡضَرُونَ ٣٢﴾.

قوله: ﴿يَٰحَسۡرَةً عَلَى ٱلۡعِبَادِۚ﴾ هذا وما بعده من كلام الله تعالى، أي: ما أشد حسرتهم وندامتهم يوم القيامة إذ عاينوا العذاب، كيف كذبوا رسل الله، وخالفوا أمر الله؟ كما قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعۡمَٰلَهُمۡ حَسَرَٰتٍ عَلَيۡهِمۡۖ﴾ [البقرة: ١٦٧].

﴿مَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ﴾ «من»: مزيدة مؤكدة للنفي، أي: ما يأتيهم أيّ رسول.

﴿إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ «إلا»: أداة حصر، أي: إلا كانوا به يسخرون تكذيبًا به، وجحودًا لما جاء به من الحق.

و«به» متعلق بـ«يستهزئون»، وقدم عليه لإفادة الحصر، ومراعاة فواصل الآيات.

﴿أَلَمۡ يَرَوۡاْ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم﴾ الاستفهام: للتقرير والإنكار، و«كم»: خبرية للتكثير، أي: أولم يعلم هؤلاء المكذبون للنبي ﷺ كثرة ما أهلكنا قبلهم ﴿مِّنَ ٱلۡقُرُونِ﴾؟ أي: من الأمم المكذبة للرسل.

﴿أَنَّهُمۡ﴾، أي: المهلكين، ﴿إِلَيۡهِمۡ لَا يَرۡجِعُونَ﴾ الضمير في «إليهم» يعود إلى المكذبين، و«إليهم» متعلق بـ﴿يَرۡجِعُونَ﴾، وقدم مراعاة للفاصلة، والمصدر المؤول ﴿أَنَّهُمۡ إِلَيۡهِمۡ لَا يَرۡجِعُونَ﴾ في محل جر بحرف جر محذوف، أي: بأنهم بعد إهلاكهم لا يرجعون إليهم في هذه الدنيا.

أي: هم يعلمون كثرة من أهلكنا من القرون المكذبة من قبلهم، وأنهم إليهم لا يرجعون، فلم لا يعتبرون ويتعظون بذلك؟

﴿وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيۡنَا مُحۡضَرُونَ﴾ «إن» نافية بمعنى: «ما»، و«لما» بمعنى: «إلا»، أي: وما كل إلا جميع لدينا محضرون، أي: وما كل القرون والأمم السابقة واللاحقة إلا جميعهم عندنا ﴿مُحۡضَرُونَ﴾، أي: مجموعون يوم القيامة للحساب والجزاء، وتوفيتهم أعمالهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ كُلّٗا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمۡ رَبُّكَ أَعۡمَٰلَهُمۡۚ﴾ [هود: ١١١].

الفوائد والأحكام:

١ - أن الدين النصيحة؛ لقوله تعالى: ﴿وَجَآءَ مِنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ رَجُلٞ يَسۡعَىٰ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُواْ

ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ الآية.

٢- إطلاق المدينة على القرية والعكس؛ لأن الله قال في أول القصة: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾﴾ [يس: ١٣]، وقال هنا: ﴿وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ﴾.

٣- حرص هذا الرجل الناصح على هداية قومه لو كانوا يعلمون؛ لتجشمه المجيء إليهم من أقصى المدينة، وإسراعه السعي للمبادرة إلى ذلك.

٤- ينبغي المبادرة بالنصيحة في وقتها، وقبل فوات أوانها، واغتنام الفرص.

٥- حسن نصح هذا الرجل لقومه في عرضه عليهم، واحتجاجه لذلك؛ فخاطبهم بقوله: ﴿يَٰقَوْمِ﴾ تألفًا لهم، وأمرهم باتباع المرسلين مؤكدًا لذلك، ومبينًا لهم انتفاء المانع من ذلك، ووجود الموجب له؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾﴾، وهكذا ينبغي لمن يتصدى للدعوة أن يختار من الأساليب أحسنها، ومن الطرق والحجج أوضحها وأبينها.

٦- أن الرسل عليهم السلام لا يسألون أجرًا على تبليغ رسالات ربهم، فيقول قائل: إن هذا عزم ثقيل علينا، وهكذا ينبغي لمن يدعو إلى الله أن يترفع عن أخذ مال من الناس، حتى وإن أعطوه فلا يقبله.

٧- أن الرسل على هدى من ربهم؛ كما قال تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ۗ﴾ [الأنعام: ٩٠]، وقال تعالى مخاطبًا النبي ﷺ: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢].

٨- تلطف هذا الرجل الناصح مع قومه، بجعله الإنكار على نفسه لو لم يعبد الله الذي خلقه، وعبد من دونه آلهة لا يملكون من الأمر شيئًا، وأنه إذن لو فعل ذلك لفي ضلال مبين، وجواز مثل هذا بقصد استمالة المدعوين؛ لقوله: ﴿وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾﴾.

٩- الاستدلال بتوحيد الربوبية على توحيد الألوهية؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾؛ ففي هذه إثبات أنه الخالق المستحق للعبلادة وحده.

١٠- أن مرجع الخلائق كلهم إلى الله تعالى؛ إليه إيابهم، وعليه حسابهم؛ لقوله

تعالى: ﴿وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾.

١١- إنكار اتخاذ الشركاء مع الله، وتسفيه المشركين؛ لقوله: ﴿ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً﴾.

١٢- إثبات صفة الإرادة والمشيئة لله تعالى، وإثبات اسمه: «الرحمن»، وصفة الرحمة الواسعة له عز وجل؛ لقوله: ﴿إِن يُرِدۡنِ ٱلرَّحۡمَٰنُ بِضُرّٖ﴾.

١٣- أن إرادة الله تعالى الضر بالإنسان لا تنافي الرحمة؛ لأن إرادته عز وجل الضر بالإنسان قد تكون من رحمته عز وجل به؛ ليتنبه من غفلة، أو لزيادة حسناته، أو تكفير سيئاته، أو غير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿إِن يُرِدۡنِ ٱلرَّحۡمَٰنُ بِضُرّٖ﴾.

١٤- أن ما يقع من خير أو شر هو بإرادة الله تعالى ومشيئته.

١٥- قرن الحكم بعلته، وبيان بطلان شفاعة الشركاء التي يزعم المشركون، وأنهم لا يدفعون ضرًّا أراده الله، ولا هم ينقذون منه؛ لأنهم لا يملكون شيئًا؛ لقوله: ﴿إِن يُرِدۡنِ ٱلرَّحۡمَٰنُ بِضُرّٖ لَّا تُغۡنِ عَنِّي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾﴾.

١٦- أن من أعظم الضلال وأشده ترك عبادة الله، وعبادة آلهة غيره، لا تملك من الأمر شيئًا؛ لقوله: ﴿إِنِّيٓ إِذٗا لَّفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ﴾.

ومفهوم هذا: أن الهدى كل الهدى في عبادة الله تعالى وحده لا شريك له.

١٧- تمام معرفة هذا الرجل الناصح؛ فإنه جمع في نصحه لقومه لب العلم والمعرفة، فأمرهم باتباع المرسلين، وبين لهم أنهم لا يسألون أجرًا وأنهم مهتدون، وأنكر على نفسه وعليهم أن يعبدوا غير خالقهم، ومن إليه مرجعهم، وبيّن بطلان شفاعة الشركاء، وأنهم لن يغنوا من الله شيئًا، وأن من ترك عبادة الله تعالى وعبد غيره فهو في ضلال مبين.

١٨- إثباته القدوة لهم ولغيرهم؛ بإعلان إيمانه أمامهم، وتحديه لهم بذلك؛ إقامة للحجة عليهم، مع علمه بأنهم سيقتلونه؛ لقوله: ﴿إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمۡ فَٱسۡمَعُونِ ﴿٢٥﴾﴾، أي: فاسمعوا قولي، لا أُبا لكم، ولعلكم تقتدون بي.

ويحتمل: أن يكون الخطاب منه للرسل، فيكون المعنى: فاسمعوا قولي، واشهدوا لي بذلك عند ربكم.

١٩- إثبات ربوبية الله تعالى العامة لجميع الخلق؛ لقوله: ﴿بِرَبِّكُمۡ﴾، ويحتمل: أن

يكون المراد الربوبية: الخاصة إذا كان الخطاب للرسل عليهم السلام.

٢٠- إكرام الله عز وجل لهذا الرجل المؤمن الناصح، بإدخاله الجنة، بعد أن قتله قومه شهيدًا في سبيل الله، وفي هذا إثبات نعيم القبر؛ لقوله تعالى: ﴿قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ﴾ وهذا في البرزخ قبل القيامة.

٢١- إثبات وجود الجنة، وأنها موجودة الآن مهيأة لأهلها؛ كما قال تعالى: ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣].

٢٢- شفقة هذا الرجل على قومه ونصحه لهم حتى بعد مماته، وتمنيه لو يعلم قومه بمغفرة الله تعالى له، وجعله من المكرمين؛ لعلهم أن يؤمنوا ويتبعوا المرسلين؛ لقوله: ﴿يَٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾﴾.

٢٣- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة بأوليائه؛ لقوله: ﴿رَبِّى﴾.

٢٤- فضيلة الإيمان والترغيب فيه؛ لعظم ما أعده للمؤمنين، حيث جمع لهم بين التخلية بإزالة المرهوب بمغفرة ذنوبهم، والتحلية بحصول المطلوب بجعلهم من المكرمين بجنته.

٢٥- أن الله عز وجل لما أراد إهلاك قومه من بعده، لم ينزل عليهم جندًا من الملائكة؛ لأنهم أضعف وأقل، ولعظمته عز وجل، فالأمر عليه أيسر وأسهل؛ لقوله تعالى: ﴿۞ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴿٢٨﴾﴾.

٢٦- أن جند الله هم الملائكة، وأنهم في السماء، وينزلون بأمر الله تعالى.

٢٧- أن إهلاكهم ما كان إلا بصيحة واحدة، قطعت قلوبهم في أجوافهم، فإذا هم موتى هامدون؛ لقوله تعالى: ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ ﴿٢٩﴾﴾.

٢٨- ما أعظم قدرة الله تعالى، وما أهون الخلق عليه إذا هم عصوه، وخالفوا أمره.

٢٩- شدة حسرة وندامة المكذبين لرسل الله المستهزئين بهم يوم القيامة؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ ۚ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

٣٠- أن الاستهزاء بالرسل كفر موجب للنار، وللحسرة والندامة؛ كما قال تعالى: ﴿أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ۚ﴾ [التوبة: ٦٥- ٦٦].

٣١- استهزاء أكثر الأمم برسلهم، وتكذيبهم لهم؛ لقوله تعالى: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ

﴿إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ كما قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوْاْ بِهِۦۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [الذاريات: ٥٢- ٥٣].

٣٢- لا ينبغي الاغترار بما عليه أكثر الخلق، فأكثرهم على ضلال؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾ [يوسف: ١٠٣].

٣٣- تقرير المكذبين بما يقرون به ويعلمونه من إهلاك كثير من القرون المكذبين قبلهم، ولا يرجعون إليهم، والإنكار عليهم في عدم الاتعاظ والاعتبار بذلك؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْاْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٣١﴾﴾.

٣٤- أنه لا رجوع لمن مات قبل يوم القيامة؛ لقوله تعالى: ﴿أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾.

٣٥- إبطال زعم الدهرية القائلين بالدور، الذي يعتقدون جهلًا منهم أنهم يعودون إلى الدنيا كما كانوا فيها؛ كما قال تعالى: ﴿وَقَالُواْ مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الجاثية: ٢٤].

٣٦- إثبات البعث وأن كل الأمم وجميع الخلائق محضرون عند الله يوم القيامة للحساب والجزاء؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٣٢﴾﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾ وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴿٤٣﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾﴾.

قوله: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا﴾ الآية: العلامة والدلالة؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ﴾ [البقرة: ٢٤٨]، أي: علامة ملكه.

وقال الشاعر:

فواعجبًا كيف يعصى الإلـ ـهُ أم كيف يجحده الجاحد
وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد؟![1]

أي: وآية لهم، أي: للناس جميعًا، دالة على وجود الخالق، ووحدانيته في ربوبيته وإلهيته، وكمال عظمته، وقدرته على إحياء الموتى، وسعة علمه وحكمته، ورحمته ونعمته.

﴿ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا﴾ قرأ نافع وأبو جعفر: «المَيِّتَةُ»؛ بتشديد الياء، وقرأ الباقون بتخفيفها: ﴿ٱلْمَيْتَةُ﴾، والمعنى واحد.

أي: الأرض الهامدة اليابسة الجرداء أحييناها بإنزال المطر عليها؛ كما قال تعالى: ﴿فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾ [الحج: ٥].

﴿أَحْيَيْنَٰهَا﴾ بالنباتات والأشجار بإنزال المطر عليها بعد أن كانت يابسة جرداء، فالذي أحياها قادر على إحياء الموتى؛ كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً

---

(١) البيتان لأبي العتاهية. انظر: «ديوانه» ص١٠٤.

﴿فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾ [فصلت: ٣٩].

﴿وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا﴾، أي: جميع أصناف الحبوب؛ كالحنطة والذرة والشعير وغير ذلك؛ رزقًا لهم ولأنعامهم؛ ولهذا قال:

﴿فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾ قدم المعمول؛ لإفادة الحصر، ومراعاة للفاصلة، أي: فمنه يأكلون هم وأنعامهم.

كما قال تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٢﴾﴾ [عبس: ٢٤- ٣٢].

وقال تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٣﴾﴾ [النازعات: ٣٠- ٣٣]، وقال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ۖ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ﴿١١﴾﴾ [ق: ٩- ١١].

﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ﴾، أي: وجعلنا في تلك الأرض الميتة بساتين من نخيل وأعناب.

وجمع «نخيل» و«أعناب» باعتبار أنواع شجرهما المثمر أصنافًا من الثمر، ولكثرتهما.

وخصهما بالذكر؛ لأنهما طعام وقوت حلو لا يحتاج إلى طبخ ومؤونة، وينتفع به رطبًا ويابسًا، ولأنهما أشرف وأنفع الأشجار.

﴿وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴿٣٤﴾﴾، أي: وفجرنا في الأرض ﴿مِنَ ٱلْعُيُونِ﴾ الكثيرة المختلفة التي تسيل منها الأنهار السارحة، والتي تنفجر من رؤوس الجبال، وما يستخرج بواسطة الأنابيب وغير ذلك.

﴿لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ﴾ قرأ حمزة والكسائي وخلف: «ثُمُرِهِ»؛ بضم الثاء والميم، وقرأ الباقون بفتحهما: ﴿ثَمَرِهِۦ﴾.

واللام: للتعليل، أي: لأجل أن يأكلوا من ثمره قوتًا وأدمًا، وفاكهة ولذة.

﴿وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ﴾ قرأ حمزة والكسائي وخلف وأبو بكر عن عاصم: «عَمِلَتْ» بدون هاء، وقرأ الباقون بإثبات الهاء: ﴿عَمِلَتْهُ﴾ عائد إلى المذكور: الحب والنخيل والأعناب.

والواو: حالية، أي: والحال أن ذلك الثمر ما عملته أيديهم، وليس لهم فيه صنع ولا عمل، وأكثره يؤكل مباشرة، لا يحتاج إلى طبخ ونحو ذلك.

ويحتمل: إن «ما» في قوله: ﴿وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ﴾ موصولة معطوفة على «ثمره» في محل جر، أي: ويأكلوا من الذي عملته أيديهم.

فامتن الله عليهم بما أخرجه لهم من الثمار الطازجة، وبما أقدرهم عليه وعلمهم مما يعملونه بأيديهم من المأكولات.

﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ الاستفهام: للإنكار، أي: أفلا يشكرون الله تعالى على ما أنعم به عليهم من هذه النعم العظيمة، بنسبتها إليه، واستعمالها في طاعته، والاستعانة بها على مرضاته؟!

﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا﴾، أي: تنزيهًا لله عن النقائص والعيوب، وتعظيمًا له، الذي خلق وأوجد الأصناف والأنواع كلها، مما لا يمكن حصره وتعداده.

وتفرد بالوحدانية، فهو سبحانه الفرد، وما عداه من المخلوقات لا بد فيه من زوجين؛ كما قال تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ [الذاريات: ٤٩].

﴿مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ﴾، أي: مما تخرجه الأرض من أصناف وأنواع النباتات، من الزروع والحبوب، والأشجار مختلفة الثمار؛ كما قال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ﴾ [طه: ٥٣- ٥٤].

﴿وَمِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ من الذكور والإناث مع التفاوت بين خَلْقهم وخُلُقهم، وصفاتهم الظاهرة والباطنة.

﴿وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾، أي: ومن الذي لا يعلمونه من مخلوقات شتى لا يعرفونها.

قوله تعالى: ﴿وَآيَةٌ لَّهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾﴾.

قوله: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ﴾، أي: وآية لهم، دالة على عظمة الله تعالى، ونفوذ مشيئته، وكمال قدرته، وإحيائه الخلق بعد موتهم.

﴿ٱلَّيۡلُ نَسۡلَخُ مِنۡهُ ٱلنَّهَارَ﴾، أي: ننزع ونفصل منه النهار؛ كما قال تعالى: ﴿يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَ يَطۡلُبُهُۥ حَثِيثٗا﴾ [الأعراف: ٥٤].

﴿فَإِذَا هُم مُّظۡلِمُونَ﴾ الفاء: عاطفة، و«إذا»: فجائية، أي: فإذا هم داخلون في الظلام؛ لأن الأصل هو الظلام والليل، والنهار بنوره أمر وجودي يوجد بوجود الشمس، فهو وارد على الظلام والليل، فإذا ذهب النهار ونوره بقي الظلام والليل.

وفي الحديث: «**إذا أقبل الليل من ههنا، وأدبر النهار من ههنا، وغربت الشمس، فقد أفطر الصائم**»[1].

﴿وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ﴾ الواو: عاطفة، أي: وآية لهم الشمس تجري وتسير على الدوام، ﴿لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ﴾، أي: لمكان استقرارها، أو لوقت استقرارها، فهي آية في جريانها ومسيرها، وآية بما فيها من المنافع العظيمة، والمصالح الكثيرة.

ومكان استقرارها تحت العرش مما يلي الأرض، وهي أينما كانت فهي تحت العرش، هي وجميع المخلوقات؛ لأنه سقفها.

عن أبي ذر رضي الله عنه قال: كنت مع النبي ﷺ في المسجد عند غروب الشمس، فقال: «**يا أبا ذر، أتدري أين تغرب الشمس؟**» قلت: الله ورسوله أعلم. قال: «**فإنها تذهب حتى تسجد تحت العرش**، فذلك قوله: ﴿وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ﴾»[2].

وفي رواية: سألت رسول الله ﷺ عن قوله: ﴿وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ﴾ قال: «**مستقرها: تحت العرش**»[3].

والقول الثاني: أن المراد بمستقرها: منتهى وقت سيرها؛ وهو يوم القيامة، حينما تكوَّر ويذهب بنورها؛ كما قال تعالى: ﴿إِذَا ٱلشَّمۡسُ كُوِّرَتۡ ۝١﴾ [التكوير: ١].

---

(١) أخرجه البخاري في الصوم ١٩٥٤، ومسلم في الصيام، بيان وقت انقضاء الصوم وخروج النهار ١١٠٠، وأبو داود في الصوم ٢٣٥١؛ من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في بدء الخلق ٣١٩٩، ومسلم في الإيمان ١٥٩.

(٣) أخرجه البخاري في تفسير سورة يس ٤٨٠٣، ومسلم في الإيمان ١٥٩.

وقيل المراد بمستقرها: منتهى تنقلها في البروج شمالًا وجنوبًا، فلها حد تنتهي إليه من الشمال لا تتجاوزه، ولها حد تنتهي إليه من الجنوب لا تتجاوزه، وعلى هذا فيكون المستقر زمانيًّا ومكانيًّا، فغاية سيرها في الشمال يكون به ابتداء فصل الصيف، وغاية سيرها في الجنوب ابتداء فصل الشتاء.

﴿ذَٰلِكَ﴾ الإشارة إلى جريان الشمس، ﴿تَقْدِيرُ﴾، أي: تدبير وتقنين.

﴿الْعَزِيزِ﴾ ذو العزة التامة: عزة القوة، والغلبة والقهر، والامتناع.

﴿الْعَلِيمِ﴾ ذو العلم الواسع الذي وسع كل شيء، فبعزته عز وجل التي لا تخالف ولا تمانع، وبعلمه الواسع الذي أحاط بكل شيء، أوجد هذه الشمس العظيمة، تجري في فلكها منذ خلقها الله بنظام بالغ تام، متقن دقيق، لا تتقدم ولا تتأخر، ولا ترتفع ولا تنخفض، وأوجد ما فيها من المصالح والمنافع للعباد مما لا يعد ولا يحصى، الدالة على عظمته عز وجل، وكمال قدرته وتمام نعمته؛ كما قال تعالى: ﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٩٦)﴾ [الأنعام: ٩٦].

﴿وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ﴾ قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وروح عن يعقوب: «وَالقَمَرُ» بالرفع، عطفًا على الشمس، وقرأ الباقون: ﴿وَالْقَمَرَ﴾ بالنصب على الاشتغال، أي: وقدرنا القمر منازل، أي: قدرنا سيره منازل، من أول الشهر إلى آخره، ينزل كل ليلة منزلة؛ لمعرفة الشهور والأعوام والحساب.

كما قال تعالى: ﴿۞ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ ۗ﴾ [البقرة: ١٨٩]، وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ۚ﴾ [يونس: ٥]، وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ۚ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا (١٢)﴾ [الإسراء: ١٢].

ومنازل القمر ثمان وعشرون منزلة على حسب النجوم المعروفة عند العرب، ففي كل ليلة ينزل منزلة، ويبقى ليلة واحدة إن كان الشهر تسعًا وعشرين ليلة، أو ليلتان إن كان ثلاثين، وتسمى: ليالي السرار، أي: الاختفاء؛ لاختفاء القمر فيها، إما في آخر الشهر، أو في أول الذي يليه.

﴿حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ﴾، أي: رجع بعد أن استتم وصار بدرًا إلى الضعف شيئًا

فشيئًا، إلى أن صار ﴿كَٱلۡعُرۡجُونِ ٱلۡقَدِيمِ﴾، أي: مثل عذق النخل إذا يبس يتقوس ويصفر، ويبدو دقيقًا.

قال ابن كثير[1]: «وأما القمر فقدره منازل، يطلع في أول ليلة من الشهر ضئيلًا قليل النور، ثم يزداد نورًا في الليلة الثانية، ويرتفع منزلة، ثم كلما ارتفع ازداد ضياء، وإن كان مقتبسًا من الشمس، حتى يتكامل نوره في الليلة الرابعة عشرة، ثم يشرع في النقص إلى آخر الشهر حتى يصير كالعرجون القديم».

وبما أن نور القمر مستمد من الشمس؛ فإنه كلما ارتفع وبعد عن الشمس زادت المقابلة بينهما؛ لأن سيرهما كروي، فيزداد نوره حتى يكون بدرًا كاملًا، وذلك حين يكون في المشرق، وتكون الشمس في المغرب، ويتم التقابل بينهما.

وكلما دنا وقرب من الشمس قلَّت المقابلة بينهما، وضعف نوره شيئًا فشيئًا، والجزء المنير منه هو الذي يلي الشمس؛ لهذا في أيام الشتاء عندما تكون الشمس خلفه تكون فتحة قوسه نحو المشرق، وفي أيام الصيف عندما تكون الشمس عنه شمالًا تكون فتحة قوسه نحو الجنوب.

﴿لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ ٤٠﴾.

لما ذكر الله عز وجل أن الشمس تجري لمستقر لها بتقدير العزيز العليم، وأنه قدر القمر منازل ينزلها منزلة منزلة حتى يعود كالعرجون القديم، بيَّن أن هذا النظام في غاية الإحكام، لا يمكن أن يتصادم، أو يختل، أو يتفاوت، أو يضطرب.

قوله: ﴿لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ﴾ «لا»: نافية، و«أن» والفعل «تدرك» في تأويل مصدر في محل رفع فاعل لـ«ينبغي»، أي: لا الشمس ينبغي لها إدراك القمر، أي: لا يمكن لها إدراك القمر واللحاق به، والاجتماع معه في الليل؛ لأن هذا خلاف التقدير الذي قدره الله عز وجل لها.

﴿وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ﴾، أي: ولا الليل يسبق النهار، بل لا يأتي الليل إلا بعد النهار، فالشمس لا يمكن أن تطلع في الليل فتدرك القمر، ولا الليل يأتي في زمن النهار،

---

(١) في «تفسيره» ٦/ ٥٦٤.

فيسبقه في بعض أجزائه، أو يحل محله فيتوالى ليلتين.

﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾، أي: وكل من الليل والنهار والشمس والقمر في ﴿فَلَكٍ﴾ الفلك: الشيء المستدير، ﴿يَسْبَحُونَ﴾: يدورون، أي: كل منهما يسبح ويدور في فلكه على الدوام؛ كما قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴿٣٣﴾﴾ [إبراهيم: ٣٣].

قوله تعالى: ﴿وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنْقَذُونَ ﴿٤٣﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ ﴿٤٤﴾﴾:

قوله: ﴿وَآيَةٌ لَهُمْ﴾، أي: ودلالة لهم، أي: للناس أيضًا على عظمة الله تعالى وتمام قدرته، وسعة رحمته، ونعمته وفضله.

﴿أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ قرأ نافع وابن عامر: «ذُرِّيَّاتِهِمْ» بالجمع، وقرأ الباقون بالإفراد: ﴿ذُرِّيَّتَهُمْ﴾.

أي: حملنا ما بقي من ذرية نوح عليه السلام على وجه الأرض ﴿فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾، أي: في سفينة نوح التي أمره الله بصنعها؛ كما قال تعالى: ﴿أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [المؤمنون: ٢٧].

﴿الْمَشْحُونِ﴾، أي: المملوء ممن أمره الله بحملهم فيها من كل زوجين اثنين؛ من الحيوانات والأمتعة، وأهله إلا امرأته، ومن آمن معه وهم قليل؛ كما قال تعالى: ﴿قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [هود: ٤٠]؛ ولهذا قال في الآية الأخرى: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [الصافات: ٧٧]، أي: ذرية نوح عليه السلام.

﴿وَخَلَقْنَا لَهُمْ﴾ معطوف على «حملنا»، أي: وآية لهم أنا خلقنا لهم، أي: أوجدنا لهم بتعليمنا إياهم.

﴿مِنْ مِثْلِهِ﴾، أي: من جنس فلك نوح وسفينته، أي: أوجدنا لهم من مثل الفلك المشحون الذي صنعه نوح سفنًا يركبونها في البحر، صغارًا وكبارًا على غرار سفينة نوح عليه السلام، حيث كانت أول سفينة صنعت.

كما قال تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ ﴿١١﴾ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ ﴿١٢﴾﴾ [الحاقة: ١١؛١٢]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴿١٥﴾﴾ [القمر: ١٥].

عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: «أتدرون ما: ﴿وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ۝٤٢﴾؟ قلنا: لا، قال: هي السفن، جعلت من بعد سفينة نوح على مثلها»(١).

وقيل: المراد بقوله: ﴿مِّن مِّثْلِهِۦ﴾: الإبل وغيرها من المراكب البرية والجوية.

﴿وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ﴾ هذا يقوي أن المراد بقوله: ﴿وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ۝٤٢﴾: السفن، أي: وإن نشأ نغرقهم في البحر، وهم على ظهور هذه السفن.

كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ۝٣٢ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ۝٣٣ أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا۟ وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ ۝٣٤﴾ [الشورى: ٣٢- ٣٤].

﴿فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ﴾ الفاء: عاطفة، و«صريخ»: «فعيل» بمعنى فاعل، أي: فلا صارخ لهم، ولا مستغيث، ولا مستنجد.

﴿وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ﴾، أي: ولا هم يُخلّصون من الغرق.

﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا﴾ «إلا»: للاستثناء، بمعنى: «لكن»، أي: لكن رحمة منا لهم، ولطفًا بهم، لم نغرقهم في البحر.

﴿وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾ «متاعًا»: معطوف على رحمة، أي: إلا رحمة منا بهم، وتمتيعًا لهم ﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾، أي: إلى وقت انتهاء آجالهم.

الفوائد والأحكام:

١- التنبيه على عظمة الله تعالى ووحدانيته في ربوبيته وإلهيته، وتمام قدرته على إحياء الموتى، وسعة علمه وحكمته ورحمته في إحياء الأرض بعد موتها، وإخراجه الحب منها، وجعله فيها بساتين من نخيل وأعناب، وتفجيره فيها العيون؛ لقوله تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ۝٣٣ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ۝٣٤﴾.

٢- أن من أفضل ما أخرج الله من الأرض وجعل فيها: الحبوب، وبساتين النخيل والأعناب؛ لأن الله خصها بالذكر.

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ١٩/ ٤٤٤.

٣- امتنان الله عز وجل على العباد بما أخرج لهم من الأرض من الحبوب، وما جعل فيها من بساتين النخيل والأعناب، وغير ذلك، وما فجر فيها من العيون؛ ليأكلوا من ثمار ذلك مما لم تعمله أيديهم، أو مما عملته بتعليم الله لهم؛ لقوله تعالى: ﴿لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ﴾.

٤- أهمية الحبوب وثمر النخيل والأعناب في حياة الإنسان، غذاء وفاكهة، وفضلها على سائر الثمار؛ لتخصيصها بالذكر.

٥- قدرة الله تعالى وتمام نعمته بتفجير عيون الماء من الأرض، الذي به حياة الإنسان والحيوان والنبات.

٦- عدم قدرة الخلق على صنع وإيجاد شيء مما به حياتهم، إلا ما علمهم الله وأقدرهم على صنعه؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ﴾.

٧- وجوب شكر نعم الله تعالى، والإنكار على من كفرها؛ لقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾.

٨- تنزيه الله عز وجل وتقديسه وتعظيمه، وإثبات وحدانيته، وتفرده في خلق الأزواج والأصناف والأنواع من نبات الأرض، ومن الناس، ومما لا يعلمه الخلق كلهم من مخلوقات شتى؛ لقوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾﴾.

٩- أنه ما من شيء من المخلوقات إلا منه زوجان؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾.

١٠- قصور علم البشر، وعدم علمهم بكثير من الأشياء؛ لقوله تعالى: ﴿وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥].

١١- التنبيه على آيات الله تعالى في الليل والنهار، وتعاقبهما ضياءً وظلمةً، والشمس والقمر وجريانهما، وما في ذلك من الدلالة على عظمته عز وجل ووحدانيته، وتمام قدرته، وسعة علمه، وحكمته ورحمته؛ لقوله تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾﴾.

١٢- أن الأصل هو الظلام والليل، وأن النهار طارئ بنوره؛ لقوله تعالى: ﴿نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ﴾.

١٣- إثبات جريان الشمس وعدم ثبوتها؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِي﴾.

١٤- أن للشمس مستقرًّا مكانيًّا، وهو تحت العرش؛ كما قال ﷺ؛ كما أن لها مستقرًّا زمانيًّا ينتهي إليه سيرها، وذلك يوم القيامة، منتهى هذه الدنيا وجميع ما فيها من الخلائق؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا﴾.

وذلك حين تجمع مع القمر، وتكور ويذهب بنورها؛ كما أن لها غاية تنتهي إليها ارتفاعًا في الصيف، وانخفاضًا في الشتاء، فيكون لها على هذا مستقرها زمانيًّا مكانيًّا.

١٥- التنويه بعظمته عز وجل، وعظمة تقديره لجريان الشمس في نظام بالغ دقيق، وتمام خلقه، وحسن تدبيره؛ لقوله عز وجل: ﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾.

١٦- إثبات اسمي الله: «العزيز»، و«العليم»، وصفتي العزة التامة، والعلم الواسع له عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾.

١٧- في اقتران اسميه عز وجل: «العزيز»، و«العليم» كمال إلى كمال.

١٨- حكمة الله تعالى، وتمام قدرته، وسعة علمه ورحمته، ومنته في تقديره القمر منازل، كل ليلة ينزل فيها منزلة؛ يبدأ هلالًا ضئيلًا، ثم يزداد نوره وكماله حتى يكون بدرًا تامًّا، ثم يأخذ في النقصان حتى يصير كالعرجون القديم، وما في ذلك من المصالح للعباد من معرفة الشهور والأعوام والحساب، وغير ذلك.

١٩- إثبات القياس، وهو: إلحاق شيء بشيء لعلة؛ لقوله تعالى: ﴿كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ﴾.

٢٠- أنه ليس بعد التمام إلا النقصان، وفي هذا عبرة لمن يعتبر؛ كما قال تعالى: ﴿۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً﴾ [الروم: ٥٤].

وقد أحسن القائل:

إذا كنت تهوى العيشَ فاقنع توسطًا ... فعند التناهي يقصر المتطاول

تُـوَقّ البـدورُ الـنقصَ وهـي أهلـةٌ ويـدركها النقصـان وهـي كوامـلُ(١)

قال الشافعي في الرجز(٢):

مـا طـار طـير فـارتفع إلا كـما طـار وقـع

ويقولون في المثل: «ما زم هضم».

٢١- أن سنن الله تعالى الكونية لا تتبدل ولا تتغير، في الشمس والقمر، والليل والنهار، وغيرها، فلا الشمس يمكن أن تدرك القمر، فتخرج ليلًا، ولا القمر يسبق النهار، فيأتي قبله، أو قبل انتهاء زمنه؛ لقوله تعالى: ﴿لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ﴾.

٢٢- تعاقب الشمس والقمر والليل والنهار، ودوران كل منهما في فلكه؛ لقوله تعالى: ﴿وَكُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ﴾.

٢٣- أن من آيات الله ودلائل عظمته وتمام قدرته، ورحمته ونعمته، حمل ما بقي من ذرية نوح عليه السلام، التي تناسل منها الناس بعد ذلك في سفينة نوح عليه السلام، وإنجاءهم من الغرق؛ لقوله تعالى: ﴿وَءَايَةٞ لَّهُمۡ أَنَّا حَمَلۡنَا ذُرِّيَّتَهُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ ٱلۡمَشۡحُونِ ٤١﴾.

٢٤- أن من آيات الله تعالى ونعمه على العباد، إيجاد هذه السفن التي يركبها الناس على ظهر البحر، وتحملهم من مكان إلى مكان؛ لقوله تعالى: ﴿وَخَلَقۡنَا لَهُم مِّن مِّثۡلِهِۦ مَا يَرۡكَبُونَ ٤٢﴾.

وقيل: المراد السفن وغيرها من المراكب البرية والجوية.

٢٥- تهديدهم بأن الله عز وجل لو شاء لأغرقهم وهم على ظهور هذه المراكب في البحر؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن نَّشَأۡ نُغۡرِقۡهُمۡ فَلَا صَرِيخَ لَهُمۡ وَلَا هُمۡ يُنقَذُونَ ٤٣﴾.

ومفهوم هذا الامتنان عليهم بإنجائهم من الغرق.

٢٦- إثبات المشيئة لله تعالى؛ وهي: الإرادة الكونية.

٢٧- أن ما شاءه الله وأراده كونًا نافذ لا محالة، فلا مستنجد لأحد منه، ولا منقذ؛

---

(١) البيتان لأبي العلاء المعري. انظر: «نهج البلاغة» ص١٦٣.

(٢) انظر: «ديوانه» ص٩٤. ونسب في «جامع بيان العلم وفضله» ١/ ٦٢٩ لابن المبارك، ونصه:

مـا طـار شـيء فـارتفع إلا كـما طـار وقـع

لقوله تعالى: ﴿فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ﴾.

٢٨- إثبات رحمة الله تعالى، ولطفه بالعباد في حملهم على هذه المراكب، وإنجائهم من الغرق، وتمتيعهم في الحياة إلى حلول آجالهم؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٤﴾﴾.

٢٩- أنه لن يموت أحد حتى يستوفي رزقه وأجله؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾.

٣٠- أنه لا خلود في هذه الدنيا، وكل من عليها فانٍ؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٥﴾ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ آيَةٍ مِّنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤٦﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٤٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٨﴾ مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾ قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾ فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٥﴾ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ آيَةٍ مِّنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤٦﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٤٧﴾﴾.

قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾، أي: وإذا قيل للمشركين المكذبين المتمادين في غيهم وضلالهم: ﴿اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ﴾ «ما»: موصولة في الموضعين، أي: اتقوا الذي بين أيديكم من عذاب الدنيا مما هو حاضر أو منتظر قريبًا، ﴿وَمَا خَلْفَكُمْ﴾، أي: واتقوا الذي خلفكم، أي: الذي أمامكم من عذاب الآخرة؛ كما قال تعالى: ﴿وَمِن وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ [إبراهيم: ١٧]، أي: أمامه.

أو: اتقوا ما بين أيديكم من المعاصي؛ السابق منها أو اللاحق، وما خلفكم، أي: ما أمامكم من عذاب الآخرة.

أو: اتقوا ما بين أيديكم وما خلفكم من المعاصي اللاحق منها والسابق.

﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾، أي: لأجل أن يرحمكم الله، فيقيكم عذابه، وينيلكم ثوابه. فجمعت الآية بين الترهيب والترغيب.

﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ آيَةٍ﴾ «من»: زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة من حيث المعنى لعموم النفي، أي: وما تأتي هؤلاء المكذبين للرسل، أيّ آية.

﴿مِّنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ الشرعية والكونية، البينة الواضحة الدالة على عظمته تعالى، ووحدانيته، وصدق رسله.

﴿إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ «إلا»: أداة حصر، أي: ما يقابلونها إلا بالإعراض والصدود، بقلوبهم وأبدانهم، فالإعراض عن الآيات الشرعية بالتكذيب بما فيها من الأخبار،

والاستكبار عن العمل بما فيها من الأحكام.

والإعراض عن الآيات الكونية: عدم التفكر فيها، والاتعاظ بها، وتفسير ما يحدث منها، من كسوف، وزلازل، وبراكين، وأعاصير مدمرة، وغير ذلك، بأنها أمور طبيعية، مع نسيان الحكمة من ذلك، وأنها نذر يحذر عز وجل بها عباده، وعقوبات يبتليهم بها؛ كما قال تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِي عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾﴾[الروم: ٤١].

وقال ﷺ: «**إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله؛ لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته، فإذا رأيتم ذلك، فصلوا وادعوا حتى ينكشف ما بكم**»[(١)].

وكونهم يعرضون عن جميع الآيات دليل على أنهم لم يتقوا ما بين أيديهم وما خلفهم؛ كما أمروا بذلك.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا۟﴾، أي: أعطوا وابذلوا، ﴿مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾، أي: من رزق الله، أو من الذي رزقكم الله، أي: من الذي أعطاكم الله من المال والخير على الفقراء والمحتاجين.

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ أظهر في مقام الإضمار فقال: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ للتصريح بكفرهم، وأنه سبب قولهم هذه المقالة، أي: قالوا معارضين للحق، محتجين بالمشيئة والقدر، مما لا حجة لهم به:

﴿أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ﴾ الاستفهام للإنكار، و«من»: موصولة، أي: أنطعم الذي لو يشاء الله أطعمه وأغناه من رزقه، أي: لو شاء الله أطعمهم فأطعمناهم، ولكن الله لم يشأ أن يطعمهم فلا نطعمهم.

أي: أن الله شاء ألا يُطعم هؤلاء، وأن يكونوا فقراء، فنحن لا نطعمهم؛ لئلا نخالف مشيئة الله.

ويحتمل أنهم أرادوا بقولهم: ﴿أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ﴾: الاستهزاء بمن يأمرهم بذلك، أي: أنطعم قومًا لو شاء الله أطعمهم، فإطعامهم إلى الله، لا إلينا.

﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾ «إن» نافية بمعنى: «ما»، أي: ما أنتم- أيها المؤمنون- في

(١) أخرجه البخاري في الجمعة ١٠٦١، ومسلم في الكسوف ٩١٥؛ من حديث المغيرة بن شعبة رضي الله عنه.

أمركم لنا بذلك ﴿إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ «إلا»: أداة حصر، أي: في ضلال وبُعد عن الحق بيِّن واضح.

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾﴾:

قوله: ﴿وَيَقُولُونَ﴾، أي: ويقول الكفار المكذبون بوعد الله والبعث والحساب، على وجه الاستعجال، والاستبعاد والإنكار: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ الاستفهام: للاستهزاء والتهكم والاستبعاد والإنكار.

﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾، أي: في قولكم: إن هناك بعثًا وحسابًا وجزاءً؛ كما قال تعالى: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا﴾ [الشورى: ١٨]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾﴾، فأجابهم بقوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [الجاثية: ٢٥؛٢٦]، وقال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾﴾، فأجابهم بقوله: ﴿قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [سبأ: ٢٩؛٣٠].

﴿مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً﴾ «إلا»: أداة حصر، أي: ما ينتظرون إلا صيحة واحدة، وهي النفخة الأولى في الصور، نفخة الفزع والموت عند قيام الساعة؛ كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [النمل: ٨٧].

أي: ففزع كل من في السموات والأرض، وصعقوا وماتوا من شدة النفخة والصيحة إلا من شاء الله؛ كما قال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الزمر: ٦٨]، وهي الراجفة؛ كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ﴿٦﴾﴾ [النازعات: ٦].

﴿تَأْخُذُهُمْ﴾ بشدة وسرعة، وتفاجئهم ولا تمهلهم؛ كما قال تعالى: ﴿فَعَصَوْا۟ رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً ﴿١٠﴾﴾ [الحاقة: ١٠].

﴿وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾ قرأ حمزة بسكون الخاء وتخفيف الصاد: «يَخْصِمُونَ»، وقرأ الباقون بكسر الخاء وتشديد الصاد: ﴿يَخِصِّمُونَ﴾.

والواو حالية، أي: وهم يتخاصمون ويتشاجرون في أسواقهم وبيعهم وأكلهم وشربهم، لاهون غافلون في أمور دنياهم، يتخاصم بعضهم مع بعض.

﴿فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ تَوۡصِيَةٗ﴾ «توصية»: نكرة في سياق النفي فتعم، أي: فلا يستطيعون أيَّ توصية مهما قلت، بأولادهم وأموالهم؛ لأنهم لا يستطيعون الكلام من شدة الفزع.

وهذه الآية كما قال تعالى في سورة الأنبياء: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ (٣٨) لَوۡ يَعۡلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمۡ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ (٣٩) بَلۡ تَأۡتِيهِم بَغۡتَةٗ فَتَبۡهَتُهُمۡ فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ (٤٠)﴾ [الأنبياء: ٣٨- ٤٠].

﴿وَلَآ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمۡ يَرۡجِعُونَ﴾، أي: ولا يستطيعون الرجوع إلى أهلهم؛ ليشاهدوهم ويودعوهم؛ لأنهم لا يتجاوزون مكانهم.

قوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ يَنسِلُونَ (٥١) قَالُواْ يَٰوَيۡلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرۡقَدِنَاۜۗ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلۡمُرۡسَلُونَ (٥٢) إِن كَانَتۡ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ فَإِذَا هُمۡ جَمِيعٞ لَّدَيۡنَا مُحۡضَرُونَ (٥٣) فَٱلۡيَوۡمَ لَا تُظۡلَمُ نَفۡسٞ شَيۡـٔٗا وَلَا تُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ (٥٤)﴾:

قوله: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ﴾ «نفخ» بالبناء للمجهول؛ لأن الإيهام أبلغ في التهويل والتعظيم.

والصور: «القرن»؛ كما قال ﷺ: «**كيف أنعم، وقد التقم صاحب القرنِ القرنَ، وحنى جبهته، وأصغى سمعه ينتظر أن يؤمر أن ينفخ فينفخ؟!**». قال المسلمون: فكيف نقول يا رسول الله؟ قال: «**قولوا: حسبنا الله ونعم الوكيل، توكلنا على الله ربنا**»(١).

وصاحب القرن: هو إسرافيل عليه السلام، الذي وكل بالنفخ في الصور.

والمراد: النفخة الثانية، الرادفة، نفخة البعث والنشور؛ كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخۡرَىٰ فَإِذَا هُمۡ قِيَامٞ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨]، وقال تعالى: ﴿يَوۡمَ تَرۡجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ (٦) تَتۡبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ (٧)﴾ [النازعات: ٦- ٧].

﴿فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ﴾ الفاء: عاطفة، و«إذا»: فجائية، أي: فإذا هم من القبور.

﴿إِلَىٰ رَبِّهِمۡ يَنسِلُونَ﴾ ﴿إِلَىٰ رَبِّهِمۡ﴾: متعلق بـ«ينسلون»، وقدم عليه لإفادة الحصر،

---

(١) أخرجه الترمذي في التفسير ٣٢٤٣؛ من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، وقال الترمذي: «حديث حسن».

أي: إلى ربهم وحده، مع مراعاة الفواصل.

﴿يَنسِلُونَ﴾ «النسلان»: المشي السريع، أي: فإذا هم من القبور يخرجون إلى ربهم مسرعين؛ كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [المعارج: ٤٣].

وقال تعالى: ﴿وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٦]، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ [الروم: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ﴾ [طه: ١٠٨]، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [النمل: ٨٧].

﴿قَالُوا يَا وَيْلَنَا﴾، أي: يا هلاكنا، ﴿مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا﴾ الاستفهام: للتعجب، أي: من الذي بعثنا من قبورنا، وأخرجنا منها؟! لأنهم كانوا يعتقدون في الدنيا أنهم لا يبعثون من قبورهم.

وهذا لا ينافي عذاب القبر؛ لأن عذاب القبر بالنسبة لما بعده كالرقاد؛ لأن ما بعده أشد وأعظم؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰ﴾ [طه: ١٢٧].

﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾، أي: فيجيبهم المؤمنون أو الملائكة توبيخًا لهم بقولهم: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ﴾.

و«هذا»: إشارة إلى بعثهم من قبورهم، و«ما»: موصولة أو مصدرية، أي: هذا الذي وعد به الرحمن، أو هذا وعد الرحمن، بأن هناك بعثًا وحسابًا وجزاءً على الأعمال.

﴿وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾، أي: أخبروا بالصدق فيما أخبروا به عن البعث والحساب والجزاء على الأعمال وغير ذلك، وفيما جاؤوا به من الشرع؛ كما قالوا في الآية الأخرى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ﴾ [الأعراف: ٤٣].

ويحتمل أن قوله: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾ من قول الكفار أنفسهم، اعترافًا منهم ذلك اليوم بصدق وعد الله وصدق الرسل حين لا ينفعهم ذلك.

والأول أظهر، وهو كقوله تعالى في سورة الصافات: ﴿وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ الدِّينِ ﴿٢٠﴾ هَٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الآيتان: ٢٠، ٢١]، وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ

أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَـٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَـٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ ۖ فَهَـٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَـٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [الروم: ٥٦].

وفي ذكر «الرحمن» إشارة إلى أنه يحصل من رحمته عز وجل في ذلك اليوم ما لا تحيط به الظنون، ولا يصفه الواصفون؛ كقوله تعالى: ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَـٰنِ﴾ [الفرقان: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَـٰنِ﴾ [طه: ١٠٨].

﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً﴾؛ «إن» نافية بمعنى: «ما»، أي: ما كانت النفخة في الصور، أو البعثة من القبور، إلا صيحة واحدة، ينفخ إسرافيل في الصور، فتحيا الأجساد؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾ [النحل: ٧٧].

﴿فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ الفاء: عاطفة، و«إذا»: فجائية، أي: فإذا هم جميع، أي: الأولون والآخرون، الإنس والجن ﴿لَّدَيْنَا﴾، أي: عندنا ﴿مُحْضَرُونَ﴾، أي: ماثلون للحساب.

كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَـٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾﴾ [الواقعة: ٤٩- ٥٠]، وقال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ ﴿١٤﴾﴾ [النازعات: ١٣؛ ١٤]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ﴾ [الإسراء: ٥٢].

﴿فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا﴾ الفاء: عاطفة، و«نفس» و«شيئًا» كل منهما نكرة في سياق النفي فتعم، أي: فيوم القيامة لا تظلم أيُّ نفس أيَّ شيء من الظلم، لا قليلًا ولا كثيرًا، فلا ينقص من حسناتها، ولا يزاد في سيئاته.

كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١١٢﴾﴾ [طه: ١١٢]، أي: فلا يخاف ظلمًا بزيادة السيئات، أو هضمًا بنقص الحسنات.

وقال تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَـٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الأنبياء: ٤٧].

قال ابن القيم: «فنفى أن يظلم بأن يزاد عليه في سيئاته، أو ينقص من حسناته، أو يعاقب بعمل غيره، ولم ينفِ أن ينتفع بعمل غيره»(١).

﴿وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ «إلا»: أداة حصر، و«ما»: مصدرية أو

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٣/ ٤٧٩.

موصولة، أي: ولا تجزون إلا عملكم، أو إلا الذي كنتم تعملونه، قولًا أو فعلًا أو تركًا، من عمل القلب واللسان والجوارح.

والمجازاة: المكافأة، وفي قوله: ﴿إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ إشارة إلى أن الجزاء من جنس العمل، أي: ولا تجزون إلا جزاء ما كنتم تعملون، من خير أو شر، فمن وجد خيرًا فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه.

الفوائد والأحكام:

١- تمادي الكفار والمكذبين في غيهم وضلالهم، وعدم تقواهم ما بين أيديهم من عذاب الدنيا، وما أمامهم من عذاب الآخرة، وزهدهم في رحمة الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُوا۟ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٥﴾﴾، أي: لم يستجيبوا، بدليل قوله بعده: ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤٦﴾﴾.

٢- أن الإقبال على الله، وتقواه والحذر من عذابه، سبب لرحمته؛ لقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾، أي: لعل الله يرحمكم، ففي هذا إثبات رحمته.

٣- إثبات العلل والأسباب، وأن لها تأثيرًا في المعلولات والمسببات بإذن الله تعالى؛ لقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾.

٤- إعراضهم عن جميع الآيات بقلوبهم، وتوليهم بأبدانهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤٦﴾﴾.

٥- إثبات الربوبية العامة لجميع الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿رَبِّهِمْ﴾.

٦- معارضتهم- بسبب كفرهم- أمر الله لهم بالإنفاق مما رزقهم الله، بالاحتجاج بالمشيئة والقدر، مما لا حجة لهم به؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ﴾ كما قال تعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ١٤٨].

٧- بخل الكفار الشديد، وشحهم في الإنفاق من رزق الله.

٨- أن الرزق كله من الله، فلا ينبغي أن يُمنَّ بالإنفاق منه.

٩- إثبات المشيئة لله تعالى، وهي الإرادة الكونية، وأن المشركين يقرون بها ولا ينكرونها.

١٠- أنه قد يقول قائل كلمة الحق، ويريد بها الباطل، فقولهم: ﴿مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ﴾ هذا حق، وهم ما أرادوا إثبات هذا الحق، وإنما أرادوا الاحتجاج بالمشيئة لترك إطعامهم والإنفاق عليهم.

١١- تجهيل المشركين للمؤمنين الذين يأمرونهم بالإنفاق من رزق الله؛ لقولهم: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾، أي: ما أنتم إلا في ضلال بيِّن واضح.

١٢- جرأة أهل الباطل على وصف أهل الحق بأبشع الأوصاف؛ للتنفير منهم ومن الحق.

١٣- أن الإنسان عدو لما يجهله، وهذا ما جعل هؤلاء يرمون من يأمرهم بالخير بالضلال المبين.

١٤- استعجالهم ما تُوعدوا به؛ تكذيبًا به واستبعادًا له، وتكذيبًا للرسل واستهزاءً بهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾﴾.

١٥- أن الرسل عليهم السلام قد بلغوا البلاغ المبين، وبيَّنوا ثبوت وعد الله بالبعث والجزاء على الأعمال بشهادة هؤلاء المكذبين، والحق ما شهدت به الأعداء.

١٦- تهديدهم بقرب ما تُوعدوا به من العذاب، وأنهم ما ينتظرون إلا صيحة الفزع تأخذهم وهم في غفلة يختصمون في أمور دنياهم؛ لقوله تعالى: ﴿مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾﴾.

١٧- قدرة الله تعالى التامة؛ حيث يأخذهم كلهم بصيحة واحدة، لا ثانية معها.

١٨- أن الساعة لا تقوم إلا على شرار الخلق، وأهل النزاع والخلاف والاختصام؛ لقوله تعالى: ﴿تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾.

وكما في حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**يبعث الله ريحًا كريح المسك، مسها مس الحرير، فلا تترك نفسًا في قلبه مثقال حبة من الإيمان إلا قبضته، ثم يبقى شرار الناس، عليهم تقوم الساعة**»(١).

١٩- سرعة أخذ الصيحة لهم، وشدة صدمتها عليهم، فيعجم على ألسنتهم فلا

(١) أخرجه مسلم في الإمارة ١٩٢٤.

يستطيعون الكلام، ولا يستطيعون التحرك من أماكنهم ليوصوا أو ليرجعوا إلى أهلهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾﴾.

٢٠- إثبات النفخة الثانية في الصور، وبعث الناس وقيامهم من قبورهم مسرعين للوقوف بين يدي الله تعالى للحساب؛ لقوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾﴾.

٢١- ما أيسر أمر البعث على الله تعالى؛ فإنه بالنفخ في الصور نفخة واحدة يخرج الناس من قبورهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ﴿٥٠﴾﴾ [القمر: ٥٠]، وقال تعالى: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾﴾ [لقمان: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾﴾ [العنكبوت: ١٩]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ۚ ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴿٤٤﴾﴾ [ق: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن لَّن يُبْعَثُوا۟ ۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧﴾﴾ [التغابن: ٧].

٢٢- دعاء الكفار والمكذبين بالويل، وشدة تحسرهم، وتعجبهم من بعثهم من قبورهم؛ لقوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ﴾.

٢٣- أن البقاء في القبور ما هو إلا كما ينام النائم ثم يستيقظ، وأن عذاب القبر بالنسبة لما بعده كالرقاد؛ لأن عذاب الآخرة أشد وأعظم.

٢٤- إقرارهم واعترافهم في ذلك اليوم بتحقق وعد الله، وصدق الرسل فيما أخبروا به، وبلغوا عن الله تعالى؛ لقولهم: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ ولكن لا ينفعهم ذلك؛ لفوات أوانه.

٢٥- توبيخ المؤمنين أو الملائكة لهؤلاء المكذبين؛ لقولهم لهم: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ وهذا على الاحتمال الثاني في معنى الآية.

٢٦- إثبات اسم الله: «الرحمن»، وصفة الرحمة الواسعة لله عز وجل، وفي ذكر اسم الرحمن في هذا السياق إشارة إلى سعة رحمة الله عز وجل في ذلك اليوم العظيم.

٢٧- إثبات صدق وعده، وصدق رسله؛ لقولهم: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾.

٢٨- أن النفخة الثانية في الصور، والبعثة من القبور، ما هي إلا صيحة واحدة،

فإذا جميع الخلائق أولهم وآخرهم، وإنسهم وجنهم، لدى ربهم ماثلون للحساب والجزاء؛ لقوله تعالى: ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ۝٥٣﴾ وذلك لكمال قدرته عز وجل.

٢٩- كمال عدل الله عز وجل في حساب الخلائق يوم القيامة، فلا تظلم نفس أيًّا كانت أي شيء من الظلم، لا بنقص من الحسنات، ولا بزيادة في السيئات، ولا يجزى أحد إلا بما عمل؛ لقوله تعالى: ﴿فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٥٤﴾.

٣٠- أن الجزاء من جنس العمل، فمن أحسن جُوزي بالإحسان، ومن أساء جُوزيَ بمثل ما عمل؛ كما قال تعالى: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ ۝٦٠﴾ [الرحمن: ٦٠]، وقال تعالى: ﴿جَزَاءً وِفَاقًا ۝٢٦﴾ [النبأ: ٢٦].

* * *

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ ﴿٥٥﴾ هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ﴿٥٦﴾ لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ﴿٥٧﴾ سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾ وَٱمْتَٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾ ۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٦٤﴾ ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ فَٱسْتَبَقُوا۟ ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ ﴿٦٦﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ ﴿٦٧﴾ وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِى ٱلْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٨﴾ وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ ﴿٥٥﴾ هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ﴿٥٦﴾ لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ﴿٥٧﴾ سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾﴾:

لما ذكر أن كل أحد لا يجزى إلا بعمله، ذكر جزاء الفريقين، وبدأ بجزاء المؤمنين تكريمًا لهم وتشريفًا.

قوله: ﴿إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ ﴿٥٥﴾﴾ قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر ويعقوب: «شُغْلٍ»؛ بإسكان الغين، وقرأ الباقون بضمها: ﴿شُغُلٍ﴾.

وقرأ أبو جعفر: «فَكِهُونَ»؛ بدون ألف، وقرأ الباقون بالألف: ﴿فَٰكِهُونَ﴾.

أي: إن أصحاب الجنّة، أي: أهلها وملازموها ﴿ٱلْيَوْمَ﴾، أي: يوم القيامة، فـ«ال» للعهد الذكري؛ لأنه سبق ذكره قريبًا في قوله: ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا﴾ [يس: ٥٤].

﴿فِى شُغُلٍ﴾، أي: في شغل بما هم فيه من النعيم والتلذذ بالنساء والحور العين، وأصناف المآكل والمشارب، وغير ذلك، عن كل شيء آخر، لأنهم في أوج النعيم وأعلاه، فلا يلتفتون إلى غيره؛ كما قال تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿١٠٨﴾﴾ [الكهف: ١٠٨].

﴿فَٰكِهُونَ﴾ أي: متفكهون متلذذون ناعمون.

﴿هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَٰلٍ﴾ قرأ حمزة والكسائي وخلف: «ظُلَلٍ»؛ بضم الظاء من غير ألف، جمع: «ظُلَّة»، وقرأ الباقون بكسر الظاء وألف: ﴿ظِلَٰلٍ﴾ جمع: «ظِلٍّ»، وجمع «ظلة»، فهم في ظلال دائمًا؛ لأنه ليس في الجنة شمس ولا زمهرير؛ كما قال تعالى: ﴿مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾﴾ [الإنسان: ١٣].

﴿عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ﴾ ﴿عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ﴾ جار ومجرور متعلق بـ﴿مُتَّكِـُٔونَ﴾، وقدم عليه مراعاة للفاصلة.

و«أرائك» جمع: «أريكة»، وهي الأَسِرَّة المزينة تحت الحجال التي تنصب على الأسرة أشبه بالخيمة الصغيرة، تكون خاصة بالرجل وأهله، أو بالرجل، أو بالمرأة.

والاتكاء يدل على كمال الراحة والطمأنينة والاستقرار، وراحة البال، وتمام اللذة.

﴿لَهُمۡ﴾، أي: لأصحاب الجنة، ﴿فِيهَا﴾، أي: في الجنة، ﴿فَٰكِهَةٞ﴾ اسم جنس، أي: لهم في الجنة جميع أنواع الفواكه، من عنب وتين ونخل ورمان؛ لأن جميع أكل أهل الجنة يأكلونه على سبيل التفكه والتلذذ، لا على سبيل الحاجة والضرورة؛ بخلاف أهل الدنيا فقد يأكلون تلذذًا، وقد يأكلون للحاجة، أو للضرورة.

﴿وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ﴾، أي: ولهم كل الذي يطلبونه، فمهما طلبوه وجدوه من أصناف النعيم، وكل ما اشتهوه حصل لهم.

كما قال تعالى: ﴿وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَشۡتَهِيٓ أَنفُسُكُمۡ وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾ [فصلت: ٣١]، وقال تعالى: ﴿وَفِيهَا مَا تَشۡتَهِيهِ ٱلۡأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلۡأَعۡيُنُ﴾ [الزخرف: ٧١]، وقال تعالى: ﴿مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدۡعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٖ كَثِيرَةٖ وَشَرَابٖ﴾ [ص: ٥١]، وقال تعالى: ﴿يَدۡعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ﴾ [الدخان: ٥٥]، وقال تعالى: ﴿فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٞ مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٖ﴾ [السجدة: ١٧].

وعن أسامة بن زيد رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**ألا مشمر إلى الجنة؟ فإن الجنة لا خطر لها، هي ورب الكعبة: نور يتلألأ، وريحانة تهتز، وقصر مشيد، ونهر مطرد، وفاكهة كثيرة نضيجة، وزوجة حسناء جميلة، وحلل كثيرة، في مقام أبدًا، في حبرة ونضرة، في دور سليمة عالية بهية**». قالوا: نحن المشمرون لها يا رسول الله. قال: «**قولوا: إن شاء الله**». ثم ذكر الجهاد، وحض عليه(١).

﴿سَلَٰمٞ قَوۡلٗا مِّن رَّبّٖ رَّحِيمٖ﴾ «سلام»: مبتدأ، وخبره قوله: ﴿مِّن رَّبّٖ رَّحِيمٖ﴾ أو هو خبر لمبتدأ محذوف، أي: هي سلام؛ يعني: الجنة؛ كما قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾ [يونس: ٢٥].

و«قولًا»: مفعول مطلق لفعل محذوف، وفيه تأكيد سلام الله تعالى لأهل الجنة

---

(١) أخرجه ابن ماجه في المقدمة، باب: فيما أنكرت الجهمية ١٨٤.

بقول وكلام، فلهم في الجنة كل ما يدعونه؛ لأنها دار السلام، ومن أجلّ ذلك سلام الله تعالى عليهم؛ كما قال تعالى: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ﴾ [الأحزاب: ٤٤].

وعن جابر بن عبدالله رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**بينا أهل الجنة في نعيمهم، إذ سطع لهم نور، فرفعوا رؤوسهم، فإذا الرب قد أشرف عليهم من فوقهم، فقال: السلام عليكم يا أهل الجنة. قال: وذلك قول الله: ﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ قال: فينظر إليهم، وينظرون إليه، فلا يلتفتون إلى شيء من النعيم ما داموا ينظرون إليه، حتى يحتجب عنهم، ويبقى نوره وبركته عليهم وفي ديارهم**»(١).

قوله تعالى: ﴿وَٱمْتَٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾ ۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ۖ أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾﴾:

لما ذكر ما أعد لأهل الجنة من النعيم الحسي والمعنوي، أتبعه بذكر ما أعد للمجرمين من العذاب في نار جهنم، جمعًا بين الوعد والوعيد، والترغيب والترهيب.

قوله: ﴿وَٱمْتَٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾﴾، أي: يقال للمجرمين يوم القيامة؛ للإهانة والإذلال والطرد لهم على رؤوس الأشهاد قبل إدخالهم النار:

﴿وَٱمْتَٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾﴾، أي: تميزوا وانفصلوا اليوم أيها المجرمون المذنبون عن المؤمنين، وانفردوا عنهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ ۚ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ ۖ﴾ [يونس: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾﴾ [الروم: ١٤]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ﴾ [الروم: ٤٣]، وقال تعالى: ﴿۞ ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾﴾ [الصافات: ٢٢- ٢٣]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾﴾ [مريم: ٨٥- ٨٦].

﴿۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ﴾ الاستفهام للتقرير والتوبيخ والتقريع، أي: ألم آمركم وآخذ عليكم الميثاق المؤكد على ألسنة رسلي، وفيما أنزلت عليكم من كتبي؟ كما قال تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۙ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الحديد: ٨].

---

(١) أخرجه ابن ماجه في المقدمة، باب: فيما أنكرت الجهمية ١٨٤.

والمراد ببني آدم: الجنس والقبيلة، فيشمل الذكور والإناث.

﴿أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ﴾ «أن» تفسيرية، أو مصدرية، والمصدر المؤول في محل جر بباء مقدرة، أي: بألا تعبدوا الشيطان، أي: بألا تطيعوا الشيطان؛ لأن طاعته نوع من العبادة؛ لما فيها من الخضوع والتذلل له، مما ينبغي ألا يكون إلا لله تعالى.

كما رُوي في حديث عدي بن حاتم رضي الله عنه، في قوله: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١]، قال عدي: يا رسول الله، إنا لسنا نعبدهم. قال ﷺ: «**أليس يحرمون ما أحل الله فتحرمونه؟ ويحلون ما حرم الله فتحلونه؟**» قال: نعم، قال: «**فتلك عبادتهم**»(١).

﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ الجملة تعليل للنهي عن عبادته، أي: لأن الشيطان لكم عدو بيِّن العداوة ظاهرها، لا يأمركم إلا بشر، ولا ينهاكم إلا عن خير.

﴿وَأَنِ اعْبُدُونِي﴾ معطوف على قوله: ﴿أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ﴾، أي: وعهدت إليكم بأن اعبدوني وحدي، أو بعبادتي وحدي.

﴿هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ الإشارة إلى ترك عبادة الشيطان، وعبادة الله تعالى وحده.

أي: هذا طريق مستقيم، عدل قويم، موصل إلى الله تعالى وإلى جنته، وإلى السعادة في الدنيا والآخرة.

﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا﴾ قرأ ابن كثير وحمزة والكسائي وخلف ورويس عن يعقوب بضم الجيم والباء: «جُبُلًا»، وقرأ أبو عمرو وابن عامر بضم الجيم، وإسكان الباء: «جُبْلًا»، وقرأ الباقون بكسر الجيم والباء، وتشديد اللام: ﴿جِبِلًّا﴾.

والواو في قوله: ﴿وَلَقَدْ﴾ عاطفة، واللام: لام القسم، و«قد»: حرف تحقيق، أي: والله لقد أضل الشيطان منكم ﴿جِبِلًّا كَثِيرًا﴾، أي: خلقًا كثيرًا، أي: أكثر الخلق. و«الجبل»: الجمع العظيم، مشتق من الجبل، أي: ولقد أضل منكم خلقًا كثيرًا، أي: صرفهم عن الصراط المستقيم، وقادهم إلى الضلال، فلم يحفظوا عهد الله وميثاقه إليهم بألا يعبدوا الشيطان، وأن يعبدوه عز وجل وحده، وصدق فيهم ظنه حين قال: ﴿ثُمَّ

---

(١) سبق تخريجه.

﴿لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ وَلَا تَجِدُ أَكۡثَرَهُمۡ شَٰكِرِينَ ١٧﴾ [الأعراف: ١٧]، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ صَدَّقَ عَلَيۡهِمۡ إِبۡلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [سبأ: ٢٠].

﴿أَفَلَمۡ تَكُونُواْ تَعۡقِلُونَ﴾ الاستفهام للإنكار والتقريع والتوبيخ، أي: أين عقولكم؟ كيف تعبدون عدوكم المبين الشيطان، وتعدلون عن عبادة ربكم الرحمن؟ أي: أفما كان لكم عقول تهتدون بها إلى معرفة الحق، والتمييز بينه وبين الباطل؟!

وصدق الله العظيم: ﴿لَهُمۡ قُلُوبٞ لَّا يَفۡقَهُونَ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٧٩].

وقد أحسن القائل:

وآفة العقل الهوى فمن علا ... على هواه عقله فقد نجا(١)

قوله تعالى: ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ٦٣ ٱصۡلَوۡهَا ٱلۡيَوۡمَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ ٦٤ ٱلۡيَوۡمَ نَخۡتِمُ عَلَىٰٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَتُكَلِّمُنَآ أَيۡدِيهِمۡ وَتَشۡهَدُ أَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ٦٥ وَلَوۡ نَشَآءُ لَطَمَسۡنَا عَلَىٰٓ أَعۡيُنِهِمۡ فَٱسۡتَبَقُواْ ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبۡصِرُونَ ٦٦ وَلَوۡ نَشَآءُ لَمَسَخۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمۡ فَمَا ٱسۡتَطَٰعُواْ مُضِيّٗا وَلَا يَرۡجِعُونَ ٦٧﴾:

قوله: ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ٦٣﴾، أي: يقال للذين عبدوا الشيطان وأضلهم، وتركوا عبادة الرحمن، تقريعًا لهم وتوبيخًا، وتعذيبًا لقلوبهم:

﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ٦٣﴾، أي: هذه نار جهنم التي كنتم في الدنيا توعدون بها، وتحذرون منها على ألسنة الرسل، وكذبتم بها؛ كما قال تعالى: ﴿يَوۡمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ١٣ هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ١٤ أَفَسِحۡرٌ هَٰذَآ أَمۡ أَنتُمۡ لَا تُبۡصِرُونَ ١٥﴾ [الطور: ١٣ - ١٥].

﴿ٱصۡلَوۡهَا ٱلۡيَوۡمَ﴾؛«ال» للعهد الذكري أو الحضوري.

﴿بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ﴾ الباء: للسببية، و«ما»: مصدرية، أي: يقال لهم إهانة وإذلالًا لهم: ﴿ٱصۡلَوۡهَا﴾، أي: ادخلوها وقاسوا حرها ﴿ٱلۡيَوۡمَ﴾، أي: يوم القيامة، بسبب كفركم وجحودكم.

﴿ٱلۡيَوۡمَ نَخۡتِمُ عَلَىٰٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ﴾، أي: نلجمها ونغلقها ونسدها، بأن نجعلهم خرسًا لا

---

(١) البيت لابن دريد. انظر: «العقد الفريد» ٢/ ١١٣.

ينطقون ولا يتكلمون، فلا يقدرون على إنكار ما هم عليه من الكفر والباطل، والدفاع عن أنفسهم.

ولا تعارض بين هذا وبين قوله: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ﴾ [النور: ٢٤]؛ لأنهم في بعض المواقف يحال بينهم وبين الكلام، ويختم على أفواههم، وفي بعض المواقف يخلى بينهم وبين الكلام.

﴿وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ﴾، أي: وتنطق أيديهم وتخبر بما بطشت، وبما عملت.

﴿وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم﴾، أي: وتشهد عليهم أرجلهم.

﴿بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾، أي: بالذي كانوا يكسبونه، أو: بكسبهم، وبما مشت إليه من المعاصي والآثام، والموبقات والإجرام.

كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [النور: ٢٤]، وقال تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾﴾ [فصلت: ٢٠- ٢١].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: «**كنا عند النبي ﷺ، فضحك حتى بدت نواجذه، ثم قال: أتدرون مما أضحك؟**» قلنا: الله ورسوله أعلم. قال: «**من مجادلة العبد ربه يوم القيامة، يقول: رب، ألم تجرني من الظلم؟ فيقول: بلى. فيقول: لا أجيز عليّ إلا شاهدًا من نفسي. فيقول: كفى بنفسك اليوم عليك حسيبًا، وبالكرام الكاتبين شهودًا. فيختم على فيه، ويقال لأركانه: انطقي، فتنطق بعمله، ثم يخلّى بينه وبين الكلام، فيقول: بُعدًا لكنَّ وسحقًا، فعنكنَّ كنت أناضل**»(١).

وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «**فيقول: يا رب، آمنت بك وبكتابك وبرسلك، وصليت وصمت وتصدقت، ويثني بخير ما استطاع، فيقول: ههنا إذن. قال: ثم يقال له: الآن نبعث شاهدنا عليك، ويتفكر في نفسه: من ذا الذي يشهد عليّ؟ فيختم على فيه، ويقال لفخذه ولحمه وعظامه: انطقي، فتنطق فخذه ولحمه وعظامه**

---

(١) سبق تخريجه.

بعمله، وذلك ليعذر من نفسه، وذلك المنافق، وذلك الذي يسخط الله عليه»[(١)].

وعن عقبة بن عامر رضي الله عنه؛ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «**إن أول عظم من الإنسان يتكلم يوم يختم على الأفواه: فَخِذه من الرِّجلِ الشِّمال**»[(٢)].

﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ﴾، أي: أعميناهم وطمسنا على أعينهم وأبصارهم وأزلناها، فانسد أمامهم طريق الدلالة، واللام واقعة في جواب «لو» في الموضعين.

﴿فَٱسْتَبَقُوا۟ ٱلصِّرَٰطَ﴾، أي: فابتدروا وتسابقوا إلى الطريق؛ ليصلوا إلى مقصودهم.

﴿فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ﴾ الاستفهام للإنكار والنفي، أي: فكيف يبصرون الطريق، وقد طمسنا أعينهم وأزلنا أبصارهم؟ أي: أنهم لا يمكن أن يبصروا.

والمقصود: أن الله طمس على بصائرهم وقلوبهم، فلا تهتدي إلى الحق، ولو يشاء لطمس على أعينهم طمسًا حسيًّا مشاهَدًا؛ فكما أن من طمست عيناه لا يبصر الطريق، فكذلك من طمست بصيرته لا يهتدي إلى الحق.

﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ﴾، أي: لأبقيناهم على مكانتهم، وأذهبنا حركتهم، فانسد أمامهم طريق السير.

﴿فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مُضِيًّا﴾، أي: فما استطاعوا أن يسيروا قدمًا إلى الأمام.

﴿وَلَا يَرْجِعُونَ﴾ إلى الوراء؛ لعدم استطاعتهم ذلك، وذلك لسيرهم في الحياة عكس الاتجاه الصحيح وضده.

قوله تعالى: ﴿وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِى ٱلْخَلْقِ ۖ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٨﴾ وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٠﴾﴾.

قوله: ﴿وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِى ٱلْخَلْقِ﴾، قرأ عاصم وحمزة بضم النون الأولى وفتح الثانية، وكسر الكاف وتشديدها: ﴿نُنَكِّسْهُ﴾، وقرأ الباقون بفتح النون الأولى وإسكان الثانية وضم الكاف مخففة: «نَنْكُسْهُ».

أي: ﴿وَمَن نُّعَمِّرْهُ﴾، أي: نجعل عمره طويلًا، ﴿نُنَكِّسْهُ فِى ٱلْخَلْقِ﴾ التنكيس

---

(١) أخرجه مسلم في الزهد والرقائق ٢٩٦٨.

(٢) أخرجه أحمد ٤/ ١٥١، قال ابن كثير في «تفسيره» ٦/ ٥٧٣: «وقد جود إسناده الإمام أحمد رحمه الله».

والإنكاس: الرد من حالة كاملة إلى حالة ناقصة، أي: نرده ونعيده في الخلق إلى الحالة التي ابتدأ منها، وهي حالة الضعف، ضعف القوة البدنية، وضعف القوة العقلية والفكرية؛ كما قال تعالى: ﴿ ۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾ ﴾ [الروم: ٥٤]

وقال تعالى: ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا﴾ [النحل: ٧٠].

فكلما طال عمر الإنسان فإنه يرجع إلى الوراء، فيرد إلى الضعف بعد القوة، وإلى العجز بعد القدرة، ويزداد ضعفه وعجزه، حتى يُرد إلى الخَلق الأول، وإلى أرذل العمر.

ولهذا قال الشاعر:

لا طيب للعيش ما دامت منغصة لذاته بادِّكار الموت والهرم

﴿أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾ قرأ نافع وابن ذكوان عن ابن عامر وأبو جعفر بالخطاب: «أَفَلَا تَعْقِلُونَ»، وقرأ الباقون بالغيبة: ﴿أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾.

والاستفهام: للتقريع والتوبيخ، أي: أفلا يتفكرون بعقولهم في ابتداء خلقهم من ضعف، وانتهائهم إلى ضعف، وأنهم لا يزدادون مع طول العمر إلا ضعفًا وعجزًا، فيستدلون بذلك على حقارة الدنيا وزوالها وفنائها، وعلى إثبات البعث والدار الآخرة، وعظم مكانتها وبقائها وقربها، فيستعدوا لها بمبادرة الأعمار بالإيمان والأعمال الصالحة؟

﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ﴾، أي: وما علمنا محمدًا ﷺ الشعر.

﴿وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ﴾، أي: ولا يصلح له، ولا يليق به، لا طبعًا ولا شرعًا، ولا يصح ولا يمكن أن يُعلم أو يتعلم الشعر، لا إنشاء ولا إنشادًا.

وفي هذا رد على الذين يزعمون أنه ﷺ شاعر، وأن ما جاء به شعر؛ كما قال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾﴾ [الطور: ٣٠]، وقالوا: ﴿بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ﴾ [الأنبياء: ٥].

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ﴾ «إن»: نافية بمعنى: ما، و«إلا»: أداة حصر، أي: ما الذي علمناه، ﴿إِلَّا ذِكْرٌ﴾، أي: تذكير بالله تعالى وموعظة وشرف لمن اتبعه؛ كما قال تعالى:

﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكۡرٞ لَّكَ وَلِقَوۡمِكَۖ وَسَوۡفَ تُسۡـَٔلُونَ ٤٤﴾ [الزخرف: ٤٤].

﴿وَقُرۡءَانٞ مُّبِينٞ﴾ كما قال تعالى: ﴿صٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ذِي ٱلذِّكۡرِ ١﴾ [ص: ١].

و﴿مُّبِينٞ﴾، أي: بين واضح جلي ظاهر لمن تأمله وتدبره أنه ليس بشعر، ولا بقول شاعر، ومبين مظهر للهدى من الضلال، وللحق من الباطل، وللحلال والحرام، وجميع الأحكام، وغير ذلك؛ كما قال تعالى: ﴿وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ تِبۡيَٰنٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ﴾ [النحل: ٨٩].

فهو عز وجل علم رسوله ﷺ القرآن، ولم يعلمه الشعر، وما يليق به الشعر. ولا ينافي هذا أنه قد يتمثل أو يرتجز شطر بيت من الشعر، أو بعض الأبيات، أو يستمع شيئًا منه.

فعن عائشة رضي الله عنها قالت: «كان رسول الله ﷺ إذا استراث الخبر[1] تمثل فيه بيت طرفة:

.... **ويأتيك بالأخبار من لم تزود»**[2]

وعن البراء بن عازب رضي الله عنه، قال: رأيت النبي ﷺ يوم الخندق وهو يرتجز برجز عبدالله:

والله لولا أنت ما اهتدينا

ولا تصدقنا ولا صلينا

فأنزلن سكينة علينا

وثبت الأقدام إن لاقينا

إن الأولى قد بغوا علينا

---

(١) أي: استبطأه.

(٢) أخرجه الترمذي في الأدب، ما جاء في إنشاد الشعر ٢٨٤٨، وأحمد ٦/ ٣١، ١٤٦، وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح».

ورواه أبو بكر البزار من حديث ابن عباس رضي الله عنهما؛ فيما ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٦/ ٥٧٦.

وصدر الشطر المذكور:

ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلًا

وهو من معلقة طرفة المشهورة، انظر: «ديوان طرفة بن العبد» ص ٦٦.

وإن أرادوا فتنـــــــة أبينـــــــا

وكان يرفع صوته بقوله: «أبينا»[١].

وكان يقول يوم حنين:

أنـــــا النبـــــي لا كـــــذب

أنـــــا ابـــــن عبـــــد المطلـــــب[٢]

وعن جندب بن سفيان؛ أن رسول الله ﷺ كان في بعض المشاهد وقد دميت إصبعه، فقال:

هـــــل أنـــــت إلا إصـــــبع دميـــــت

وفي ســـــبيل الله مـــــا لقيـــــت[٣]

وعن الشريد بن سويد رضي الله عنه، قال: «**ردفت رسول الله ﷺ يومًا، فقال: هل معك من شعر أمية بن أبي الصلت شيء؟**» قلت: نعم. قال: «**هيه**»، فأنشدته بيتًا، فقال: «**هيه**»، ثم أنشدته بيتًا، فقال: «**هيه**»، حتى أنشدته مئة بيت[٤].

وتمثله ﷺ بشيء مما ذكر، أو وقوع ذلك منه اتفاقًا من غير قصد لوزن الشعر، أو استماعه لشيء منه، لا ينافي كما تقدم كونه ما عُلِّم الشعر، وما ينبغي له؛ ولهذا قالت عائشة رضي الله عنها: «كان أبغض الحديث إليه- تعني: الشعر- وكان يعجبه الجوامع من الدعاء، ويدع ما بين ذلك»[٥].

(١) أخرجه البخاري في الجهاد، حفر الخندق ٣٠٣٤، ومسلم في الجهاد، غزوة الأحزاب ١٨٠٣.

(٢) أخرجه البخاري في الجهاد، باب: من قاد دابة غيره في الحرب ٢٨٦٤، ومسلم في الجهاد، غزوة حنين ١٧٧٦، والترمذي في الجهاد ١٦٨٨؛ من حديث البراء رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري في الجهاد، من نكب في سبيل الله ٢٨٠٢، ومسلم في الجهاد، ما نال رسول الله ﷺ من أذى المشركين والمنافقين ١٧٩٦، والترمذي في التفسير ٣٣٤٥.

(٤) أخرجه مسلم في الشعر ٢٢٥٥، وابن ماجه في الأدب، باب: الشعر ٣٧٥٨، وأحمد ٤/ ٣٨٨، ٣٨٩، ٣٩٠.

(٥) أخرجه أحمد ٦/ ١٤٨.

﴿ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا ﴾ قرأ نافع وابن عامر وأبو جعفر ويعقوب: «لِتُنْذِرَ»؛ بتاء الخطاب، فالضمير يعود إلى الرسول ﷺ، وقرأ الباقون: ﴿ لِّيُنذِرَ ﴾ بياء الغيبة، فالضمير يعود إلى القرآن.

اللام: للتعليل، أي: لأجل أن ينذر هذا الذكر والقرآن، أو تنذر بهذا الذكر والقرآن من كان حي القلب والبصيرة، وهو الذي يتذكر ويتعظ بالقرآن وينتفع به.

كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ [ق: ٣٧].

وهو إنذار لجميع الأحياء، أي: لجميع الخلق؛ كما قال تعالى: ﴿لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ﴾ [هود: ١٧].

لكن لا ينتفع بإنذاره إلا من أحيا الله قلبه وبصيرته، وهم المؤمنون على تفاوت بينهم في ذلك؛ لهذا خص بالإنذار من كان حيًّا، وتوعد بالعذاب الكافرين، فقال: ﴿وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾، أي: ويحق القول على الكافرين بكفرهم وعدم إيمانهم؛ كما قال تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓا۟ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [يونس: ٣٣].

ويحق القول عليهم بالعذاب؛ كما قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٦﴾ ﴾ [غافر: ٦]، وقال تعالى: ﴿ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧١﴾ ﴾ [الزمر: ٧١].

قال ابن القيم: «أخبر سبحانه أن الناس قسمان: حي قابل للانتفاع يقبل الإنذار وينتفع به، وميت لا يقبل الإنذار ولا ينتفع به؛ لأن أرضه غير زاكية، ولا قابلة للخير البتة، فيحق عليه القول بالعذاب، وتكون عقوبته بعد قيام الحجة عليه».

وفي قوله: ﴿وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ دون أن يقول: ويحق القول على من كان ميتًا؛ لبيان أن من كان ميت القلب فهو كافر، وأن الكافر لا ينتفع بالقرآن.

الفوائد والأحكام:

١- انقسام الناس يوم القيامة إلى فريقين: أصحاب الجنة وهم المؤمنون، وأصحاب النار وهم المجرمون؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ﴾ الآية، وقوله: ﴿ وَٱمْتَٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾ كما قال تعالى: ﴿فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ ﴾ [الشورى: ٧].

٢- كمال نعيم أهل الجنة، وتمام تفكههم وتلذذهم فيها وتنعمهم، وانشغالهم بذلك يوم القيامة عن كل ما سواه؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ ۝٥٥﴾.

٣- أن لأهل الجنة زوجات؛ لقوله تعالى: ﴿هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ ۝٤٨ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ۝٤٩﴾ [الصافات: ٤٨- ٤٩]، وقال تعالى: ﴿وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ أَتْرَابٌ ۝٥٢﴾ [ص: ٥٢]، وقال تعالى: ﴿فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ۝٥٦﴾ [الرحمن: ٥٦]، وقال تعالى: ﴿فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ ۝٧٠﴾ [الرحمن: ٧٠]، وقال تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾ [آل عمران: ١٥]، وقال تعالى: ﴿لَّهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾ [النساء: ٥٧].

٤- أن الجنة ظلال لا شمس فيها؛ لقوله تعالى: ﴿فِى ظِلَٰلٍ﴾.

٥- كمال راحة أهل الجنة، وطمأنينتهم، وراحة بالهم، وتمام لذتهم في مجالسهم؛ لقوله تعالى: ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ﴾.

٦- أن لأهل الجنة فيها كل أنواع الفاكهة، والتفكه والتلذذ بكل ألوان النعيم؛ لقوله تعالى: ﴿لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ﴾.

٧- أن لهم فيها كل ما يطلبونه، وكل ما يشتهونه؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ﴾.

٨- أن من أعظم نعيم أهل الجنة: سلام الله عليهم، وإخباره إياهم بالسلامة؛ لقوله تعالى: ﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ۝٥٨﴾.

٩- إثبات القول والكلام لله عز وجل، وأنه سبحانه يقول ويتكلم بحرف وصوت مسموع كما يليق بجلاله وعظمته؛ لقوله تعالى: ﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ۝٥٨﴾.

١٠- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة بأوليائه، ورحمته الخاصة بهم؛ وأن أهل الجنة إنما دخلوها ونالوا هذه المنزلة برحمته؛ لقوله تعالى: ﴿مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾.

وقد قال ﷺ: «**لن يدخل أحدًا منكم عملُه الجنة**». قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «**لا، ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل**»[1].

١١- إهانة المجرمين وإذلالهم يوم القيامة بطردهم وإفرادهم وإبعادهم عن

---

(١) أخرجه البخاري في المرضى ٥٦٧٣، ومسلم في صفة القيامة ٢٨١٦؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

المؤمنين؛ كما يبعد البعير الأجرب بسبب إجرامهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱمْتَـٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ۝٥٩﴾.

١٢- جمع القرآن الكريم بين الوعد والوعيد، والترغيب والترهيب، بذكر أهل الجنة، وما أعد لهم من النعيم، وذكر المجرمين، وما أعد لهم من العذاب الأليم.

١٣- المايزة والتفريق بين المؤمنين والمجرمين؛ كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ۝١٤﴾ [الروم: ١٤].

١٤- تقرير عهد الله عز وجل إلى بني آدم ألا يعبدوا الشيطان؛ لقوله تعالى: ﴿۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَـٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝٦٠﴾.

١٥- تقريع المجرمين وتوبيخهم على نقضهم عهد الله وميثاقه، وعدم وفائهم بما عهد الله به إلى بني آدم؛ من عدم عبادة الشيطان، وعبادة الله تعالى وحده؛ لقوله تعالى: ﴿۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَـٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝٦٠ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ﴾.

١٦- أن الله تعالى قد أقام الحجة على الخلق، وأعذر منهم؛ لقوله تعالى: ﴿۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن﴾ الآية.

١٧- أن من أطاع الشيطان فيما يأمر به من معصية الله تعالى فقد عبده؛ لقوله تعالى: ﴿أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَـٰنَ ۖ﴾.

١٨- عداوة الشيطان لبني آدم؛ عداوة بينة ظاهرة؛ لقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾.

١٩- وجوب عبادة الله تعالى وحده؛ لأن الله قد أخذ الميثاق على بني آدم أن يعبدوه وحده؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنِ ٱعْبُدُونِى﴾.

٢٠- أن الوفاء بعهد الله بعدم عبادة الشيطان، وعبادة الله تعالى وحده هو الصراط المستقيم، والطريق القويم، الموصل إلى السعادة، وإلى مرضاة الله تعالى وجنته؛ لقوله تعالى: ﴿هَـٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾.

٢١- تقريع وتوبيخ بني آدم: كيف أضل الشيطان كثيرًا منهم، كأنهم لا يعقلون؟! لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ۖ أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ ۝٦٢﴾.

٢٢- التحذير من طاعة الشيطان، وأن من انخدع للشيطان فاتبعه وأضله؛ فهو غير عاقل.

٢٣- تهديد ووعيد الذين عبدوا الشيطان، وتركوا عبادة الله، وكذبوا وعده، وتبكيتهم، وتقريعهم وإهانتهم وإذلالهم بأمرهم بدخول جهنم واصطلائها يوم القيامة بكفرهم؛ لقوله تعالى: ﴿ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱصۡلَوۡهَا ٱلۡيَوۡمَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ ﴿٦٤﴾﴾.

٢٤- إثبات نار جهنم، وأنها معدة للمجرمين؛ لقوله تعالى: ﴿ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ﴾.

٢٥- إثبات الأسباب، وأن سبب دخول المذكورين جهنم، واصطلائهم بحرها: كفرهم؛ لقوله تعالى: ﴿بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ ﴾ جزاء وفاقًا.

٢٦- ختم الله تعالى على أفواههم ذلك اليوم، فلا تستطيع ألسنتهم أن تتكلم وتدافع عنهم؛ لقوله تعالى: ﴿ ٱلۡيَوۡمَ نَخۡتِمُ عَلَىٰٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ ﴾.

٢٧- تكلم أيديهم بما عملت وبطشت، وشهادة أرجلهم بما مشت وبما كانوا يعملون؛ لقوله تعالى: ﴿وَتُكَلِّمُنَآ أَيۡدِيهِمۡ وَتَشۡهَدُ أَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴾.

وهذا لا ينافي شهادة ألسنتهم عليهم في بعض المواقف؛ كما قال تعالى: ﴿يَوۡمَ تَشۡهَدُ عَلَيۡهِمۡ أَلۡسِنَتُهُمۡ وَأَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [النور: ٢٤].

لأنهم في بعض المواقف يختم على ألسنتهم، ويحال بينهم وبين الكلام، وفي بعضها يخلى بينهم وبين الكلام.

٢٨- قدرة الله تعالى على الختم على الأفواه والألسنة، وإنطاق الجوارح، من الأيدي والأرجل والجلود وغيرها، وإشهادها على العباد بأعمالهم؛ كما قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيۡهِمۡ سَمۡعُهُمۡ وَأَبۡصَٰرُهُمۡ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمۡ لِمَ شَهِدتُّمۡ عَلَيۡنَاۖ قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنطَقَ كُلَّ شَيۡءٖ وَهُوَ خَلَقَكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿٢١﴾﴾ [فصلت: ٢٠- ٢١].

٢٩- يجب على العبد التحرز من الإخلال بالعبادات، ومن ارتكاب المعاصي؛ لأن جوارحه ستشهد له أو عليه بما عمل.

٣٠- تهديدهم بالطمس على أعينهم، وأنه عز وجل لو شاء لطمس على أعينهم، فابتدروا الطريق فلا يبصرونه؛ لقوله تعالى: ﴿ وَلَوۡ نَشَآءُ لَطَمَسۡنَا عَلَىٰٓ أَعۡيُنِهِمۡ فَٱسۡتَبَقُواْ ٱلصِّرَٰطَ

فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ ﴿٦٦﴾﴾.

٣١- أن من طمس الله بصيرته لا يستطيع الاهتداء إلى الحق؛ كمن طمس على عينيه وأزيل بصره، لا يستطيع معرفة الطريق.

٣٢- تهديدهم بأنه عز وجل لو شاء لمسخهم على مكانتهم، وأفقدهم حركتهم، فلا يستطيعون المضي قدمًا، ولا الرجوع إلى الوراء؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ ﴿٦٧﴾﴾.

٣٣- إثبات المشيئة لله تعالى؛ وهي الإرادة الكونية، وأنه ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، وإثبات تمام قدرته.

٣٤- أن الإنسان لا يزداد مع طول العمر إلا ضعفًا وعجزًا، ورجوعًا إلى بدء الخلق، وردًّا إلى أرذل العمر؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِى ٱلْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٨﴾﴾.

٣٥- الإنكار والتقريع لمن لم يتفكر بذلك، ويستدل به على حقارة الدنيا وفنائها، وعلى إثبات الآخرة، وعظم مكانتها، وبقائها، وقربها، ووجوب الاستعداد لها؛ لقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾.

٣٦- ينبغي مبادرة الأعمار بالأعمال الصالحة، واغتنام فرص العمر وشبابه وقوته قبل فواتها.

٣٧- أن الله عز وجل ما علّم نبيه الشعر، وما كان لائقًا به ﷺ لا طبعًا، ولا شرعًا، لا إنشاءً له، ولا إنشادًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ﴾.

وفي هذا رد وتكذيب لزعم المشركين أنه ﷺ شاعر، وأن ما جاء به شعر.

٣٨- أن الذي علمه الله عز وجل لنبيه ﷺ وأوحاه إليه: ما هو إلا ذكر وقرآن بيِّن واضح، مبين للحق من الباطل، والهدى من الضلال، وليس بشعر، ولا بقول شاعر؛ لقوله تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ﴾.

٣٩- أن الحكمة من بعثته ﷺ، وإنزال الذكر والقرآن عليه؛ لأجل إنذار وتحذير من كان قلبه حيًّا، يتذكر ويعتبر ويتعظ، ولتقوم به الحجة على الكافرين موتى القلوب، ويحق القول عليهم بالكفر والعذاب؛ لقوله تعالى: ﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى

ﭐلۡكَٰفِرِينَ ﴿٧٠﴾﴾.

٤٠- أنه لا ينتفع بالإنذار إلا أحياء القلوب؛ لهذا خصهم بذلك، وهم المؤمنون، دون الكافرين، وإلا فإن القرآن إنذار لجميع الخلق؛ كما قال تعالى: ﴿هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ﴾ [إبراهيم: ٥٢].

٤١- إثبات القدر، وأن من كتب الله عليهم الضلال والعذاب، فلا سبيل إلى هدايتهم، ولا نجاة لهم من العذاب.

* * *

قال الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ (٧١) وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ (٧٢) وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ (٧٣) وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ (٧٤) لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ (٧٥) فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ (٧٦) أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ (٧٧) وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ (٧٨) قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ (٧٩) الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ (٨٠) أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ (٨١) إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ (٨٢) فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٨٣)﴾.

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ (٧١) وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ (٧٢) وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ (٧٣)﴾:

قوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم﴾ الاستفهام: للتقرير والتوبيخ، أي: أولم ينظروا ويتأملوا ويتفكروا أنا خلقنا وأوجدنا لأجلهم.

﴿مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا﴾، أي: من الذي عملته أيدينا، أي: من الذي عملنا أنعامًا من الإبل والبقر والغنم، وغير ذلك من بهيمة الأنعام.

﴿فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ﴾ ملكًا خاصًّا، خلقناها لهم، وملكناهم إياها، يتصرفون فيها كما شاؤوا في حدود الشرع.

﴿وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ﴾، أي: سخرناها لهم، وجعلناها ذليلة منقادة لهم، يقودونها ويُصرفونها حيث شاؤوا، ولا تمتنع عليهم، ترى الطفل الصغير ينيخ البعير الكبير، ويقيمه، ويسوقه، ويسير بسيره أكثر من مئة بعير، وذلك بتسخير العليم الخبير.

﴿فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ﴾، أي: فمن هذه الأنعام ما يركبونه في أسفارهم، ويحملون عليه الأثقال في تنقلهم بين البلدان والأقطار، وهي: الإبل، و«رَكوب»: فعول بمعنى «مفعول»، أي: مركوب.

﴿وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾، أي: ومن هذه الأنعام يأكلون اللحم، من الإبل والبقر والغنم.

﴿وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ﴾ من أصوافها وأوبارها وأشعارها، والسقي والحرث عليها، وغير ذلك؛ كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ

إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾ [النحل: ٨٠].

﴿وَمَشَارِبُ﴾ جمع «مشرب»، أي: شرب، أي: ولهم فيها مشارب مختلفة متنوعة، فيشربون من ألبان الإبل، ومن ألبان البقر، ومن ألبان الغنم.

﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ الاستفهام: للإنكار والتقريع والتوبيخ.

أي: أفلا يشكرون الله تعالى على خلق هذه الأنعام وتذليلها وتسخيرها لهم، بأن يعبدوه وحده، ولا يشركوا به غيره؟

قوله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴿٧٥﴾ فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٦﴾﴾:

قوله: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً﴾، أي: واتخذ المشركون غير الله آلهة يعبدونهم معه.

﴿لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ﴾، أي: لعلهم يُنصرون بهم، أي: لأجل أن ينصروهم، ويشفعوا لهم. وهذا إنكار من الله تعالى عليهم؛ ولهذا قال:

﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ﴾، أي: لا يستطيع هؤلاء الآلهة نصر عابديهم، ولا يقدرون على ذلك، بل هم أضعف من ذلك وأقل وأذل وأحقر؛ لأنهم لا يستطيعون نصر أنفسهم، فكيف ينصرون غيرهم؟! كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ﴾ [الأعراف: ١٩٢]، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٧﴾﴾ [الأعراف: ١٩٧].

﴿وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ﴾ الواو: عاطفة، والضمير «هم» يعود على العابدين، والضمير في قوله: ﴿لَهُمْ﴾ يعود على الآلهة، أي: وهؤلاء العابدون لآلهتهم ﴿جُندٌ مُّحْضَرُونَ﴾، أي: حاضرون ينتصرون لهم، ويدافعون عنهم.

فالمعنى: أن هذه الآلهة التي يعبدونها لأجل أن تنصرهم وتشفع لهم لا تستطيع نصرهم، وهم الذين أعدوا أنفسهم جنودًا حاضرين لنصرها والدعوة لعبادتها؛ كما قال قوم إبراهيم عليه السلام: ﴿حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ٦٨].

وقيل: الضمير في قوله: ﴿وَهُمْ﴾ يعود على الأصنام، والضمير في قوله: ﴿لَهُمْ﴾ يعود على العابدين، فالمعنى: والأصنام لعابديهم جند ينصرونهم حسب زعمهم، ﴿مُّحْضَرُونَ﴾

معهم في النار يوم القيامة.

والصحيح: القول الأول؛ لأن الضمير في قوله: ﴿وَهُمْ﴾ يعود على أقرب مذكور، وهم العابدون؛ فالضمير لهم في قوله: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ﴾.

ومعنى الآية على هذا أظهر وأقوى، وعليه يدل الواقع، فإن الأصنام لا تنصر عابديها، وإنما هم ينتصرون لها.

وفيه: إظهار سفاهة المشركين، وشدة ضلالهم، حيث عبدوا ما لا يستطيع نصرهم، وانتصروا لما لا ينفعهم.

﴿فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ﴾ قرأ نافع بضم الياء وكسر الزاي: «يُحْزِنْكَ»، وقرأ الباقون بفتح الياء، وضم الزاي: ﴿يَحْزُنكَ﴾.

﴿قَوْلُهُمْ﴾ اسم جنس، أي: لا تحزنك أقوالهم، من وصفهم لك ولما جئت به بالكذب والسحر والشعر والكهانة، ونحو ذلك، أي: لا تحزن ولا تأس لذلك ولا تباله؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ [النحل: ١٢٧]، وقال تعالى: ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾﴾ [الشعراء: ٣].

﴿إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ الجملة تعليلية، و«ما»: موصولة، أو مصدرية، أي: لأنا نعلم الذي يسرونه ويخفونه في أنفسهم وفيما بينهم، والذي يعلنونه ويظهرونه فيما بينهم أو للناس، أي: نعلم إسرارهم وإعلانهم، وسنجزيهم وصفهم، ونجازيهم على جميع أعمالهم، سرها وعلانيتها.

وفي هذا تهديد ووعيد لهم.

وقدّم الإسرار؛ لأنه أدل على إحاطة علم الله بأحوالهم.

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ ۖ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾﴾:

عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: «جاء العاص بن وائل إلى رسول الله ﷺ بعظم حائل، ففته بيده، فقال: يا محمد، أيحيي الله تعالى هذا بعد ما أرى؟ قال: «**نعم، يبعث الله**

هذا، ثم يميتك، ثم يحييك، ثم يدخلك نار جهنم».

فنزلت الآيات من آخر يس: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ إلى آخر السورة[١].

وروى مجاهد وقتادة: «أنها نزلت في أُبيّ بن خلف، أتى رسول الله ﷺ بعظم حائل ففته»[٢].

قال ابن كثير[٣]: «وعلى كل تقدير، سواء كانت هذه الآيات نزلت في أبي بن خلف، أو العاص بن وائل، أو فيهما، فهي عامة في كل من أنكر البعث».

قوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ﴾ الاستفهام للتقرير والتوبيخ والتعجيب، و«ال» للجنس، أي: أولم ير الإنسان، أي: كل منكر للبعث، أي: يعلم ويتفكر، أنا خلقناه من نطفة، وهي الماء المهين الضعيف «المني»؟ كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ۝٢٠﴾ [المرسلات: ٢٠]، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ۝٣٧﴾ [القيامة: ٣٧]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ﴾ [الإنسان: ٢].

أي: أولم ير الإنسان أنا ابتدأنا خلقه من نطفة، أي: من سلالة من ماء مهين ضعيف، فيتواضع لله تعالى ويعرف أصل خلقه، ولا يتجبر، ولا يتكبر، ويستدل بذلك على قدرة الله تعالى على إعادته وبعثه بعد موته من باب أولى.

عن بسر بن جحاش القرشي رضي الله عنه، قال: بزق النبي ﷺ في كفه، ثم وضع أصبعه السبابة، وقال: يقول الله عز وجل: أنى تعجزني يا ابن آدم وقد خلقتك من مثل هذه، حتى إذا سويتك وعدلتك، مشيت بين برديك وللأرض منك وئيد، فجمعت ومنعت، حتى إذا بلغت التراقي قلت: أتصدق، وأنى أوان الصدقة؟»[٤].

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/ ٣٢٠٢، وذكره ابن كثير في «تفسيره» ٦/ ٥٨٠، وأخرجه الطبري في «جامع البيان» ١٩/ ٤٨٧، عن سعيد بن جبير.

(٢) أخرجه عنهما الطبري في «جامع البيان» ١٩/ ٤٨٦، وأخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/ ٣٢٠٢ عن مجاهد والسدي وعكرمة.

(٣) في «تفسيره» ٦/ ٥٨٠.

(٤) أخرجه ابن ماجه في الوصايا، النهي عن الإمساك في الحياة والتبذير عند الموت ٢٧٠٧، وأحمد ٤/ ٢٦٠.

﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ الفاء: عاطفة، و«إذا»: فجائية، أي: فيترقى في الخلق من هذا الضعف، فإذا ﴿هُوَ خَصِيمٌ﴾، أي: شديد الخصومة، متجبر شديد الشكيمة، كثير الخصام، ﴿مُّبِينٌ﴾: للخصومة والتجبر.

﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا﴾ «المثل»: الشبه، أي: وضرب هذا الإنسان لنا مثلًا، لا ينبغي لأحد أن يضربه، ولا يستقيم أبدًا، مستبعدًا ومنكرًا البعث والمعاد، وإعادة الحياة إلى الأجساد.

﴿وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ﴾، أي: ونسي ابتداء خلقه، وأن الله خلقه من العدم، وفي خلقه من العدم ما هو أعظم من إعادة خلقه، ولو ذكر خلقه الأول لما ضرب هذا المثل.

﴿قَالَ﴾ في ضربه هذا المثل: ﴿مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ﴾ الاستفهام: للإنكار والتعجيز والنفي، أي: لا أحد يحييها، أي: يستطيع ويقدر على إحيائها.

﴿وَهِيَ رَمِيمٌ﴾، أي: وهي بالية متفتتة، فقاس قدرة الخالق العظيم القدير، بقدرة المخلوق الضعيف العاجز، وقد قال الله عز وجل: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٤﴾﴾ [النحل: ٧٤].

﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾، أي: قل يا محمد؛ إجابةً عن سؤال هذا المنكر للبعث، وإحياء العظام وهي رميم.

﴿يُحْيِيهَا﴾، أي: يحيي العظام بعد كونها رميمًا.

﴿ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ لم يقل: يحييها الله؛ ليكون الجواب متضمنًّا للدليل، أي: يحييها الذي خلقها وأوجدها من العدم أول مرة، وهو الله عز وجل، فاحتج بالإبداء على الإعادة، وبالنشأة الأولى على النشأة الآخرة، فمن قدر على الإبداء والنشأة الأولى، فهو على الإعادة والنشأة الأخرى أقدر؛ كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ﴾ [الروم: ٢٧]، وقال تعالى: ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ ۚ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [ق: ١٥].

وقال تعالى: ﴿مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ﴾ [عبس: ١٩- ٢٢].

﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾، أي: ذو علم واسع بكل خلق، و«خلق»: مصدر، أي: عليم كيف يخلق، وكيف ينشئ الخلق.

فأثبت له عز وجل القدرة، ونفى عنه العجز بقوله: ﴿يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾.

وأثبت له تمام علمه بالخلق، ونفى عنه الجهل بقوله: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾.

وبثبوت تمام قدرته وتمام علمه بالخلق إثبات تمام قدرته على إحياء الموتى؛ كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴿١٢﴾﴾ [الطلاق: ١٢].

وعن حذيفة رضي الله عنه، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن رجلًا حضره الموت، لما أيس من الحياة أوصى أهله: إذا مت فاجمعوا لي حطبًا كثيرًا، ثم أوروا نارًا، حتى إذا أكلت لحمي، وخلصت إلى عظمي، فخذوها فاطحنوها، فذرّوني في اليم في يوم حار، أو راحٍ. فجمعه الله، فقال: لم فعلت؟ قال: خشْيَتك. فغفر له**»(١).

﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا﴾، أي: الذي صيّر لكم من الشجر الأخضر نارًا، وهو الله عز وجل. فهذا الشجر الأخضر أعاده الله إلى أن صار حطبًا يابسًا توقد به النار، ولا يخفى ما بين الشجر الأخضر الذي فيه الرطوبة والبرودة، وبين النار التي فيها اليبوسة والحرارة؛ من التنافر والتضاد، فخلق عز وجل الشيء من ضده.

وإذا كان عز وجل قادرًا على خلق الشيء من ضده، فهو على خلق الشيء من لا ضد وإحياء الموتى أقدر، من باب أولى.

﴿فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾ الفاء عاطفة، و«إذا» فجائية، أي: فإذا أنتم من هذا الشجر الأخضر توقدون النار وتقدحونها، بضرب عود بعود آخر من بعض الشجر، فتقدح النار، وتشعلونها في الحطب اليابس من هذا الشجر؛ كما قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴿٧٢﴾﴾ [الواقعة: ٧١؛٧٢].

قوله تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾:

---

(١) أخرجه البخاري في الأنبياء ٣٤٧٩.

دلل عز وجل على قدرته التامة على المعاد وإحياء الموتى بالخلق الأول، وبعلمه عز وجل بجميع الخلق، وبإخراج النار من الشجر الأخضر، ثم دلل على ذلك بخلقه السموات والأرض، الذي هو أكبر من خلق الناس، وأوضح للعقول من كل دليل.

قوله: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ الاستفهام: للإنكار والتعجيب، أي: أوليس الذي خلق هذه المخلوقات العظيمة: السموات السبع، وما فيها من الكواكب السيارة والثوابت، والأرضين السبع، وما فيها من الجبال والرمال، والقفار والبحار، وغير ذلك.

﴿بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم﴾ قرأ رويس عن يعقوب: «يَقْدِرُ» بصيغة المضارع، وقرأ الباقون: ﴿بِقَٰدِرٍ﴾ بالباء الموحدة، وبألف بعد القاف.

والباء في قوله: ﴿بِقَٰدِرٍ﴾ زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة من حيث المعنى، و«أن» والفعل «يخلق» في تأويل مصدر في محل جر بـ«على»، أي: أوليس الذي خلق السموات والأرض بقادر على خلق مثلهم، أي: مثل البشر، فيعيدهم كما بدأهم؟

﴿بَلَىٰ﴾ أجاب عز وجل نفسه بنفسه؛ لظهور الأمر ووضوحه، أي: بلى هو قادر على أن يخلق مثلهم من باب أولى؛ كما قال تعالى: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾ [غافر: ٥٧]، وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾﴾ [الأحقاف: ٣٣].

﴿وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ﴾، أي: ذو الخلق المتقن من جميع الوجوه؛ كما قال تعالى: ﴿مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾ [الملك: ٣].

﴿ٱلْعَلِيمُ﴾: ذو العلم الواسع الذي وسع كل شيء؛ كما قال تعالى: ﴿وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾ [طه: ٩٨].

﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ قرأ ابن عامر والكسائي بالنصب: «فَيَكُونَ»؛ عطفًا على ﴿يَقُولَ﴾، وقرأ الباقون بالرفع: ﴿فَيَكُونُ﴾، أي: فهو يكون.

الفاء: للتعقيب، و«إنما»: أداة حصر، و«أن» والفعل «يقول» في تأويل مصدر في محل رفع خبر المبتدأ «أمره»، و«شيئًا»: نكرة في سياق الشرط، فتعم كل شيء.

أي: ما أمره إذا أراد شيئًا من الأشياء إلا قوله له: كن، فيكون في الحال من غير تمنُّع، ولا تأخر، أي: إلا أن يأمر بالشيء أمرًا واحدًا، من غير حاجة إلى تكرار؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَمۡرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٞ كَلَمۡحِۭ بِٱلۡبَصَرِ ٥٠﴾ [القمر: ٥٠]، وقال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجۡرَةٞ وَٰحِدَةٞ ١٣ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ ١٤﴾ [النازعات: ١٣- ١٤].

إذا ما أراد الله أمرًا فإنما يقول له: «كن» قولة فيكون[1]

عن أبي ذر رضي الله عنه؛ أن رسول الله ﷺ قال: «**إن الله يقول: يا عبادي، كلكم مذنب إلا من عافيت، فاستغفروني أغفر لكم، وكلكم فقير إلا من أغنيت، إني جواد ماجد واجد، أفعل ما أشاء، عطائي كلام، وعذابي كلام، وإذا أردت شيئًا فإنما أقول: «كن» فيكون**»[2].

﴿فَسُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ الفاء: رابطة لجواب شرط مقدر، و«سبحان»: مفعول مطلق لفعل محذوف، أي: تنزيهًا لله تعالى عن النقائص، وعن مماثلة المخلوقين، ﴿ٱلَّذِي بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾، أي: الذي بيده ملك كل شيء؛ فهو سبحانه الرب الخالق المالك المتصرف بكل شيء، ذو القدرة التامة على إحياء الموتى.

وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿قُلۡ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ [المؤمنون: ٨٨]، وكقوله تعالى: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِي بِيَدِهِ ٱلۡمُلۡكُ﴾ [الملك: ١].

و«ملكوت» بمعنى: «ملك»، لكن زيدت فيه الواو والتاء للمبالغة.

عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه، قال: قمت مع رسول الله ﷺ ذات ليلة، فقرأ السبع الطوال في سبع ركعات، وكان إذا رفع رأسه من الركوع قال: «**سمع الله لمن حمده**»، ثم قال: «**الحمد لله ذي الملكوت والجبروت، والكبرياء والعظمة**»، وكان ركوعه مثل قيامه، وسجوده مثل ركوعه، فانصَرَفَ وقد كادت تنكسر رجلاي»[3].

وعن عوف بن مالك الأشجعي رضي الله عنه قال: «قمت مع رسول الله ﷺ ليلة،

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» ٦/ ٥٨٢.
(٢) أخرجه أحمد ٥/ ١٧٧.
(٣) أخرجه أحمد ٥/ ٣٨٨.

فقام فقرأ سورة البقرة، لا يمر بآية رحمة إلا وقف فسأل، ولا يمر بآية عذاب إلا وقف وتعوذ. قال: ثم ركع بقدر قيامه، يقول في ركوعه: «**سبحان ذي الجبروت والملكوت، والكبرياء والعظمة**»، ثم سجد بقدر قيامه، ثم قال في سجوده مثل ذلك، ثم قام فقرأ آل عمران، ثم قرأ سورة سورة»(١).

﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾، أي: وإليه وحده مرجعكم في دينكم ودنياكم، ومردكم في أخراكم، فيحييكم بعد الموت، ويبعثكم من قبوركم؛ ليحاسبكم على أعمالكم؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ۝٢٥ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ۝٢٦﴾ [الغاشية: ٢٥- ٢٦].

الفوائد والأحكام:

١- تقرير نعمة الله تعالى على العباد بما خلق لهم من الأنعام، وملَّكهم إياها، وذللها لهم، منها ركوبهم، ويأكلون منها، وينتفعون بها، ويشربون من ألبانها؛ لقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَـٰمًا فَهُمْ لَهَا مَـٰلِكُونَ ۝٧١ وَذَلَّلْنَـٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ۝٧٢ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَـٰفِعُ وَمَشَارِبُ﴾.

٢- أن ما خلق الله من الأنعام وغيرها هو لأجل بني آدم؛ كما قال تعالى: ﴿**هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا**﴾ [البقرة:٢٩]، فلا ينبغي أن ينشغلوا بذلك عما خلقوا من أجله.

٣- جواز نسبة العمل إلى الله تعالى ووصفه به؛ لقوله تعالى: ﴿مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ﴾، أي: مما عملنا.

٤- إثبات اليدين لله تعالى؛ كما يليق بجلاله؛ لقوله تعالى: ﴿أَيْدِينَآ﴾، وقوله: ﴿بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾.

٥- إثبات الملكية الفردية للإنسان، وأنه يملك شرعًا ما ملَّكه الله من الأنعام وغير ذلك، وله حق التصرف في ذلك في حدود ما أباحه الشرع؛ لقوله تعالى: ﴿فَهُمْ لَهَا مَـٰلِكُونَ﴾.

---

(١) أخرجه أبو داود في الصلاة، ما يقول في ركوعه وسجوده ٨٧٣، والنسائي في التطبيق ١١٣٢.

٦- منة الله تعالى على العباد بتذليل هذه الأنعام لهم، تنقاد لهم، ويتصرفون بها من غير أن تمتنع عليهم، حتى ولا في الانقياد لنحرها وذبحها، ولو استعصت عليهم ما استطاعوا تذليلها.

٧- جواز ركوب ما يركب من هذه الأنعام؛ كالإبل من غير أن يكون في ذلك مشقة عليها، وتعذيب لها؛ لقوله تعالى: ﴿فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ﴾.

٨- حل الأكل مما أباحه الله من هذه الأنعام؛ كالإبل والبقر والغنم؛ لقوله تعالى: ﴿وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾.

٩- إباحة الانتفاع بهذه الأنعام بشتى أنواع المنافع: بأصوافها وأوبارها وأشعارها، والسقي عليها، والحرث، وغير ذلك مما ليس فيه تعذيب لها؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ﴾، أي: منافع كثيرة.

١٠- حل شرب ألبان ما يؤكل لحمه منها؛ كالإبل والبقر والغنم؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَشَارِبُ﴾.

١١- الإنكار على المشركين عدم شكرهم هذه النعمة؛ لقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾.

١٢- وجوب شكر نعم الله تعالى بخلق هذه الأنعام وغيرها؛ لأن الله أنكر على من كفروها، ووبخهم.

١٣- الإنكار على المشركين في اتخاذهم من دون الله آلهة يرجون نصرهم وشفاعتهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ (٧٤)﴾.

١٤- أن هؤلاء الآلهة الذين يعبدهم المشركون لا يستطيعون نصرهم؛ لأنهم أضعف وأقل وأحقر من أن ينصروا أنفسهم، فكيف ينصرون غيرهم؟! لقوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ﴾.

١٥- أن هؤلاء المشركين قد أعدوا أنفسهم جنودًا حاضرين لنصرة آلهتهم، والدفاع عنها، فانقلب السحر على الساحر، عبدوها لأجل أن تنصرهم، فكانوا هم المنتصرين لها؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ﴾. وفي هذا تسفيه لهم، وبيان شدة

جهلهم حيث عبدوا وانتصروا لمن لا يستطيع نصرهم.

١٦- تسلية النبي ﷺ، وتقوية قلبه تجاه أقوال المشركين في وصفه ووصف ما جاء به بالكذب والسحر والشعر والكهانة، ونحو ذلك، ونهيه أن يحزنه ذلك، أو يبتئس به، وأنه سيكفيه إياهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ﴾ الآية.

١٧- تهديد المشركين والمكذبين له ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾.

١٨- وجوب مراقبة الله تعالى؛ لعلمه بما يسره العباد وما يظهرونه، ومحاسبته لهم على ذلك.

١٩- تقرير أن الله عز وجل خلق الإنسان من ضعف؛ لقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ﴾.

٢٠- ترقي الإنسان في الخلق من هذا الضعف حتى يكون خصيمًا مبينًا لربه، مكابرًا جبارًا عنيدًا؛ لقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾﴾.

٢١- ذم الخصومة بالباطل، لرد الحق، وإظهار الباطل؛ لأن الآية سيقت مساق الذم.

٢٢- جرأة المجادل بالباطل على ضرب المثل لله، وإنكار قدرته على البعث، وعلى إحياء العظام وهي رميم؛ لقوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ ۖ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾﴾.

٢٣- أن هذا المنكر للبعث ولقدرة الله تعالى على إحياء العظام وهي رميم، لو ذكر خلقه الأول وتفكر فيه، ما ضرب هذا المثل.

٢٤- شدة جهل منكر إحياء الله العظام وهي رميم، في ضربه المثل لله، وقياسه قدرة الخالق العظيم على قدرة المخلوق الضعيف؛ لقوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ ۖ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾﴾.

٢٥- قدرة الله تعالى التامة على إحياء العظام وهي رميم؛ لأنه هو الذي أوجدها من العدم أول مرة، فهو على إحيائها وإعادتها مرة أخرى أقدر من باب أولى؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ﴾.

٢٦- قوة القرآن في الإقناع وإقامة الحجة، والاستدلال بالأشد على إمكان الأخف،

والاستدلال على الخصم بما لا ينكره؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾.

٢٧- علم الله الواسع بكل خلق، فيخلق سبحانه كيف يشاء، وعلمه بكل المخلوقات من باب أولى؛ لأنه خالقها؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾، كما قال تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾ [الملك: ١٤].

٢٨- منة الله تعالى على العباد في جعله لهم من الشجر الأخضر نارًا يوقدون منه؛ لقوله تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾﴾.

٢٩- أن من قدر على جعل النار من الشجر الأخضر، وخلق الضد من الضد، فهو قادر على إحياء الموتى مرة أخرى.

٣٠- تقرير وإثبات أن من خلق السموات والأرض- هذه المخلوقات العظيمة- قادر على إحياء الموتى وبعثهم من قبورهم من باب أولى؛ لقوله تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ﴾.

٣١- كمال قدرة الله تعالى وعظمته؛ حيث خلق هذه السموات والأرض العظيمة، وما فيهما من المخلوقات الكثيرة.

٣٢- أن خلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس.

٣٣- جواز إجابة السائل نفسه إذا كان ذلك من باب تقرير أمر ثابت معلوم للمخاطب؛ لقوله تعالى: ﴿بَلَىٰ﴾.

٣٤- إثبات اسم: «الخلاق» لله عز وجل، وصفة الخلق، وأنه سبحانه المتفرد بالخلق، الخالق لكل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الْخَلَّاقُ﴾.

٣٥- إثبات اسم الله: «العليم»، وأنه سبحانه ذو العلم الواسع لكل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿الْعَلِيمُ﴾.

٣٦- أنه عز وجل لا يعجزه ولا يمتنع عليه أي شيء، من إحياء الموتى أو غير ذلك؛ لتمام قدرته، وسعة علمه، فما أمره إذا أراد شيئًا إلا أن يقول له: كن، فيكون؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾.

٣٧- إثبات الإرادة لله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿إِذَا أَرَادَ شَيْئًا﴾.

٣٨- إثبات القول لله تعالى، وأنه يقول ويتكلم بحرف وصوت؛ لقوله تعالى: ﴿أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾.

٣٩- تنزيه الله عن النقائص والعيوب، وتقديسه وتعظيمه من أن تقاس قدرته بقدرة المخلوق الضعيف؛ كما يعتقد منكرو البعث؛ لقوله تعالى: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾.

٤٠- سعة ملك الله تعالى، فبيده عز وجل ملك كل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾.

٤١- أن مرجع الخلائق كلهم إلى الله تعالى في دينهم ودنياهم، وفي أخراهم بعد موتهم وإحيائهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

٤٢- تأكيد وإثبات البعث، وإحياء العظام وهي رميم، وتمام قدرة الله تعالى على ذلك؛ فقد تضمنت هذه الآيات عشرة أدلة على ذلك:

الأول: الاستدلال بخلق الإنسان الأول، وبالنشأة الأولى على النشأة الأخرى.

الثاني: عموم علم الله عز وجل التام بكل خلق.

الثالث: قدرته على إخراج النار من الشجر الأخضر.

الرابع: خلقه السموات والأرض.

الخامس: كونه الخلاق.

السادس: كونه العليم.

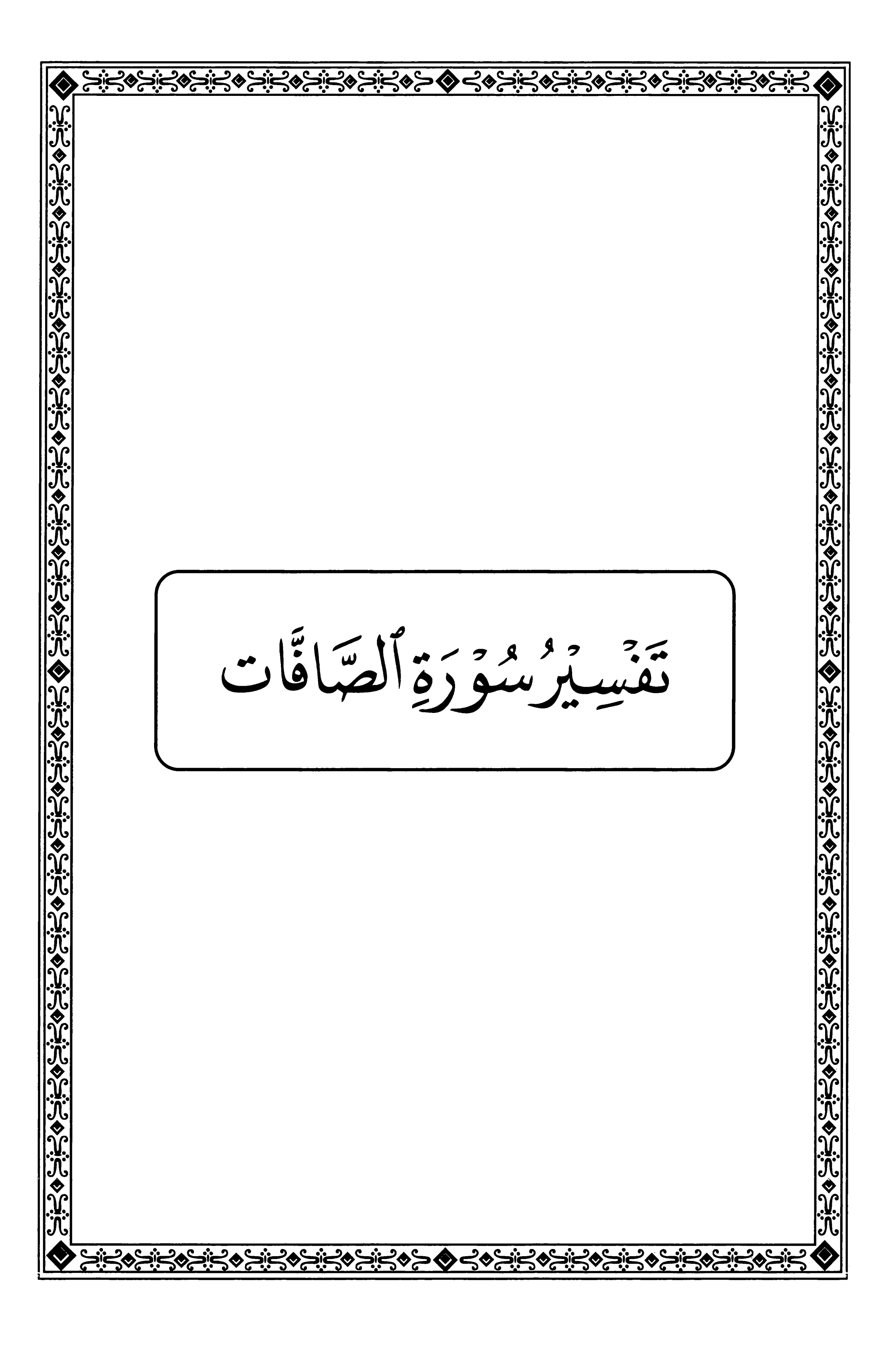
السابع: كونه لا يعجزه ولا يمتنع عليه شيء، إذا أراد أمرًا إنما يقول له: كن، فيكون.

الثامن: تنزيهه عن كل نقص، وهذا يقتضي كماله وتمام قدرته على إحياء الموتى وعلى كل شيء.

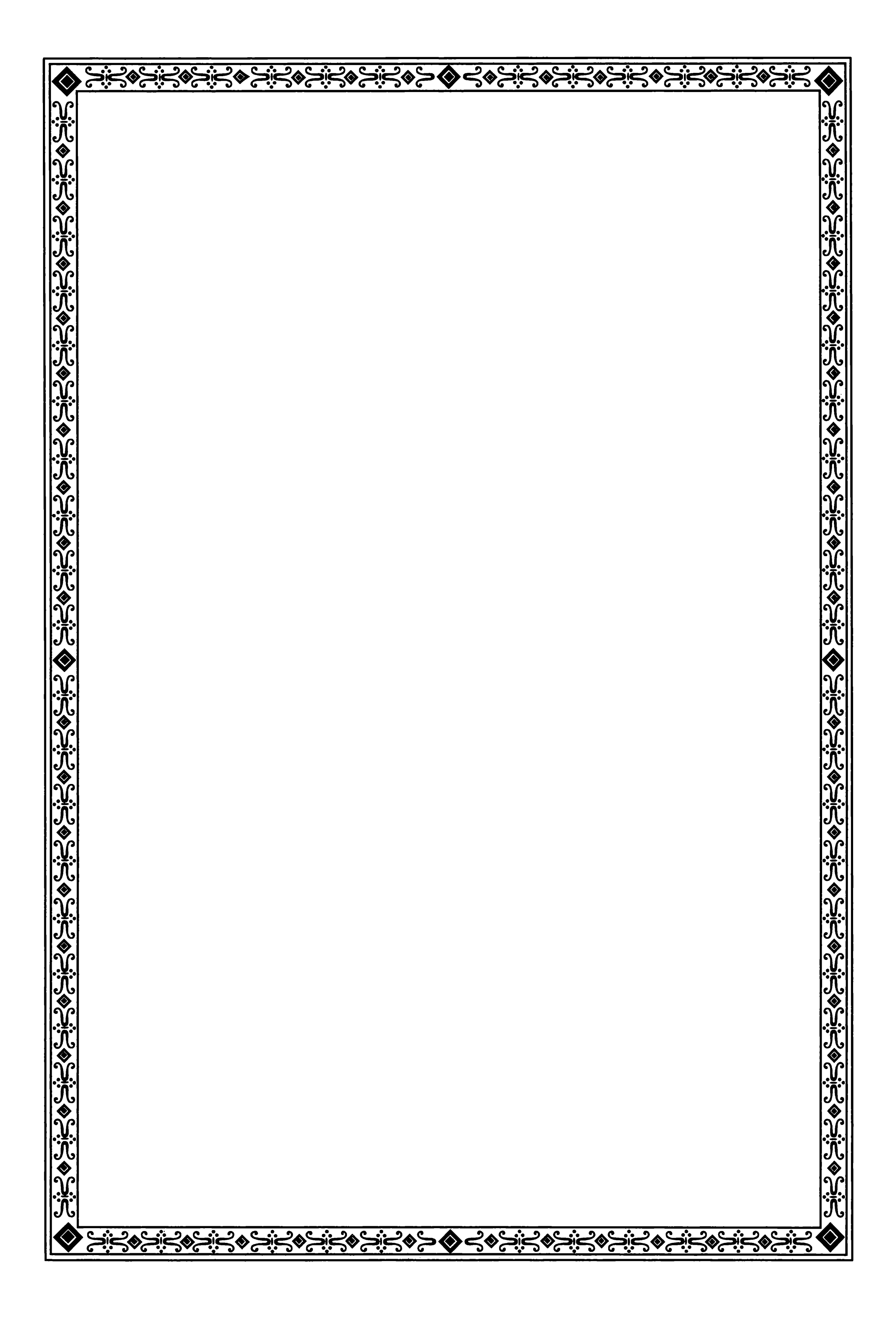
التاسع: أن بيده ملكوت كل شيء وتدبيره، يحيي من يشاء، ويميت من يشاء.

العاشر: أن مرجع الخلائق كلهم إليه يوم القيامة، وذلك لا يكون إلا بعد بعثهم وإحيائهم بعد موتهم.

* * *



تَفْسِيرُ سُورَةِ ٱلصَّافَّات



المقدمة

أ- اسم السورة:

سميت هذه السورة «سورة الصافات»؛ لقوله تعالى في مطلعها: ﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفًّا﴾ [الآية: ١].

وتسمى: «سورة الذبيح»؛ لأن قصة الذبيح لم تذكر في غيرها من السور.

ب- مكان نزولها:

مكية.

جـ- فضلها:

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: «**كان رسول الله ﷺ يأمرنا بالتخفيف، ويَؤُمُّنا بالصافات**»(١).

د- موضوعاتها:

١- افتتحت هذه السورة بإقسامه عز وجل بالصافات والزاجرات والتاليات، وهي الملائكة على وحدانيته عز وجل في ألوهيته وإثبات عموم ربوبيته، ورب السموات والأرض وما بينهما ورب المشارق، زين السماء الدنيا وحفظها بالكواكب ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ﴿٦﴾ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ﴿٧﴾ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ﴿٨﴾ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴿٩﴾ إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴿١٠﴾﴾.

٢- الرد على المشركين المكذبين بالبعث، وإثبات أنه حق، وتهديدهم بما أعد لهم فيه من عذاب الجحيم، والتقريع والتوبيخ لهم: ﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَآ ۚ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ ﴿١١﴾ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ﴾ إلى قوله: ﴿قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَٰخِرُونَ ﴿١٨﴾ فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿٢٠﴾ هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢١﴾ ۞ ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ وَقِفُوهُمْ ۖ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴿٢٤﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾ بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓا۟

---

(١) أخرجه النسائي في الإمامة- الرخصة للإمام في التطويل ٨٢٦.

ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ ﴿٣٦﴾ بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٧﴾ إِنَّكُمْ لَذَآئِقُواْ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٩﴾﴾.

٣- بيان ما أعده الله لعباده المخلصين، نزلًا لهم من ألوان الملذات والفوز العظيم في جنات النعيم. قال تعالى: ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤١﴾ فَوَٰكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ ﴿٤٢﴾ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٤٣﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٤﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿٤٥﴾ بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ ﴿٤٨﴾ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴿٤٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٠﴾ لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ ﴿٦١﴾﴾.

٤- شتان بين هذا المنزل العظيم وبين ما أعد نزلًا للظالمين الضالين من شجرة الزقوم والحميم وعذاب الجحيم. قال تعالى: ﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِيٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمْ لَءَاكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾﴾.

٥- ذم المشركين في تقليدهم آباءهم على الضلال، كما ضل قبلهم أكثر الأولين، ولم ينتفعوا بالنذر إلا من وفقه الله من عباده المخلصين ﴿إِنَّهُمْ أَلْفَوْاْ ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ ﴿٦٩﴾ فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٧١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ﴿٧٢﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٧٤﴾﴾.

٦- ذِكر طرفٍ من قصة نوح عليه السلام وهو دعاؤه على قومه لما يأس من هدايتهم وإيمانهم، واستجابة الله تعالى له، وإنجائه وأهله، وإغراق الآخرين ﴿وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٧٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٩﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٨٢﴾﴾.

٧- ذكر قصة إبراهيم عليه السلام مع أبيه وقومه وإنكاره عليهم عبادة غير الله وتحطيمه أصنامهم، وإلقائهم إياه في النار، وإبطال الله تعالى كيدهم، وبشارته بغلام حليم، وابتلائه بأمره في المنام بذبحه ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْيَ قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلْمَنَامِ أَنِّيٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّآ أَسْلَمَا

وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾ إلى قوله: ﴿وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ ﴿١١٣﴾﴾.

٨- ذكر منته عز وجل على موسى وهارون وإنجائهما وقومهما من الكرب العظيم ونصرهما وجعل الغلبة لهما وإيتائهما الكتاب المستبين وهدايتهما الصراط المستقيم ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١١٤﴾ وَنَجَّيْنَٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١١٥﴾ وَنَصَرْنَٰهُمْ فَكَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُمَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ ﴿١١٧﴾ وَهَدَيْنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١١٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١١٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٢﴾﴾.

٩- ذكر رسالة إلياس عليه السلام وأمره قومه بتقوى الله، وإنكاره عليهم دعاء غير الله، وترك عبادة أحسن الخالقين الله ربهم ورب آبائهم الأولين، وتكذيبهم له: ﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٢٥﴾ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٢٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٢٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ ﴿١٣٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣١﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾﴾.

١٠- ذكر رسالة لوط عليه السلام وإنجائه وأهله أجمعين وإهلاك المكذبين ﴿وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٣﴾ إِذْ نَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٤﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٣٥﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿١٣٦﴾ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾﴾.

١١- ذكر رسالة يونس عليه السلام وما جرى له ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ ۞ فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾ وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِا۟ئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔامَنُوا۟ فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٤٨﴾﴾.

١٢- الإنكار على المشركين في نسبتهم الولد لله تعالى وتخصيصه بالبنات، ولهم البنون، وزعمهم أن الملائكة بنات الله، بلا حجة، ولا كتاب، ولا سلطان مبين، وفي جعلهم بين الله عز وجل وبين الجنة نسبًا تعالى الله عن ذلك وتوعدهم باصطلاء

الجحيم: ﴿وَجَعَلُواْ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًاۚ وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٠﴾ فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴿١٦١﴾ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَٰتِنِينَ ﴿١٦٢﴾ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦٣﴾﴾.

١٣- فضيلة الملائكة ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ ﴿١٦٦﴾﴾.

١٤- شدة عناد المشركين وتكذيبهم بالقرآن، وتوعدهم ﴿وَإِن كَانُواْ لَيَقُولُونَ ﴿١٦٧﴾ لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦٨﴾ لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٩﴾ فَكَفَرُواْ بِهِۦۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿١٧٠﴾﴾.

١٥- تسلية الرسول ﷺ وتقوية قلبه، وتهديد المكذبين له ببيان حكمه السابق بنصر رسله وأوليائه، وإهلاك المكذبين وتعذيبهم: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٤﴾ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٥﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٧٦﴾ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٧﴾ وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٨﴾ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٩﴾ سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٢﴾﴾.

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا (١) فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا (٢) فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا (٣) إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ (٤) رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ (٥) إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ (٦) وَحِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ (٧) لَا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَى وَيُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ (٨) دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ (٩) إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ (١٠) فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ مَنْ خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ (١١) بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ (١٢) وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ (١٣) وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ (١٤) وَقَالُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ (١٥) أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (١٦) أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ (١٧) قُلْ نَعَمْ وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ (١٨) فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ (١٩)﴾.

قوله تعالى: ﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا (١) فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا (٢) فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا (٣) إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ (٤) رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ (٥)﴾:

قوله: ﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا (١)﴾ الواو: حرف قسم وجر، والجار والمجرور متعلق بمحذوف تقديره: أقسم. و«صفًّا»: مفعول مطلق.

والمراد بـ«الصافات صفًّا»: الملائكة تصف صفوفًا عند ربها في الصلاة والعبادة والعمل، وتصف أجنحتها في الهواء؛ كما قالوا عن أنفسهم: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ (١٦٥)﴾ [الصافات: ١٦٥]، وقال ﷺ: «**ألا تصفون كما تصف الملائكة عند ربها؟**»، قالوا: كيف تصف الملائكة عند ربها؟ قال: «**يُتمون الصفوف الأولى، ويتراصون في الصف**»(١).

وعن حذيفة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**فُضِّلنا على الناس بثلاث: جعلت صفوفنا كصفوف الملائكة، وجعلت لنا الأرض كلها مسجدًا، وجعلت تربتها لنا طهورًا، إذا لم نجد الماء**»(٢).

﴿فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا (٢) فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا (٣)﴾ الجملتان معطوفتان على «الصافات صفًّا». و«زجرًا» و«ذكرًا»؛ كل منهما مفعول مطلق، والعطف من عطف الصفات.

---

(١) أخرجه مسلم في الصلاة، الأمر بالسكون في الصلاة ٤٣٠، وأبو داود في الصلاة ٦٦١، والنسائي في الإمامة ٨١٦، وابن ماجه في إقامة الصلاة ٩٩٢، من حديث جابر بن سمرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم في المساجد وموضع الصلاة ٥٢٢.

﴿فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجۡرٗا ۝٢﴾ الملائكة تزجر السحاب، أي: تسوقه، وتزجر أرواح الكفار عند استخراجها، وغير ذلك.

﴿فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكۡرًا ۝٣﴾: الملائكة تتلو الذكر، أي: القرآن وكلام الله تعالى؛ كما قال تعالى: ﴿فَٱلۡمُلۡقِيَٰتِ ذِكۡرًا ۝٥ عُذۡرًا أَوۡ نُذۡرًا ۝٦﴾ [المرسلات: ٥- ٦].

فأقسم عز وجل بالملائكة التي تصف صفوفًا عند ربها في الصلاة والعبادة، والتي تزجر السحاب وما أمرت بزجره، والتي تتلو كلام الله تعالى وذكره، أقسم بها على وحدانيته في إلهيته، فقال:

﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمۡ لَوَٰحِدٞ ۝٤﴾ هذا هو المقسم عليه، فأقسم عز وجل بالملائكة بصفاتها الثلاث: إن إلهكم- أيها الخلق- لواحد.

و«إنَّ» واللام: للتوكيد، أي: إن إلهكم ومعبودكم الذي يجب أن تعبدوه دون سواه، ﴿لَوَٰحِدٞ﴾، أي: واحد، أحد، فرد، لا شريك له في ربوبيته، وإلهيته، وأسمائه وصفاته؛ كما قال تعالى: ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمۡ يَلِدۡ وَلَمۡ يُولَدۡ ۝٣ وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدُۢ ۝٤﴾ [الإخلاص: ١- ٤].

﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا وَرَبُّ ٱلۡمَشَٰرِقِ ۝٥﴾، أي: هو رب السموات والأرض وما بينهما، أي: وخالق السموات والأرض وما بينهما من المخلوقات، ومالك ذلك كله، والمتصرف فيه؛ كما قال تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ﴾ [الأعراف: ٥٤].

وقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَاۖ وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾ [المائدة: ١٨].

﴿وَرَبُّ ٱلۡمَشَٰرِقِ﴾، أي: خالق مشارق الشمس والقمر والكواكب، في الصيف والشتاء، ومالكها، والمتصرف فيها.

واكتفى بذكر المشارق؛ لدلالتها على المغارب، وقد صرح بذلك في قوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِرَبِّ ٱلۡمَشَٰرِقِ وَٱلۡمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ﴾ [المعارج: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿رَبُّ ٱلۡمَشۡرِقَيۡنِ وَرَبُّ ٱلۡمَغۡرِبَيۡنِ﴾ [الرحمن: ١٧].

وأيضًا: فإن المشارق أدل على تمام قدرة الله من المغارب؛ لأن الشروق ابتداء، والغروب انتهاء.

قال ابن القيم: «وأقسم سبحانه بذلك على توحيد ربوبيته وإلهيته، وقرَّر توحيد ربوبيته، فقال: ﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَاحِدٌ ﴿٤﴾ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ ٱلْمَشَٰرِقِ ﴿٥﴾﴾. وهذه قاعدة القرآن: يقرر توحيد الإلهية بتوحيد الربوبية، فيقرر كونه معبودًا بكونه خالقًا رازقًا وحده».

وقال أيضًا: «وخص المشارق ههنا بالذكر: إما لدلالتها على المغارب؛ إذ الأمران المتضايفان كل منهما يستلزم الآخر، وإما لكون المشارق مطلع الكواكب، ومظاهر الأنوار، وإما توطئة لما ذكر بعدها: من تزيين السماء بزينة الكواكب، وجعلها حفظًا من كل شيطان، فذكْر المشارق أنسب بهذا المعنى وأليق. والله تعالى أعلم»(١).

قوله تعالى: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ﴿٦﴾ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ﴿٧﴾ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ﴿٨﴾ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴿٩﴾ إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴿١٠﴾﴾:

قوله: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا﴾، أي: زينا السماء القربى إلى الأرض، وجملناها للناظرين إليها من أهل الأرض؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٦﴾﴾ [الحجر: ١٦]، وقال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾﴾ [ق: ٦].

﴿بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ﴾ قرأ عاصم وحمزة بالتنوين: ﴿بِزِينَةٍ﴾؛ وجر ﴿ٱلْكَوَاكِبِ﴾، على البدل أو عطف البيان، والمعنى: بزينةٍ هي الكواكب.

وقرأ الباقون بغير تنوين بإضافة «زينة» إلى «الكواكب»: «بِزِينَةِ الكَوَاكِبِ»، أي: بالكواكب المزينة للسماء.

وقرأ أبو بكر عن عاصم بنصب «الكَوَاكِبَ»؛ على تقدير: أعني: الكواكبَ. وقيل غير ذلك.

﴿وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ﴾ الواو: عاطفة، و«حفظًا»: مفعول مطلق لفعل محذوف، أي: وحفظناها حفظًا.

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٤/ ٨.

﴿مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ﴾، أي: من كل شيطان متمرد عاتٍ، خارج عن طاعة الله تعالى.

﴿ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ قرأ حمزة والكسائي وخلف وعاصم بتشديد السين والميم: ﴿ لَّا يَسَّمَّعُونَ ﴾ وقرأ الباقون بتخفيفهما: «لَا يَسْمَعُونَ».

و«لا»: نافية، و﴿ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾: الملائكة وأهل السماء، فهم الأعلى مكانًا؛ لأنهم في السماء، وهم الأعلى شرفًا ومنزلة؛ لأنهم عباد مكرمون، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون.

أي: لا يستطيع الشياطين الاستماع إلى الملائكة الأشراف في الملأ الأعلى في السماء، إذا تكلموا بما يوحيه الله من شرعه وقدَرِه، وذلك لحفظ الله تعالى السماء منهم.

﴿وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ﴾، أي: يُرمَوْن ويُرجمون بالشهب الثواقب، من كل جانب من آفاق السماء، ومن كل جهة يقصدون السماء منها، فلا يستطيعون الوصول إلى مقصودهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾﴾ [الحجر: ١٧-١٨].

﴿ دُحُورًا ﴾ مفعول مطلق نائب عن المصدر، أي: طردًا للشياطين، وإبعادًا لهم عن استماع ما يقول الملأ الأعلى، أو حال، أو مفعول لأجله.

﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ﴾ دائم موجع مستمر في الدنيا والآخرة؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ﴿٥﴾﴾ [الملك: ٥].

﴿ إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴾ «إلا» للاستثناء، و«مَن» موصولة، أي: إلا الذي مِن الشياطين ﴿خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ﴾، أي: اختلس الكلمة مسارَقة بسرعة، وهي الكلمة التي يسمعها من السماء، فيلقيها إلى الذي تحته، ويلقيها الآخر إلى الذي تحته، فربما أدركه شهاب قبل أن يلقيها، وربما ألقاها- بقدَرِ الله- قبل أن يدركه الشهاب، فيذهب بها الآخر إلى الكاهن؛ كما تقدم في حديث أبي هريرة رضي الله عنه وغيره، عند تفسير قوله تعالى في سورة سبأ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾ [سبأ: ٢٣].

﴿فَأَتْبَعَهُۥ﴾، أي: فلحقه ﴿شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾، أي: شهاب مضيء، مستنير، نافذ، ينفذ فيه فيخرقه، أو يحرقه، أو يخبله، وهو ما يرى كالكوكب، ينقض من السماء بسرعة.

قوله تعالى: ﴿ فَٱسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَآ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ ﴿١١﴾ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ذُكِّرُوا۟ لَا يَذْكُرُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا رَأَوْا۟ ءَايَةً يَسْتَسْخِرُونَ ﴿١٤﴾ وَقَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿١٦﴾ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿١٧﴾ قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَٰخِرُونَ ﴿١٨﴾ فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ ﴿١٩﴾ ﴾:

قوله: ﴿ فَٱسْتَفْتِهِمْ ﴾، أي: فاسأل منكري البعث بعد الموت:

﴿أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا﴾ الاستفهام للتقرير، أي: أخلقهم وإيجادهم بعد موتهم أشد خلقًا وأشق وأصعب.

﴿أَم مَّنْ خَلَقْنَآ﴾ «أم»: حرف عطف، و«من»: موصولة، أي: أو الذي خلقنا من هذه المخلوقات العظيمة: السموات والأرض وما فيهما، وما بينهما من الملائكة والإنس والجن، وسائر المخلوقات.

وغلب في قوله: ﴿أَم مَّنْ خَلَقْنَآ﴾ جانب العقلاء؛ لأنهم أفضل وأشرف.

أي: استفتهم في هذا، فلا بد أن يقروا بأن خلق الله لهذه المخلوقات العظيمة- السموات والأرض وما بينهما- أكبر من خلقهم، أي: أكبر من خلق الناس.

كما قال تعالى: ﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ ﴾ [غافر: ٥٧]، فيلزمهم على هذا الإقرار بتمام قدرته تعالى على البعث، بل لو تأملوا في أصل خلقهم لأقروا بذلك؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّا خَلَقْنَٰهُم﴾، أي: خلقنا أباهم آدم عليه السلام، ﴿مِّن طِينٍ﴾ «الطين»: التراب المخلوط بالماء، ﴿لَّازِبٍ﴾: لزج يلتصق باليد، ويلتصق ويلزق بعضه ببعض، قوي شديد؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾﴾ [الحجر: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ﴿١٤﴾﴾ [الرحمن: ١٤].

فابتداء خلقهم من طين لازب، أشد من إعادة خلقهم أحياء بعد موتهم.

﴿ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴿١٢﴾﴾ قرأ حمزة والكسائي وخلف بضم التاء: «عَجِبْتُ»؛ فالضمير يعود إلى الله تعالى، وقرأ الباقون بفتحها: ﴿عَجِبْتَ﴾ فالضمير يعود إلى النبي ﷺ، ومن يصلح خطابه.

«بل»: للإضراب الانتقالي، أي: بل عجبت يا محمد، ويا أيها المخاطب، من إنكار

هؤلاء المكذبين للبعث، مع بيان الأدلة العظيمة على تمام قدرة الله تعالى على ذلك، وأعجب من ذلك أنهم يسخرون، أي: يستهزئون بالرسول ﷺ، وبما جاء به من الوحي الدال على ذلك؛ كما قال تعالى عن قوم نوح: ﴿وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾﴾ [هود: ٣٨،٣٩].

﴿وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ ﴿١٣﴾﴾، أي: وإذا ذُكِّروا بما يعرفونه بفطرهم وعقولهم، ووعظوا به، وفُطِّنوا له ونُبِّهوا، لا يذكرون ذلك، ولا ينتفعون، ولا يعتبرون.

﴿وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ ﴿١٤﴾﴾ «آية»: نكرة في سياق الشرط، فتعم كل آية، والسين والتاء للمبالغة، أي: وإذا شاهدوا وعلموا أيَّ آية دالة على تمام قدرة الله تعالى على ذلك يستهزئون مستكبرين.

﴿وَقَالُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾﴾ «إن»: نافية بمعنى: «ما»، و«إلا»: أداة حصر، أي: ما هذا الذي جئت به إلا سحر بيِّن ظاهر واضح.

﴿أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا﴾ الاستفهام للإنكار.

﴿أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ قرأ نافع بهمزة واحدة، هي همزة «إن»: «إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ»؛ وقرأ الباقون بهمزتين: ﴿أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾، أي: بالاستفهام؛ تأكيدًا للإنكار، واللام للتوكيد.

﴿أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ ﴿١٧﴾﴾ قرأ أبو جعفر وابن عامر وقالون بإسكان الواو: «أَوْ آبَاؤُنَا»؛ وقرأ الباقون بفتحها: ﴿أَوَآبَاؤُنَا﴾ وهو معطوف على الضمير «نا» في قوله: ﴿أَإِذَا مِتْنَا﴾، أي: أئذا متنا وآباؤنا الأولون، وكانت أجسادنا ترابًا وعظامًا بالية، أئنا لمبعوثون أحياءً بعد ذلك؟! هذا أمر بعيد مستنكر.

وكل هذا مما يثير العجب من تكذيبهم البعث، وسخريتهم بمن جاءهم به، وعدم ذكرهم إذا ذكروا، وسخريتهم بالآيات، وزعمهم أن ما جاءهم به الرسول ﷺ سحر بين، واعتبارهم أن بعثهم بعد موتهم وكونهم ترابًا وعظامًا ضرب من المستحيل.

كما قال تعالى: ﴿وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [الرعد: ٥].

﴿قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَاخِرُونَ ﴿١٨﴾﴾ «نعم»: حرف جواب للتصديق، أي: قل لهم يا محمد: نعم،

ستبعثون يوم القيامة بعدما تصيرون ترابًا. وصدر الجواب بـ«قل»؛ للاهتمام بهذا الجواب.

﴿وَأَنتُمْ دَٰخِرُونَ﴾ الجملة حالية، أي: وأنتم صاغرون ذليلون، لا تستعصون على قدرة الله تعالى؛ كما قال تعالى: ﴿وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ﴾ [النمل: ٨٧]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠]، وقال تعالى: ﴿وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِىٍّ﴾ [الشورى: ٤٥].

﴿فَإِنَّمَا هِىَ﴾ الفاء: تعليلية، ﴿زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ﴾: نفخة واحدة في الصور، ﴿فَإِذَا هُمْ﴾ الفاء: عاطفة، و«إذا»: فجائية، أي: فإذا هم خارجون من قبورهم، قيام بين يدي الله تعالى.

﴿يَنظُرُونَ﴾ إلى ما يفعل بهم، أو ينتظرون ما يفعل بهم؛ كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ﴾ [النازعات:١٣- ١٤]، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ [الروم: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ﴾ [القمر: ٥٠].

وقال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَجَمَعْنَٰهُمْ جَمْعًا﴾ [الكهف: ٩٩]، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [النمل: ٨٧]، وقال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾﴾ [يس: ٥١]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴿١٨﴾﴾ [النبأ: ١٨]، وقال تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ﴿١٤﴾﴾ [الحاقة: ١٣- ١٤].

والمراد بهذا النفخة الثانية؛ كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨].

الفوائد والأحكام:

١- إقسام الله عز وجل بالملائكة باعتبار صفاتهم الثلاث العظيمة: الصافات، والزاجرات، والتاليات؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفًّا ﴿١﴾ فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجْرًا ﴿٢﴾ فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكْرًا﴾.

٢- أن لله عز وجل أن يقسم بما شاء من مخلوقاته؛ لأن إقسامه بها تعظيم لنفسه هو؛ لأنه يقسم بما خلق.

٣- إثبات وجود الملائكة، وفضيلتهم، وعظيم منزلتهم عند الله تعالى، وجليل صفاتهم؛ حيث أقسم عز وجل بهم، وبصفاتهم.

٤- إثبات وتأكيد وحدانية الله تعالى في ألوهيته لجميع الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَٰحِدٌ ﴿٤﴾﴾.

٥- إثبات ربوبية الله تعالى العامة لجميع الخلق؛ خلقًا وملكًا وتدبيرًا: السموات والأرض، وما بينهما من المخلوقات، والمشارق والمغارب، وكل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ ٱلْمَشَٰرِقِ ﴿٥﴾﴾.

٦- الاستدلال بتوحيد الربوبية على توحيد الألوهية، وأن من لازم الإقرار بتوحيد الربوبية: الإقرار بتوحيد الألوهية؛ لقوله تعالى: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ ٱلْمَشَٰرِقِ ﴿٥﴾﴾.

٧- إبطال الشرك، وأنه لا إله للخلق كلهم إلا الله تعالى وحده.

٨- تزيين السماء الدنيا وتجميلها بالكواكب والنجوم للناظرين إليها من أهل الأرض؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ﴿٦﴾﴾.

٩- أن الله جميل يحب الجمال؛ لهذا زين السماء للناظرين إليها؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٦﴾﴾ [الحجر: ١٦].

١٠- حفظ السماء من مردة الشياطين، والحيلولة بينهم وبين استراق السمع، ورميهم بالشهب، وطردهم وإبعادهم، مع ما أُعد لهم من العذاب الدائم؛ لقوله تعالى: ﴿وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ﴿٧﴾ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ﴿٨﴾ دُحُورًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴿٩﴾﴾.

١١- تفضيل الملائكة؛ لأن الله سماهم: الملأ الأعلى، فهم الأعلى مكانًا؛ لأنهم في السماء، وهم الأعلى منزلة وشرفًا بعد الرسل والمؤمنين على الصحيح.

١٢- تعدد منافع الكواكب والنجوم؛ فهي زينة للسماء، ورجوم للشياطين؛ كما أنها علامات يهتدى بها؛ كما قال تعالى: ﴿وَعَلَٰمَٰتٍ ۚ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾﴾ [النحل: ١٦]، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۗ﴾ [الأنعام: ٩٧].

قال قتادة: «خلق الله هذه النجوم لثلاث: جعلها زينة للسماء، ورجومًا للشياطين،

وعلامات يهتدى بها»[١].

١٣- إتباع مسترقي السمع بالشهب الثاقبة، وإهلاكهم، وقلَّ من يخطف الكلمة منهم فينجو؛ لقوله تعالى: ﴿ إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴿١٠﴾ ﴾.

١٤- أمر الله عز وجل له ﷺ بسؤال المكذبين بالبعث؛ تحديًا لهم: أهم أشد خلقًا أم من خلق الله من جميع المخلوقات؟ لقوله تعالى: ﴿ فَٱسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَآ ﴾ الآية.

١٥- مشروعية مجادلة أهل الباطل؛ لإقامة الحجة عليهم، وبيان الحق، ودحض الباطل؛ لأن هذا منهج الرسول ﷺ، والرسل قبله، وأتباعهم.

١٦- تقرير وإثبات أن خلق السموات والأرض وما بينهما، أشد من خلق الناس، وإحيائهم بعد موتهم؛ لقوله تعالى: ﴿ فَٱسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَآ ﴾، أي: بل من خلقنا.

١٧- تمام قدرة الله تعالى؛ حيث ابتدأ خلق بني آدم من طين لازب، وهو أشد من إعادة خلقهم بعد موتهم؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ ﴾.

فإعادة خلقهم بعد موتهم أيسر؛ كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ [الروم: ٢٧].

١٨- جمع هؤلاء المكذبين بين التكذيب بالحق وإنكار البعث، والسخرية من ذلك وممن قال به، مما يثير العجب؛ لقوله تعالى: ﴿ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴿١٢﴾ ﴾.

١٩- إثبات العجب لله تعالى، وهذا على قراءة الضم: «بَلْ عَجِبْتُ».

٢٠- شدة عتوهم، وعدم ذكرهم لما يُذكَّرون به، ويُفَطَّنون له، وعدم اتعاظهم وانتفاعهم بذلك؛ لقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا ذُكِّرُوا۟ لَا يَذْكُرُونَ ﴿١٣﴾ ﴾.

٢١- سخريتهم بما يرون من الآيات الدالة على كمال قدرة الله تعالى على بعثهم بعد موتهم؛ وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا رَأَوْا۟ ءَايَةً يَسْتَسْخِرُونَ ﴿١٤﴾ ﴾.

(١) أخرجه البخاري معلقًا في بدء الخلق، وانظر: «تيسير العزيز الحميد»، ص٤٤٢.

٢٢- جرأة المكذبين على وصف الآيات وما جاءهم من الحق، بأقبح الأوصاف كالسحر ونحو ذلك، ذلك تنفيرًا منه؛ لقولهم: ﴿إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾.

٢٣- استبعادهم، بل إنكارهم، للبعث بعد موتهم، وكونهم ترابًا وعظامًا، هم وآباؤهم الأولون؛ لقوله تعالى: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿١٦﴾ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ﴾.

٢٤- أن الأجداد يسمون آباءً؛ لقولهم: ﴿أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿١٧﴾﴾.

٢٥- إثبات بعثهم بعد موتهم صاغرين ذليلين، وكذا جميع الكفار؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَٰخِرُونَ ﴿١٨﴾﴾.

٢٦- قدرة الله تعالى التامة، فبزجرة واحدة دون تكرار، يخرج الناس كلهم سراعًا من قبورهم، فإذا هم قيام ينظرون؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ ﴿١٩﴾﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَقَالُواْ يَٰوَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿٢٠﴾ هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢١﴾ ۞ ٱحْشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُواْ يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴿٢٤﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾ بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴿٢٦﴾ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٧﴾ قَالُوٓاْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٨﴾ قَالُواْ بَل لَّمْ تَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٩﴾ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ ﴿٣٠﴾ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآ إِنَّا لَذَآئِقُونَ ﴿٣١﴾ فَأَغْوَيْنَٰكُمْ إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ ﴿٣٢﴾ فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ يَٰوَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿٢٠﴾ هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢١﴾ ۞ ٱحْشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُواْ يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴿٢٤﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾ بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴿٢٦﴾﴾:

قوله: ﴿وَقَالُواْ يَٰوَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿٢٠﴾﴾، أي: قال المشركون المكذبون بالبعث والحساب والجزاء على الأعمال- بعد بعثهم من قبورهم، ومشاهدتهم أهوال القيامة- تحسرًا وندمًا:

﴿يَٰوَيْلَنَا﴾: دعاء بالويل. و«الويل»: شدة التحسر والعذاب، أي: يا حسرتنا، ويا عذابنا وهلاكنا.

فهذا دعاء بالويل والثبور والهلاك؛ كما قال تعالى: ﴿لَّا تَدْعُواْ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا وَٱدْعُواْ ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٤﴾﴾ [الفرقان: ١٤].

وعبَّر بالماضي في قوله: ﴿وَقَالُواْ﴾ مع أنه لم يأت بعد؛ لتحقق وقوعه.

﴿هَٰذَا يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾، أي: هذا يوم الحساب والجزاء على الأعمال، وهذا إقرار منهم، واعتراف بهذا اليوم، ورجوع على أنفسهم بالملامة والندم، حين لا ينفعهم ذلك؛ ولهذا تقول لهم الملائكة:

﴿هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ﴾، أي: هذا يوم الفصل بين الخلائق فيما بينهم من حقوق، وبمجازاة كل منهم بعمله، وانقسامهم إلى فريقين: فريق في الجنة، وفريق في السعير.

﴿ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾، أي: الذي كنتم في الدنيا به تكذبون، وتنكرونه، وهذا لزيادة حسرتهم، ولومهم وتوبيخهم.

ويحتمل أن يكون قوله: ﴿هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ من كلام المنكرين

للبعث بعضهم لبعض.

﴿۞ٱحۡشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾، أي: ويقال للملائكة: ﴿۞ٱحۡشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾.

أي: اجمعوا الذين ظلموا بالشرك والكفر والتكذيب بالبعث، وظلم العباد؛ إهانة لهم، ﴿وَأَزۡوَٰجَهُمۡ﴾، أي: قرناءَهم ونظراءَهم، وأشكالهم وأمثالهم وأشباههم، فيقرن الرجل السوء مع الرجل السوء؛ كما يقرن الرجل الصالح مع الرجل الصالح؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتۡ ٧﴾ [التكوير: ٧].

﴿وَمَا كَانُواْ يَعۡبُدُونَ﴾ «ما»: موصولة، أي: احشروا الذين ظلموا وأزواجهم والذي كانوا يعبدونه.

﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾، أي: غير الله، من الأصنام والأوثان؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّكُمۡ وَمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمۡ لَهَا وَٰرِدُونَ ٩٨ لَوۡ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةٗ مَّا وَرَدُوهَاۖ وَكُلّٞ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٩٩﴾ [الأنبياء: ٩٨- ٩٩].

﴿فَٱهۡدُوهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡجَحِيمِ﴾، أي: فدلوهم وسوقوهم سوقًا عنيفًا شديدًا إلى طريق الجحيم؛ كما قال تعالى: ﴿وَنَسُوقُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرۡدٗا ٨٦﴾ [مريم: ٨٦].

وقال تعالى: ﴿وَنَحۡشُرُهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ عُمۡيٗا وَبُكۡمٗا وَصُمّٗاۖ مَّأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ كُلَّمَا خَبَتۡ زِدۡنَٰهُمۡ سَعِيرٗا﴾ [الإسراء: ٩٧].

﴿وَقِفُوهُمۡۖ إِنَّهُم مَّسۡـُٔولُونَ ٢٤﴾، أي: أوقفوهم إهانة لهم، واحبسوهم للحساب عند الصراط، قبل إدخالهم النار.

﴿إِنَّهُم مَّسۡـُٔولُونَ﴾، أي: عن أعمالهم وأقوالهم، وما كانوا يفترونه في الدنيا، ومحاسبون؛ ليظهر على رؤوس الأشهاد كذبهم وفضيحتهم، وأن الله لم يظلمهم، ويجازون وفاقًا لأعمالهم.

﴿مَا لَكُمۡ لَا تَنَاصَرُونَ ٢٥﴾ قرأ البزي عن ابن كثير وأبو جعفر بتشديد النون: «لَا تَنَّاصَرُونَ»؛ وقرأ الباقون بتخفيفها: ﴿لَا تَنَاصَرُونَ﴾.

والاستفهام للتوبيخ والتهكم والتعجيز والإهانة، أي: ما الذي جرى لكم لا تناصرون، ولم لا ينصر بعضكم بعضًا؛ كما كنتم تقولون: ﴿نَحۡنُ جَمِيعٞ مُّنتَصِرٞ﴾ [القمر: ٤٤]؟

ولم لا تنتصرون لمعبوداتكم؟

﴿بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ٢٦﴾ «بل»: للإضراب الانتقالي، أي: بل هم اليوم أذلاء منقادون لحكم الله وجزائه.

قوله تعالى: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ٢٧ قَالُوٓاْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ ٢٨ قَالُواْ بَل لَّمْ تَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ٢٩ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ ٣٠ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآ إِنَّا لَذَآئِقُونَ ٣١ فَأَغْوَيْنَٰكُمْ إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ ٣٢ فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ٣٣ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ٣٤﴾:

قوله: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ٢٧﴾، أي: وأقبل بعض الكفار والمكذبين على بعض يتساءلون، أي: يسأل بعضهم بعضًا على وجه التلاوم والتخاصم والتوبيخ والإنكار؛ كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ٢٥﴾ [العنكبوت: ٢٥].

﴿قَالُوٓاْ﴾، أي: قال الأتباع للمتبوعين: ﴿إِنَّكُمْ كُنتُمْ﴾، أي: في الدنيا.

﴿تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ﴾، أي: من الجهة التي نأمنكم منها، بإقسامكم لنا أنكم على الحق، أو: بوعدكم لنا بالخير والعز والكرامة في اتباعكم، أو بالقوة والغلبة؛ لقوتكم وضعفنا، أو بذلك كله، أي: حتى أضللتمونا عن الحق.

﴿قَالُواْ﴾، أي: قال المتبوعون: ﴿بَل لَّمْ تَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ﴾ ﴿بَل﴾ في الموضعين للإضراب الإبطالي، أي: قال المتبوعون للأتباع: ليس الأمر كما تزعمون، فلم نكن نأتيكم عن اليمين، فأضللناكم، بل لم تكونوا مؤمنين في الأصل، فكيف تزعمون أننا أضللناكم؟

فتبرأ المتبوعون من الأتباع، وجعلوا اللوم على الأتباع أنفسهم؛ كما قال الشيطان: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُم﴾ [إبراهيم: ٢٢]، وقال تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ١٦٦﴾ [البقرة: ١٦٦].

﴿وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ﴾ الواو: حالية، أي: والحال أنه ما كان لنا عليكم من

سلطان، و«من»: زائدة في سياق النفي، فتعم، أي: وما كان لنا عليكم أيُّ سلطان، أي: أيّ حجة وبرهان، وأيّ تسلط وقهر لكم على اختيار الكفر؛ كما قال الشيطان: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ﴾ [إبراهيم: ٢٢].

﴿بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ﴾، أي: متجاوزين الحد والحق في الكفر والضلال؛ ولهذا اخترتم الكفر واتبعتمونا، فلا تلومونا ولوموا أنفسكم؛ كما قال الشيطان: ﴿فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُم﴾ [إبراهيم: ٢٢].

﴿فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآ﴾، أي: فوجب وتحقق علينا جميعًا- نحن وإياكم- قول ربنا الكوني، وحكمه القدري: ﴿إِنَّا لَذَآئِقُونَ﴾ العذاب جميعًا؛ كما قال تعالى لإبليس: ﴿لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأعراف: ١٨].

﴿فَأَغْوَيْنَٰكُمْ﴾، أي: فدعوناكم إلى الغواية والضلال، فأضللناكم.

﴿إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ﴾ الجملة تعليل لما قبلها، أي: فأغويناكم؛ لأنا كنا غاوين، أي: ضالين.

وهذا يدل على أن اللوم يقع على المتبوعين؛ لدعائهم إلى الضلال، ويقع على الأتباع؛ لاختيارهم بأنفسهم الضلال من غير إكراه.

كما يدل أيضًا على تحقق قول الله تعالى عليهم جميعًا بالكفر، والعذاب؛ ولهذا قال:

﴿فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ﴾، أي: فإنهم جميعًا يوم القيامة، الأتباع والمتبوعون.

﴿فِي ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾؛ لاشتراكهم في الضلال والكفر، وإن تفاوتت مقادير عذابهم حسب ضلالهم وكفرهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ﴾ [الأنعام: ١٣٢].

﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ﴾، أي: إنا كما جعلنا هؤلاء يشتركون في العذاب- الأتباع والمتبوعون- لإجرامهم، ﴿كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ﴾ غيرهم، بأن نجعلهم يشتركون جميعًا في العذاب.

وهذه الآيات كقوله تعالى في سورة غافر: ﴿وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِي ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ ﴿٤٨﴾﴾ [الآيتان: ٤٧، ٤٨].

وقوله تعالى في سورة سبأ: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم ۖ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الآيات: ٣١- ٣٣].

الفوائد والأحكام:

١- ندامة المشركين والمكذبين بالبعث، وحسرتهم، ورجوعهم بالملامة على أنفسهم، ودعاؤهم عليها بالويل والثبور، واعترافهم بيوم الدين، حين لا ينفعهم ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿٢٠﴾﴾.

٢- إثبات يوم القيامة، وما فيه من الحساب والجزاء، والفصل بين العباد، وتقريع وتوبيخ وتقرير الكفار المكذبين به في الدنيا؛ لقوله تعالى: ﴿هَٰذَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿٢٠﴾ هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢١﴾﴾.

٣- جمع الظالمين المكذبين ونظرائهم؛ تقريعًا وتوبيخًا لهم هم ومعبوداتهم، وسوقهم إلى النار، وإهانتهم وإذلالهم؛ لقوله تعالى: ﴿۞ ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾﴾ جزاء وفاقًا؛ لاختيارهم في الدنيا طريق الكفر.

٤- حبسهم عند الصراط دون جهنم؛ لإهانتهم، وسؤالهم عن أعمالهم، ومناقشتهم الحساب، وفضيحتهم على رؤوس الأشهاد، وأن الله لم يظلمهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَقِفُوهُمْ ۖ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴿٢٤﴾﴾.

٥- إثبات السؤال، ومناقشة الحساب؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ﴾.

٦- إظهار عجز الظالمين المكذبين عن التناصر فيما بينهم ذلك اليوم؛ إهانة وتوبيخًا لهم، وتهكمًا بهم؛ لقوله تعالى: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾﴾.

٧- استسلامهم في ذلك اليوم، وانقيادهم أذلاء لحكم الله وجزائه؛ لقوله تعالى: ﴿بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴿٢٦﴾﴾.

٨- إقبال بعضهم على بعض في التساؤل والتلاوم بينهم، وإلقاء الأتباع المسؤولية فيما وصلوا إليه على المتبوعين، وتبرؤ المتبوعين منهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (٢٧) قَالُوا إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ (٢٨) قَالُوا بَل لَّمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٢٩) وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ (٣٠)﴾.

٩- تنوع وتعدد أساليب دعاة الكفر والضلال؛ لترويج باطلهم؛ بين التغرير والخداع، والترغيب والترهيب، ونحو ذلك.

١٠- أن من لم يكن مؤمنًا إيمانًا راسخًا، فعليه خطر من التأثر بدعوات المضلين، فعلى المؤمن الاعتصام بالله، وسؤاله الثبات.

١١- أنه لا عذر لمن يختار طريق الضلال، بحجة أنه دُعي إليه، ما لم يُلزم بذلك أو يُكره عليه.

١٢- اشتراك الأتباع والمتبوعين في اللوم، فالأتباع لاختيارهم الضلال، والمتبوعون لدعوتهم إليه، وكونهم قدوة فيه.

١٣- نفوذ قول الله تعالى الكوني، وقضائه القدري فيهم جميعًا بالكفر والعذاب؛ لقولهم: ﴿فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ (٣١)﴾.

١٤- إثبات القدر، وأن الله قدر مقادير كل شيء، وأن كلًّا ميسر لما خلق وقدر له.

١٥- إثبات ربوبية الله تعالى العامة لجميع الخلائق؛ لقولهم: ﴿رَبِّنَا﴾.

١٦- اعتراف المتبوعين بأنهم ضالون، وأنهم دعوا هؤلاء الأتباع إلى ما هم عليه من الضلال، فأضلوهم؛ لقولهم: ﴿فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ (٣٢)﴾.

١٧- إثبات الأسباب؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ (٣٢)﴾، أي: بسبب أنا كنا غاوين.

١٨- اشتراكهم في العذاب يوم القيامة؛ لاشتراكهم بالضلال والكفر، ولكل منهم نصيبه من ذلك حسب ضلاله وكفره؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ (٣٣)﴾.

١٩- إهانة المتبوعين، وإذلالهم، في إشراكهم مع الأتباع في العذاب.

٢٠- التسجيل على هؤلاء الضلال بالإجرام، وأن عقبى المجرمين الاشتراك بالعذاب؛ لقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ﴾.

٢١- إثبات الفعل لله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ﴾.

٢٢- وجوب الحذر من قرناء السوء، ودعاة الضلال، ومن مصاحبة الأشرار، قبل أن يقول قائل: ﴿يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾﴾ [الفرقان: ٢٨- ٢٩].

* * *

قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ ﴿٣٦﴾ بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٧﴾ إِنَّكُمْ لَذَآئِقُواْ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤١﴾ فَوَٰكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ ﴿٤٢﴾ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٤٣﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٤﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿٤٥﴾ بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ ﴿٤٨﴾ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴿٤٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ ﴿٣٦﴾ بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٧﴾﴾:

قوله: ﴿إِنَّهُمْ﴾، أي: إن هؤلاء الغاوين المجرمين المكذبين.

﴿إِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾، أي: إذا قال لهم الرسول- أو أي قائل من المؤمنين- كلمةَ التوحيد: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾؛ «لا»: نافية للجنس، و«إلا»: أداة استثناء، أي: لا معبود بحق إلا الله تعالى.

﴿يَسْتَكْبِرُونَ﴾، أي: يستكبرون عن قول: «لا إله إلا الله»، وعن الإيمان بها، واعتقاد معناها، فيرون أنهم أكبر من أن يقال لهم: لا إله إلا الله، وأكبر من أن يقولوها.

عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فمن قال: لا إله إلا الله، فقد عصم مني ماله ونفسه، إلا بحقه، وحسابه على الله. وأنزل الله في كتابه وذكر قومًا استكبروا، فقال:** ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾﴾»(١).

وعنه رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، فإذا قالوا ذلك، عصموا مني دماءهم وأموالهم، إلا بحقها، وحسابهم على الله عز وجل**»(٢).

﴿وَيَقُولُونَ﴾ معارضة لذلك، وتكذيبًا به، وإنكارًا له:

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/ ٣٢١٠.

(٢) أخرجه البخاري في الجهاد والسير ٢٩٤٦، ومسلم في الإيمان ٢١، وأبو داود في الجهاد ٢٦٤٠، والنسائي في الجهاد ٣٠٩٠، والترمذي في الإيمان ٢٦٠٦، وابن ماجه في الفتن ٣٩٢٧.

﴿أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍۭ﴾ الاستفهام: للإنكار والنفي، واللام في قوله: ﴿لَتَارِكُوٓاْ﴾: للتوكيد، واللام في قوله: ﴿لِشَاعِرٍ﴾: للأجل والعلة، أي: لا يمكن أن نترك عبادة آلهتنا لأجل قول شاعر مجنون؛ يعنون: النبي ﷺ.

والشاعر: من يقول الشعر. والمجنون: من لا يعقل. وهذا كذب وتناقض منهم؛ لأن المجنون لا يقول الشعر، بل لا يقول كلامًا نثرًا منتظمًا، فكيف يقول شعرًا؟!

وقد قال الله عز وجل: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ﴾ [يس: ٦٩]، وقال تعالى: ﴿مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ۝٢﴾ [القلم: ٢]؛ ولهذا رد الله عليهم وأبطل قولهم، فقال:

﴿بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٣٧﴾ «بل»: للإضراب الإبطالي، والباء: للمصاحبة والملابسة.

أي: بل جاء ﷺ بالقول الحق؛ كما قال تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ﴾ [يس: ٦٩].

وبالشرع الحق العدل، والخبر الصدق؛ كما قال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ [الأنعام:١١٥]، وقال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ﴾ [المائدة:٤٨].

﴿وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾، أي: ظهر بمجيئه صدق الرسل فيما أخبروا وبشروا به من بعثته ﷺ؛ كما قال عيسى عليه السلام: ﴿وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ [الصف: ٦].

فكانت بعثته ﷺ مصداق ما أخبروا وبشروا به.

كما صدَّقَ المرسلين بأن دعا إلى ما دعوا إليه، وأخبر بما أخبروا به، وآمن برسالاتهم وشرعهم، وشهد بصدقهم؛ كما قال تعالى: ﴿مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ۚ﴾ [فصلت: ٤٣].

قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ لَذَآئِقُواْ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ ۝٣٨ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٣٩ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ۝٤٠ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ۝٤١ فَوَٰكِهُ ۖ وَهُم مُّكْرَمُونَ ۝٤٢ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ۝٤٣ عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ۝٤٤ يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍۭ ۝٤٥ بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ ۝٤٦ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ۝٤٧ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ ۝٤٨ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ۝٤٩﴾:

قوله: ﴿إِنَّكُمْ لَذَآئِقُوا۟ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ ﴿٣٨﴾﴾، فيه التفات من الغيبة إلى الخطاب؛ للزجر، والخطاب للمشركين المستكبرين، واللام في قوله: ﴿لَذَآئِقُوا۟﴾: للتوكيد، أي: لذائقو العذاب المؤلم الموجع؛ حسيًّا للأبدان، ومعنويًّا للقلوب في نار جهنم.

﴿وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٩﴾﴾ «إلا»: أداة حصر، و«ما»: مصدرية، أي: وما تجزون إلا عملكم. أو موصولة، أي: وما تجزون إلا الذي كنتم تعملونه.

والمعنى: وما تجزون إلا جزاء وعقوبة ما كنتم تعملون، فلم نظلمكم.

وفي قوله: ﴿وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٩﴾﴾ دون أن يقول: «جزاء ما كنتم تعملون»: دلالة على أن الجزاء من جنس العمل، وكما يدين المرء يدان، مع ما في ذلك من شدة التوبيخ لهم.

﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾﴾ قرأ ابن كثير، وابن عامر، وأبو عمرو، ويعقوب، بكسر اللام: «الْمُخْلِصِينَ»، أي: الذين أخلصوا لله تعالى العبادة والعمل.

وقرأ الباقون بفتح اللام: ﴿ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾﴾، أي: الذين أخلصهم الله، واختصهم برحمته.

«إلا»: أداة استثناء، و«عباد»: منصوب على الاستثناء المنقطع، أي: لكن ﴿عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ الذين أخلصوا في عبادة الله تعالى، فأخلصهم الله، واختصهم برحمته، أي: لكن عباد الله المخلصين لا يذوقون العذاب، ولا يناقشون الحساب، بل يُتجاوز عن سيئاتهم، ويجزون الحسنة بعشر أمثالها، إلى سبعمئة ضعف، إلى أضعاف كثيرة؛ كما قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٩﴾ فِى جَنَّٰتٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [المدثر: ٣٨- ٤٠]، أي: لكن أصحاب اليمين، في جنات يتساءلون.

ولهذا قال: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤١﴾﴾ الإشارة تعود إلى عباد الله المخلصين، وأشار إليهم بإشارة البعيد؛ رفعة لشأنهم.

﴿لَهُمْ رِزْقٌ﴾، أي: لهم خاصة رزق. ونُكِّر للتعظيم.

والرزق: العطاء، أي: لهم عطاء عظيم واسع.

﴿مَّعْلُومٌ﴾ قد بشروا به ووعدوا، وهو الجنة وما فيها من ألوان وأصناف النعيم،

التي لا يحيط بحقائقها، وكنهها، وكمّيّتها وكيفيّتها، ذلك إلا الله عز وجل؛ كما قال تعالى: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ [السجدة: ١٧].

وقال عز وجل في الحديث القدسي: «**أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر**»(١).

﴿فَوَٰكِهُ﴾: بدل من «رزق»، أو خبر لمبتدأ محذوف، تقديره: هو فواكه، والجملة نعت لـ«رزق»، أي: فواكه متنوعة من كل ما تتفكه فيه النفوس، وتلتذ به، وتشتهيه.

وهكذا كل طعام أهل الجنة، يأكلونه على سبيل التفكه والتلذذ والتنعم، لا لحفظ النفس والصحة؛ لأن الله قد ضمن ذلك لهم.

﴿وَهُم مُّكْرَمُونَ﴾ عند الله تعالى غاية الإكرام، في دار كرامته، يطوف عليهم الولدان والغلمان، ويُلقَّوْن فيها التحية والسلام من ربهم عز وجل، ومن الملائكة الكرام، ومن بعضهم لبعض، وأعلى ذلك وأجله: مناجاة الله عز وجل، والنظر إلى وجهه الكريم.

﴿فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٤٣﴾﴾ «جنات»: جمع جنة، و«جنات» مضاف، و«النعيم» مضاف إليه، من إضافة الشيء إلى نوعه، أي: نعيم القلب، ونعيم البدن.

﴿عَلَىٰ سُرُرٍ﴾، أي: جالسين متنعمين على سرر، وهي المجالس المرتفعة المزينة بأنواع الأكسية الفاخرة المزخرفة المجملة، قال تعالى: ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ﴾ [الواقعة:١٥]، أي: مصفوفة.

﴿مُّتَقَٰبِلِينَ﴾ بينهم بأبدانهم ووجوههم في غاية الأدب، قد صفت قلوبهم، وصدقت محبة بعضهم بعضًا، لا يستدبر أحدهم أخاه، ولا يوليه ظهره، ولا يدير له قفاه.

﴿يُطَافُ عَلَيْهِم﴾، أي: يطوف عليهم غلمان لهم، وولدان مخلدون؛ كما قال تعالى: ﴿ ۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ ﴿٢٤﴾﴾ [الطور: ٢٤]، وقال تعالى: ﴿ ۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴿١٩﴾﴾ [الإنسان: ١٩].

﴿بِكَأْسٍ﴾، أي: بكأس خمر ﴿مِّن مَّعِينٍ﴾، أي: من أنهار جارية لا تنضب، ولا تنقطع؛

---

(١) سبق تخريجه.

كما قال تعالى: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾﴾ [الواقعة: ١٧، ١٨]، وقال تعالى: ﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ [محمد: ١٥].

﴿بَيْضَآءَ﴾، أي: بيضاء اللون، لونها مشرقٌ بهيٌّ، من أحسن الألوان.

﴿لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ﴾، أي: لذيذة الطعم، يلتذ بها شاربها حال شربها، بخلاف خمر الدنيا؛ فهي كريهة عند الشرب.

﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ﴾، أي: لا يحصل بسببها وجع البطن أو الصداع، أو لا تغتال عقولهم وتذهب بها؛ كما قال قائلهم:

فما زالت الخمر تغتالنا وتذهب بالأول الأول(١)

﴿وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ﴾ قرأ حمزة والكسائي وخلف بكسر الزاي: «ينزِفون».

وقرأ الباقون بفتحها: ﴿يُنزَفُونَ﴾.

أي: لا تذهب عقولهم وتسكرهم، أو لا يحصل لهم بسببها وجع البطن، أو الصداع.

فميز الله خمر الجنة عن خمر الدنيا بكونها لا تنقطع أبدًا، وكونها لذيذة الطعم والرائحة، ونفى عنها ما يحصل بسبب شرب خمر الدنيا؛ من ذهاب العقل، والنزيف، والصداع، وألم البطن، وغير ذلك من المكروه والأذى.

﴿وَعِندَهُمْ﴾، أي: وعند أهل جنات النعيم، عباد الله المخلصين.

﴿قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾ الطرف: العَين، أي: قاصرات الأعين، أي: الأزواج اللاتي قد قصرن طرفهن على أزواجهن، فلا ينظرن إلى غيرهم؛ لعفتهن، ولجمال أزواجهن، وتمام قناعتهن بهم، فلا يطمحن إلى غيرهم؛ كما قصرن طرف أزواجهن عليهن، فلا ينظرون إلى غيرهن، ولا يعدلون بهن سواهن؛ لكمال جمالهن.

فهن وهم في غاية الجمال؛ جمال الأبدان وعفتها وطهارتها، وجمال النفوس والقلوب ومحبتها وصفائها وسلامتها.

﴿عِينٌ﴾ جمع: «عَيْناء»، أي: واسعات الأعين، حسانها، جميلات ملامح الحدق.

---

(١) انظر: «المخصص» ١٧/ ١٦؛ «لسان العرب» مادة (غول)؛ «المعجم المفصل في شواهد العربية» ٦/ ٥٦٥.

﴿كَأَنَّهُنَّ﴾، أي: كأنهن- لرقتهن وبياضهن، ونعومة ملمسهن، وصونهن عن المس ﴿بَيْضٌ مَّكْنُونٌ﴾، أي: كأنهن البياض الذي في البيض المكنون بقشره.

أي: أنهن أبكار لم يطمثهن أحد قبلهم؛ كما قال تعالى: ﴿فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ۝٥٦﴾ [الرحمن: ٥٦].

الفوائد والأحكام:

١- استكبار المشركين عن توحيد الله تعالى وشهادة أن لا إله إلا الله؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ۝٣٥﴾.

٢- إثبات وحدانية الله تعالى في إلهيته، وأنه لا معبود بحق سواه.

٣- ينبغي الحذر من الكبر؛ لأنه سبب لرد الحق، وعدم قبوله؛ كما قال ﷺ: «**الكبر بطر الحق، وغمط الناس**»[1]، أي: رد الحق، واحتقار الناس.

٤- تكذيب المشركين للنبي ﷺ، ورميهم له بالشعر والجنون، وتناقضهم، وتشبثهم بآلهتهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ ۝٣٦﴾.

٥- إبطال قولهم ونفيه، وإثبات أن ما جاء به ﷺ هو الحق؛ لقوله تعالى: ﴿بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ﴾.

٦- تصديقه ﷺ للمرسلين، بكونه مصداق ما أخبروا وبشروا به، وشهادته بصدق رسالاتهم وما جاؤوا به من الشرع؛ لقوله تعالى: ﴿وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾.

٧- تهديد المكذبين وتوعدهم بالعذاب المؤلم الشديد، حسيًّا ومعنويًّا؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ لَذَآئِقُواْ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ ۝٣٨﴾.

٨- أن الجزاء من جنس العمل، وكما يدين المرء يدان، وكل يجازى بعمله، بلا ظلم؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٣٩﴾.

٩- إثبات البعث والجزاء، والترغيب في إحسان العمل، والترهيب من إساءة العمل؛ لأن كلًّا سيجازى بما عمل.

---

(١) سبق تخريجه.

١٠- في نسبة العمل إلى المذكورين الرد على الجبرية، الذين يقولون: إن عمل الإنسان لا ينسب إليه؛ لأنه مجبور عليه.

١١- إثبات عبودية المؤمنين لله تعالى عبودية خاصة؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾﴾ وفي هذا تكريم وتشريف لهم؛ لوصفهم بالعبودية له عز وجل، وقد أحسن القائل:

وممــــا زادني شرفًـــا وفخـــرًا وكـــدت بأخمصـــي أطـــأ الثريَّـــا

دخـولي تحـت قولـك: «يـا عبـادي» وأن صـــيرت أحمـــد لي نبيًّـــا[1]

١٢- وعد الله تعالى لعباده المخلصين- الذين أخلصوا له العبادة، وأخلصهم واختصهم برحمته- بالنجاة من العذاب، وبما لهم من الرزق المعلوم، والفواكه والكرامة، ونعيم البدن والقلب، والراحة في جنات النعيم؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤١﴾ فَوَٰكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ ﴿٤٢﴾ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٤٣﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٤﴾﴾ الآيات.

١٣- إعلاء شأن عباد الله المخلصين، ورفعتهم، والتنويه بهم، بالإشارة إليهم بإشارة البعيد، والتنويه بعظم ما أعد لهم من النعيم؛ لقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤١﴾﴾ الآيات.

١٤- سلامة صدور أهل الجنة، وصفاء نفوسهم، ومحبة بعضهم لبعض، وأدبهم فيما بينهم، وجلوسهم متقابلين بوجوههم وقلوبهم؛ لقوله تعالى: ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٤﴾﴾ وهذا من أعظم نعيمهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الحجر: ٤٧].

١٥- أن من نعيم أهل الجنة: أنه يطاف عليهم بكأس الخمر التي لا ينضب معينها، في غاية البياض والصفاء، واللذة حال شربها، مع خلوها من جميع منغصات خمر الدنيا ومكدراتها: من ذهاب العقول، والنزيف، والصداع، وألم البطن وغير ذلك؛ لقوله

(١) هذان البيتان للقاضي عياض. انظر: «غذاء الألباب» ٢/ ٣٧٢؛«المفاخرة بين الماء والهواء» ص٤٦.

تعالى: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿٤٥﴾ بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾﴾.

١٥- تمتعهم وتلذذهم بالأزواج من الحور العين والنساء، اللاتي قصرن طرفهن على أزواجهن؛ لعفتهن، وقصرن طرفهم عليهن؛ لجمالهن، واسعات الأعين حسانها؛ لقوله تعالى: ﴿وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ ﴿٤٨﴾﴾.

١٦- أن نساء أهل الجنة كلهن أبكار مصونات كالبيض المكنون؛ كرامة لهم لم يطمثهن قبلهم إنس ولا جان؛ لقوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴿٤٩﴾﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (٥٠) قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ (٥١) يَقُولُ أَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ (٥٢) أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَدِينُونَ (٥٣) قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ (٥٤) فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ (٥٥) قَالَ تَاللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ (٥٦) وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ (٥٧) أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ (٥٨) إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (٥٩) إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٦٠) لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ (٦١)﴾.

قوله تعالى: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (٥٠) قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ (٥١) يَقُولُ أَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ (٥٢) أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَدِينُونَ (٥٣)﴾:

لما ذكر ما أعده لعباده المخلصين من ألوان النعيم؛ من المآكل، والمشارب، والأزواج، والجلوس على السرر متقابلين، ذكر تبادلهم الأحاديث والأسئلة فيما بينهم، وهذا من تمام نعيمهم ولذتهم وسرورهم.

قوله: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (٥٠)﴾، أي: فأقبل بعض أهل الجنة على بعض، يسأل بعضهم بعضًا عن أحوال كانت في الدنيا؛ تحدُّثًا بنعمة الله عليهم بهدايته إياهم صراطه المستقيم، وإدخالهم جنات النعيم.

﴿قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ (٥١)﴾، أي: كان لي في الدنيا قرين ملازم، ينكر البعث، ويدعوني إلى إنكاره.

وهذا القرين قد يكون من الجن، وقد يكون من الإنس؛ كما قال تعالى: ﴿شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: ١١٢]، وقال تعالى: ﴿مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ (٤) الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ (٥) مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ (٦)﴾ [الناس: ٤- ٦]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ (٣٦)﴾ [الزخرف: ٣٦].

﴿يَقُولُ﴾، أي: يقول هذا القرين- منكرًا عليَّ التصديق بالبعث، ولائمًا لي على ذلك ومتعجبًا-:

﴿أَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ (٥٢)﴾ الاستفهام للإنكار والتعجب، والتوبيخ واللوم، واللام: للتوكيد، أي: كيف تصدق بالبعث والنشور والحساب؟ أي: لا تصدق بذلك. ولهذا قال:

﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا﴾ قرأ ابن عامر بهمزة واحدة: «إِذَا مِتْنَا»، وقرأ الباقون بزيادة همزة الاستفهام: ﴿أَءِذَا مِتْنَا﴾.

أي: أإذا متنا وصارت أجسادنا ترابًا وعظامًا نخرة بالية.

﴿أَءِنَّا لَمَدِينُونَ﴾ قرأ نافع بهمزة واحدة: «إِنَّا لَمَدِينُونَ»؛ وقرأ الباقون بزيادة همزة الاستفهام: ﴿أَءِنَّا لَمَدِينُونَ﴾ والاستفهام: للإنكار، واللام: للتوكيد، أي: لمحاسبون ومجزيون بأعمالنا، أي: هذا أمر في غاية البعد والغرابة، والاستحالة والنكارة.

وهذا مما يوجب الحذر من قرين السوء؛ فإن صحبته شر ووبال، قبل أن يقول قائل: ﴿يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِي ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾﴾ [الفرقان: ٢٨- ٢٩].

قال ﷺ: **«مثل الجليس الصالح والجليس السوء؛ كحامل المسك ونافخ الكير، فحامل المسك إما أن يحذيك، وإما أن تبتاع منه، وإما أن تجد منه ريحًا طيبة، ونافخ الكير إما أن يحرق ثيابك، وإما أن تجد منه ريحًا خبيثة»**[1].

وقد قيل:

إذا ما صحبت القوم فاصحب ... ولا تصحب الأردا فتردى مع الردي

عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه ... فكل قرين بالمقارن يقتدي[2]

وقال الآخر:

عدوى البليد إلى الجليد سريعة ... والجمر يوضع في الرماد فيخمد[3]

قوله تعالى: ﴿قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾ فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِي سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْتَتَنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٥٩﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٠﴾ لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ ﴿٦١﴾﴾:

---

(١) أخرجه البخاري في الذبائح والصيد ٥٥٣٤، ومسلم في البر والصلة والآداب ٢٦٢٨؛ من حديث أبي موسى رضي الله عنه.

(٢) البيتان لعدي بن زيد. انظر: «بهجة المجالس» ص١٥١.

(٣) البيت لأبي بكر الخوارزمي. انظر: «روضة الأخيار» ص٣٨٨.

قوله: ﴿قَالَ﴾، أي: قال هذا المؤمن الذي يتساءل مع إخوانه في الجنة، بعد أن ذكر لهم خبر قرينه الذي كان ينكر عليه التصديق بالبعث:

﴿هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ﴾، أي: هل أنتم مشرفون في النار؟ لننظر منزلة قريني هذا، وما صار إليه. والاستفهام للعرض، أي: للعرض عليهم؛ ليتبين قدر نعمة الله تعالى عليهم بهدايتهم في الدنيا إلى الصراط المستقيم، وفي الآخرة إلى جنات النعيم، بخلاف هذا القرين المكذب، الذي اختار في الدنيا طريق الضلال، فهدي في الآخرة إلى سواء الجحيم؛ فيزداد شكرهم لله تعالى على توفيقه لهم، وبضدها تتميز الأشياء.

﴿فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾﴾، أي: فاطلع هذا المؤمن فرأى قرينه في وسط الجحيم، في غمرات النار والعذاب.

﴿قَالَ﴾، أي: قال المؤمن مخاطبًا قرينه، مقرعًا له وموبخًا، ومتحدثًا بنعمة الله عليه: ﴿تَاللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ﴾.

التاء: للقسم، أي: تالله إن قاربت لتردين، أي: لتهلكني بضلالك وإغوائك لو أطعتك.

﴿وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي﴾ بالإيمان، ﴿لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾ اللام: واقعة في جواب «لولا»، أي: لكنت من المحضرين معك في النار والعذاب؛ كما قال المؤمنون: ﴿وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ﴾ [الأعراف: ٤٣].

﴿أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾﴾ الاستفهام للتقرير، وفيه معنى الفرح والسرور والاغتباط بانتفاء الموت عنهم.

﴿إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَى﴾ «إلا»: أداة استثناء، بمعنى: «لكن»، أي: لكن موتتنا الأولى، وقد متناها، وبعثنا بعدها؛ لننعم بدار الخلد.

﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾؛ لأن الله نجانا من العذاب. وهذا يقوله المؤمن ابتهاجًا بما أعطاه الله لأهل الجنة من الخلود فيها، والسلامة من العذاب؛ كما قال تعالى: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَىٰ وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿٥٦﴾﴾ [الدخان: ٥٦]، فانتفاء الموت يستلزم التأبيد، وانتفاء العذاب يستلزم التنعيم؛ ولهذا قال:

﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡفَوۡزُ﴾ الإشارة تعود إلى ما ذكر في الآيات السابقة مما أعد لعباد الله المخلصين من الجنة وما فيها من النعيم الحسي والمعنوي، مع الخلود الأبدي والنجاة من العذاب، واللام: للتوكيد، والفوز: الظفر بالمطلوب، والنجاة من المرهوب، الفوز بالجنة، والنجاة من النار.

﴿ٱلۡعَظِيمُ﴾ كمية وكيفية ونوعية، ومن كل وجه، الذي لا يقدر قدر عظمته إلا الذي منحه لعباده المخلصين، ووصفه بالعظيم، وهو الرب العظيم سبحانه وتعالى.

﴿لِمِثۡلِ هَٰذَا﴾، أي: لمثل هذا الفوز العظيم.

﴿فَلۡيَعۡمَلِ ٱلۡعَٰمِلُونَ﴾ الفاء: رابطة لجواب شرط مقدر، أي: من أراد الفوز بالآخرة فليعمل له مثل ذلك في الدنيا؛ ليصيروا إليه في الآخرة؛ كما قال تعالى: ﴿خِتَٰمُهُۥ مِسۡكٞۚ وَفِي ذَٰلِكَ فَلۡيَتَنَافَسِ ٱلۡمُتَنَٰفِسُونَ ٢٦﴾ [المطففين: ٢٦].

الفوائد والأحكام:

١- كمال أدب أهل الجنة، وإقبال بعضهم على بعض عند التساؤل والمحادثة؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَقۡبَلَ بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ يَتَسَآءَلُونَ ٢٧﴾.

ويؤخذ من مفهوم هذا: أن من سوء الأدب أن يحدث المرء أخاه وهو صاد عنه، أو متغافل، أو مدير له ظهره.

٢- تمام سرورهم، وإقبال بعضهم على بعض، والتحدث فيما بينهم، وسؤال بعضهم بعضًا عن أحوال كانت في الدنيا، تحدثًا بنعمة الله تعالى عليهم، أن وفقهم في الدنيا إلى سلوك صراطه الذي أدخلهم بسببه جنته؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَقۡبَلَ بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ يَتَسَآءَلُونَ ٢٧﴾ الآيات.

٣- أن في الكلام عن الذكريات وما جرى للإنسان فيما مضى، لذة ومتعة وراحة للنفس، مثل: كلام الإنسان عن صباه، أو عن مواقف مرت عليه، ونحو ذلك.

٤- الاغتباط بنعمة الله تعالى وشكره في التخليص من الشر؛ لذكر هذا القائل نعمة الله تعالى عليه في تخليصه من شر قرين له منكر للبعث، ويدعوه إلى إنكاره، وينكر عليه التصديق به؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ قَآئِلٞ مِّنۡهُمۡ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٞ ٥١ يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلۡمُصَدِّقِينَ﴾.

٥- اجتهاد دعاة الكفر وأئمة الضلال في التشكيك بالحق، بإيراد الشبه، والتلبيس على الناس؛ لقول هذا القرين: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ۝٥٣﴾، أي: كيف تصدق بهذا؟ أو لا تصدق بهذا.

٦- إثبات البعث والحساب، والجزاء على الأعمال.

٧- وجوب الحذر كل الحذر من قرين السوء؛ فإنه لا يفتأ يدعو قرينه إلى ما هو عليه من الضلال والشر.

٨- جواز غيبة الداعي إلى الضلال في الدنيا، إذا كان ذلك للتحذير من شره.

٩- أن الأشياء تتميز بضدها، ويُعرف قدر النعمة بالتأمل في حال من فقدها؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ۝٥٤﴾، أي: لنرى حال قريني في النار.

١٠- اطلاع هذا القائل ورؤيته قرينه في النار، ومخاطبته إياه؛ مقرعًا وموبخًا له، ومذكرًا بفضل الله تعالى ونعمته عليه أن أعاذه من شره، وأنعم عليه بالهداية، والنجاة من النار والعذاب؛ لقوله تعالى: ﴿فَاطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِي سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ۝٥٥ قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ۝٥٦ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ۝٥٧﴾.

١١- التحدث والاعتراف بنعمة الهداية وغيرها من نعم الله تعالى، وشكر الله تعالى عليها.

١٢- أن الردى والهلاك الحقيقي هو الهلاك في الدين، وهو الخسران المبين؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ۝٥٦﴾.

وقد أحسن القائل:

وكل كسر فإن الله جابره ... وما لكسر قناة الدين جبران[1]

١٣- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة لأوليائه؛ لقوله: ﴿نِعْمَةُ رَبِّي﴾.

١٤- تقرير وإثبات أن أهل الجنة لا يموتون، بل مخلدون أبدًا، واغتباطهم بذلك وسرورهم؛ لقوله تعالى: ﴿أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ۝٥٨ إِلَّا مَوْتَتَنَا ٱلْأُولَىٰ﴾.

١٥- أن من دخل الجنة فقد اقتحم العقبة، ونجا من العذاب؛ لقوله: ﴿وَمَا نَحْنُ

---

(١) البيت لأبي البقاء الرندي. انظر: «مجاني الأدب في حدائق العرب» ٤/ ٩٧.

بِمُعَذَّبِينَ﴾.

١٦- كمال نعيم أهل الجنة بانتفاء الموت عنهم، وانتفاء العذاب.

١٧- أن الفوز العظيم حقًّا هو الفوز بدخول جنات النعيم؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٠﴾﴾ كما قال تعالى: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

ولا يقدر قدر هذا الفوز إلا من وصفه بأنه عظيم، وهو الرب العظيم سبحانه وتعالى.

١٨- أن هذا الفوز العظيم بجنات النعيم، هو الذي ينبغي أن يعمل له العاملون، ويجدّ في طلبه المشمرون؛ لأنه غاية المطالب وأعلاها وأبقاها؛ لقوله تعالى: ﴿لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ ﴿٦١﴾﴾.

مع أخذ الإنسان نصيبه من الدنيا، وجعلها مطية لهذا الفوز العظيم.

١٩- سفه من جعل همه الدنيا- كما هو حال كثير من الناس- فأفنى عمره وحياته في طلبها، وجعل عمله وجهده في جمع حطامها، وغفل عن طلب هذا الفوز العظيم في الآخرة.

٢٠- إثبات الاختيار للإنسان، وأنه ليس مجبورًا على أفعاله؛ لقوله تعالى: ﴿فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ﴾، وفي هذا رد على الجبرية.

* * *

قال الله تعالى: ﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ ﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾ إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ ﴿٦٩﴾ فَهُمْ عَلَىٰ آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٧١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ﴿٧٢﴾ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿٧٤﴾ وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿٧٨﴾ سَلَامٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ ﴿٧٩﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ ﴿٨٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ ﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾ إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ ﴿٦٩﴾ فَهُمْ عَلَىٰ آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴿٧٠﴾﴾:

قوله: ﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾﴾ الاستفهام: للتهكم، والإشارة إلى ما أعده الله لعباده المخلصين في الجنة من النعيم، والفوز العظيم.

«نزلًا»: تمييز، أي: ضيافة، والنزل: ما يعد للنازل والضيف من الكرامة؛ من الأكل والشرب، والمسكن والفراش، ونحو ذلك.

﴿أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ﴾ «أم»: حرف عطف معادل لهمزة الاستفهام، أي: أو شجرة الزقوم، وهي: شجرة خبيثة المنظر، مرة الطعم، كريهة الرائحة.

يتزقمونها تزقمًا، أي: يبتلعونها ابتلاعًا مكروهًا؛ لقبح منظرها، وكراهة رائحتها، ومرارة طعمها؛ وهي طعام أهل النار، تغلي في بطونهم كالحميم، ملعونة في القرآن؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ الْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْيِ الْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾﴾ [الدخان: ٤٣- ٤٦]، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾﴾ [الواقعة: ٥١- ٥٢]، وقال تعالى: ﴿وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ﴾ [الإسراء: ٦٠].

أي: أذلك النعيم الذي أعده الله لأهل الجنة خير نزلًا وضيافة، أم شجرة الزقوم التي أُعدت طعامًا وضيافة لأهل النار؟

أي: لا شك أن ذلك النعيم الذي أعده الله نزلًا لأهل الجنة هو الخير كل الخير، لا ما أُعد من شجرة الزقوم لأهل النار؛ فهو شر محض، وشتان ما بين الضيافتين.

شتان بين الحالتين فإن ترد جمعًا فما الضدان يجتمعان(١)

﴿إِنَّا جَعَلْنَـٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّـٰلِمِينَ ﴿٦٣﴾﴾، أي: ابتلاءً للظالمين بالشرك، واختبارًا لهم؛ لأنهم لو آمنوا لصدَّقوا، ولم يعترضوا، وسببًا لضلالهم؛ لأنهم جعلوا من ذلك مطعنًا فيما أخبر به الرسول ﷺ، فقالوا: كيف يزعم محمد أن الشجر ينبت في النار؟!

كما قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَـٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ﴾ [الإسراء: ٦٠]؛ كما أنها عذاب لهم ونكال، يأكلونها كالمهل تغلي في بطونهم.

﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾﴾، أي: أصل منبتها في قعر الجحيم وقرارها، منبتها شر المنابت، خلقت من النار، وغذيت النار.

ويحتمل: أنها شجرة واحدة كبيرة تملأ النار كلها بأغصانها، ويحتمل أن المراد بـ«شجرة»: الجنس والنوع، فهي كثيرة متعددة في النار.

﴿طَلْعُهَا﴾، أي: ثمرها وجناها، ﴿كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَـٰطِينِ﴾، أي: يشبه رؤوس الشياطين، وهذا تقبيح وتبشيع لطلعها؛ لأن رؤوس الشياطين ليست معروفة عند المخاطبين، وإنما استقر في النفوس قبح مناظرهم وأوصافهم.

﴿فَإِنَّهُمْ﴾، أي: الظالمون، ﴿لَـَٔاكِلُونَ مِنْهَا﴾ اللام: للتوكيد، أي: لآكلون من شجرة الزقوم مع قبحها وقبح طلعها؛ لشدة جوعهم، واضطرارهم وإجبارهم على الأكل منها من غير شهوة، ولا لذة؛ تعذيبًا لهم؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَـٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّـٰلِمِينَ ﴿٦٣﴾﴾ [الصافات: ٦٣].

﴿فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ﴾ الفاء: عاطفة، أي: فمالئون منها بطونهم؛ لكونهم لا يشبعون، ولاضطرارهم إلى ذلك، وإجبارهم عليه.

عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ تلا هذه الآية، وقال: «**اتقوا الله حق تقاته، فلو أن قطرة من الزقوم قطرت في بحار الدنيا، لأفسدت على أهل الدنيا**

---

(١) البيت لابن القيم. انظر: «النونية» ص١١.

معايشهم، فكيف بمن يكون طعامه؟!»[١].

﴿ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا﴾، أي: ثم إن لهم بعد أكلهم من شجرة الزقوم، وملء بطونهم منها، ﴿لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ﴾ الشوب: وهج النار، ﴿مِّنْ حَمِيمٍ﴾ من ماء حار بالغ غاية الحرارة، إذا قربوه من وجوههم ليشربوه شوى وجوههم، فتتساقط لحومهم من شدة حرارته، فإذا شربوه قطع أمعاءهم.

والشوب أيضًا: الخلط، أي: ثم إن لهم بعد أكلهم من هذه الشجرة الخبيثة وشدة عطشهم، ماء قد بلغ غاية الحرارة، يشربونه فيختلط بالمأكول منها، فيصير شوبًا له.

فالوهج يكون قبل الشرب وعنده، والشوب يكون بعد الشرب، قال تعالى: ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ﴾ [الكهف: ٢٩].

فيشربون من هذا الماء الذي قد بلغ غاية الحرارة شرب الإبل العطاش؛ لشدة عطشهم، وإجبارهم على ذلك، تعذيبًا لهم؛ كما قال تعالى: ﴿فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ ﴿٥٥﴾﴾ [الواقعة: ٥٤- ٥٥]، وقال تعالى: ﴿وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾ [محمد: ١٥].

﴿ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ﴾، أي: مردهم ومصيرهم ومآلهم.

﴿لَإِلَى الْجَحِيمِ﴾ اللام: للتوكيد، أي: لإلى النار المتوهجة المتأججة، المتوقدة المستعرة، لا يخرجون منها أبدًا؛ كما قال تعالى: ﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ ﴿٤٤﴾﴾ [الرحمن: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا﴾ [السجدة: ٢٠].

﴿إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ ﴿٦٩﴾﴾ تعليل لجعل شجرة الزقوم ابتلاءً للظالمين، وعذابًا لهم، بأكلهم منها، حتى ملء بطونهم، وإتباع ذلك بشوب من حميم.

أي: جازيناهم بذلك؛ لأنهم وجدوا آباءهم وأجدادهم ضالين، أي: تائهين عن الحق، وعلى غير هدى.

﴿فَهُمْ عَلَىٰ آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴿٧٠﴾﴾، أي: فهم على مسالكهم وطرقهم في الضلال،

---

(١) أخرجه الترمذي في صفة جهنم، ما جاء في شراب أهل النار ٢٥٨٥، وابن ماجه في الزهد، صفة النار ٤٣٢٥، وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح».

يسرعون في تقليدهم ومتابعتهم، من غير دليل ولا برهان؛ كما قال تعالى: ﴿ بَلْ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الزخرف: ٢٢- ٢٣].

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٧١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ﴿٧٢﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٧٤﴾﴾:

قوله: ﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ﴾ الواو: استئنافية، واللام: لام القسم لقسم مقدر.

أي: والله لقد ضل قبل هؤلاء الضالين من قومك يا محمد، الذين اتبعوا آباءهم في الضلال.

﴿أَكْثَرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾، أي: أكثر الأمم الماضية، ولم يهتد منهم إلا القليل، فليس قومك يا محمد بدعًا في الضلال. وفي هذا تسلية له ﷺ.

وقد عرضت عليه ﷺ الأمم، فرأى النبي ومعه الرهط، والنبي ومعه الرجل والرجلان، والنبي وليس معه أحد[(١)].

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم﴾، أي: ولقد أرسلنا في تلك الأمم الماضية ﴿مُّنذِرِينَ﴾، أي: رسلًا يحذرونهم من الضلال، ويخوفونهم من عذاب الله تعالى وحرمان ثوابه؛ كما قال تعالى: ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ﴾ [النساء: ١٦٥]، فما نجع ذلك فيهم. ولم يذكر البشارة هنا؛ لأن المقام مقام تهديد؛ ولهذا قال:

﴿ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾﴾ الخطاب للرسول ﷺ، ولكل من يصح خطابه.

أي: فانظر وتأمل ببصرك وبصيرتك كيف كانت عاقبة المنذرين، الذين أنذروا وحذروا عذاب الله، ولم ينجع ذلك فيهم، فلم يحذروا ولم يخافوا، أي: كيف كان عاقبتهم ونهايتهم المؤلمة، وما حل بهم من العذاب والهلاك، والخزي والفضيحة؟

ولم يقل: انظر ماذا كان عاقبة المنذرين؟ بل قال: ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ﴾، أي: انظر إلى

(١) أخرجه البخاري في الطب ٥٧٥٢، ومسلم في الإيمان ٢٢٠، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

كيفية عاقبتهم، وشدة عقابهم، وبماذا كان، ومناسبته لذنبهم؛ كما قال تعالى: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ﴾ [العنكبوت: ٤٠].

ومن نظر إلى الكيفية نظر إلى الغاية، وفي هذا تحذير وتهديد للمكذبين له ﷺ مما حل بالمكذبين قبلهم.

﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٧٤﴾﴾ «إلا»: أداة استثناء، و«عباد»: منصوب على الاستثناء المنقطع، أي: لكن عباد الله المخلصين، الذين أخلصوا العبادة لله تعالى، وأخلصهم عز وجل لنفسه، واصطفاهم، واختصهم برحمته، أي: فلهم العاقبة الحسنى.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٧٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٩﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٨٢﴾﴾:

لما ذكر ضلال أكثر الأولين، وسوء عاقبة المكذبين، وإهلاكهم، إلا من أنجى الله من المؤمنين، شرع في تفصيل ما وقع لبعض الأمم، وبدأ بنوح عليه السلام؛ لبيان أن الضلال بدأ منذ أول رسول أرسله الله تعالى إلى أهل الأرض.

قوله: ﴿وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ﴾، أي: نادانا ودعانا نوح عليه السلام، بعد أن لبث في قومه ألف سنة إلا خمسين عامًا يدعوهم إلى الله، واشتد عليه تكذيبهم، وأيس منهم، وأعلمه الله أنه لن يؤمن منهم إلا من قد آمن، نادى ودعا ربه: ﴿أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ﴾ [القمر: ١٠]، ﴿رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ﴾ [المؤمنون: ٢٦]، ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح: ٢٦].

﴿فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ﴾ الفاء: عاطفة، واللام: لام القسم للقسم المقدر في قوله: ﴿وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ﴾.

أي: فلنعم المجيبون نحن له ولدعاء الداعين، إذا اقتضت الحكمة ذلك، بوجود الشروط، وانتفاء الموانع؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾﴾ [البقرة: ١٨٦]، وقال تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾ [النمل: ٦٢].

﴿وَنَجَّيۡنَـٰهُ﴾ في السفينة، ﴿وَأَهۡلَهُۥ﴾ خاصة، وكذا من آمن معه، وهم قليل.

كما قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلۡنَا ٱحۡمِلۡ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَأَهۡلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ وَمَنۡ ءَامَنَۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٞ ﴿٤٠﴾﴾ [هود: ٤٠].

﴿مِنَ ٱلۡكَرۡبِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ «الكرب»: الشدة والضيق، ضد السعة.

والمراد بـ﴿ٱلۡكَرۡبِ ٱلۡعَظِيمِ﴾: كرب الموت بالغرق بالطوفان، ولا شيء في الدنيا أعظم من كرب الموت، ومن أشد ذلك وأعظمه: الموت بالغرق؛ لأن الغريق يؤمل النجاة، ويحاول بكل قواه أن ينجو، ويدافع الموت وكأنه ينظر إليه، ولهذا صار كربه عظيمًا، ومثله الحريق، ونحوه.

واستثنى الله عز وجل من أهل نوح ابنه وامرأته، فكانوا في عداد المغرقين الهالكين؛ كما قال تعالى: ﴿فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبۡنِي مِنۡ أَهۡلِي وَإِنَّ وَعۡدَكَ ٱلۡحَقُّ وَأَنتَ أَحۡكَمُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖۖ﴾ [هود: ٤٥-٤٦].

وقال في الآية الأخرى: ﴿وَحَالَ بَيۡنَهُمَا ٱلۡمَوۡجُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡمُغۡرَقِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [هود: ٤٣].

وقال تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱمۡرَأَتَ نُوحٖ وَٱمۡرَأَتَ لُوطٖۖ كَانَتَا تَحۡتَ عَبۡدَيۡنِ مِنۡ عِبَادِنَا صَٰلِحَيۡنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمۡ يُغۡنِيَا عَنۡهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗا وَقِيلَ ٱدۡخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾﴾ [التحريم: ١٠].

﴿وَجَعَلۡنَا ذُرِّيَّتَهُۥ﴾، أي: وصيرنا ذريته، أي: نسله.

﴿هُمُ ٱلۡبَاقِينَ﴾ «هم»: ضمير فصل، يفيد التوكيد والحصر، أي: هم الباقين وحدهم، حيث هلك كل من على وجه الأرض بالطوفان، فلم يبق بعد ذلك إلا ذرية نوح الذين حملهم معه في السفينة، ثم تناسل الناس منهم بعد ذلك. قيل: من أولاد نوح الثلاثة: سام، وحام، ويافث.

عن سمرة؛ أن النبي ﷺ، قال: «**سام: أبو العرب، وحام: أبو الحبش، ويافث: أبو الروم**»(١).

---

(١) أخرجه أحمد ٥/ ٩، والترمذي في التفسير ٣٢٣١.

﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ﴾، أي: على نوح، أي: أبقينا عليه، ونشرنا له ذكرًا جميلًا، وثناءً حسنًا، ولسان صدق ﴿فِي الْآخِرِينَ﴾ وهم كل من يأتي بعده من الأنبياء والأمم إلى يوم القيامة؛ ولهذا خلد الله ذكره، وأثنى عليه أعظم الثناء في القرآن الكريم، بقوله تعالى: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا (٣)﴾ [الإسراء: ٣].

وفي هذا أعظم الثناء وأبلغه، جمع الله له فيه بين وصف القيام بالعبودية، والشكر لله عز وجل.

﴿سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ (٧٩)﴾ «سلام»: مبتدأ، ونكّر للتعظيم، أي: سلام عظيم؛ لأنه سلام من الله تعالى، وهو مبيِّن لما أبقى الله عليه، ونشَرَ له من الذكر الجميل، والثناء الحسن، ولسان الصدق، والسلامة من الشرور.

كما قال تعالى عن إبراهيم: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (١٠٨) سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ (١٠٩)﴾ [الصافات: ١٠٨- ١٠٩].

وقال عن موسى وهارون: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْآخِرِينَ (١١٩) سَلَامٌ عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ (١٢٠)﴾ [الصافات: ١١٩- ١٢٠].

وقال عن إلياس: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (١٢٩) سَلَامٌ عَلَى إِلْ يَاسِينَ (١٣٠)﴾ [الصافات: ١٢٩- ١٣٠].

وزيد في السلام على نوح قوله: ﴿فِي الْعَالَمِينَ﴾ والمراد بهم: كل من جاء بعده من القرون والأمم؛ لأنهم ينتمون إليه ومن ذريته، فالسلام عليه منهم على الدوام.

كما قال تعالى عن عيسى عليه السلام: ﴿وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾ [مريم: ١٥].

﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (٨٠)﴾ تعليل لما قبله، أي: مثل ما جزينا نوحًا بأن أبقينا عليه، ونشرنا له ذكرًا جميلًا، وثناء حسنًا، ولسان صدق في الآخرين، وسلامًا في العالمين؛ لأنه كان محسنًا في عبادة الله تعالى، وإلى عباد الله، فكذلك نجزي غيره من المحسنين؛ بأن نجعل لهم لسان صدق، وذكرًا جميلًا، وثناء حسنًا بحسب مراتبهم في الإحسان، وناهيك عما جعل الله عز وجل من الذكر الحسن، والثناء الجميل في قلوب الناس، وعلى ألسنتهم؛ لأتباع الرسل عليهم السلام، وبخاصة أصحاب النبي ﷺ،

وعلماء الإسلام الذين كتب الله لهم القبول عند الناس، ولا يقدح في هذا عداوة من عاداهم من شذاذ الخلق؛ إذ لم يسلم من ذلك الأنبياء عليهم السلام؛ كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الفرقان: ٣١].

﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾﴾ تعليل لكونه من المحسنين؛ كما أن كونه من المحسنين تعليل لما قبله، أي: لأنه من عبادنا المصدقين باطنًا وظاهرًا، بقلوبهم وألسنتهم وجوارحهم، الذين جمعوا بين أكمل الأوصاف وأشرفها؛ وهما: العبودية، والإيمان.

أي: جزيناه بهذا الجزاء العظيم؛ لجمعه بين كمال الإحسان، وكمال العبودية، وكمال الإيمان، وهذا كما قال تعالى عن إبراهيم عليه السلام: ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾﴾ [الصافات: ١١٠- ١١١].

وقال تعالى عن موسى وهارون عليهما السلام: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٢﴾﴾ [الصافات: ١٢١- ١٢٢].

وقال تعالى عن إلياس عليه السلام: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣١﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾﴾ [الصافات: ١٣١- ١٣٢].

﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ ﴿٨٢﴾﴾، أي: من عداه وعدا أهله، ومن آمن به، أي: بقية قومه جميعًا؛ كما قال تعالى: ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾﴾ [القمر: ١١- ١٤].

وفي التعبير بقوله: ﴿الْآخَرِينَ﴾: احتقار لهم، وتقليل لشأنهم.

الفوائد والأحكام:

١- جمع القرآن الكريم بين الوعد والوعيد، والترغيب والترهيب، فلما ذكر ما أعد لأهل الجنة من النعيم، ذكر ما أعد لأهل النار من العذاب الأليم؛ لقوله تعالى: ﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾﴾ الآيات.

٢- شتان بين ما أعده الله لعباده المخلصين؛ من الجنات، وما فيها من ألوان النعيم، وبين ما أُعد للظالمين المشركين المكذبين؛ من الزقوم والحميم، والمرجع إلى الجحيم؛ لقوله تعالى: ﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾﴾ الآيات.

٣- إثبات الجزاء يوم القيامة، والتهكم بمن آثروا الدنيا على الآخرة، وفرطوا في طلب الجنة والنعيم، واختاروا طريق العذاب والجحيم.

٤- ابتلاء الظالمين المكذبين بذكر شجرة الزقوم، التي تخرج في أصل الجحيم؛ ليظهر عدم إيمانهم، وتكون زيادة في ضلالهم، وتعذيبهم بالأكل منها؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ ﴿٦٣﴾﴾.

٥- قدرة الله تعالى التامة، وحكمته في إخراج شجرة الزقوم في أصل الجحيم، والجمع بين المتضادات؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾﴾.

وكما قال تعالى للنار: ﴿يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ [الأنبياء: ٦٩].

قال المفسرون: لولا أن الله قال: ﴿وَسَلَامًا﴾ لأضرَّ به بردها.

قال الشاعر:

من ظاهر الحكم الكبرى وباطنها   هذا السحاب به ماء به نار(١)

٦- ضلال من يعتمد على العقل فقط، أو الحس في إثبات الأشياء أو نفيها.

٧- بلوغ القرآن الغاية في التنفير مما يريد التنفير منه، في تشبيه طلع شجرة الزقوم برؤوس الشياطين، التي وإن لم تكن معلومة في الحس، فإنها أقبح شيء في التصور؛ لقوله تعالى: ﴿طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ ﴿٦٥﴾﴾ [الصافات: ٦٥].

٨- إثبات أن للشياطين أجسامًا محسوسة، ورؤوسًا، والرد على من يقول: إنهم قوى الشر، وليس لهم أجسام ولا أبدان تحس.

٩- اضطرار أهل النار للأكل من شجرة الزقوم؛ لشدة جوعهم، وملء بطونهم منها لكونهم لا يشبعون، والشرب عليها من شَوبٍ من حميم؛ لشدة عطشهم، وإجبارهم على ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾﴾.

١٠- أن مرجع الظالمين والمشركين المكذبين، ومآلهم إلى الجحيم؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ

---

(١) هذا البيت لوليد الأعظمي، شاعر عراقي، من ديوانه «الزوابع».

﴿إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾﴾ وفي هذا إشارة إلى تأبيد النار، وخلود أهلها فيها.

١١- أن سبب جعل شجرة الزقوم ابتلاءً للظالمين، وعذابًا ونكالًا لهم، مع شوب الحميم: أنهم وجدوا آباءهم ضالين، فاتبعوهم على ما هم عليه من الضلال، من غير دليل ولا برهان؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ أَلْفَوْا۟ ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ ﴿٦٩﴾ فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴿٧٠﴾﴾.

١٢- إثبات الأسباب، وتأثيرها في مسبباتها بإذن الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ أَلْفَوْا۟ ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ ﴿٦٩﴾﴾ وقوله: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾﴾.

١٣- ذم التقليد الأعمى، والتحذير من تقليد الآباء أو غيرهم على جهل وضلال.

١٤- إطلاق اسم الآباء على الأجداد؛ لقوله تعالى: ﴿أَلْفَوْا۟ ءَابَآءَهُمْ﴾ وهذا يشمل الآباء الأدنَيْنَ ومن فوقهم.

١٥- بيان ضلال أكثر الأولين من القرون والأمم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٧١﴾﴾ وفي هذا تسلية له ﷺ بأن قومه ليسوا بِدْعًا في الضلال.

١٦- ينبغي عدم الاغترار بما عليه أكثر الخلق؛ فأكثرهم على الضلال، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾ [يوسف: ١٠٣].

١٧- إقامة الحجة على أولئك الأقوام بالإنذار والتحذير، لكن ذلك لم ينجع فيهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ﴿٧٢﴾﴾.

١٨- أن الحجة لا تقوم على الناس إلا بإرسال الرسل والنذر؛ كما قال تعالى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥].

ولهذا اختلف أهل العلم في أهل الفترة، والذين لم تبلغهم الرسالة، وأصح الأقوال في ذلك- والله أعلم- أنهم يمتحنون في عرصات القيامة، فمن أطاع دخل الجنة، ومن كفر دخل النار.

١٩- الحث على النظر والتأمل كيف كانت عاقبة المكذبين، وكيفية عقوبتهم، وشدتها، ومناسبتها لذنبهم، والحذر مما أصابهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾﴾ وفي هذا تهديد للمكذبين له ﷺ.

٢٠- حسن عاقبة عباد الله المخلصين، الذين أخلصوا العبادة لله تعالى، فأخلصهم

تعالى لنفسه، واختصهم برحمته، وأن عاقبتهم النجاة والفوز؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ۝٧٤﴾ وفي هذا ترغيب وحث على الإخلاص.

٢١- إثبات عبودية المؤمنين لله تعالى عبودية خاصة.

٢٢- أن من حسن عرض الأخبار والحقائق: التفصيل بعد الإجمال؛ فقد ذكر الله ضلال كثير من الأولين، وسوء عاقبة المكذبين وإهلاكهم، إلا من أنجى الله من المؤمنين، ثم شرع في تفصيل أحوال عدد من الرسل وأممهم؛ لقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ ﴾ والآيات بعدها.

٢٣- فضيلة نوح عليه السلام، وثناء الله تعالى عليه بلجوئه إلى ربه، ودعائه إياه بنصره على قومه، بعد أن طال مكثه فيهم يدعوهم إلى الله، وأيس منهم؛ لقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴾.

٢٤- امتداحه عز وجل لنفسه في استجابته دعاء نوح، ودعاء الداعين، وكمال إجابته، وتمام قدرته؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴾.

٢٥- إثبات السمع لله تعالى، وأنه سميع مجيب؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴾ ولا إجابة إلا بعد السمع.

٢٦- الحث على دعاء الله تعالى، والترغيب فيه.

٢٧- امتنان الله تعالى على نوح عليه السلام بإنجائه وأهله من الغرق؛ لقوله تعالى: ﴿ وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ۝٧٦﴾.

٢٨- لا أشد في الدنيا من كرب الموت، ومن أشد ذلك وأعظمه كربًا: الموت غرقًا، ونحو ذلك.

٢٩- أن من بقي من الناس بعد نوح عليه السلام كلهم من ذريته؛ لقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ۝٧٧﴾.

٣٠- تكرمة الله عز وجل لنوح عليه السلام، بجعل ذريته الذين حملهم معه في السفينة هم الباقين فقط، وتناسل الناس منهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ۝٧٧﴾.

٣١- إفضاله عز وجل على نوح عليه السلام بما أبقى عليه، ونشر له فيمن بعده

من الذكر الجميل، والثناء الحسن، ولسان الصدق، والسلام عليه في العالمين بعده؛ لقوله تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿٧٨﴾ سَلَـٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٧٩﴾﴾.

٣٢- الثناء على نوح عليه السلام بكمال الإحسان، وكمال العبودية، وكمال الإيمان، وأن الله عز وجل امتن عليه بما ذكر، وأعطاه من الفضل ما أعطاه؛ لأنه كان من المحسنين في عبادة الله تعالى، وإلى عباد الله، وكان من عباد الله المؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾﴾.

٣٣- وعد الله تعالى للمحسنين بإبقاء الذكر الجميل والثناء الحسن لهم، ولسان الصدق، حسب مراتبهم في الإحسان؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾﴾.

٣٤- إثبات عبودية نوح، والرسل عليهم السلام، والمؤمنين لله تعالى، عبودية خاصة.

٣٥- الترغيب في الإحسان، والعبودية لله تعالى والإيمان، والتنويه بشأن المحسنين، وعباد الله المؤمنين.

٣٦- أن الله عز وجل يُرتب الثناء والثواب، والذم والعقاب على الأوصاف، لا على الأشخاص، فمن أحسن وآمن فهو ممدوح مثاب أيًّا كان، ومن أساء وكفر فهو مذموم معاقب كائنًا من كان.

٣٧- انتصار الله عز وجل لنوح عليه السلام، وإغراق المكذبين من قومه؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ ﴿٨٢﴾﴾.

٣٨- كمال وعد الله تعالى بإنجائه نوحًا وأهله ومن معه من المؤمنين؛ وإغراق المكذبين وإهلاكهم، وفي هذا بشارة للنبي ﷺ وتسلية، ووعيد وتهديد للمكذبين من قومه.

* * *

قال الله تعالى: ﴿۞ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ فَتَوَلَّوْا۟ عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ ﴿٩٣﴾ فَأَقْبَلُوٓا۟ إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾ وَقَالَ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾ وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ ﴿١١٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿۞ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾﴾:

لما ذكر قصة نوح عليه السلام، أول الرسل، وأحد أولي العزم من الرسل، أتبع ذلك بذكر قصة إبراهيم، أفضل أولي العزم من الرسل بعد محمد ﷺ، وإمام الحنفاء.

قوله: ﴿۞ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ﴾، أي: وإن من شيعة نوح عليه السلام، أي: من أتباعه، وعلى منهاجه في الدعوة إلى الله تعالى.

﴿لَإِبْرَٰهِيمَ﴾ اللام: للتوكيد، أي: لإبراهيم الخليل عليه السلام.

﴿إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ﴾ «إذ» في الموضعين: ظرف بمعنى: «حين»، متعلق بمحذوف، تقديره: اذكر، أي: حين أتى ربه ﴿بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ الباء: للمصاحبة، أي: بقلب بريء من الشرك، ومن كل اعتقاد باطل، وخلق ذميم، سليم من الشكوك والشبهات والشهوات.

﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ﴾، أي: حين قال لأبيه آزر وقومه: ﴿مَاذَا تَعْبُدُونَ﴾ «ما»: اسم استفهام، و«ذا»: اسم موصول، أي: ما الذي تعبدونه؟

أو «ماذا» كلها اسم استفهام. والاستفهام: للتوبيخ والإنكار.

﴿أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾﴾ الاستفهام: للتوبيخ وتأكيد الإنكار، و«إفكًا»: مفعول به منصوب مقدم لـ«تريدون»، و«آلهة»: بدل من «إفكًا»، ومعنى «إفكًا»، أي: كذبًا، ﴿دُونَ ٱللَّهِ﴾، أي: غير الله.

أي: أتريدون وتطلبون وتبتغون آلهة إفكًا وكذبًا غير الله تعبدونها؟! وفي هذا أيضًا تسفيه لهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾﴾ [البقرة: ١٣٠].

﴿فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾﴾ الفاء: عاطفة، و«ما»: للاستفهام، أي: فما ظنكم برب العالمين أن يجازيكم به إذا لقيتموه وقد عبدتم غيره؟ والاستفهام على هذا للتهديد والوعيد.

أو فما ظنكم برب العالمين؟ هل يرضى أن تعبدوا معه غيره؟ والاستفهام على هذا للنفي والإنكار.

أو فما ظنكم برب العالمين حين عبدتم معه غيره، ولم تقدروه عز وجل حق قدره، فلو ظننتم به ما هو أهله من الكمال والعظمة ما عبدتم غيره؟ وكل هذا من سوء الظن بالله، وعدم تقديره حق قدره.

قوله تعالى: ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ فَتَوَلَّوْا۟ عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ ﴿٩٣﴾ فَأَقْبَلُوٓا۟ إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾﴾:

قوله: ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾﴾، أي: رفع بصره إلى النجوم متفكّرًا فيما يعتذر به عن الخروج معهم إلى عيدهم؛ بغية أن ينفرد بأصنامهم.

﴿فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾﴾، أي: فقال لهم معرِّضًا بما يمنعه من الخروج: ﴿إِنِّى سَقِيمٌ﴾، أي: مريض.

عن أبي هريرة رضي الله عنه؛ أن رسول الله ﷺ، قال: «**لم يكذب إبراهيم عليه الصلاة والسلام غير ثلاث كذبات: ثنتين في ذات الله؛ قوله: ﴿إِنِّى سَقِيمٌ﴾ وقوله: ﴿بَلْ**

﴿فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ﴾ [الأنبياء: ٦٣]، وقوله في سارة: «هي أختي»»[١].

قال ابن كثير[٢]: «هذا ليس هنا من باب الكذب الحقيقي الذي يذم فاعله، حاشا وكلا، وإنما أطلق الكذب على هذا تجوزًا، وإنما هو من المعاريض في الكلام لمقصد شرعي ديني؛ كما جاء في ألأثر: «إن في المعاريض لمندوحةً عن الكذب»[٣]».

﴿فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾﴾، أي: فذهبوا عنه وتركوه، وخرجوا إلى عيدهم.

﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ﴾، أي: فمال مسرعًا خفيةً إلى أصنامهم التي يعبدونها.

﴿فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾﴾ الفاء: عاطفة، و«ألا»: أداة عرض، أي: كلوا. قيل: وكانوا يضعون الطعام عندها للتبرك بها ثم يأكلونه، أو باعتقاد إطعامها وإكرامها.

﴿مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾﴾ «ما»: اسم استفهام، أي: أي شيء يمنعكم من النطق؟ وهذا الاستفهام والعرض قبله للتهكم والتحقير والاستهزاء والسخرية، وإلزام عابديها بأنها لا تستحق العبادة؛ لأنها لا تأكل ولا تتكلم، ولا تعقل ولا تعلم، فهي أنقص من الحيوان الذي يأكل وينطق، فكيف تعبد من دون الله؟

وإنما خاطب هذه الآلهة مخاطبة من يعقل في قوله: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ وقوله: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾﴾ تنزلًا مع اعتقادهم فيها أنها تعقل وتنفع وتضر.

﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ﴾، أي: فمال وأقبل على هذه الآلهة ﴿ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ﴾ «ضربًا»: مفعول مطلق لفعل محذوف، أو مصدر في موضع الحال، أي: يضربها ضربًا قويًّا شديدًا، ﴿بِٱلْيَمِينِ﴾، أي: بيده اليمنى؛ لأنها أشد وأقوى؛ كقوله: ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [الأنبياء: ٥٨]، قال الشَّمَّاخ[٤]:

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الأنبياء، باب: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء:١٢٥] ٣٣٥٨، ومسلم في الفضائل ٢٣٧١، وأبو داود في الطلاق ٢٢١٢، والترمذي في التفسير ٣١٦٦.

(٢) في «تفسيره» ٨/ ٢١.

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة في «المصنف» ٢٦٠٩ عن عمران بن حصين رضي الله عنه، موقوفًا عليه. وأخرجه البخاري في «الأدب المفرد» ص٣٠٥، والبيهقي في «السنن الكبرى» ١٠/ ٣٣٦ (٢٠٨٤٢).

(٤) انظر: «ديوانه» ص٧١.

إذا مـــا رايـــة رفعـــت لمجـــد تلقاهـــا عَرَابـــة بـــاليمين

فكسرها وحطمها؛ كما قال تعالى: ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [الأنبياء: ٥٨].

﴿فَأَقْبَلُوٓا۟ إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾﴾ قرأ حمزة بضم الياء: «يُزِفُّونَ»؛ وقرأ الباقون بفتحها: ﴿يَزِفُّونَ﴾.

أي: فأقبلوا إلى إبراهيم يَعْدون مسرعين غاضبين، يريدون أن يوقعوا به، وينتصروا لآلهتهم، بعدما بحثوا عمن فعل ذلك، وعرفوا أنه إبراهيم؛ كما جاء ذلك مبسوطًا في سورة الأنبياء، في قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾﴾، إلى قوله تعالى: ﴿قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [الأنبياء: ٥٩- ٦٧].

﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾﴾ الاستفهام: للإنكار والتقريع والتوبيخ، و«ما»: موصولة.

أي: قال إبراهيم عليه السلام لقومه- لما جاؤوا إليه ليعاتبوه على تحطيم أصنامهم- منكرًا عليهم عبادتهم إياها، ومقرعًا لهم وموبخًا، وعائبًا عليهم: أتعبدون الذي تنحتونه؟! أي: كيف تعبدون الذي تصنعونه بأيديكم؟! وهل يليق عقلًا أن يكون المعبود مصنوعًا لعابده؟!

هذا لا يليق، يصنع الرجل بيده الصنم، ثم يعبده، ويتضرع إليه، ويتعلق به، ويرجو منه جلب النفع ودفع الضرر، هذا من أسفه السفه! وصدق الله العظيم: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾ [الحج: ٤٦].

﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ الواو حالية، أي: والحال أن الله خلقكم.

﴿وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ الواو: عاطفة، و«ما»: موصولة، أي: وخلق الذي تعملونه. أو مصدرية، أي: وعملكم، أي: فهو عز وجل أحق بالعبادة وحده؛ لكونه خلقكم وخلق ما تعملون.

فلما قامت عليهم الحجة، عدلوا إلى أخذه بالقوة والقهر: ﴿قَالُواْ﴾، أي: قال بعضهم لبعض: ﴿ابْنُواْ لَهُۥ﴾ اللام: للتعليل، أي: لأجله ﴿بُنْيَٰنًا﴾ نُكِّر للتعظيم، أي: بنيانًا عظيمًا عاليًا، وذلك ليجمعوا فيه حطبًا كثيرًا، ويوقدوا فيه نارًا عظيمةً؛ ولهذا قال: ﴿فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾﴾ الفاء: للترتيب والتعقيب، أي: فاطرحوه في النار الشديدة الوقود؛ كما قال تعالى في سورة الأنبياء: ﴿قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ٦٨].

﴿فَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيْدًا﴾ «الكيد» في الأصل: تدبير الأذى خفية، وإيقاع الخصم من حيث لا يشعر، والمعنى هنا: فأرادوا إيقاع الأذى والضرر به خفية وعلنًا، وليقتلوه أشنع قتلة بإحراقه بالنار.

﴿فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ﴾، أي: المغلوبين الأخسرين. والأسفل: الذي بلغ غاية السفل والحقارة، والنزول والدنو.

أي: رددنا كيدهم في نحورهم، وجعلنا النار على إبراهيم بردًا وسلامًا؛ كما قال تعالى: ﴿قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾﴾ [الأنبياء: ٦٩- ٧٠].

فجعله الله تعالى هو الأعلى؛ بأن سلمه مما أرادوا به من إهلاكه، وأكرمه بأمر خارق للعادة؛ بأن جعل النار عليه بردًا وسلامًا.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُاْ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾ وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ ﴿١١٣﴾﴾.

قوله: ﴿وَقَالَ﴾، أي: وقال إبراهيم عليه السلام لما نصره الله تعالى على قومه، وأنجاه الله من النار، وأيس من إيمانهم:

﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي﴾، أي: إني مهاجر إلى ربي، قاصدًا الأرض المباركة أرض الشام.

وهذه أول هجرة في سبيل الله، والإضافة في قوله: ﴿إِلَىٰ رَبِّي﴾ إضافة تعطف وتحنن وتضرع إلى ربه عز وجل أن يدبره إلى ما فيه مصلحته، بعدما لقي من قومه من التكذيب والأذى؛ ولهذا قال:

﴿سَيَهْدِينِ﴾، أي: سيرشدني ويوفقني إلى ما فيه الخير لي من أمر ديني ودنياي؛ كما قال في سورة العنكبوت: ﴿وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الآية: ٢٦]، وقال في سورة مريم: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُواْ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴿٤٨﴾﴾ [الآية: ٤٨].

﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾﴾، أي: يا رب، أعطني ولدًا يكون من الصالحين، المخلصين لك، المتبعين شرعك. وذلك ليستعين به ويأنس، عوضًا من قومه وعشيرته الذين كانوا غير صالحين، وناصبوه العداء وآذوه، ففارقهم، فاستجاب الله له، فقال: ﴿فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ الفاء: للتعقيب، والبشارة: الخبر السار، أي: فاستجبنا دعاءه، ﴿فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ﴾.

والمراد به: إسماعيل عليه السلام، أكبر ولد إبراهيم، ولد له على كبر سن، وهو أبو العرب.

ووصفه هنا بقوله: ﴿حَلِيمٍ﴾ لأنه أنسب في هذا المقام، أي: ذي حلم وتأنٍّ، وعقل ورشد.

﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْيَ﴾، أي: بلغ هذا الغلام- وهو إسماعيل- مع أبيه إبراهيم ﴿ٱلسَّعْيَ﴾، أي: المشي معه، ومصاحبته، وليس له حينذاك ولد سواه، ابتلاه الله تعالى بأمره بذبحه أشد ما كان تعلقًا به، قيل: كان عمره ثلاث عشرة سنة، وقيل: سبع سنين، أو بين ذلك.

﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ﴾ بالتصغير تلطفًا معه، ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلْمَنَامِ أَنِّيٓ أَذْبَحُكَ﴾، أي: إن الله أراني في المنام أني أذبحك، أي: أخبرني وأمرني بالمنام أني أذبحك؛ ولهذا قال إسماعيل: ﴿ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ﴾.

روى ابن عباس رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: «**رؤيا الأنبياء وحي**»[(١)].

﴿فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ﴾ قرأ حمزة والكسائي وخلف بضم التاء وكسر الراء، فيصير بعدها ياء: «تُرِي»؛ وقرأ الباقون بفتحهما، فيكون بعد الراء ألف: ﴿تَرَىٰۚ﴾.

لم ينزعج إبراهيم عليه السلام لِمَا رأى لقوة يقينه، لكنه عرض ذلك على ابنه؛ ليختبر مدى قوة تحمله لهذا الأمر العظيم، وليستعد له ويتجلد، ويتذرع بالصبر الجميل، وليظهر تقبله لأمر الله، ويكون شريكًا لأبيه في الأجر، ويكون أهون عليه، وليس ذلك لاستشارته؛ إذ لا يمكن أن يستشير إبراهيم ابنه في فعل ما أمره الله به وتنفيذه؛ ولهذا قال: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ﴾، أي: سأنفذ حكم ما رأيت، ولم يقل: «إني رأيت»؛ لأن رؤيا الأنبياء حق، وفعلهم بأمر الله تعالى؛ لأنهم معصومون.

فقوله: ﴿فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ﴾، أي: فكر في أمرك، واستعد لذلك، فأجاب الابن جوابًا عجيبًا عظيمًا.

﴿قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ﴾، أي: افعل ونفذ الذي تؤمر به، أي: امض لما أمرك الله به، ولا تتردد. ولم يقل: افعل ما رأيت، أو لا مانع عندي، ونحو ذلك، بل قال: ﴿ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ﴾ تذكيرًا لأبيه بأمر الله له بذلك، وحثًّا له على تنفيذه.

قيل: خاف إسماعيل أن تدرك أباه رحمة الولد، فيراجع الله عز وجل في ذلك.

﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ السين: للتنفيس، وتفيد تحقق وقوع الشيء وقربه، أي: ستجدني إن شاء الله من الصابرين على هذا البلاء العظيم، أي: من جملة المتصفين بالصبر حقًّا.

وبدأ بالاستثناء وقدَّمه على قوله: ﴿مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ فقال: ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ أدبًا مع الله تعالى؛ لأنه لا يكون شيء إلا بمشيئة الله عز وجل.

﴿فَلَمَّآ أَسۡلَمَا﴾، أي: استسلما وانقادا لأمر الله، فلم يبق هناك منازعة، لا من الأب، ولا من الابن، بل استسلام صِرف، وتسليم محض، وهذا استسلام القلب.

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/ ٣٢٢١.

﴿وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ﴾ هذا استسلام الجوارح، واللام: بمعنى «على»، أي: صرع إبراهيم ابنه على الأرض على جبينه؛ وهو جانب الجبهة الذي يلي الأرض عند النوم؛ ليذبحه.

وإنما صرعه على الأرض على جبينه؛ من أجل ألا يرى وجهه حين يذبحه، ولئلا يرى الابن السكين فيفزع؛ لأن رؤية المذبوح السكين تروعه.

وجواب الشرط لقوله: ﴿فَلَمَّآ أَسۡلَمَا﴾ محذوف، تقديره: ظهر صبرهما، أو أجزلنا لهما الأجر، ونحو ذلك.

قال عز وجل: ﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ﴾ «أن»: تفسيرية، أي: يا إبراهيم، ﴿قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ﴾، أي: صدقت ما أريناك وأمرناك به في المنام، أي: فعلت ما يقتضي تصديق هذه الرؤيا.

وهذا امتداح من الله تعالى لإبراهيم، وثناء عليه، فقد عزم على ذبح ابنه، وقام بمقدمات ذلك، وصرع ابنه على جبينه على الأرض؛ ليذبحه، فجعل الله عز وجل ذلك تصديقًا.

﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ تعليل لقوله: ﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ﴾، أي: رفعنا عن إبراهيم هذه الشدة والمحنة، وجعلنا له فرجًا ومخرجًا؛ لأنه كان من المحسنين في عبادة الله تعالى، وإلى عباد الله.

وكذلك نجزي المحسنين؛ بأن ندفع عنهم الخطوب، ونفرج لهم الكروب، ونجعل لهم من كل هم فرجًا، ومن كل ضيق مخرجًا؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمۡرِهِۦۚ قَدۡ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيۡءٖ قَدۡرٗا ۝٣﴾ [الطلاق: ٢- ٣]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مِنۡ أَمۡرِهِۦ يُسۡرٗا﴾ [الطلاق: ٤].

﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡبَلَٰٓؤُاْ ٱلۡمُبِينُ ۝١٠٦﴾ الجملة مؤكدة بـ«إنَّ» واللام، وضمير الفصل، والإشارة تعود إلى ما أُمر به إبراهيم في المنام من ذبح ابنه، أي: إن هذا لهو الابتلاء والاختبار الشاق، الواضح الجلي، حيث أمر عليه السلام بذبح ابنه وفلذة كبده، وثمرة فؤاده ووحيده، وأول ولده، والذي أبان صدق إيمانه عليه السلام، وقوة يقينه، وخالص محبته وخلته لربه، وتقديمها على كل محبوب.

فسارع إلى ذلك مستسلمًا لأمر ربه، منقادًا لطاعته؛ ولهذا امتدحه الله تعالى بقوله: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾﴾ [النجم: ٣٧]، وجعله الله تعالى له خليلًا.

﴿وَفَدَيْنَٰهُ﴾، أي: وفدينا الابن المأمور بذبحه.

﴿بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾، أي: بكبش عظيم، جعلناه فداءً للذبيح يذبح بدلًا عنه، وقربانًا وسنة إلى يوم القيامة.

﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ﴾، أي: أبقينا عليه، ونشرنا له ذكرًا جميلًا، وثناءً حسنًا، ولسان صدق ﴿فِى ٱلْءَاخِرِينَ﴾، أي: فيمن جاؤوا بعده إلى يوم القيامة؛ استجابة لدعائه بقوله: ﴿وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [الشعراء: ٨٤] فكان إمام الحنفاء، خلد الله ذكره، وأثنى عليه في مواضع كثيرة من القرآن الكريم؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾﴾ [النحل: ١٢٠- ١٢٣].

وقال تعالى: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِۦمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾﴾ [البقرة: ١٣٠- ١٣١]، وقال تعالى: ﴿وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِۦمَ مُصَلًّى﴾ [البقرة: ١٢٥]، وقال تعالى: ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [آل عمران: ٦٧].

إلى غير ذلك من الآيات في ذكره عليه السلام والثناء عليه؛ كما أثنى عليه المصطفى ﷺ في السنة المطهرة، في أحاديث كثيرة، ولهذا أمرنا بالتشهد أن نقول: «اللهم صل على محمد، وعلى آل محمد؛ كما صليت على إبراهيم، وعلى آل إبراهيم، في العالمين؛ إنك حميد مجيد، اللهم بارك على محمد، وعلى آل محمد؛ كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم؛ إنك حميد مجيد»[1].

---

(١) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء ٣٣٧٠، والنسائي في السهو ١٢٨٨؛ من حديث كعب بن عجرة رضي الله عنه.

﴿ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ۝١٠٩﴾ نكَّر «سلام» للتعظيم، وهو مفسر لما أبقى الله تعالى عليه، ونشر له في الآخرين، أي: أبقينا عليه في الآخرين الذكر الجميل، والثناء الحسن، والسلامة من القدح والنقص، الذي يعتري البشر.

﴿ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ۝١١٠﴾ تعليل لما قبله، والإشارة لما جزاه الله به من فداء ابنه بالذبح العظيم، والإبقاء عليه في الآخرين بالسلام، والذكر الجميل، والثناء الحسن، أي: جزيناه بذلك؛ لأنه من المحسنين، وبمثل هذا الجزاء نجزي المحسنين.

﴿ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ۝١١١﴾ تعليل لكونه من المحسنين؛ كما أن كونه من المحسنين تعليل لما قبله، أي: جزيناه بهذا الجزاء العظيم؛ لجمعه بين كمال الإحسان، وكمال العبودية، وكمال الإيمان.

﴿ وَبَشَّرۡنَٰهُ بِإِسۡحَٰقَ نَبِيّٗا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝١١٢﴾ لما تقدمت البشارة بالذبيح- وهو إسماعيل- عطف بذكر البشارة بأخيه إسحاق عليهما السلام.

أي: وبشرنا إبراهيم عليه السلام بابنه إسحاق، بشارة كرامة منا له، أي: من غير أن يسألنا ذلك.

﴿نَبِيّٗا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾، أي: حال كونه نبيًّا من الصالحين، أي: بشرناه بولادته، وبكونه نبيًّا من الصالحين.

وهذا يبين أن المبشَّر به قبل هذا، والذي رأى إبراهيم في المنام أن يذبحه، ليس هو إسحاق، بل هو إسماعيل عليهما السلام.

﴿ وَبَٰرَكۡنَا عَلَيۡهِ﴾، أي: على إبراهيم، فجعلنا في ذريته النبوة والكتاب، فكل الأنبياء بعده من ذريته.

﴿وَعَلَىٰٓ إِسۡحَٰقَۚ﴾، أي: وباركنا على إسحاق، فجعلنا أنبياء بني إسرائيل كلهم من نسل إسحاق، وليس من ولد إسماعيل إلا محمد ﷺ.

والبركة: كثرة الخير؛ من العلم، والنبوة، والذرية، وغير ذلك.

﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا﴾، أي: ومن ذرية إبراهيم وإسحاق عليهما السلام.

﴿مُحۡسِنٞ﴾ في عبادة الله تعالى، وإلى عباد الله، أي: مؤمن.

﴿وَظَالِمٌ لِنَفْسِهِ﴾ بالشرك والكفر والمعاصي؛ والاعتداء على الحق، وعلى الخلق.

﴿مُبِينٌ﴾ بيِّن ظاهر ظلمه، ومبين: مظهر لظلمه.

أي: ومن ذريتهما الصالح والطالح، والعادل والظالم، ولهذا لما قال تعالى لإبراهيم: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ قال إبراهيم: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾ أجابه عز وجل بقوله: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴿١٢٤﴾﴾ [البقرة: ١٢٤]، وفي هذا إشارة إلى أنه سيكون في ذرية إبراهيم من هو ظالم لا يستحق الإمامة في الدين.

الفوائد والأحكام:

١- أن إبراهيم من شيعة نوح عليهما السلام، وأن الأنبياء عليهم السلام كلهم بعضهم تبع لبعض، فأصل دينهم واحد، وهو الدعوة إلى عبادة الله تعالى وحده؛ لقوله تعالى: ﴿۞ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ ﴿٨٣﴾﴾ كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء: ٢٥].

٢- ثناء الله عز وجل على إبراهيم عليه السلام في إخلاصه الدين لله تعالى وامتداحه له بسلامة قلبه من الشرك، وبراءته من الشبهات والشهوات، ومن كل اعتقاد باطل، وخلق ذميم؛ لقوله تعالى: ﴿إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾﴾.

٣- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة لإبراهيم؛ لقوله تعالى: ﴿رَبَّهُ﴾ وقوله: ﴿إِلَىٰ رَبِّي﴾ وقوله: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠٠﴾﴾.

٤- إنكاره عليه السلام على أبيه وقومه عبادة الأصنام، وابتغاءَهم إفكًا وكذبًا آلهة غير الله، وتسفيهًا لهم، وقوته عليه السلام في ذات الله، وصدعه بالحق؛ لقوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفْكًا آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾﴾.

٥- أن كل ما عبد من دون الله فهو إفك وكذب.

٦- تهديده لهم، وتحذيرهم من عذاب الله تعالى وعقابه إذا لقوه وهم على الشرك؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨٧﴾﴾.

٧- تقريعهم وتوبيخهم في عبادتهم مع الله غيره، وتنقصهم كمال ربوبيته وإلهيته، وإنزال حاجاتهم بغيره، وهذا على المعنى الثاني لقوله: ﴿فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨٧﴾﴾.

٨- إثبات ربوبية الله تعالى العامة لجميع الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ والاحتجاج على المشركين بتوحيد الربوبية، الذي يثبتونه بإلزامهم توحيد الألوهية.

٩- التماس إبراهيم عليه السلام العذر في عدم الخروج مع قومه لعيدهم، بحجة أنه مريض؛ لأجل أن يَخلوَ بأصنامهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾﴾.

١٠- إباحة التورية إذا كانت لمقصد شرعي، وقد تكون مستحبة، أو واجبة، أما إذا كانت لغير مقصد شرعي؛ فقد تكون مكروهة، أو محرمة.

قال ابن كثير(١): «وهذا ليس من باب الكذب الحقيقي الذي يذم فاعله، وإنما هو من باب المعاريض في الكلام؛ لمقصد شرعي ديني».

١١- توليهم عنه مدبرين، وتركهم إياه، لمَّا أبدى لهم عذره؛ لقوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّوْا۟ عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾﴾.

١٢- ميله على آلهتهم مسرعًا خفية بعد أن خلا له الجو، وتهكمه بهم، وسخريته منهم؛ لعدم أكلهم، وعدم نطقهم؛ تحقيرًا لهم، وإلزامًا لعابديهم بعدم استحقاقهم للعبادة.

١٣- إقباله عليهم بضربهم بيمينه ضربًا شديدًا، وتحطيمهم؛ انتصارًا لله؛ لقوله تعالى: ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ ﴿٩٣﴾﴾، ويؤخذ من هذا: قوة إبراهيم في الحق، وقوته في بدنه.

١٤- شدة انتصار قومه لآلهتهم، وغضبهم لما فعل بها، وإقبالهم على إبراهيم مسرعين؛ بغية الانتقام منه، والإيقاع به؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَقْبَلُوٓا۟ إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾﴾.

وهذا من أعجب العجب، يعبدون هذه الآلهة بدعوى أنها تنفع وتدفع، وهم الذين يدافعون عنها.

١٥- انتهازه عليه السلام إقبالهم عليه، وحماسهم للانتصار لآلهتهم؛ لتجديد الإنكار عليهم، وتقريعهم، وتوبيخهم، وكيف يعبدون آلهة مخلوقة، هم ينحتونها، ويتركون عبادة

---

(١) في «تفسيره» ٨/ ٢١.

الله الذي خلقهم وخلق معبوداتهم؟ لقوله تعالى: ﴿ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ۝٩٥ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ۝٩٦ ﴾.

١٦- إثبات أنه عز وجل هو وحده خالق كل شيء، المستحق للعبادة وحده، فلا رب غيره، ولا معبود بحق سواه، وأن توحيد الربوبية يستلزم توحيد الألوهية.

١٧- أن أعمال العباد كلها مخلوقة لله تعالى، وفي هذا رد على القدرية الذين يقولون: إن أعمال العباد مخلوقة لهم، لا شأن لله فيها؛ لقوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ۝٩٦ ﴾ كما أن فيها ردًّا على الجبرية الذين يقولون: إن الإنسان مجبر على عمله؛ لأن الله أضاف العمل إليهم، فقال: ﴿وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ فأعمال العباد مضافة إلى الله خلقًا وتقديرًا، ومضافة إليهم فعلًا ومباشرة، وهذا مذهب أهل السنة والجماعة(١).

١٨- لجوءهم إلى أخذه بالقوة، وإلقائه في النار، لَمَّا أقام عليه الحجة؛ لقوله تعالى: ﴿ قَالُوا ٱبْنُوا لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ ۝٩٧ ﴾.

١٩- إرادتهم الكيد له، وإلحاق الضرر به، وقتله بالإحراق بالنار أشنع قتلة، ونصر الله تعالى له، وإنجاؤه، ورد كيدهم في نحورهم، وجعل النار عليه بردًا وسلامًا، وجعلهم المغلوبين الأسفلين، والجزاء من جنس العمل؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَرَادُوا بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ۝٩٨ ﴾ وهذه سنة الله عز وجل في نصر رسله وأوليائه.

٢٠- إثبات الإرادة للإنسان، والاختيار. وفي هذا رد على الجبرية الذين يسلبون ذلك منه؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَرَادُوا بِهِۦ كَيْدًا﴾.

٢١- إعلانه عليه السلام- بعد أن أقام الحجة على قومه، ونصره الله عليهم وأنجاه من كيدهم- الخروج من أرضهم، والهجرة إلى الله وفي سبيله، إلى أرض الشام المباركة؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالَ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى ﴾.

٢٢- إخلاصه عليه السلام لربه، وقوة توكله عليه، وتمام ثقته بهدايته له وتوفيقه؛ لقوله: ﴿وَقَالَ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى سَيَهْدِينِ ۝٩٩ ﴾.

---

(١) انظر: «الطحاوية» ٢/ ٦٤١.

٢٣- سؤاله ربه أن يهب له ولدًا من الصالحين؛ يأنس به ويطمئن بعد أن ناصبه قومه العداء، وخرج من أرضهم فرارًا بدينه؛ لقوله: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ (١٠٠)﴾.

٢٤- حاجة الإنسان إلى من يستعين به من الصالحين من ولد أو غيره.

٢٥- أنه إنما ينفع من الأولاد والقرناء من كان صالحًا، مؤديًا لحق الله وحقوق الخلق؛ لقوله: ﴿هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾.

٢٦- إجابة الله تعالى دعاء إبراهيم عليه السلام، وبشارته له بغلام حليم؛ لقوله تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ (١٠١)﴾ وهو إسماعيل عليه السلام، بِكْر إبراهيم، أي: أكبر أولاده، وهو أول ولد بشر به إبراهيم، وهو أكبر من إسحاق، وهو أبو العرب، وهو «الذبيح» الذي أمر الله إبراهيم بذبحه، وهذا ظاهر من سياق الآيات؛ فإن الله تعالى قال: ﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ (١٠١) فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ﴾، إلى قوله: ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١١٠) إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (١١١)﴾ [الصافات: ١٠١- ١١١]، ثم قال بعد ذلك: ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ (١١٢)﴾ [الصافات: ١١٢].

فدل على أن البشارة بإسحاق بعد ذلك، وأيضًا: فالبشارة بنبوته تدل على أنه غير الذبيح؛ لأنها لا تتفق مع الأمر بذبحه.

وقد جاءت لإبراهيم البشارة بإسحاق أيضًا في آيات أخرى؛ كما في قول الملائكة: ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾ [الحجر: ٥٣]، وقال تعالى: ﴿قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾ [الذاريات: ٢٨].

كما بشرت أمه سارة، قال تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾ [هود: ٧١]، أي: يولد له ولد في حياتها، يسمى: يعقوب، فيكون له ذرية ونسل، وهذا لا يتفق مع الأمر بذبحه وهو صغير.

كما أن الله وصف إسحاق بقوله: ﴿عَلِيمٍ﴾ بينما وصف الذبيح بقوله: ﴿حَلِيمٍ﴾ وهذا غير هذا؛ لأن الذي وصف بالحلم هو الذي صبر على الذبح، وهو إسماعيل؛ لأن الله وصفه بأنه من الصابرين، ولم يصف بذلك إسحاق؛ فقال تعالى: ﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ (٨٥)﴾ [الأنبياء: ٨٥]؛ كما وصفه بأنه صادق الوعد،

فقال تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِسۡمَٰعِيلَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلۡوَعۡدِ﴾ [مريم: ٥٤]، وذلك لقوله: ﴿سَتَجِدُنِيٓ﴾ ووفاؤه بذلك.

وإلى هذا القول- وهو أن الذبيح إسماعيل عليه السلام- ذهب أكثر السلف من الصحابة والتابعين وأهل العلم، واختاره ابن تيمية وابن القيم[١]، وابن كثير والسعدي، وذهب طائفة من السلف من الصحابة والتابعين وبعض أهل العلم، إلى أنه إسحاق، والراجح القول الأول.

قال ابن كثير[٢]: «وهذا الغلام هو إسماعيل عليه السلام؛ فإنه أول ولد بشر به إبراهيم عليه السلام، وهو أكبر من إسحاق باتفاق المسلمين وأهل الكتاب، بل في نص كتابهم: أن إسماعيل وُلِدَ ولإبراهيم عليه السلام ست وثمانون سنة، وولد إسحاق وعمر إبراهيم تسع وتسعون سنة، وعندهم أن الله تعالى أمر إبراهيم أن يذبح ابنه وحيده، وفي نسخة: «بكره»، فأقحموا هنا كذبًا وبهتانًا: «إسحاق». وهذا لا يجوز؛ لأنه مخالف لنص كتابهم، وإنما أقحموا «إسحاق» لأنه أبوهم، و«إسماعيل» أبو العرب، فحسدوهم، فزادوا ذلك، وحرّفوا «وحيدك»، بمعنى: الذي ليس عندك غيره؛ فإن إسماعيل كان قد ذهب به وبأمه إلى جنب مكة. وهذا تأويل وتحريف باطل؛ فإنه لا يقال: «وحيدك» إلا لمن ليس له غيره، وأيضًا: فإن أول ولد له معزة ما ليس لمن بعده من الأولاد، فالأمر بذبحه أبلغ في الابتلاء والاختبار.

وقد ذهب جماعة من أهل العلم إلى أن الذبيح هو إسحاق، وحكي ذلك عن طائفة من السلف، حتى نقل عن بعض الصحابة، وليس ذلك في كتاب ولا سنة، وما أظن ذلك تُلقِّي إلا عن أحبار أهل الكتاب، وأخذ مسلمًا من غير حجة».

ثم ذكر دلالة الكتاب على ذلك.

وقال السعدي[٣]: «وهذا إسماعيل عليه السلام بلا شك؛ فإنه ذكر بعده البشارة

(١) انظر: «زاد المعاد» ١/ ٧١.

(٢) في «تفسيره» ٧/ ٢٣، وانظر: ٥/ ٢٦٥- ٢٦٦.

(٣) في «تيسير الكريم الرحمن» ٦/ ٣٨٨.

بإسحاق، ولأن الله تعالى قال في بشراه بإسحاق: ﴿فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ﴾ فدل على أن إسحاق غير الذبيح».

٢٦- ثناء الله تعالى على إسماعيل عليه السلام بوصفه بالحلم، وهو من أنبل الأخلاق والصفات؛ لقوله تعالى: ﴿بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ﴾.

٢٧- مشروعية البشارة لمن ولد له ولد، وبخاصة إذا كان ذكرًا.

٢٨- رؤيا إبراهيم في المنام لما بلغ إسماعيل معه السعي، واشتد تعلقه به ومحبته له؛ أنه يذبحه، وإخباره بذلك؛ ليختبر مدى قوة تحمله لهذا الأمر العظيم، وليستعد له ويتجلد ويصبر، ويظهر تقبله لذلك، فيكون شريكًا لأبيه في الأجر، وليكون ذلك أهون عليه؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ﴾.

٢٩- تلطف إبراهيم مع ابنه بقوله: ﴿يَٰبُنَىَّ﴾؛ ليبعد عن نفسه تهمة أنه لا يحبه، أو يريد الإضرار به.

٣٠- أنه يجوز أن يوَرِّيَ الإنسان بالشيء؛ لاستطلاع الأمر واستظهاره؛ لأن إبراهيم عليه السلام لما قال لابنه: ﴿فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ﴾ لم يرد أن يستشيره، وإنما أراد أن يختبره؛ لينظر مدى قبوله لذلك، ويستعد له.

٣١- أن رؤيا الأنبياء حق؛ ولهذا اعتمدها إبراهيم وصدقها بفعله.

٣٢- تلطف إسماعيل وحسن أدبه مع أبيه عليهما السلام في هذا الموقف الصعب؛ لقوله: ﴿يَٰٓأَبَتِ﴾.

٣٣- حثه لأبيه على فعل ما أمره الله به وتنفيذه؛ مخافة أن تدرك أباه رحمة الوالد، فيراجع ربه في ذلك؛ لقوله عليه السلام: ﴿ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ﴾.

ويؤخذ من هذا: أنه لا غضاضة في أمر الإنسان بالخير لمن هو أفضل منه.

٣٤- أدب إسماعيل عليه السلام مع ربه؛ حيث علق تمكنه من الصبر على مشيئة الله تعالى؛ لقوله: ﴿سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ وهكذا ينبغي للمسلم أن يعلق ما يريد أن يفعله في المستقبل على مشيئة الله تعالى.

٣٥- إثبات المشيئة لله تعالى، وأنه لا يكون شيء إلا بمشيئته، فما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن.

٣٦- عزم إسماعيل عليه السلام على الصبر على الذبح بمشيئة الله تعالى، وعونه له.

٣٧- استسلام إبراهيم وإسماعيل، وانقيادهما لأمر الله تعالى، وصرع إبراهيم ابنه إسماعيل على جبينه ليذبحه؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾﴾.

٣٨- فضيلة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام؛ حيث استسلما لأمر الله تعالى في هذا الأمر العظيم، الذي لا يقدم عليه إلا أمثالهما.

٣٩- إدراك العناية الربانية لهما بعدما عزما وصمما وفعلا ما أمرا به، ونداء الله عز وجل لإبراهيم، ورفع هذا الابتلاء عنهما؛ لقوله تعالى: ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ﴾ الآيات.

٤٠- إثبات الكلام لله عز وجل بحرف وصوت؛ لقوله تعالى: ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾﴾.

٤١- وفاء إبراهيم عليه السلام في فعل ما أمر به، وصدق إسماعيل فيما وعد به من الصبر؛ ولهذا امتدحهما الله تعالى، فقال: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾﴾ [النجم: ٣٧].

وقال تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا ﴿٥٥﴾﴾ [مريم: ٥٤- ٥٥].

٤٢- امتداح الله تعالى لإبراهيم عليه السلام، وثناؤه عليه بتصديق الرؤيا وفعل ما أمره الله؛ لقوله تعالى: ﴿قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ﴾.

٤٣- مجازاته عز وجل له- لكونه من المحسنين- برفع هذا الابتلاء، وفدائه بذبح عظيم؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ الآية.

٤٤- أن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسرًا؛ كما جاء في الحديث[1].

---

(١) أخرجه أحمد ١/ ٣٠٧؛ من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

٤٥- جواز النسخ قبل التمكن من الفعل؛ خلافًا للمعتزلة؛ لأن الله أمر إبراهيم بذبح ولده، ثم نسخه وصرفه إلى الفداء، وإنما كان المقصود من شرعه: إثابته على الصبر على ذبح ولده وعزمه على ذلك؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾﴾.

٤٦- أن الإنسان إذا قصد العمل، وسعى له؛ كتب له أجره وإن لم يتمكن من فعله؛ كما في حديث: «**وعبد رزقه الله علمًا ولم يرزقه مالًا، فهو صادق النية، يقول: لو أن لي مالًا لعملت بعمل فلان. فهو بنيته، فأجرهما سواء**»[1].

وقال ﷺ: «**إذا مرض العبد أو سافر كتب له مثل ما كان يعمل مقيمًا صحيحًا**»[2].

٤٧- وعد الله تعالى للمحسنين بمجازاتهم، بتنفيس الكروب، ودفع الخطوب، وتفريج الهموم، واحتساب ما قصدوه، وفعلوا أسبابه من الخير لهم؛ لقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ والجزاء من جنس العمل.

٤٨- أنما ابتلي به إبراهيم عليه السلام من أمره بذبح ابنه إسماعيل، لهو البلاء المبين، والمصاب العظيم؛ لأن المصائب وإن كانت كلها من الابتلاء؛ إلا أن أشدها ما يبتلى به العبد بأن يؤمر أن يفعلها هو بنفسه؛ كما في أمر إبراهيم عليه السلام، بأن يذبح ابنه وحيده، وفلذة كبده، فهذا من أشق الأشياء وأصعبها؛ ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ﴾.

٤٩- حكمة الله تعالى فيما يقدره على أنبيائه وأصفيائه وعباده المؤمنين، من الابتلاء والمصائب؛ لتمحيصهم ورفعة منازلهم، وقد لقي إبراهيم عليه السلام من ذلك ما لم يقع لغيره من الرسل وغيرهم؛ فابتلي بإلقائه في النار، وابتلي بأمره بذبح ابنه، وهذه أشد.

وظهر بذلك خلوص قلبه ومحبته لله تعالى؛ ولهذا اتخذه الله خليلًا.

٥٠- فداؤه عز وجل إسماعيل عليه السلام بذبح عظيم، جعله تعالى بديلًا عنه، وقربانا وسنة إلى يوم القيامة؛ لقوله تعالى: ﴿وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾﴾.

---

(١) أخرجه الترمذي في الزهد ٢٣٢٥، وابن ماجه في الزهد ٤٢٢٨، من حديث أبي كبشة الأنماري رضي الله عنه، وقال الترمذي: «حسن صحيح».

(٢) أخرجه البخاري في الجهاد والسير ٢٩٩٦، وأبو داود في الجنائز ٣٠٩١، من حديث أبي موسى رضي الله عنه.

٥١- إبقاء الذكر الجميل، والثناء الحسن، والسلام على إبراهيم ونشره فيمن بعده؛ لقوله تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (١٠٨) سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ (١٠٩)﴾.

٥٢- الثناء على إبراهيم بكمال الإحسان، وكمال العبودية، وكمال الإيمان، وأنه عليه السلام إنما نشر له الذكر الجميل، والثناء الحسن، والسلام عليه في الآخرين؛ لكونه من المحسنين في عبادة الله تعالى، وإلى عباده، ولكونه من عباد الله المؤمنين، لقوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١١٠) إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (١١١)﴾.

٥٣- مجازاة المحسنين بإبقاء الثناء الجميل من الذكر الحسن، والسلام عليهم فيمن بعدهم؛ لقوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١١٠)﴾.

٥٤- تأكيد الحث على الإحسان، والترغيب في العبودية والإيمان، والتنويه بشأن المحسنين، وعباد الله المؤمنين.

٥٥- إثبات عبودية إبراهيم والرسل والمؤمنين لله تعالى عبودية خاصة؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (١١١)﴾.

٥٦- بشارة إبراهيم عليه السلام بشارة ثانية بابنه إسحاق عليه السلام بولادته، وإثبات كونه نبيًّا من الصالحين؛ لقوله تعالى: ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ (١١٢)﴾ وهذا دليل ظاهر على أن الذي أمر بذبحه هو إسماعيل، وليس إسحاق؛ كما تقدم بيانه.

٥٧- مشروعية البشارة بالولد؛ لأن هذا مما يسر به والده وأهله، والتبشير أمر مستحسن شرعًا، وهذه البشارة تكرمة لإبراهيم من غير دعاء منه لذلك، بخلاف البشارة بإسماعيل؛ فهي بشارة باستجابة دعائه.

٥٨- مباركة الله تعالى على إبراهيم وإسحاق بالنبوة والعلم، وكثرة الذرية؛ لقوله تعالى: ﴿وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَاقَ﴾ فكل الأنبياء بعد إبراهيم من ذريته، فأنبياء بني إسرائيل كلهم من ذرية ابنه إسحاق، ومحمد من ذرية ابنه إسماعيل.

٥٩- انقسام ذريتهما إلى محسن في عبادة الله تعالى، وإلى عباد الله، وإلى ظالم لنفسه بالشرك والكفر والمعاصي، بيّن الظلم ظاهره؛ لقوله تعالى: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ﴾ فمنهم: المحسن المطلق؛ وهو المؤمن الذي إذا فعل فاحشة أو ظلم نفسه استغفر الله، ومنهم الظالم المطلق، وهو الكافر، ومنهم من عنده مطلق الإحسان

ومطلق الظلم، وهذا تارة يكون إلى الإحسان أقرب، وتارة إلى الظلم أقرب، حسب كثرة إحسانه، أو ظلمه.

٦٠- فضل المحسن؛ ولهذا قدم في الذكر على الظالم لنفسه.

٦١- أن من أحسن فإحسانه لنفسه، ومن ظلم فظلمه على نفسه.

٦٢- أنه لا نسب بين الله وبين الخلق، فمن ظلم نفسه لم ينفعه كونه من ذرية الأنبياء عليهم السلام.

* * *

قال الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١١٤﴾ وَنَجَّيْنَٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١١٥﴾ وَنَصَرْنَٰهُمْ فَكَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُمَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ ﴿١١٧﴾ وَهَدَيْنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١١٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١١٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٢﴾ وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٢٥﴾ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٢٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٢٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ ﴿١٣٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣١﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١١٤﴾ وَنَجَّيْنَٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١١٥﴾ وَنَصَرْنَٰهُمْ فَكَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُمَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ ﴿١١٧﴾ وَهَدَيْنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١١٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١١٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٢﴾ ﴾:

بعدما ذكر الله قصة إبراهيم عليه السلام، أتبعها بذكر قصة موسى وهارون؛ لأن موسى عليه السلام أفضل أولي العزم بعد محمد وإبراهيم عليهما الصلاة والسلام، وكتابه أفضل الكتب بعد القرآن الكريم، وهارون عليه السلام كان وزيرًا لموسى عليه السلام.

قوله: ﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١١٤﴾ ﴾، أي: بالنبوة والرسالة، وهما وكل أنبياء بني إسرائيل من ذرية إسحاق عليهم السلام.

﴿ وَنَجَّيْنَٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١١٥﴾ ﴾، أي: وخلصناهما ومن آمن معهما من قهر فرعون وبطشه وقومه، وسومهم لهم سوء العذاب؛ بقتل أبنائهم، واستحياء نسائهم، واستعبادهم في الخدمة، وأخس الأشياء، وإهانتهم وإذلالهم، وخلصناهم أيضًا من الغرق الذي أهلك الله به فرعون وقومه.

﴿ وَنَصَرْنَٰهُمْ ﴾، أي: وقويناهم وأظهرناهم، هما وقومهما على فرعون وقومه، بإغراقه وقومه وإهلاكهم، وإنجاء موسى وهارون وقومهما.

﴿ فَكَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴾، أي: فكانت لهم الغلبة والظفر والظهور على عدوهم في النهاية.

﴿ وَءَاتَيْنَٰهُمَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ ﴿١١٧﴾ ﴾، أي: وأعطيناهما الكتاب، وهو التوراة، أفضل كتب الله تعالى بعد القرآن الكريم.

﴿ٱلْمُسْتَبِينَ﴾ السين والتاء للمبالغة، أي: البين الواضح الجلي، الذي فيه بيان الحق من الباطل، والهدى من الضلال؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾﴾ [الأنبياء: ٤٨].

وسمي بـ«الكتاب»؛ لأن الله كتبه بيده؛ كما قال تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ﴾ [الأعراف: ١٤٥].

وقال آدم في حجاجه مع موسى عليهما السلام: «وأنت موسى الذي كلمه الله، وكتب له التوراة بيده»(١).

﴿وَهَدَيْنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١١٨﴾﴾، أي: أرشدناهما ووفقناهما إلى الطريق العدل المستقيم في الاعتقاد والأقوال والأفعال، الموصل إلى مرضاة الله تعالى وجنته.

﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١١٩﴾﴾، أي: أبقينا لهما من بعدهما ذكرًا جميلًا، وثناء حسنًا، ولسان صدق فيمن جاؤوا بعدهما.

﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٠﴾﴾ تفسير لقوله تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١١٩﴾﴾ أي: تركنا عليهما ذكرًا جميلًا، وثناء حسنًا، ومنه السلام عليهما.

﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾﴾، أي: جزيناهما بما ذكر؛ لأنهما من المحسنين، وكذلك نجزي جميع المحسنين.

﴿إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٢﴾﴾ تعليل لما قبله، أي: جازيناهما بما ذكر؛ لأنهما جمعا بين كمال الإحسان، والعبودية والإيمان.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٢٥﴾ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٢٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٢٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ ﴿١٣٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣١﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾﴾:

---

(١) أخرجه البخاري في القدر ٦٦١٤، ومسلم في القدر ٢٦٥٢، وأبو داود في السنة ٤٧٠١، وابن ماجه في المقدمة ٨٠؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

قوله: ﴿ وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ ﴾ اللام في قوله: ﴿لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ هنا، وفي الموضعين بعده، للتوكيد، يقال: «إلياس»، ويقال: «إلياسين»؛ كما في الآية الأخرى: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ ﴿١٣٠﴾ ﴾ وهو من أنبياء بني إسرائيل، يقال: أرسله الله إلى أهل «بعلبك».

﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ ﴾ «إذ»: ظرف بمعنى: «حين»، متعلق بمحذوف، تقديره: اذكر، و«ألا»: حرف عرض، واستمالة، وتحضيض، أي: ألا تتقون الله وعذابه، والقيامة وأهوالها في عبادتكم غير الله؟

﴿ أَتَدْعُونَ بَعْلًا ﴾ الاستفهام: للإنكار والتوبيخ والتسفيه، أي: أتعبدون صنمًا، قيل: كان لقومه صنم يعبدونه، يسمى: «بعلًا».

والدعاء: عبادة، سواء كان ركوعًا وسجودًا، أو دعاء مسألة فيما لا يقدر عليه إلا الله.

﴿وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾، أي: وتتركون عبادة أحسن الخالقين، الذي خلقكم، فلا تعبدونه.

وهذا يحتمل: أنهم لا يعبدون الله أبدًا ولا يعرفونه، ويحتمل: أنهم يعبدون مع الله غيره، ومن عبد مع الله غيره فهو كمن لم يعبد الله؛ لأن الله عز وجل غني عن عبادة من أشرك معه غيره؛ كما قال في الحديث القدسي: «**أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملًا أشرك معي فيه غيري، تركته وشركه**»(١).

﴿ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ قرأ يعقوب وحمزة والكسائي وخلف وحفص بنصب الأسماء الثلاثة: ﴿ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ وقرأ الباقون برفعها: «اللهُ ربُّكم وربُّ آبائكم الأولين».

أي: وهو سبحانه ربكم ورب آبائكم الأولين، أي: ورب أجدادكم الأولين، المستحق وحده للعبادة دون غيره.

ولم يقل: وتذرون الله، بل قال: ﴿وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾ الآية؛ استدلالًا بتوحيد الربوبية على توحيد الألوهية، أي: أتعبدون من لا يخلق، وتتركون عبادة الخالق سبحانه؟!

(١) سبق تخريجه.

﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ الفاء: عاطفة، ﴿فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ الفاء: رابطة لجواب شرط مقدر، واللام: للتوكيد، أي: لمحضرون يوم القيامة لدينا؛ لمناقشة الحساب، والعذاب، ولم يذكر لهم عقوبة دنيوية.

﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ۝١٢٨﴾ «إلا»: أداة استثناء، أي: لكن عباد الله المخلصين، من قوم إلياس وغيرهم، الذين أخلصوا لله تعالى العبادة، وأخلصهم واختصهم برحمته، فإنهم لا يحضرون للعذاب، بل لهم الأجر والثواب.

﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ۝١٢٩﴾، أي: وأبقينا له فيمن جاؤوا بعده ذكرًا جميلًا، وثناء حسنًا.

﴿سَلَامٌ عَلَىٰ إِلْ يَاسِينَ ۝١٣٠﴾ قرأ نافع وابن عامر ويعقوب بفتح الهمزة والمد وقطع اللام من الياء: «آلِ يَاسِينَ»؛ مثلَ: «آل يعقوبَ».

وقرأ الباقون بكسر الهمزة وإسكان اللام، ووصلها بالياء كلمة واحدة: ﴿إِلْ يَاسِينَ﴾ فيقال له: «إلياس»، ويقال له: «إلياسين»؛ كما يقال: «ميكال» و«ميكائيل»، أي: سلام عليه وعلى آله، وهو تفسير لما أُبقي عليه من الذكر الجميل، والثناء الحسن.

﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ۝١٣١﴾ تقدم الكلام عليه.

الفوائد والأحكام:

١- إثبات وتأكيد نبوة موسى وهارون عليهما السلام، وامتنان الله تعالى عليهما بذلك، وبإنجائه إياهما ومن تبعهما من بطش فرعون وآله بهم، قتلًا واستحياءً واستذلالًا، ومن الغرق، ونصرهم، وجعل الغلبة لهما وقومهما؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ۝١١٤ وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ۝١١٥ وَنَصَرْنَاهُمْ فَكَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ ۝١١٦﴾.

٢- شدة ما لقي موسى وهارون وبنو إسرائيل من فرعون وقومه.

٣- منة الله تعالى عليهما بإيتائهما الكتاب البين الواضح الجلي، المشتمل على بيان الهدى من الضلال، والحق من الباطل، وهي التوراة التي أنزلها الله تعالى على موسى؛ لقوله تعالى: ﴿وَآتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ ۝١١٧﴾ وفي هذا امتداح من الله تعالى للتوراة؛

لأنها أفضل كتبه عز وجل بعد القرآن الكريم.

٤- أنه قد يجتمع أكثر من رسول في وقت واحد، ولأمة واحدة، وبكتاب واحد، وشرع واحد، فموسى وهارون عليهما السلام كانا في وقت واحد، وأرسلا معًا إلى فرعون وقومه، وإلى بني إسرائيل، وكتابهما التوراة، وشرعهما ما جاء فيه، بل إن أكثر أنبياء بني إسرائيل كانت شريعتهم التوراة؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟﴾ [المائدة: ٤٤]؛ ولهذا فإن الإنجيل الذي أنزل على عيسى عليه السلام يعتبر مكملًا للتوراة.

٥- منة الله عز وجل على موسى وهارون عليهما السلام، بهدايتهما الصراط المستقيم، الموصل إلى مرضاة الله تعالى وجنته؛ لقوله تعالى: ﴿وَهَدَيْنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١١٨﴾﴾.

٦- أن كل إنسان محتاج إلى هداية الله له إلى الصراط المستقيم، وكل من هداه الله الصراط المستقيم فلله عليه نعمة ومنة، يجب أن يذكرها ويشكرها.

٧- إبقاء الذكر الجميل، والثناء الحسن، والسلام عليهما فيمن بعدهما؛ لقوله تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١١٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٠﴾﴾.

٨- أن الله عز وجل جازاهما بما ذكر؛ لأنهما من المحسنين، ومن عباد الله المؤمنين، جمعا بين كمال الإحسان، والعبودية والإيمان؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٢﴾﴾.

٩- وعد الله تعالى بمثل هذا الجزاء لجميع المحسنين؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾﴾.

١٠- إثبات عبودية موسى وهارون وإلياس عليهم السلام، وغيرهم من الرسل والمؤمنين، لله تعالى عبودية خاصة؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٢﴾﴾، وقوله: ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾﴾.

١١- فضيلة الإحسان والعبودية لله تعالى والإيمان، والترغيب بالاتصاف بذلك.

١٢- أن العبودية لله تعالى أشرف ما يوصف به البشر؛ ولهذا وصف الله بها رسله وأنبياءه.

١٣- إثبات رسالة «إلياس» عليه السلام؛ لقوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾.

١٤- دعوته عليه السلام قومه إلى تقوى الله عز وجل، وإنكاره ما هم عليه من عبادة الأصنام، وترك عبادة ربهم وخالقهم، وتوبيخهم وتسفيههم؛ لقوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٢٥﴾ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾﴾.

١٥- وجوب تقوى الله تعالى على العباد، بإخلاص العبادة له وحده لا شريك له.

١٦- الاستدلال بتوحيد الربوبية على توحيد الألوهية؛ لقوله: ﴿ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٢٥﴾ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾﴾.

فتفرده بالخلق والربوبية، يوجب إفراده بالعبادة والألوهية.

١٧- إثبات ربوبية الله تعالى العامة لجميع الخلق؛ لقوله: ﴿ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾﴾.

١٨- تكذيبهم لإلياس عليه السلام، وتوعدهم بإحضارهم يوم القيامة بين يدي الله تعالى؛ لمناقشة الحساب والعذاب، وإدخالهم النار؛ لقوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٢٧﴾﴾.

١٩- سلامة عباد الله الذين أخلصوا العبادة لله، وأخلصهم واختصهم برحمته من العذاب، وفوزهم بالثواب؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٢٨﴾﴾.

٢٠- إبقاء الذكر الجميل، والثناء الحسن، والسلام على إلياس عليه السلام فيمن جاؤوا بعده؛ لأنه من المحسنين، ومن عباد الله المؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْآخِرِينَ ﴿١٢٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ ﴿١٣٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣١﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝١٣٣ إِذْ نَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ۝١٣٤ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ ۝١٣٥ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ۝١٣٦ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ۝١٣٧ وَبِٱلَّيْلِ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝١٣٨ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝١٣٩ إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ۝١٤٠ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ۝١٤١ فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ۝١٤٢ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ۝١٤٣ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۝١٤٤ ۞ فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ۝١٤٥ وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ۝١٤٦ وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِا۟ئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ۝١٤٧ فَـَٔامَنُوا۟ فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ۝١٤٨﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝١٣٣ إِذْ نَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ۝١٣٤ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ ۝١٣٥ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ۝١٣٦ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ۝١٣٧ وَبِٱلَّيْلِ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝١٣٨﴾.

قوله: ﴿وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝١٣٣﴾ الذين أرسلهم الله إلى بني إسرائيل.

﴿إِذْ نَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ۝١٣٤﴾، أي: حين نجيناه وأهله أجمعين. قيل: هو وابنتاه.

﴿إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ ۝١٣٥﴾ «إلا»: أداة استثناء، و«عجوزًا»: منصوب على الاستثناء المتصل، وهي زوجته، كانت كافرة على دين قومها، وكانت تظاهرهم على لوط. قيل: اسمها: «وارهة».

﴿ٱلْغَٰبِرِينَ﴾: الباقين في العذاب، الهالكين.

﴿ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ۝١٣٦﴾، أي: أهلكنا بقية قومه ودمرناهم تدميرًا عظيمًا، بأن قلبنا عليهم ديارهم، فجعلنا عاليها سافلها، وأتبعناهم حجارة من سجيل منضود؛ كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ۝٨٢ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ۖ وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ۝٨٣﴾ [هود: ٨٢- ٨٣].

وقال تعالى: ﴿فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ۝٧٤﴾ [الحجر: ٧٤].

فصارت محلتهم بحيرة منتنة قبيحة المنظر، يمر عليها المسافرون في طريقهم بين الحجاز والشام، ولهذا قال:

﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم﴾ اللام: للتوكيد، أي: وإنكم لتمرون على ديارهم وآثارهم، ﴿مُّصْبِحِينَ﴾ حال، أي: حال الصباح في النهار، ﴿وَبِٱلَّيْلِ﴾.

أي: وتمرون عليهم بالليل، أي: لتمرون عليهم بالنهار والليل في سفركم، ذهابًا

وإيابًا؛ لكون ديارهم على الطريق؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾﴾ [الحجر: ٧٦].

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ الاستفهام: للتوبيخ، أي: أفلا تتفكرون وتنتفعون بعقولكم، فتعتبروا بحال هؤلاء، وكيف دمر الله عليهم بسبب كفرهم وإجرامهم، وللكافرين أمثالها؟

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ ۞ فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ ﴿١٤٨﴾﴾:

قوله: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾﴾ هو يونس بن متى؛ كما قال ﷺ: **«ما ينبغي لعبد أن يقول: أنا خير من يونس بن متى»**. ونسبه إلى أبيه[1].

أرسل إلى قومه، وهو من رسل بني إسرائيل.

﴿إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾﴾، أي: حين خرج من بين ظهراني قومه مستعجلًا مسرعًا مغاضبًا لهم، ولم يصبر حين استعصوا على الاستجابة له لأول وهلة، ولم ينزل بهم العذاب الذي توعدهم به؛ كما قال تعالى: ﴿وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ [الأنبياء: ٨٧].

﴿إِلَى الْفُلْكِ﴾، أي: السفينة، ﴿الْمَشْحُونِ﴾: المملوء من الركاب.

﴿فَسَاهَمَ﴾، أي: اقترع مع ركاب السفينة: أيهم ينزل منها؟ لتخفيف حمولتها حين أخذت الأمواج تلعب بها، وأشرفوا على الغرق كلهم.

﴿فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ﴾، أي: من المغلوبين الذين وقعت عليهم القرعة؛ ليلقوا أنفسهم بالبحر، حتى لا تغرق السفينة وكل من فيها، ارتكابًا لأخف الضررين. وقد قيل: إن أصحاب السفينة أعادوا الاقتراع ثلاث مرات؛ ضنًّا بيونس أن يلقى في البحر،

---

(١) أخرجه البخاري في الأنبياء قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾﴾ ٣٣٩٦، ٣٣٩٥، ومسلم في الفضائل، ذكر يونس عليه السلام ٣٣٧٧؛ من حديث ابن عباس رضي الله عنه.

لكنها كانت تقع عليه.

﴿فَٱلۡتَقَمَهُ ٱلۡحُوتُ﴾، أي: فابتلعه الحوت، وهو سمك عظيم، ولم يمضغه، فلم يهشم له لحمًا، ولم يكسر لهم عظمًا.

﴿وَهُوَ مُلِيمٞ﴾ الجملة: حالية، أي: وهو يعني يونس عليه السلام، ﴿مُلِيمٞ﴾، أي: آتٍ بما يلام عليه، والذي يلام عليه هو خروجه من قومه مغاضبًا لهم قبل أن يأذن الله له، وكان من الواجب عليه أن يصبر؛ ولهذا قال الله عز وجل لنبينا محمد ﷺ:

﴿فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلۡحُوتِ إِذۡ نَادَىٰ وَهُوَ مَكۡظُومٞ ۝٤٨ لَّوۡلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعۡمَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلۡعَرَآءِ وَهُوَ مَذۡمُومٞ ۝٤٩ فَٱجۡتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝٥٠﴾ [القلم: ٤٨- ٥٠].

﴿فَلَوۡلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُسَبِّحِينَ ۝١٤٣﴾ «لولا»: شرطية غير عاملة؛ وهي حرف امتناع لوجود، أي: فلولا أنه كان من المصلين المتعبدين الذاكرين الله المسبحين بقوله: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ وغير ذلك؛ كما قال تعالى: ﴿فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٨٧﴾ [الأنبياء: ٨٧].

﴿لَلَبِثَ فِي بَطۡنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ۝١٤٤﴾ اللام: واقعة في جواب «لولا»، أي: لمكث في بطن الحوت إلى يوم البعث، يوم القيامة، لكن بسبب تسبيحه وعبادته نجاه الله تعالى، وقد قال ﷺ في وصيته لابن عباس رضي الله عنهما: «**تعرَّفْ إلى الله في الرخاء، يعرِفْك في الشدة**»(١).

﴿۞فَنَبَذۡنَٰهُ﴾، أي: طرحناه من بطن الحوت وألقيناه، ﴿بِٱلۡعَرَآءِ﴾ «العراء»: وجه الأرض، أي: بالأرض الفضاء، الخالية من الشجر والبناء.

﴿وَهُوَ سَقِيمٞ﴾ الجملة حالية، أي: وهو مريض ضعيف البدن، بسبب حبسه في بطن الحوت.

﴿وَأَنۢبَتۡنَا عَلَيۡهِ﴾، أي: وأنبتنا عليه في هذه الأرض العراء- لطفًا به ورحمة- ﴿شَجَرَةٗ مِّن يَقۡطِينٖ﴾ وهي شجرة القرع سريعة نمو الورق باردة؛ لتظله؛ لشدة حاجته إلى الظل؛

---

(١) أخرجه أحمد ١/ ٣٠٧.

ولهذا قال: ﴿ وَأَنۢبَتۡنَا عَلَيۡهِ ﴾ ولم يقل: «وأنبتنا له».

قيل: إنه لا يقع عليها الذباب.

﴿ وَأَرۡسَلۡنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلۡفٍ ﴾، أي: أرسله الله تعالى، وأتم رسالته إلى مئة ألف، ﴿أَوۡ يَزِيدُونَ﴾ «أو» بمعنى: «بل» التي للإضراب الانتقالي، أي: بل يزيدون. ويحتمل: أن تكون «أو» للتحقيق، أي: لتحقيق العدد السابق، وهو مئة ألف، أي: إن لم يزيدوا على مئة ألف فلا ينقصون عنها، فدعاهم إلى الله تعالى.

﴿فَـَٔامَنُواْ ﴾ الفاء: عاطفة، أي: فبادر هؤلاء المئة ألف كلهم جميعًا إلى الإيمان، والتصديق به وبما دعاهم إليه.

﴿فَمَتَّعۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ حِينٖ ﴾ أي: فكشفنا عنهم العذاب، وصرفناه عنهم بعد ما انعقدت أسبابه، وأبقيناهم متمتعين إلى بلوغ آجالهم؛ كما قال تعالى: ﴿فَلَوۡلَا كَانَتۡ قَرۡيَةٌ ءَامَنَتۡ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوۡمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفۡنَا عَنۡهُمۡ عَذَابَ ٱلۡخِزۡيِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَمَتَّعۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ حِينٖ ﴾ [يونس:٩٨].

الفوائد والأحكام:

١- إثبات رسالة لوط عليه السلام؛ لقوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ لُوطٗا لَّمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴾.

٢- امتنان الله على لوط عليه السلام، بإنجائه وأهله من العذاب والهلاك، إلا زوجته، فكانت في الهالكين؛ لكفرها ومظاهرتها قومها على لوط؛ لقوله تعالى: ﴿إِذۡ نَجَّيۡنَٰهُ وَأَهۡلَهُۥٓ أَجۡمَعِينَ إِلَّا عَجُوزٗا فِي ٱلۡغَٰبِرِينَ ﴾.

٣- تدمير وإهلاك الآخرين من قومه؛ لكفرهم وإجرامهم، وشناعة فعلهم؛ لقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ دَمَّرۡنَا ٱلۡأٓخَرِينَ ﴾.

٤- وجوب الحذر من ارتكاب فاحشتهم؛ لأنها سبب للتدمير حسيًّا، وهو الهلاك، ومعنويًّا، بتدمير الرجولة، بانقلاب الذكور إناثًا.

٥- سنة الله تعالى الثابتة التي لا تتبدل ولا تتحول بإنجاء رسله والمؤمنين، وإهلاك المكذبين.

٦- أن آثار ما أوقعه الله بقوم لوط وبديارهم ظاهرة للعيان، على طريق المسافرين بين الحجاز والشام، يمرون عليها، نهارًا وليلًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ﴾.

٧- تقريع وتوبيخ المشركين المكذبين للنبي صلى الله عليه وسلم، والإنكار عليهم، كيف لا يتفكرون بعقولهم بما حل بقوم لوط بسبب كفرهم وإجرامهم، فيحذرون أن يحل بهم مثله؟! لقوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

٨- أن من لم ينتفع بعقله بمعرفة طريق النجاة من العذاب فليس بعاقل.

٩- إثبات رسالة يونس عليه السلام؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾.

١٠- استعجال يونس عليه السلام، وعدم صبره، وخروجه من قومه مغاضبًا لهم، قبل أن يأذن الله له؛ لقوله تعالى: ﴿إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾.

١١- أن الأنبياء والرسل عليهم السلام ليسوا معصومين من الصغائر، التي لا تتعلق بالتبليغ، ولا تخل بالشرف، لكنهم لا يستمرون عليها، وسرعان ما يتوبون منها؛ لقوله تعالى: ﴿إِذْ أَبَقَ﴾، أي: هرب قبل إذن الله له.

١٢- ابتلاء الله تعالى، وامتحانه ليونس لما أبق وخرج من عند قومه بركوب الفلك المشحون، وما جرى له من المساهمة والاقتراع بينه وبين أهل الفلك، وكونه من المدحضين، ثم نزوله في البحر، والتقام الحوت له؛ لقوله تعالى: ﴿فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ﴾.

١٣- مشروعية القرعة، وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا أراد سفرًا اقترع بين نسائه، فأيتهن وقعت عليها القرعة خرج بها.

١٤- ارتكاب أخف الضررين؛ لدفع أعلاهما؛ لأن غرق البعض أخف وأهون من غرق الجميع.

١٥- آية من آيات الله الدالة على عظمته وتمام قدرته أن جعل هذا الحوت يلتقم يونس، أي: يبتلعه، دون أن يمزق له لحمًا أو يكسر له عظمًا؛ لقوله تعالى: ﴿فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ﴾.

١٦- أن يونس عليه السلام حين التقمه الحوت قد أتى بما يلام عليه، وهو غضبه على قومه، وعدم صبره، واستعجاله في الخروج من بينهم قبل إذن الله تعالى له؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ مُلِيمٌ﴾.

وفي هذا حب الإعذار من الله. وفي الحديث: «لا أحد أحب إليه العذر من الله»[(١)].

١٧- فضيلة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم على يونس وعلى غيره من الأنبياء عليهم السلام؛ لما كان عليه من الصبر على قومه- مع شدة أذاهم له، فقد لبث في مكة ثلاث عشرة سنة يدعو بالتي هي أحسن، وبالصفح ويقول: «رب اغفر لقومي؛ فإنهم لا يعلمون»[(٢)].

١٨- أن التسبيح والصلاة وعبادة الله تعالى، والطاعة السابقة من أسباب النجاة من الغم وكشف الكروب؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾﴾، كما قال تعالى: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾ [الأنبياء:٨٨].

١٩- إثبات البعث؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾.

٢٠- قدرة الله تعالى على جعل الحوت قبرًا ليونس؛ لقوله تعالى: ﴿لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾.

٢١- إلقاء الحوت له، ونبذه في الأرض الفضاء، وهو سقيم، بتقدير الله تعالى، ولطفه به، بإنباته عليه شجرة من يقطين تظله؛ لقوله تعالى: ﴿۞ فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾﴾.

٢٢- لا ينبغي اليأس من الشفاء مهما بلغ المرض بالإنسان؛ لتمام قدرة الله تعالى ولطفه.

---

(١) أخرجه البخاري في التوحيد (٧٤١٦)، ومسلم في اللعان (١٤٩٩)- من حديث المغيرة بن شعبة رضي الله عنه.

(٢) سبق تخريجه.

٢٣- إرساله بعد هذا إلى مئة ألف أو يزيدون؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾.

٢٤- إيمانهم كلهم جميعًا، وتصديقهم به وبما دعاهم إليه؛ لقوله تعالى: ﴿فَـَٔامَنُواْ﴾.

٢٥- كشف العذاب عنهم بعد أن رأوه، وصرفه لما آمنوا، وتمتيعهم إلى بلوغ آجالهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَـَٔامَنُواْ فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾.

٢٦- أن الإيمان سبب لطول العمر، كما قال نوح عليه السلام: ﴿أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴿٣﴾ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [نوح:٤، ٣].

٢٧- أن من نجى من الأسباب المهلكة فلن ينجو من الموت:

ومن لم يمت بالسيف مات بغيره — تعددت الأسباب والموت واحد

* * *

قال الله تعالى: ﴿ فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾ أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ ﴿١٥٠﴾ أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾ أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ مُّبِينٌ ﴿١٥٦﴾ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٥٧﴾ وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا ۚ وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٠﴾ فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴿١٦١﴾ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَٰتِنِينَ ﴿١٦٢﴾ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦٣﴾ وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ ﴿١٦٦﴾ وَإِن كَانُوا۟ لَيَقُولُونَ ﴿١٦٧﴾ لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦٨﴾ لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٩﴾ فَكَفَرُوا۟ بِهِۦ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿١٧٠﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾ أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ ﴿١٥٠﴾ أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾ أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ مُّبِينٌ ﴿١٥٦﴾ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٥٧﴾ وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا ۚ وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٠﴾ ﴾:

ذكر في الآيات السابقة قصص عدد من الرسل وأممهم، وما آل إليه أمرهم؛ من إنجاء الرسل وأتباعهم، وإهلاك المكذبين؛ تسلية للنبي ﷺ، وتحذيرًا للمكذبين والمشركين من قومه، ثم انتقل إلى الإنكار عليهم.

قوله: ﴿ فَٱسْتَفْتِهِمْ ﴾ الخطاب للنبي ﷺ، أي: فاسأل يا محمد هؤلاء المشركين. وهذا من باب التهكم بهم؛ كأنهم نصبوا أنفسهم يحكمون بما يشاؤون؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴾ [القلم: ٣٩].

﴿أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ﴾ الاستفهام: للإنكار والتوبيخ، أي: كيف يجعلون لله البنات اللاتي يكرهون، ويختارون لهم البنين؟ كما قال تعالى: ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ ۙ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴾ [النحل:٥٧]، وذلك بزعمهم أن الملائكة بنات الله، أي: أن هذا حكم باطل جائر؛ كما قال تعالى: ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴾ [النجم:٢١- ٢٢].

ولهذا قال: ﴿ أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا ﴾ «أم»: هي المنقطعة التي بمعنى: «بل»، وهمزة الاستفهام الإنكاري، أي: بل أخلقنا الملائكة إناثًا؟

﴿وَهُمْ شَٰهِدُونَ ﴾ الجملة حالية، أي: وهم حاضرون خلقهم، أي: ليس الأمر

كذلك؛ فالملائكة ليسوا إناثًا ولا ذكورًا؛ لأنهم لا يتوالدون، ولا يأكلون، ولا يشربون، فكيف حكموا بأنهم إناث وهم ما شاهدوا خلقهم وما حضروه؟

كما قال تعالى: ﴿ وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴿١٩﴾ ﴾ [الزخرف: ١٩]، أي: ويُسألون عن ذلك يوم القيامة.

﴿ أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ ﴾ «ألا»: حرف استفتاح يفيد التنبيه والتوكيد، أي: ألا إنهم من كذبهم الواضح، وافترائهم الظاهر، و«مِن»: سببية، أي: بسبب إفكهم.

وقدَّمَ السبب- وهو قوله: ﴿مِّنْ إِفْكِهِمْ ﴾- على المسبب- وهو قوله: ﴿لَيَقُولُونَ ﴾- تأكيدًا لبطلان قولهم وكذبهم.

واللام في قوله: ﴿لَيَقُولُونَ ﴾: للتوكيد.

﴿وَلَدَ ٱللَّهُ ﴾، أي: ينسبون الولد إلى الله، تعالى الله عن ذلك، فيقولون: الملائكة بنات الله.

﴿وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴾ الجملة معطوفة على التي قبلها، ومؤكدة بـ«إنَّ» واللام، فأكد عز وجل بطلان قولهم وكذبه قبل ذكره وبعده؛ كما قال تعالى: ﴿وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ ۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ ﴾ [الأنعام: ١٠٠- ١٠١].

﴿ أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ ﴾ قرأ أبو جعفر: «اصْطَفَى»؛ بوصل الهمزة، وكسرها في الابتداء، وقرأ الباقون بقطع الهمزة وفتحها مطلقًا: ﴿ أَصْطَفَى﴾ والاستفهام للنفي، أي: أيختار الله عز وجل- على سبيل الفرض والتقدير الممتنع أن يتخذ ولدًا- البنات على البنين، أي: لا يمكن أن يختار البنات دون البنين؛ كما قال تعالى: ﴿ أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا ۚ ﴾ [الإسراء: ٤٠].

﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ ﴾ «ما» و«كيف»: كل منهما اسم استفهام، والاستفهام: للإنكار والتوبيخ، أي: كيف تقولون هذا القول العظيم، وتحكمون هذا الحكم الفاسد الجائر؟! كما قال تعالى: ﴿إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴾ [الإسراء: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾ ﴾ [النجم: ٢١؛٢٢].

﴿ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾ ﴾ قرأ حمزة والكسائي وحفص عن عاصم وخلف بتخفيف الذال:

﴿تَذَكَّرُونَ﴾ وقرأ الباقون بتشديدها: «تَذَّكَّرُونَ».

والاستفهام: للإنكار والتقريع، أي: أفلا تتعظون، وتعتبرون، وتميزون، فتعرفوا بطلان هذا القول، وأنه عز وجل منزه عن الولد بدليل العقل والنقل؟

﴿أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٥٦﴾﴾ «أم» كالتي قبلها، أي: بل ألكم سلطان مبين؟ أي: برهان بيِّن وحجة ظاهرة، من نقل أو عقل، على قولكم هذا يبين أنه حق؛ ولهذا قال: ﴿فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٥٧﴾﴾ الفاء: رابطة لجواب شرط مقدر، والأمر هنا للتحدي والتعجيز، أي: فأتوا بكتابكم المنزل من عند الله، الذي يدل على ما قلتم، إن كنتم صادقين، أي: إن كنتم صادقين في قولكم ذلك، أي: إنكم لا يمكن أن تأتوا بكتاب يدل على أن الله جعل الملائكة بناتًا له؛ كما تزعمون، فقولكم باطل لا مستند له من نقل ولا عقل، بل لا يُجَوِّزه العقل.

﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ﴾، أي: بين الله عز وجل، ﴿وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا﴾، أي: صلة؛ حيث قالوا: الملائكة بنات الله، وأمهاتهم سروات الجن.

﴿وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ﴾ الواو: عاطفة، واللام: لام القسم لقسم مقدر، أي: والله لقد علمت الجن.

﴿إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ اللام: للتوكيد، أي: إنهم لمحضرون بين يدي الله تعالى يوم القيامة؛ ليجازيهم على أعمالهم، فلو كان بينهم وبين الله نسب- كما زعم المشركون- لكان لهم حال آخر.

وقيل: المعنى: ولقد علمت الجن أن هؤلاء المشركين لمحضرون للحساب؛ لكذبهم وزعمهم الباطل أن بينه عز وجل وبين الجنة نسبًا.

﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٥٩﴾﴾ «ما»: مصدرية أو موصولة، أي: تنزيهًا لله تعالى عن وصفهم، أو عن الذي يصفونه به من الصاحبة والولد، والشريك، ومماثلة المخلوقين، وغير ذلك مما لا يليق به سبحانه.

﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٠﴾﴾ «إلا»: أداة استثناء بمعنى: «لكن»، و«عباد» منصوب على الاستثناء المنقطع.

﴿الْمُخْلَصِينَ﴾: الذين أخلصوا العبادة لله تعالى، وأخلصهم واختصهم برحمته.

فنزه عز وجل نفسه عما يصفه به كل الخلق إلا المخلصين من عباده، وهم الرسل وأتباعهم؛ لأنهم لا يصفونه إلا بما يليق به من صفات الكمال والجلال.

قوله تعالى: ﴿فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴿١٦١﴾ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ ﴿١٦٢﴾ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ ﴿١٦٣﴾ وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ ﴿١٦٦﴾ وَإِن كَانُوا لَيَقُولُونَ ﴿١٦٧﴾ لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٦٨﴾ لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٩﴾ فَكَفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿١٧٠﴾﴾:

لما أبطل نسبتهم الولد لله، وجعْلَ الإناث له دون الذكور، وزعمهم أن الملائكة بنات الله، وجعلهم بينه وبين الجن نسبًا، انتقل إلى إبطال ما هم عليه من الشرك، فقال: ﴿فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴿١٦١﴾﴾ «ما»: موصولة، أي: إنكم أيها المشركون، والذي تعبدونه من دون الله من الأصنام.

وفيه التفات من الغيبة إلى الحضور؛ للتنبيه، وللتحدي للمشركين وإهانتهم وإذلالهم.

﴿مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ ﴿١٦٢﴾﴾ «ما»: نافية، والضمير في «عليه» يعود إلى «ما» الموصولة في قوله: ﴿وَمَا تَعْبُدُونَ﴾.

أي: إنكم أيها المشركون، ومعبوداتكم من دون الله، ﴿مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ﴾، أي: ما أنتم على الذي تعبدون ﴿بِفَاتِنِينَ﴾، أي: بمضلين أحدًا، أي: لا تقدرون على أن تفتنوا، أي: تضلوا أحدًا، وتصدوه عن دين الله، فيعبد أصنامكم.

﴿إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ ﴿١٦٣﴾﴾ «إلا»: أداة حصر، و«مَن»: موصولة، أي: إلا الذي سبق في علم الله أنه يصلى الجحيم، أي: يدخلها ويقاسي حرها، فهو الذي يفتتن بفتنتكم إياه؛ لنفوذ قضاء الله تعالى فيه؛ كما قال تعالى: ﴿يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ﴿٩﴾﴾ [الذاريات: ٩]، أي: يُصرَف عن الحق ويضل عنه من قُضي عليه بالخذلان، واتباع الباطل.

﴿وَمَا مِنَّا﴾ هذا من كلامه عز وجل على لسان الملائكة؛ للرد على من زعم أنهم بنات الله، أي: وما منا نحن الملائكة، ﴿إِلَّا﴾: أداة حصر.

﴿لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾، أي: له مكان وزمان قيام وعبادة وعمل وتدبير معلوم، أمره الله به؛ كما قال تعالى: ﴿لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦]، وقال تعالى: ﴿لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [الأنبياء: ٢٧].

فلا يخرجون عن طاعة الله، ولا يتجاوزون ما أمرهم الله تعالى به، وليس لهم من الأمر شيء، فكيف يُعبدون مع الله عز وجل؟

﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ (١٦٥) وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ (١٦٦)﴾ اللام في الموضعين: للتوكيد، أي: وإنا لنحن الصافون صفوفًا في الصلاة والعبادة، والعمل بين يدي الله تعالى، وفي طاعته؛ كما قال تعالى: ﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا (١)﴾ [الصافات: ١].

وقال ﷺ: «**ألا تصفون كما تصف الملائكة عند ربها؟**»، قالوا: وكيف تصف الملائكة عند ربها؟ قال: «**يتمون الصفوف الأُوَل، ويتراصون**»(١).

﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ (١٦٦)﴾ المقدسون لله، المنزهون له عن الشريك، وعن كل ما لا يليق به، فكيف نُجعل شركاء معه؟! كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَانَهُ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ (٢٦) لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ (٢٧) يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ (٢٨) ۞ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ (٢٩)﴾ [الأنبياء: ٢٦- ٢٩].

عن عبدالرحمن بن العلاء بن سعد، عن أبيه رضي الله عنه- وكان ممن بايع يوم الفتح- أن رسول الله ﷺ قال يومًا لجلسائه: «**أطت السماء وحق لها أن تئط؛ ليس فيها موضع قدم إلا وعليه ملك راكع أو ساجد. ثم قرأ: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ (١٦٥) وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ (١٦٦)﴾**»(٢).

ورُوي عن عائشة رضي الله عنها، قالت: قال رسول الله ﷺ: «**ما من السماء من موضع شبر إلا عليه جبهة ملك، أو قدماه. ثم قرأ: ﴿وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ (١٦٤)﴾**»(٣).

عن حذيفة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**فُضِّلنا بثلاث: جعلت صفوفنا كصفوف الملائكة، وجعلت لنا الأرض مسجدًا، وتربتها طهورًا**»(٤).

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٧/ ٣٨ نقلًا عن ابن عساكر، وأخرجه الترمذي في الزهد بمعناه دون قوله: «ثم قرأ...» إلى آخره ٢٣١٢؛ من حديث أبي ذر رضي الله عنه، وقال: «حسن غريب».

(٣) ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٧/ ٣٨.

(٤) سبق تخريجه.

﴿وَإِن كَانُواْ﴾ «إنْ»: مخففة من الثقيلة، واسمها: ضمير الشأن محذوف، أي: وإن كان المشركون المكذبون للنبي ﷺ.

﴿لَيَقُولُونَ﴾ اللام للتوكيد، أي: ليقولون قبل بعثة محمد ﷺ فيهم، ونزول القرآن الكريم عليه.

﴿لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٦٨﴾﴾ «لو»: شرطية غير عاملة، أي: لو أن عندنا كتابًا من كتب الأنبياء السابقين، وتذكيرًا مما ذُكِّر به الأولون.

﴿لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٩﴾﴾ اللام: واقعة في جواب «لو»، أي: لكنا نحن عباد الله المخلصين، الذين أخلصوا له العبادة والعمل، دون غيرنا.

﴿فَكَفَرُواْ بِهِ﴾، أي: فكفروا بالقرآن لما جاءهم، وكذبوا الرسول ﷺ؛ كما قال تعالى: ﴿وَأَقْسَمُواْ بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾﴾ [فاطر: ٤٢].

﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾، أي: فسوف يعلمون عاقبة كفرهم وتكذيبهم. وهذا تهديد ووعيد لهم، قال تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾ أَن تَقُولُواْ إِنَّمَا أُنزِلَ الْكِتَابُ عَلَىٰ طَائِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ ﴿١٥٦﴾ أَوْ تَقُولُواْ لَوْ أَنَّا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَىٰ مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يَصْدِفُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [الأنعام: ١٥٥- ١٥٧].

الفوائد والأحكام:

١- الإنكار على المشركين في كذبهم وجورهم بنسبتهم الولد لله تعالى، وجعل البنات له ولهم البنون؛ لقوله تعالى: ﴿فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾﴾، أي: سلهم منكرًا عليهم، ومبطلًا زعمهم: كيف تجعلون لله البنات ولكم البنون؟!

٢- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة للنبي ﷺ، وتشريفه بخطاب الله تعالى له بقوله: ﴿أَلِرَبِّكَ﴾.

٣- جهل مشركي العرب في كراهتهم للبنات؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم

بِٱلۡأُنثَىٰ ظَلَّ وَجۡهُهُۥ مُسۡوَدّٗا وَهُوَ كَظِيمٞ ﴿٥٨﴾﴾ [النحل: ٥٨].

٤- الإنكار عليهم؛ كيف حكموا على الملائكة بأنهم إناث، وما شاهدوا خلقهم، ولا حضروه؟! لقوله تعالى: ﴿ أَمۡ خَلَقۡنَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثٗا وَهُمۡ شَٰهِدُونَ ﴿١٥٠﴾﴾، أي: أنهم لم يشاهدوا خلقهم، فكيف حكموا بأنهم إناث، والبينة على المدعي؟!

٥- إثبات وجود الملائكة، وهم خلق من خلق الله تعالى، خلقهم الله من نور.

٦- التنبيه على شدة إفكهم وكذبهم، في نسبتهم الولد لله، تعالى الله عن قولهم؛ لقوله تعالى: ﴿ أَلَآ إِنَّهُم مِّنۡ إِفۡكِهِمۡ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ ﴾.

٧- تأكيد كذبهم، وإبطال قولهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ﴾ فأكد عز وجل كذب قولهم قبل ذكره وبعده؛ تنزيهًا لنفسه عن الولد.

٨- الإنكار عليهم؛ كيف يزعمون اختيار الله لنفسه البنات وإيثارهم بالبنين؟ وهل يعقل هذا أو يليق؟! لقوله تعالى: ﴿ أَصۡطَفَى ٱلۡبَنَاتِ عَلَى ٱلۡبَنِينَ ﴿١٥٣﴾﴾.

٩- التسفيه لهم؛ كيف يحكمون هذا الحكم الجائر؛ بنسبة الولد لله، ومن جعل البنات له ولهم البنون؟ لقوله تعالى: ﴿مَا لَكُمۡ كَيۡفَ تَحۡكُمُونَ ﴿١٥٤﴾﴾ كما قال تعالى: ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلۡأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلۡكَ إِذٗا قِسۡمَةٞ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾﴾ [النجم: ٢١- ٢٢].

١٠- الإنكار عليهم، وتوبيخهم؛ لعدم تذكرهم؛ إذ لو تذكروا واعتبروا وميزوا لم يقولوا هذا القول؛ لقوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾﴾.

١١- نَفْي أن يكون لهم برهان بيِّن، وحجة ظاهرة، من نقل أو عقل، على قولهم هذا؛ لقوله تعالى: ﴿أَمۡ لَكُمۡ سُلۡطَٰنٞ مُّبِينٞ ﴿١٥٦﴾﴾، أي: ليس لكم سلطان مبين على ما تقولون.

١٢- تحديهم وتعجيزهم أن يأتوا بكتاب منزل من الله يدل على صدقهم؛ لقوله تعالى: ﴿ فَأۡتُواْ بِكِتَٰبِكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿١٥٧﴾﴾.

١٣- كذبهم وجرأتهم في نسبة الصاحبة لله، وجعلهم بينه وبين الجن نسبًا، تعالى الله عن ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَجَعَلُواْ بَيۡنَهُۥ وَبَيۡنَ ٱلۡجِنَّةِ نَسَبٗاۚ ﴾.

١٤- إثبات وجود الجن، وهم خلق من خلق الله، خلقوا من نار؛ كما قال تعالى: ﴿ وَخَلَقَ ٱلۡجَآنَّ مِن مَّارِجٖ مِّن نَّارٖ ﴿١٥﴾﴾ [الرحمن: ١٥].

١٥- علم الجن؛ أنهم لمحضرون بين يدي الله تعالى للحساب، وأنهم خلق من خلق الله ضعاف، سيجازون كغيرهم على أعمالهم، ولا نسب ولا حسب بينهم وبين الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾.

كما أنهم يتبرؤون من دعوى هؤلاء المشركين، الذين جعلوا بين الله وبين الجِنَّة نسبًا، ويعلمون أن هؤلاء سيحضرون ويحاسبون على قولهم هذا.

١٦- أن الجن كالإنس مبعوثون ومحضرون يوم القيامة، ومحاسبون ومجزيون بأعمالهم.

١٧- إثبات البعث والحساب، والجزاء على الأعمال.

١٨- تنزيه الله تعالى وتقديسه عما يصفه به المشركون والمبطلون؛ من الشريك، والصاحبة، والولد، وكل ما لا يليق به؛ لقوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝١٥٩﴾.

١٩- امتداح الله عز وجل لعباده المخلصين، وأنهم لا يصفونه إلا بما يليق به من صفات الكمال والجلال؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ۝١٦٠﴾.

٢٠- إثبات عبودية المؤمنين لله تعالى عبودية خاصة؛ لقوله تعالى: ﴿عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾.

٢١- تحدي المشركين، ونفي أن يقدروا هم ومعبوداتهم من دون الله على فتنة أحد وإضلاله، إلا من سبق في علم الله أنه من أهل النار؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ۝١٦١ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَٰتِنِينَ ۝١٦٢ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ ۝١٦٣﴾.

٢٢- إثبات القدر، وأن الله قدر في الأزل مقادير كل شيء من الهداية والضلال، وغير ذلك، وأن من كتب الله له الهداية فلا سبيل إلى إضلاله، وأن من كتب عليه الضلال فهو ضال لا محالة، لكن على المرء أن يحذر من فتنة أهل الشر والفساد؛ لئلا يكون ممن هو صالِ الجحيم.

٢٣- إثبات وجود النار، وأنها معدة للكافرين.

٢٤- أن الملائكة عليهم السلام خلق من خلق الله مدبرون، لكل منهم مقامه وعبادته وعمله، وما وكل إليه، وليسوا بنات الله؛ كما يزعمه المشركون؛ لقولهم: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ۝١٦٤﴾.

٢٥- تمدح الملائكة بما لكل منهم من مقام معلوم، وبما هم عليه من الصفات العظيمة، في تعظيمهم لله تعالى، ووقوفهم أمامه صفوفًا في الصلاة والعبادة والعمل، وتسبيحهم وتعظيمهم له على الدوام؛ لقولهم: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ ﴿١٦٦﴾﴾.

٢٦- أهمية النظام والانتظام؛ لأن ذلك أساس النجاح.

٢٧- دعوى المشركين كذبًا ومكابرة؛ أنه لو كان عندهم كتاب وتذكير مما ذُكر به الأولون، لكانوا أخلص الناس عبادة لله؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن كَانُوا۟ لَيَقُولُونَ ﴿١٦٧﴾ لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦٨﴾ لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٩﴾﴾.

٢٨- كفرهم بالقرآن لما جاءهم، وتكذيبهم الرسول ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿فَكَفَرُوا۟ بِهِۦ﴾.

٢٩- التهديد الشديد، والوعيد الأكيد لهم بسبب كفرهم وتكذيبهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ (١٧٢) وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (١٧٣) فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ (١٧٤) وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ (١٧٥) أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ (١٧٦) فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ (١٧٧) وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ (١٧٨) وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ (١٧٩) سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ (١٨٠) وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ (١٨١) وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٨٢)﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ (١٧٢) وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (١٧٣) فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ (١٧٤) وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ (١٧٥) أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ (١٧٦) فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ (١٧٧) وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ (١٧٨) وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ (١٧٩)﴾:

قوله: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١)﴾ الواو: استئنافية، واللام: لام القسم لقسم مقدر، و«قد»: حرف تحقيق، أي: ولقد سبقت وتقدمت كلمتنا الكونية والقدرية في الأزل في الكتاب الأول «اللوح المحفوظ».

﴿لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ﴾ أي: لرسلنا وأتباعهم المؤمنين. ووصف الرسل بالعبودية له عز وجل؛ لأنها أفضل وصف يتصف به البشر.

﴿إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ (١٧٢)﴾ الجملة جواب القسم المقدر، واللام في الموضعين، وكذا ضمير الفصل «هم» للتوكيد والحصر، أي: إنهم لهم المنصورون من ربهم، في الدنيا والآخرة، دون غيرهم.

﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (١٧٣)﴾، أي: وإن جندنا، أي: جند الله عز وجل، وهم الرسل وأتباعهم المؤمنون، وما يؤيدهم الله به من الملائكة والأسباب الكونية من الرياح والمطر وغير ذلك؛ كما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الفتح: ٤].

﴿لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾، أي: الغالبون لغيرهم من الكفار، إما غَلَبًا حسيًّا ومعنويًّا، وإما غلبًا معنويًّا، هذا في الدنيا، وأما في الآخرة فهم الغالبون مطلقًا؛ كما قال تعالى: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي ۚ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ (٢١)﴾ [المجادلة: ٢١]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ (٥١)﴾ [غافر: ٥١]، وقال تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ حِزْبُ اللَّهِ ۚ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة: ٢٢]، وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [البقرة: ٢١٢].

﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾، أي: أعرض عن هؤلاء المشركين المعاندين، واصبر على أذاهم.

﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾، أي: إلى أجل ووقت حلول عقاب الله ونكاله العاجل بهم، أو إلى حين الأمر بقتالهم.

﴿وَأَبْصِرْهُمْ﴾، أي: أنظرهم، وارتقب ما يحل بهم من العقاب؛ لمخالفتهم لك وتكذيبك، وانظر إليهم إذا نزل بهم العذاب.

﴿فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾، أي: فسوف يبصرون ما يحل بهم من العذاب في الدنيا والآخرة، وينتظرونه. وهذا تهديد ووعيد لهم.

﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٧٦﴾﴾ الاستفهام: للإنكار عليهم في استعجالهم العذاب؛ تكذيبًا به، وإنكارًا له بكفرهم وعنادهم، وتماديهم في طغيانهم، وبقولهم وطلبهم تعجيل العذاب؛ كما في قولهم للنبي ﷺ: ﴿قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٢٢﴾﴾ [الأحقاف: ٢٢].

﴿فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ﴾، أي: فإذا نزل عذابنا بفنائهم ومقامهم وأرضهم؛ لإهلاكهم ودمارهم، أي: أنه نازل بهم لا محالة؛ ولهذا قال:

﴿فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾، أي: فبئس ذاك الصباح صباحهم؛ لأنه صباح الشر والعقوبة والاستئصال!

ولم يقل: فساء صباحهم، بل قال: ﴿فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ بالإظهار بدل الإضمار؛ لتبكيتهم، وتذكيرهم بالإعذار منهم وإنذارهم، وقيام الحجة عليهم؛ وليشملهم هذا الوعيد والتهديد وغيرهم من المكذبين.

عن أنس رضي الله عنه، قال: صبَّحَ رسول الله صلى اله عليه وسلم خيبر، فلما خرجوا بفؤوسهم ومساحيهم، ورأوا الجيش، رجعوا يقولون: محمد والله، محمد والخميس. فقال النبي ﷺ: «**الله أكبر، خربت خيبر، إنا إذا نزلنا بساحة قوم، فساء صباح المنذَرين**»(١).

عن أبي طلحة رضي الله عنه، قال: لما صبَّحَ نبي الله ﷺ خيبر، وقد أخذوا مساحيَهم،

---

(١) أخرجه البخاري في الأذان، ما يحقن بالأذان من الدماء ٦١٠، ومسلم في النكاح ١٣٦٥.

وغدوا إلى حروثهم وأراضيهم، فلما رأوا نبي الله ﷺ معه الجيش، ركضوا مدبرين، فقال النبي ﷺ: «**الله أكبر، الله أكبر، إنا إذا نزلنا بساحة قوم، فساء صباح المنذَرين**»(١).

﴿وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٨﴾ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٩﴾﴾ كرر هذا تأكيدًا لتهديدهم بوقوع العذاب، وتسلية للرسول ﷺ.

قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٢﴾﴾.

قوله: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ﴾، أي: تنزيهًا لربك يا محمد، وتعظيمًا وتقديسًا منه عز وجل لنفسه الكريمة، ودعوة إلى تنزيهه وتقديسه عن النقائص والعيوب، وعما يقوله الظالمون المكذبون، وعن كل ما لا يليق بجلاله وعظمته.

﴿رَبِّ الْعِزَّةِ﴾، أي: ذي العزة، أي: القوة والغلبة والقهر والامتناع.

و«رب» في الأصل بمعنى: الخالق المالك المدبر، ولكنها هنا بمعنى: «صاحب»، أي: صاحب العزة؛ لأن العزة صفة من صفات الله تعالى، وصفاته عز وجل غير مخلوقة.

وأضاف هنا اسم «الرب» إلى صفة «العزة» دون غيرها من الصفات؛ لاقتضاء المقام ذلك؛ لأن السياق في ذكر النصر والغلبة للرسول ﷺ، والذل والخذلان لأعدائه.

﴿عَمَّا يَصِفُونَ﴾، أي: عن وصف المفترين والمكذبين له، أو عن الذي يصفونه به مما لا يليق به؛ من الشريك، والصاحبة، والولد، وغير ذلك.

﴿وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾﴾ نكر «سلام» للتعظيم، أي: سلام من الله تعالى على جميع رسله عمومًا في الدنيا والآخرة.

وسلام من عباده المؤمنين عليهم؛ كما نقول في التشهد: «**السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين**»(٢).

---

(١) أخرجه أحمد ٤/ ٢٨، ٢٩.

(٢) أخرجه البخاري في الأذان ٨٣١، ومسلم في الصلاة ٤٠٢، وأبو داود في الصلاة ٩٦٨، والنسائي في التطبيق ١١٦٢، والترمذي في الصلاة ٢٨٩، وابن ماجه في إقامة الصلاة ٨٩٩، من حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه.

وهذا عام للرسل وغيرهم.

وذلك لسلامة ما وصفوا به ربهم من النقص، وصحته، ووصْفِهم له بصفات الكمال والجلال، وسلامة ما دعوا إليه العباد؛ من توحيد الله تعالى، وعبادته وحده لا شريك له.

﴿وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾، أي: له الحمد وحده على نصره رسله وأولياءه، وخذلان أعدائه، وعلى كل شيء، وعلى كل حال في الأولى والآخرة، وفي السموات والأرض، وعلى الدوام؛ لأنه المنزه عن النقائص والعيوب، الموصوف بصفات الكمال والجلال.

﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ خالقهم، ومالكهم، والمتصرف فيهم، لا رب لهم غيره، ولا معبود لهم سواه.

الفوائد والأحكام:

١- وعد الله تعالى الأزلي السابق لرسله وأتباعهم بالنصر لهم، ولجنده بأنهم هم الغالبون؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾﴾.

٢- البشارة للنبي ﷺ بنصر الله تعالى له، وكون الغلبة له وللمؤمنين، وتهديد ووعيد المكذبين له.

٣- إثبات القدر، وكتابة كل شيء في اللوح المحفوظ من نصر وغلبة، وغير ذلك.

٤- أن كلمات الله تنقسم إلى كلمات كونية قدرية، وكلمات شرعية.

٥- إثبات عبودية الرسل عليهم السلام، وأتباعهم المؤمنين لله تعالى، عبودية خاصة.

٦- تسلية الرسول ﷺ، وتهديد المكذبين له ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٤﴾ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾، أي: أن عقوبة من الله تنتظرهم عاجلًا أو آجلًا.

٧- تحقيق رؤيته ﷺ عذابهم عن قريب؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَبْصِرْهُمْ﴾.

٨- تهديدهم ووعيدهم بقرب عذابهم وتحققه؛ لقوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾.

٩- الإنكار عليهم في استعجالهم عذاب الله؛ تكذيبًا به، وإنكارًا له، بقولهم وفعلهم؛ لقوله تعالى: ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٧٦﴾﴾.

١٠- تخويفهم نزول العذاب بساحتهم، وسوء صباحهم يوم نزوله؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٧﴾﴾.

١١- تبكيتهم لما لم يستجيبوا للرسل والنذر، وأنهم لم يعذبوا إلا بعد قيام الحجة عليهم؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلْمُنذَرِينَ﴾.

١٢- تأكيد التسلية له ﷺ، وتهديد المكذبين له؛ لقوله تعالى: ﴿وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٨﴾ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٩﴾﴾.

١٣- تنزيه الله عز وجل لنفسه عما يصفه به المشركون والمكذبون؛ مما لا يليق به، وأمره عباده بتنزيهه عن ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾﴾.

١٤- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة به ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿رَبِّكَ﴾ وتشريفه وتكريمه بإضافة اسم الرب إلى ضميره ﷺ.

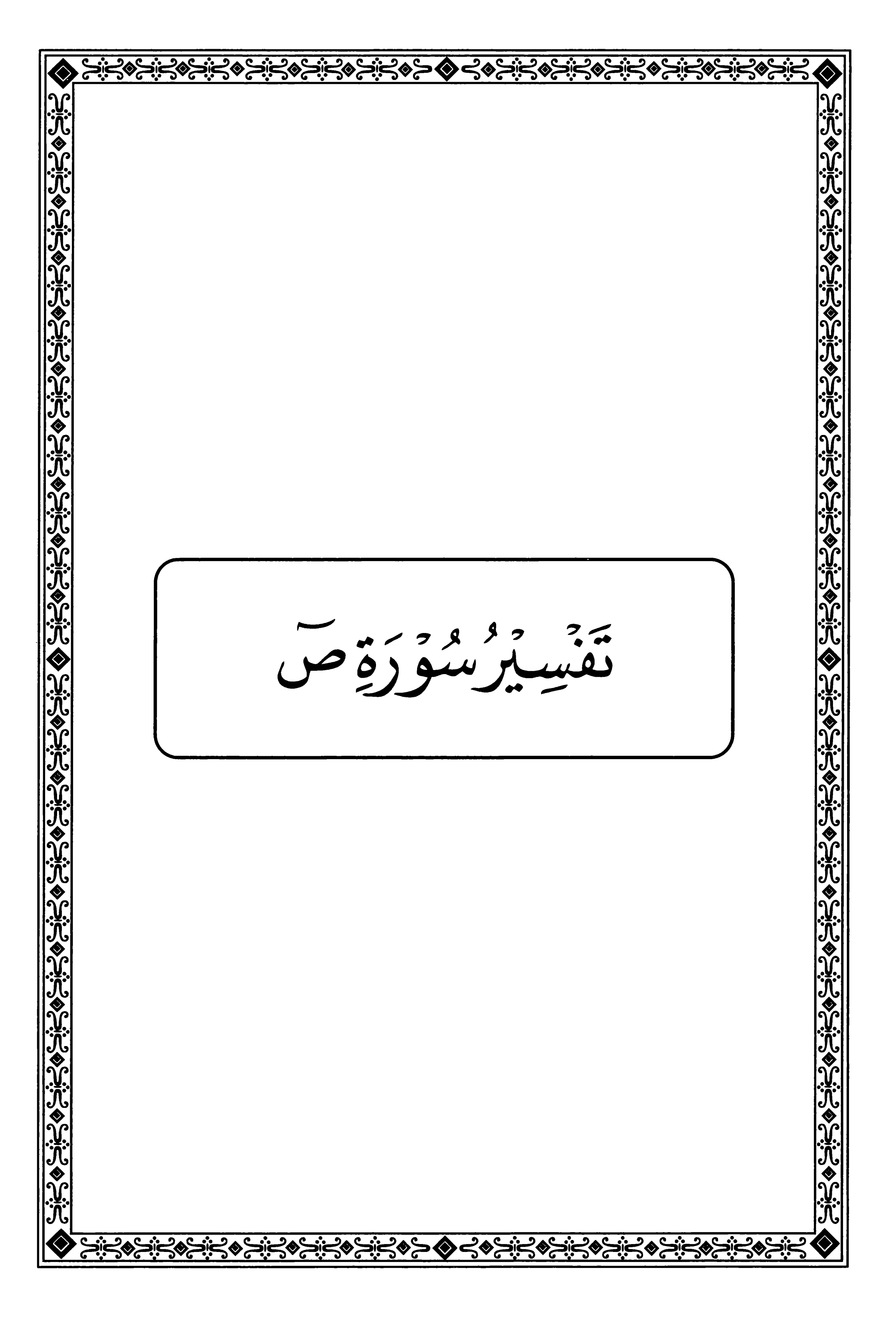
١٥- إثبات أن الله عز وجل هو صاحب العزة، ذو القوة والغلبة، والقهر والامتناع، يعز من يشاء بفضله، ويذل من يشاء بعدله.

١٦- سلامه عز وجل على جميع رسله، وسلام عباده المؤمنين عليهم؛ لسلامة ما وصفوا به ربهم من النقص، ووصفهم له بصفات الكمال، وسلامة ما دعوا إليه العباد من توحيد الله تعالى وعبادته وحده لا شريك له؛ لقوله تعالى: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾﴾.

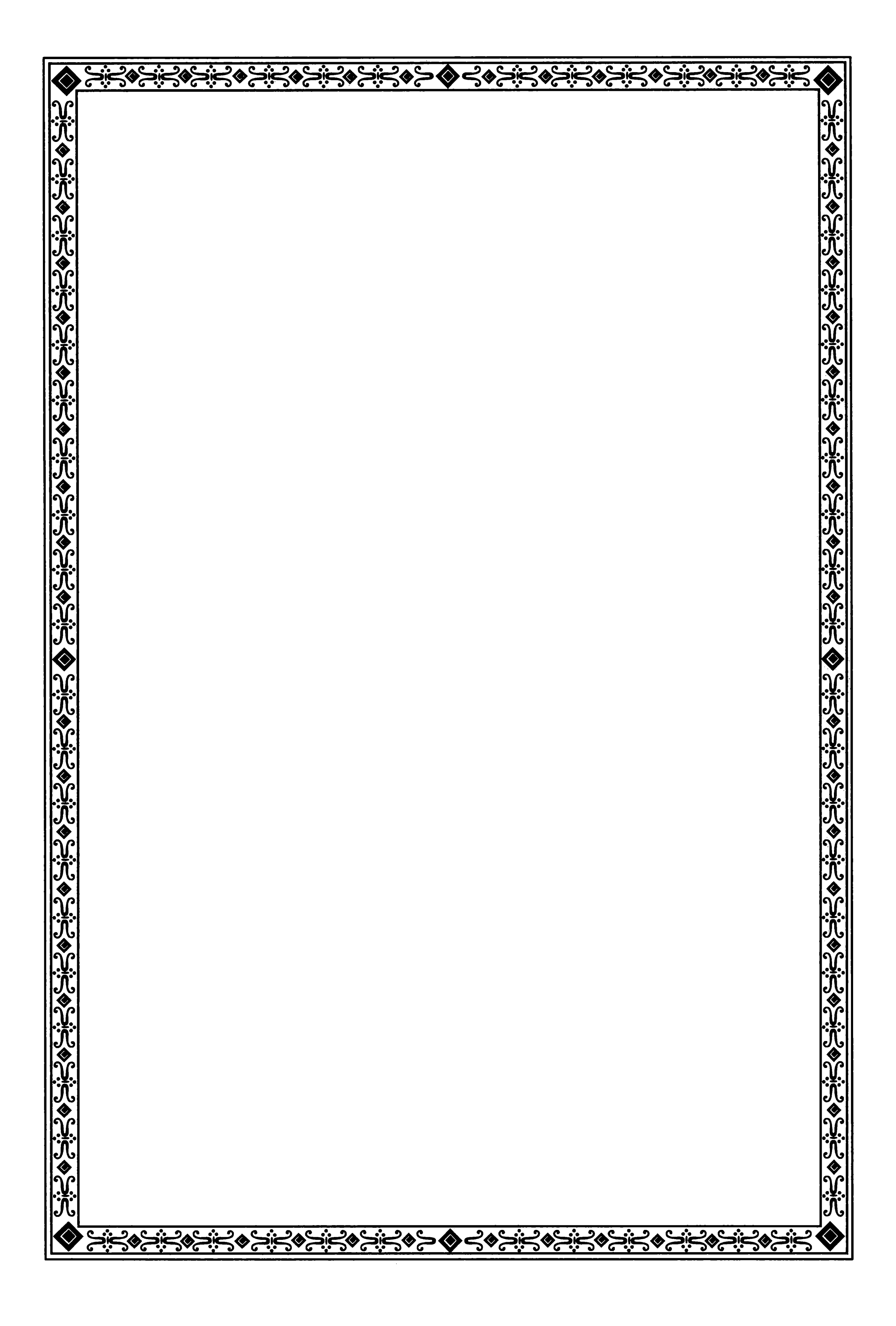
١٧- اختصاصه عز وجل بكمال الحمد، وصفات الكمال على الدوام في كل زمان ومكان، وعلى كل حال؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾.

١٨- إثبات ربوبيته عز وجل العامة لجميع الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

* * *



تَفْسِيرُ سُورَةِ صٓ



المقدمة

أ- اسم السورة:

سميت «سورة ص» بهذا الاسم؛ لقوله تعالى في مطلعها: ﴿صٓ﴾ [الآية: ١].

و«ص» من الحروف المقطعة أوائل بعض السور، وهي كغيرها من حروف الهجاء وتسمى أيضًا: «سورة داوود».

ب- مكان نزولها:

مكية.

جـ- موضوعاتها:

١- افتتحت «سورة ص» بقوله تعالى في مطلعها ﴿صٓۚ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ﴾ إشارة إلى إعجاز القرآن، وتعظيمًا له بالقسم به على صدق النبي ﷺ.

٢- شدة عناد الكفار وشقاقهم وتعجبهم من أن يأتيهم منذر منهم، ومن أمره ﷺ لهم بعبادة الله وحده، ووصية بعضهم لبعض، بالصبر على عبادة الأصنام. واتهامهم له ﷺ بالسحر والكذب، واختلاق ما جاء به، وتشكيكهم بالذكر وكيف يُنزل عليه من بينهم، وتوعدهم بالعذاب، وأنه لا مناص لهم عنه ﴿أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَاۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِىۖ بَل لَّمَّا يَذُوقُواْ عَذَابِ ﴿٨﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ ﴿٩﴾ أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَاۖ فَلْيَرْتَقُواْ فِى ٱلْأَسْبَٰبِ ﴿١٠﴾ جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ﴾ [ص: ٨- ١١].

٣- التذكير بتكذيب الأمم قبلهم رسلهم؛ قوم نوح وعاد وفرعون ذي الأوتاد وثمود وقوم لوط وأصحاب الأيكة أولئك الأحزاب وعقاب الله لهم، وتهديد المشركين أنهم ما ينتظرون إلا أن يحل بهم عقاب الله كالذين من قبلهم: ﴿وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ ﴿١٥﴾﴾.

٤- استعجال الكفار بالعذاب تكذيبًا به، واستبعادًا له، وأمره عز وجل له ﷺ بالصبر على قولهم ﴿وَقَالُواْ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿١٦﴾ ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾﴾.

٥- التذكير بما أعطاه الله عز وجل لعبده داود عليه السلام من تسخير الجبال

والطير، وتقوية ملكه وإيتائه الحكمة وفصل الخطاب، والفصل بين الخصوم، وجعله خليفة في الأرض. قال تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً ۖ كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ﴾ إلى ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾﴾.

٦- بيان أنه عز وجل ما خلق السموات والأرض وما بينهما باطلًا، وإنما خلقهما لحكمة عظيمة ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾﴾.

٧- تعظيم القرآن والامتنان بإنزاله على النبي ﷺ، وبيان الحكمة من ذلك ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾.

٨- الامتنان على داود عليه السلام بهبته عز وجل له ابنه سليمان، وذكر ما من الله به على سليمان من العبودية لله تعالى والأوب إليه، والخير والملك العظيم الذي لم يعط لأحد مثله، وتسخير الريح والشياطين له، وما له عند الله من الزلفى وحسن المآب. قال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ ۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ إلى قوله: ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٠﴾﴾.

٩- ذكر أيوب عليه السلام وابتهاله إلى الله عز وجل لكشف ضره، واستجابة الله تعالى له، وثناؤه عليه بصبره ورجوعه إلى ربه ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾﴾.

١٠- ذكر عباده عز وجل ورسله إبراهيم وإسحاق ويعقوب، وإسماعيل وليسع وذا الكفل والثناء عليهم بالذكر الحسن، وبأعظم ما أعد لهم عنده من حسن المآب ﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٥﴾ إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾ وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٨﴾ هَٰذَا ذِكْرٌ ۚ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٩﴾ جَنَّٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ ﴿٥٠﴾ مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴿٥١﴾ ۞ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ أَتْرَابٌ ﴿٥٢﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ﴿٥٤﴾﴾.

١١- ذكر ما أعد للطاغين من شر المآب، وأصناف العذاب، وسوء الحساب، والخصام

في النار: ﴿ هَٰذَا ۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ ﴿٥٥﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٥٦﴾ هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾ وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ ﴿٥٨﴾ هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ ۖ لَا مَرْحَبًۢا بِهِمْ ۚ إِنَّهُمْ صَالُوا۟ ٱلنَّارِ ﴿٥٩﴾ قَالُوا۟ بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًۢا بِكُمْ ۖ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا ۖ فَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِى ٱلنَّارِ ﴿٦١﴾ وَقَالُوا۟ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾ أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ ﴿٦٤﴾ ﴾.

١٢- بيانه أنه ﷺ إنما هو منذر، وأنه لا إله إلا الله الواحد القهار ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ ۖ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٦٥﴾ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴿٦٦﴾ قُلْ هُوَ نَبَؤٌا۟ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾ مَا كَانَ لِىَ مِنْ عِلْمٍۭ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾ إِن يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٠﴾ ﴾.

١٣- ذكر خلق آدم عليه السلام وأمر الملائكة بالسجود له بعد تسويته ونفخه عز وجل به روحه، وسجود الملائكة له كلهم أجمعون، وامتناع إبليس من السجود له استكبارًا وكفرًا وإخراجه من الجنة ولعنه إلى يوم الدين، وإنظاره إلى يوم يبعثون ﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ إلى قوله ﴿ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾.

١٤- أمْر الله عز وجل له ﷺ ببيان أنه ﷺ لم يسأل على ما جاء به من ربه أجرًا، ولم يكن من المتكلفين في ذلك، وأنه إنما هو ذكر للعالمين وليعلمن نبأه بعد حين. ﴿ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ ﴿٨٨﴾ ﴾.

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿صٓ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ﴿١﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ﴿٢﴾ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا۟ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ﴿٣﴾ وَعَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٤﴾ أَجَعَلَ ٱلْـَٔالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ﴿٦﴾ مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْـَٔاخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ ﴿٧﴾ أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا ۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِى ۖ بَل لَّمَّا يَذُوقُوا۟ عَذَابِ ﴿٨﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ ﴿٩﴾ أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ فَلْيَرْتَقُوا۟ فِى ٱلْأَسْبَٰبِ ﴿١٠﴾ جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ ﴿١١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿صٓ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ﴿١﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ﴿٢﴾ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا۟ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ﴿٣﴾﴾:

رُوي عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: «مرض أبو طالب، فأتته قريش، وأتاه رسول الله ﷺ يعوده، وعند رأسه مقعد رجل، فقام أبو جهل فقعد فيه، فقالوا: إن ابن أخيك يقع في آلهتنا. وقال: ما شأن قومك يشكونك؟ قال: «**يا عم، أريدهم على كلمة واحدة، تدين لهم بها العرب، وتؤدي العجم إليهم الجزية**». قال: ما هي؟ قال: «**لا إله إلا الله**». فقاموا، فقالوا: أجعل الآلهة إلهًا واحدًا؟! قال: ونزل: ﴿صٓ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ﴿١﴾﴾، فقرأ حتى بلغ: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ﴾»(١).

وفي رواية: «إلى قوله: ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْـَٔاخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ ﴿٧﴾﴾»(٢).

قوله: ﴿صٓ﴾ سبق الكلام على الحروف المقطعة، وبيان الحكمة فيها، في مطلع سورة البقرة.

﴿وَٱلْقُرْءَانِ﴾ الواو: للقسم، أي: وأُقسم بالقرآن. وقد أَقسم عز وجل بالقرآن؛ تعظيمًا له، وتنويهًا بشأنه، وتشريفًا له، وإثباتًا لإعجازه.

﴿ذِى ٱلذِّكْرِ﴾ صفة للقرآن، و«ذي» بمعنى: «صاحب»، أي: ذي التذكير للعباد

(١) أخرجه أحمد ١/ ٣٦٢، والنسائي في «الكبرى» ١١٤٣٦.

(٢) أخرجها الترمذي في تفسير سورة ص ٣٢٣٢، وقال: «حديث حسن».

والموعظة، وبيان ما فيه النفع لهم في دينهم ودنياهم وأخراهم؛ كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝١٠﴾ [الأنبياء: ١٠]، أي: تذكيركم.

وأيضًا ﴿ذِى ٱلذِّكْرِ﴾، أي: ذي القدر العظيم والشرف والمكانة، المستحق للمدح والثناء، أفضل كتب الله تعالى، الحاكم والمهيمن على جميع الكتب قبله.

وأيضًا ﴿ذِى ٱلذِّكْرِ﴾، أي: الذي فيه الشرف للنبي ﷺ وقومه؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ [الزخرف: ٤٤].

وجواب القسم محذوف دل عليه قوله: ﴿صٓ﴾، تقديره: إن القرآن لحق، ونحو ذلك.

قال ابن القيم: «فإن المقسَم به؛ من تعظيم القرآن، ووصفه بأنه ﴿ذِى ٱلذِّكْرِ﴾ المتضمن لتذكير العباد وما يحتاجون إليه، وللشرف والقدر، ما يدل على المقسَم عليه، وكونه حقًّا من عند الله غير مفترى كما يقول الكافرون.

وهذا معنى قول كثير من المفسرين متقدميهم ومتأخريهم: إن الجواب محذوف، تقديره: إن القرآن لحق. وهذا مطرد في كل ما شأنه ذلك».

وبعد أن استبعد ابن القيم كل ما قيل: إنه جواب القسم من جمل الآيات وألفاظها، قال: «وأقرب ما قيل في الجواب لفظًا- وإن كان بعيدًا معنًى- عن قتادة وغيره؛ أنه في قوله: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [ص: ٢]؛ كما قال: ﴿قٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ۝١ بَلْ عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ﴾ [ق: ١- ٢]، وذلك على تقدير بعضهم «بل» بمعنى: «إنَّ»، أي: إن الذين كفروا في عزة وشقاق»[(١)].

﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ۝٢﴾ «بل»: للإضراب الانتقالي.

﴿فِى عِزَّةٍ﴾، أي: في تكبر وحمية، وأنفة جاهلية؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ﴾ [البقرة: ٢٠٦].

﴿وَشِقَاقٍ﴾، أي: ومشاقة ومخالفة لله ورسوله؛ كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٤/ ٣٥.

﴿وَرَسُولَهُۥ﴾ [الحشر: ٤].

والمعنى: إن في هذا القرآن ذكرًا لمن يتذكر، وعبرة لمن يعتبر، لكن الذين كفروا لم ينتفعوا بهذا القرآن، ولم يتذكروا به؛ لما في قرارة نفوسهم من الكبر وحمية الجاهلية، والشقاق والمخالفة؛ كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣].

﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ﴾ «كم»: خبرية للتكثير، و«قرن» بمعنى: أمة، أي: كثيرًا من الأمم السابقة قبل كفار مكة أهلكناهم، بسبب تكذيبهم للرسل، وما جاؤوا به من الحق. وفي هذا تهديد ووعيد للمشركين أن يحل بهم من الهلاك ما حل بمن قبلهم.

﴿فَنَادَوا﴾، أي: استغاثوا وتضرعوا، وأظهروا التوبة والإنابة لما رأوا العذاب، والضمير يعود على القرون والأمم المهلَكة.

﴿وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾ الواو: حالية، والحال أنه لات حين مناص، و«لات»: حرف نفي، بمعنى: «لا» العاملة عمل «ليس»، والتاء فيها زائدة؛ كما تزاد في «ثم»، و«رب»، فيقال: «ثمت» و«ربت»، واسمها محذوف تقديره: «الحين»، و﴿حِينَ﴾ خبرها منصوب بالفتحة، و«المناص»: النجاء والفوت.

والمعنى: وليس الوقت وقت فرار وخلاص من العذاب، ولا وقت توبة وإجابة؛ كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾ لَا تَرْكُضُواْ وَٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ ﴿١٣﴾﴾ [الأنبياء: ١٢- ١٣]، أي: إذا هم منها يهربون.

وقالوا حين رأوا الدخان: ﴿رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾﴾ [الدخان: ١٢]، وقال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِٱلْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ ﴿٦٤﴾ لَا تَجْـَٔرُواْ ٱلْيَوْمَ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [المؤمنون: ٦٤- ٦٥].

وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ﴾ [غافر: ٨٤- ٨٥].

قوله تعالى: ﴿وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٤﴾ أَجَعَلَ ٱلْـَٔالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُواْ وَٱصْبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ

يُرَادُ ﴿٦﴾ مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَٰذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ ﴿٧﴾ أَؤُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِن بَيْنِنَا ۚ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّن ذِكْرِي ۖ بَل لَّمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ ﴿٨﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ ﴿٩﴾ أَمْ لَهُم مُّلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ ﴿١٠﴾ جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ الْأَحْزَابِ ﴿١١﴾﴾:

قوله: ﴿وَعَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ﴾ «أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل جر بحرف جر محذوف، والتقدير: أي: وعجبوا من مجيء المنذر منهم، وأنكروه، وأحالوه.

أي: وعجبوا أن جاءهم رسول مخبر ومخوف لهم عذاب الله ﴿مِّنْهُمْ ۖ﴾، أي: بشر منهم، أي: ليس من الملائكة.

كما قال تعالى: ﴿بَلْ عَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَٰذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٢﴾﴾ [ق: ٢]، وقال تعالى: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾﴾ [يونس: ٢]، وقال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾﴾ [الإسراء: ٩٤].

وما علموا حكمة الله تعالى في كونه لم يكن ملكًا، بل بشرًا منهم جنسًا ونسبًا، ويتكلم بلسانهم؛ ليتمكنوا من الأخذ والتلقي عنه؛ وليعرفوه، ولا تأخذهم النخوة عن اتباعه.

﴿وَقَالَ الْكَافِرُونَ﴾ أظهر في مقام الإضمار، ولم يقل: وقالوا، بل قال: ﴿وَقَالَ الْكَافِرُونَ﴾ لوصفهم بالكفر، ومن سلك مسلكهم.

﴿هَٰذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ﴾ أشاروا إليه بإشارة القريب «هذا»؛ تحقيرًا له؛ كما في قولهم: ﴿أَهَٰذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ﴾ [الأنبياء: ٣٦].

أي: هذا ساحر كذاب، وما جاء به سحر؛ لشدة تأثيره، وكذب لا حقيقة له.

﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا ۖ﴾ الاستفهام: للإنكار والتعجيب، أي: كيف صيَّر محمد الآلهة، أي: المعبودين ﴿إِلَٰهًا وَاحِدًا ۖ﴾، أي: معبودًا واحدًا؟ وذلك لأنه قال لهم: «**قولوا: لا إله إلا الله، تفلحوا**»(١)؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَٰهًا وَاحِدًا ۖ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾﴾ [التوبة: ٣١].

---

(١) أخرجه أحمد ٣/ ٤٩٢، ٤/ ٣٤١، من حديث ربيعة بن عباد الديلي رضي الله عنه.

﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ الإشارة بـ«هذا» في المواضع الأربعة إلى جعل الآلهة إلهًا واحدًا، وهو الله عز وجل وحده لا شريك له.

أي: إنَّ جَعْلَ الآلهة إلهًا واحدًا ﴿لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ اللام: للتوكيد في الموضعين، أي: لشيء عجيب يتعجب منه عجبًا عظيمًا كثيرًا؛ لأن «عجاب» أبلغ من «عجيب».

﴿وَانطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ﴾، أي: سعى ومشى سادتهم وأشرافهم وكبراؤهم ورؤساؤهم - كعقبة بن أبي معيط، وأبي جهل، والعاص بن وائل، والأسود بن يغوث، وغيرهم - محرضين على التمسك بما هم عليه من الشرك، قائلين: ﴿أَنِ امْشُوا﴾، «أن»: تفسيرية، أي: أن استمروا على شرككم ودينكم وطريقتكم.

﴿وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ﴾، أي: اثبتوا على عبادة آلهتكم، واحبسوا أنفسكم عليها، ولا تحيدوا عنها، ولا تستجيبوا لما يدعوكم إليه محمد ﷺ من عبادة الله وحده.

كما في قولهم: ﴿إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا﴾ [الفرقان: ٤٢].

﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ﴾ تعليل للأمر بالصبر، أي: إن جعل الآلهة إلهًا واحدًا ﴿لَشَيْءٌ يُرَادُ﴾، أي: يراد منه شيء خفي وراء ذلك، أي: يريد منه محمد الترؤس والسيادة عليكم، لا النصح لكم، ولسنا مجيبين له.

﴿مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا﴾، أي: بجعل الآلهة إلهًا واحدًا، وأنه لا إله إلا الله.

﴿فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ﴾ الملة: الدين، أي: ما سمعنا بهذا في ملة عيسى ودينه آخر الملل؛ لأن النصارى يقولون: إن الله ثالث ثلاثة. أو ما سمعنا بهذا في ملة أخرى، لا في النصرانية، ولا في دين آبائنا، ولا في غير ذلك. وهذا أعم وأولى.

﴿إِنْ هَٰذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ﴾ «إن»: نافية، بمعنى: «ما»، و«إلا»: أداة حصر، أي: ما هذا الذي جاء به محمد من جعل الآلهة إلهًا واحدًا إلا اختلاق، أي: كذب وافتراء، اختلقه محمد وافتراه من عند نفسه؛ كما قال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ [السجدة: ٣]، وقال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ﴾ [الفرقان: ٤]، وقال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الطور: ٣٣].

﴿أَأُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِن بَيْنِنَا﴾ هذا مبني على قولهم: ﴿وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَٰذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ﴾،

وعلى قولهم: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ﴾.

والاستفهام: للإنكار والتعجب، أي: كيف يخص بإنزال القرآن عليه من بيننا، أي: لمْ يُنزَلْ عليه ولا يمكن ذلك؛ كما في قولهم: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾، فقال تعالى ردًّا عليهم: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ﴾ [الزخرف: ٣١، ٣٢].

وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

﴿بَل هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِى ۖ﴾ «بل»: للإضراب الانتقالي في الموضعين، أي: بل هم في شك من إنزال القرآن، وكفر وتكذيب به، وتردد فيما يصفونه به، هل هو سحر أو شعر أو كهانة؟

وفي قوله: ﴿ذِكْرِى ۖ﴾ تشريف القرآن وتعظيمه بإضافته إلى ضمير المتكلم؛ وهو الله عز وجل، وتحقيق كونه من عند الله عز وجل.

﴿بَل لَّمَّا يَذُوقُوا۟ عَذَابِ﴾ «لمَّا»: حرف نفي، يفيد عدم وقوع المنفي حتى صدور هذا النفي، مع قرب وقوعه.

وحذفت ياء المتكلم من ﴿عَذَابِ﴾؛ تخفيفًا ومراعاة للفاصلة.

أي: بل الذي جرأهم على التكبر والشقاق ووصف القرآن بأنه اختلاق، وإنكارهم أن ينزل عليه ﷺ من بينهم، والشك فيه هو أنهم إلى حين قولهم هذا ما ذاقوا عذاب الله تعالى ونقمته، أي: لما تأخر حلول العذاب بهم، ظنوا الوعيد بذلك كذبًا. وهذا وعيد وتهديد لهم بأنهم سيذوقون العذاب عن قريب، أي: سيصيبهم، ويحسون بآلامه ويتجرعونها.

وهم إذا أصابهم العذاب وذاقوه صدقوا، ولكن لا ينفعهم ذلك؛ كما قال تعالى: ﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا ۖ﴾ [غافر: ٨٥].

وهذا كما قالت ثمود لصالح عليه السلام: ﴿أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾﴾، فتوعدهم الله بقوله: ﴿سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ ﴿٢٦﴾﴾ [القمر: ٢٥- ٢٦].

﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ﴾ «أم» في هذا الموضع والذي بعده هي المنقطعة التي بمعنى: «بل»، التي للإضراب الانتقالي، وهمزة الاستفهام الإنكاري.

والخطاب للنبي ﷺ، ولكل من يصلح له، أي: بل أعندهم خزائن رحمة ربك؟ أي: ليس عندهم خزائن رحمة ربك، فيعطوا منها من يريدون، ويمنعوها عمن يريدون، ويجعلون الرسالة فيمن يريدون دون من لا يريدون؛ كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (٣١)﴾ فقال عز وجل ردًّا عليهم: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ﴾ [الزخرف: ٣١- ٣٢] .

و«خزائن»: جمع «خزانة»، أو «خزينة»، وهي في الأصل: البيت الذي يخزن فيه المال، أو الطعام، أو الصندوق الذي يخزن فيه المال.

وخزائن رحمته عز وجل: كل ما يكون برحمته التي وسعت كل شيء، وعمت كل حي من الأرزاق المعنوية والحسية؛ ولهذا خص من شاء من عباده بالرسالات، وخص محمدًا ﷺ من بين الرسل بأعظم الرسالات، فأنزل عليه القرآن الكريم أفضل كتبه عز وجل، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

كما يهدي عز وجل من يشاء برحمته وفضله، ويضل من يشاء بعدله، ويعطي الملك من يشاء، وينزع الملك ممن يشاء، ويعز من يشاء، ويذل من يشاء، بيده الخير، وهو على كل شيء قدير، قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [المنافقون: ٧]، وقال تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ﴾ [الحجر: ٢١].

﴿الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ﴾، أي: ذو العز التام، الذي لا يرام ولا يضام، ﴿الْوَهَّابِ﴾، أي: ذو العطاء الجزيل، والهبات العظام من النبوة وغيرها.

أي: ليس عندهم شيء من خزائن رحمته وهباته، ولو كان عندهم شيء من ذلك لبخلوا بأقل القليل منها وأمسكوا؛ كما قال تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا (٥٣) أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ۖ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا (٥٤) فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ ۚ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا (٥٥)﴾ [النساء: ٥٣- ٥٥].

وقال تعالى: ﴿قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنفَاقِ ۚ وَكَانَ الْإِنسَانُ قَتُورًا (١٠٠)﴾ [الإسراء: ١٠٠].

و«العزيز»، و«الوهاب»: من أسماء الله عز وجل، ويؤخذ من اقترانهما هنا أنه عز

وجل بعزته يمنح القوة والنصر والتأييد والعز والتمكين، ونحو ذلك.

وأنه بهباته الجزيلة، وعطاياه الواسعة العظيمة، يعطي ما يشاء لمن يشاء، فيعطي النبوة والرسالة، ويعطي العلم، ويعطي الملك، ويعطي الخير من المال والأهل والولد والصحة والأمن، وسائر النعم، وغير ذلك.

﴿أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾، أي: بل، ألهم ملك السموات والأرض، وما فيهما من المخلوقات، وما بينهما من المخلوقات العظيمة؛ كالشمس والقمر والنجوم والكواكب، وغير ذلك مما لا يعلمه إلا الله؟

﴿فَلْيَرْتَقُوا۟ فِى ٱلْأَسْبَٰبِ﴾ الفاء: رابطة لجواب شرط مقدر، واللام: للأمر، أي: إذا كان لهم ملك السموات والأرض وما بينهما، فليصعدوا، ويأخذوا بالأسباب الموصلة إلى السماء، فليأتوا بالوحي، ويخصوا به من شاؤوا، أو يقطعوه عن النبي ﷺ، ويمنعوا فضل الله تعالى عليه، ونصره له؛ كما قال تعالى: ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ ﴿١٥﴾﴾ [الحج: ١٥].

والمعنى: أنهم ليس لهم من الملك شيء، فلا يستطيعون الصعود إلى السماء، وقطع الوحي عن رسول الله ﷺ، وفي هذا تحدٍّ لهم، وإرغام لأنوفهم.

﴿جُندٌ مَّا هُنَالِكَ﴾ نكر «جند» للتحقير والتقليل، وهو خبر لمبتدأ، أي: هم جند؛ يعني: المكذبين للنبي ﷺ، أو مبتدأ خبره: «مهزوم»، و«ما»: زائدة من حيث الإعراب، أو صفة لـ«جند» للتحقير، والهزء بهم، أي: جند قليلون حقيرون.

﴿هُنَالِكَ﴾ إشارة للمكان، واللام: للبعد، أي: في ذلك المكان البعيد.

﴿مَهْزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ﴾ «مهزوم»: خبر لـ«جند»، أو صفة، أي: مهزومون مغلوبون؛ كما قال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴿٤٤﴾ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾﴾ [القمر: ٤٤، ٤٥].

وهكذا حصل لهم يوم بدر، قال تعالى: ﴿بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾﴾ [القمر: ٤٦]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ كُبِتُوا۟ كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [المجادلة: ٥]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْأَذَلِّينَ ﴿٢٠﴾ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾﴾ [المجادلة: ٢٠، ٢١].

وفي هذا وعد للنبي ﷺ بالنصر عليهم، وتهديد ووعيد للمكذبين له.

الفوائد والأحكام:

١- إثبات إعجاز القرآن والتحدي به؛ لقوله تعالى: ﴿صٓ﴾.

٢- إقسام الله عز وجل بالقرآن تعظيمًا وتشريفًا له، وتنويهًا بشأنه؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ۝١﴾، أي: إنه لحق من عند الله.

٣- ثناء الله عز وجل على القرآن الكريم، وامتداحه له؛ لما فيه من التذكير للعباد والموعظة، وبيان ما فيه النفع لهم في الدين والدنيا والآخرة، وكونه ذا القدر العظيم والشرف والمكانة، فهو أفضل كتب الله تعالى، وكونه شرفًا للنبي ﷺ وقومه.

٤- عدم انتفاع الكفار بالقرآن وما فيه من الذكر؛ لما في نفوسهم من الكبر والحمية، والأنفة الجاهلية، والمخالفة لله ولرسوله؛ لقوله تعالى: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ۝٢﴾.

٥- التهديد والوعيد للكفار المستكبرين عن اتباع القرآن، المخالفين لله ورسوله ﷺ؛ أن يحل بهم من الهلاك ما حل بكثير من الأمم قبلهم مما لم يكن لهم منه مناص ولا مهرب، والتسلية للنبي ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا۟ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ۝٣﴾.

٦- أن أكثر الأمم كذبوا رسلهم، وكانت عاقبتهم الهلاك.

٧- أن التضرع، والتوبة والإنابة، وطلب المهرب والمفر حين نزول العذاب لا ينفع ولا يجدي شيئًا؛ لقوله تعالى: ﴿فَنَادَوا۟ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾.

٨- تعجب الكفار المكذبين للنبي ﷺ مما لا يثير عجبًا؛ وهو كونه ﷺ بشرًا مثلهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَعَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ﴾.

٩- أن من حكمة الله تعالى، وتمام نعمته، كون الرسل عليهم السلام ليسوا ملائكة، بل من البشر؛ ليتمكنوا من الأخذ عنهم، ومن نعمة الله على العرب كونه ﷺ منهم، ويتكلم بلسانهم.

١٠- أن من أعظم مهمات الرسل: الإنذار والتحذير من عذاب الله تعالى، ومن لازم ذلك: التبليغ، بل والتبشير؛ لقوله تعالى: ﴿مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ﴾.

١١- جرأة كفار مكة على اتهامه ﷺ بالسحر والكذب، ووصفهم إياه بأنه ساحر كذاب؛ تنفيرًا منه؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ﴾.

وهذا ديدن المكذبين للرسل عليهم السلام.

١٢- أن الذي حملهم على التعجب من كون الرسول منهم، ووصفه بالسحر؛ هو كفرهم؛ ولهذا أظهر في مقام الإضمار؛ فقال: ﴿وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾؛ ليشملهم وصف الكفر هم وغيرهم ممن قال بقولهم.

١٣- إنكارهم وتعجبهم من دعوته ﷺ إلى عبادة الله تعالى وحده، ونبذ الشرك والشركاء؛ لقولهم: ﴿أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ۝٥﴾.

١٤- وجوب عبادة الله تعالى وحده، وأنه هو وحده إله الخلائق كلهم، ومعبودهم، وإلى هذا دعا ﷺ والمرسلون قبله.

١٥- دعوة سادة المشركين وأشرافهم لهم بالثبات على ما هم عليه من الشرك وعبادة الأصنام؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ﴾.

١٦- أن الصبر قد يكون غير محمود، وهو الصبر على فعل ما يخالف أمر الله؛ من الشرك والمعاصي.

١٧- اتهامهم النبي ﷺ بأنه في دعوته إياهم إلى عبادة الله تعالى وحده يريد الترؤس والسيادة عليهم؛ لقولهم: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ﴾.

١٨- إثبات الإرادة والاختيار للإنسان؛ لقولهم: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ﴾ وفي هذا رد على الجبرية الذين ينكرون ذلك.

١٩- أنه لا دليل للمشركين المكذبين له ﷺ، ولهذا قالوا: ﴿فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْءَاخِرَةِ﴾، أي: في النصرانية المحرفة، أو في دين آبائهم الباطل. وكونهم لم يسمعوا به لا يعتبر دليلًا لهم.

٢٠- اتهامهم له ﷺ أنه اختلق الدعوة إلى عبادة الله تعالى وحده من عند نفسه؛ لقولهم: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ﴾.

٢١- إنكارهم وتعجبهم من تخصيصه ﷺ بإنزال القرآن عليه من بينهم، وحسدهم له؛ لقولهم: ﴿أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا﴾.

٢٢- خطر السادة والكبراء من دعاة الضلال على عامة الناس ودهمائهم.

٢٣- أن الذي حملهم على التكبر عن اتباع القرآن والشقاق والتعجب من كون الرسول بشرًا منهم، ورميهم إياه بالسحر والكذب، وإنكارهم وتعجبهم من دعوته إياهم إلى التوحيد، واستمرارهم على الشرك، واتهامهم له ﷺ أنه يريد السيادة عليهم، وإنكارهم وتعجبهم أن ينزل القرآن عليه من بينهم؛ هو شكهم في القرآن، وتكذيبهم به، وكونهم بعدُ لم يذوقوا عذاب الله؛ لقوله تعالى: ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّن ذِكْرِي ۚ بَل لَّمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ﴾.

٢٤- تهديدهم بوقوع العذاب بهم عن قريب؛ لقوله تعالى: ﴿بَل لَّمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ﴾.

٢٥- أنهم لا يملكون خزائن رحمة الله عز وجل؛ فيعطوا منها من يريدون، ويمنعوها عمن لا يريدون، ويجعلوا الرسالة فيمن يريدون دون من لا يريدون؛ لقوله تعالى: ﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ﴾، أي: ليس عندهم خزائن رحمته عز وجل، فخزائن رحمته كلها بيده، وقد وسعت كل شيء.

٢٦- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة للنبي ﷺ والمؤمنين؛ لقوله: ﴿رَبِّكَ﴾.

٢٧- إثبات اسم الله عز وجل: «العزيز»، وصفة العزة التامة من جميع الوجوه له سبحانه وتعالى؛ لقوله تعالى: ﴿الْعَزِيزِ﴾.

٢٨- إثبات اسمه عز وجل: «الوهاب»، وأنه سبحانه ذو العطاء الجزيل، والهبات الواسعة العظيمة؛ لقوله تعالى: ﴿الْوَهَّابِ﴾.

٢٩- أنه عز وجل بعزته يمنح القوة والنصر والتمكين، وبهباته الجزيلة يعطي ما يشاء لمن يشاء.

٣٠- اختصاصه عز وجل بملك السموات والأرض وما بينهما دون الخلق كلهم، فليس لهؤلاء المكذبين المعترضين على رسالته ﷺ ولا لغيرهم شيء من الملك؛ لقوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُم مُّلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ ﴿١٠﴾﴾.

٣١- تحديهم أن يصعدوا في أسباب السماء، فيقطعوا رحمة الله ووحيه عن رسوله ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ﴾.

٣٢- تحقير المكذبين له ﷺ، وتقليل شأنهم، والبشارة له ﷺ، ووعده بنصره عليهم، وتهديدهم بالهزيمة والخذلان؛ لقوله تعالى: ﴿جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ الْأَحْزَابِ ﴿١١﴾﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ ﴿١٢﴾ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ لْأَيْكَةِ أُولَٰئِكَ الْأَحْزَابُ ﴿١٣﴾ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٤﴾ وَمَا يَنظُرُ هَٰؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ ﴿١٥﴾ وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ ﴿١٦﴾ اصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ ﴿٢٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ ﴿١٢﴾ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ لْأَيْكَةِ أُولَٰئِكَ الْأَحْزَابُ ﴿١٣﴾ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٤﴾﴾:

ذكر في الآيات السابقة كثرة القرون الذين أهلكوا إجمالًا، ثم عدد كثيرًا منهم بأسمائهم، مبينًا السبب الموجب لعقابهم، وهو تكذيبهم الرسل.

قوله: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ﴾، أي: قبل كفار مكة الذين كذبوا رسول الله ﷺ.

﴿قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ﴾ وهم: قوم هود عليه السلام.

﴿وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ﴾، أي: ذو الجنود والقوة والأبنية الشاهقة، والملك العظيم الثابت؛ قال الشاعر:

ولقد غنوا فيها بأنعم عيشة ... في ظل ملك ثابت الأوتادِ[1]

﴿وَثَمُودُ﴾ وهم: قوم صالح عليه السلام.

﴿وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ لْأَيْكَةِ﴾، أي: وأصحاب الغيضة والأشجار الكثيرة الملتفة والبساتين، وهم قوم شعيب عليه السلام.

﴿أُولَٰئِكَ الْأَحْزَابُ﴾، أي: الطوائف والأمم القوية الكثيرة، الذين طغوا وبغوا، وكذبوا رسل الله، فلم تنفعهم قوتهم ولا كثرتهم لما جاء أمر الله؛ كما قال تعالى: ﴿۞أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٢١﴾﴾ [غافر: ٢١].

وقال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا

---

(١) البيت للأسود بن يعفر النهشلي. انظر: «الأغاني» ١٣/ ٢٢، «نهاية الأرب» ٣/ ٦٦، «لباب الآداب» للثعالبي ص١١٤.

أَكۡثَرَ مِنۡهُمۡ وَأَشَدَّ قُوَّةٗ وَءَاثَارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [غافر: ٨٢].

وفي هذا تعريض بتهديد وتخويف المكذبين للرسول ﷺ؛ بأنه قد عذب وأهلك من هم أكثر وأشد وأقوى منهم، فما أغنت عنهم كثرتهم وشدتهم وقوتهم لما جاءهم أمر الله.

﴿إِن كُلٌّ﴾ «إن» حرف نفي بمعنى «ما»، أي: ما كل من هؤلاء الأحزاب.

﴿إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ﴾ «إلا»: أداة حصر، أي: ما كل هؤلاء الأمم إلا كذب رسوله، ومن كذب رسولًا واحدًا فقد كذب جميع الرسل.

﴿فَحَقَّ عِقَابِ﴾، أي: فحق عقابي عليهم، أي: وجب ووقع.

وحذفت ياء المتكلم من «عقاب»؛ للتخفيف ومراعاة الفواصل.

قوله تعالى: ﴿وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ مَّا لَهَا مِن فَوَاقٖ ﴿١٥﴾ وَقَالُواْ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبۡلَ يَوۡمِ ٱلۡحِسَابِ ﴿١٦﴾ ٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلۡأَيۡدِۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ إِنَّا سَخَّرۡنَا ٱلۡجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحۡنَ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِشۡرَاقِ ﴿١٨﴾ وَٱلطَّيۡرَ مَحۡشُورَةٗۖ كُلّٞ لَّهُۥٓ أَوَّابٞ ﴿١٩﴾ وَشَدَدۡنَا مُلۡكَهُۥ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحِكۡمَةَ وَفَصۡلَ ٱلۡخِطَابِ ﴿٢٠﴾﴾:

قوله: ﴿وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ﴾، أي: وما ينتظر هؤلاء الكفار المكذبون للنبي ﷺ.

﴿إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ﴾ «إلا»: أداة حصر، أي: صيحة واحدة تصاح بهم، أي: نفخة واحدة، وهي نفخة الفزع؛ كما قال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۖ﴾ [الزمر: ٦٨]، وقال تعالى: ﴿مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ تَأۡخُذُهُمۡ وَهُمۡ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ تَوۡصِيَةٗ وَلَآ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمۡ يَرۡجِعُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [يس: ٤٩، ٥٠].

﴿مَّا لَهَا مِن فَوَاقٖ﴾ قرأ حمزة والكسائي وخلف بضم الفاء: «فُوَاقٍ»، وقرأ الباقون بفتحها: ﴿فَوَاقٖ﴾.

و«الفواق»: ما بين الحلبتين، أو ما بين الرضعتين، فحالب الناقة يعصر الثدي ثم يتوقف، ثم يعود ويعصره، والرضيع يمص الثدي، ثم يطلقه، ثم يعود ويلتقمه.

ومعنى قوله: ﴿مَّا لَهَا مِن فَوَاقٖ﴾، أي: ليس بعدها إمهال بقدر الفواق، ولا مثنوية لها.

﴿وَقَالُواْ﴾، أي: وقال المشركون المكذبون بوعد الله ووعيده- من شدة تكذيبهم واستبعادهم لذلك وعنادهم- داعين على أنفسهم بتعجيل العذاب: ﴿رَبَّنَا﴾، أي: يا

ربنا، ﴿عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا﴾، أي: عجل لنا قسطنا ونصيبنا وحظنا من العذاب، أي: أوقعه علينا عاجلًا في الدنيا؛ كما قال بعضهم: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢].

﴿قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾، أي: قبل يوم القيامة، يوم الحساب والجزاء على الأعمال.

﴿ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾، أي: اصبر يا محمد على قولهم، أو على الذي يقولونه من التكذيب والاستهزاء والسخرية وغير ذلك؛ فإن النصر والعاقبة لك.

ولهذا ذكّره بعبده ورسوله داود عليه السلام، وسيرته، وما كان عليه من العبادة والصبر؛ للتأسي به.

كما قال تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾ [الأحقاف: ٣٥].

﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ﴾، أي: واذكر عبدنا ونبينا ورسولنا داود عليه السلام.

﴿ذَا ٱلْأَيْدِ﴾ «ذا» نعت لـ«داود» منصوب، وعلامة نصبه الألف، أي: صاحب الأيد، أي: القوى والقوة، قال تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْي۟دٍ﴾ [الذاريات: ٤٧]، أي: بقوة، وقال تعالى: ﴿فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ﴾ [الأنفال: ٢٦]، أي: قواكم بنصره.

وقد كان داود عليه السلام صاحب الأيد، أي: القوى في تنفيذ أمر الله، والقوة في العلم والعمل والطاعة والعبادة والدعوة والحرب، والثبات عند اللقاء، قال ﷺ: **«أحب الصلاة إلى الله صلاة داود، وأحب الصيام إلى الله صيام داود؛ كان ينام نصف الليل، ويقوم ثلثه، وينام سدسه، وكان يصوم يومًا، ويفطر يومًا، ولا يفر إذا لاقى»**(١).

﴿إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾، أي: إنه كثير الأوب، أي: كثير الرجوع إلى الله عز وجل في جميع أموره، وطلب مرضاته، وتدارك ما فاته.

والجملة تعليل لما قبلها، وفيه إيماء إلى أن القصد الاقتداء به عليه السلام؛ كما قال عز وجل: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩٠].

---

(١) أخرجه البخاري في الصوم ١٩٧٧، ومسلم في الصيام ١١٥٩، والنسائي في الصيام ٢٣٩٩، والترمذي في الصوم ٧٧٠؛ من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

﴿إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ﴾، أي: ذللنا الجبال مع داود عليه السلام، ﴿يُسَبِّحْنَ﴾ بتسبيحه ﴿بِٱلْعَشِيِّ﴾ آخر النهار.

وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: «**صلى بنا رسول الله ﷺ إحدى صلاتي العشي**»[1]؛ يعني: الظهر أو العصر.

﴿وَٱلْإِشْرَاقِ﴾ أول النهار وقت إشراق الشمس، قال تعالى: ﴿وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الأحزاب: ٤٢].

﴿وَٱلطَّيْرَ﴾ «الطير»: منصوب عطفًا على «الجبال».

﴿مَحْشُورَةً﴾: حال، أي: وسخرنا الطير معه حال كونها محشورة، أي: مجموعة، يسبحن بتسبيحه بالعشي والإشراق؛ كما قال تعالى: ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ﴾ [سبأ: ١٠]، أي: سبحي معه.

﴿كُلٌّ لَّهُۥٓ﴾، أي: كل من الجبال والطير لداود عليه السلام، ﴿أَوَّابٌ﴾، أي: رجَّاع إلى طاعته، يطيعه ويسبح بتسبيحه، ويرجِّع معه.

﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ﴾ ذكر عز وجل منته عليه بالعبادة، ثم ذكر منته عليه بتقوية ملكه وتمكينه، أي: وقوينا ملكه بما وهبنا له من أسباب قوة الملك المادية من الحراس والجنود والأموال وغير ذلك، والمعنوية من الحزم والعزم، وقوة السلطان.

ثم ذكر منته عليه بالنبوة والعلم.

﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ﴾، أي: النبوة والعلم، وسداد الرأي.

﴿وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ﴾ بالحكم بالصواب والحق والعدل في الخصومات إذا حكم، وفصل الخطاب بالبيان والفصاحة والبلاغة إذا تكلم؛ كما أوتي نبينا ﷺ جوامع الكلم[2].

---

(١) أخرجه البخاري في الصلاة ٤٨٢، ومسلم في المساجد ٥٧٣، وأبو داود في الصلاة ١٠٠٨، والنسائي في السهو ١٢٢٤، وابن ماجه في إقامة الصلاة ١٢١٤.

(٢) أخرجه البخاري في الجهاد والسير ٢٩٧٧، ومسلم في المساجد ٥٢٣، والنسائي في الجهاد ٣٠٨٧، والترمذي في السير ١٥٥٣؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «أعطيت أو بعثت بجوامع الكلم».

الفوائد والأحكام:

١- تسلية النبي ﷺ، وتهديد المكذبين له بذكر تكذيب الأمم قبلهم لرسلهم، قوم نوح وعاد وفرعون ذي الأوتاد، وثمود وقوم لوط وأصحاب الأيكة، وعقاب الله لهم؛ لقوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ (١٢) وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ لْئَيْكَةِ أُولَئِكَ الْأَحْزَابُ (١٣) إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ (١٤)﴾.

٢- إثبات رسالة نوح ولوط عليهما السلام، ورسل من ذكر من الأقوام، وهم هود وموسى وصالح وشعيب عليهما السلام.

٣- أن السعيد من وعظ بغيره.

٤- عظم ما أعطيه فرعون من القوة والجنود والملك، ولم يدفع عنه ذلك عذاب الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ﴾.

٥- أن قوم شعيب عليه السلام كانوا أصحاب أشجار وبساتين؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَصْحَابُ لْئَيْكَةِ﴾.

٦- قوة أولئك الأقوام وشدتهم وكثرتهم، ومع ذلك لم تنفعهم ولم تدفع عنهم عقاب الله لما حل بهم؛ لقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الْأَحْزَابُ (١٣) إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ (١٤)﴾.

٧- إثبات الأسباب وترتب مسبباتها عليها بإذن الله، فأولئك الأقوام إنما عوقبوا بسبب تكذيبهم الرسل؛ لقوله تعالى: ﴿كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ﴾، وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ فأثنى على داود عليه السلام؛ لأنه أواب رجَّاع إلى ربه.

٨- أن من كذب رسولًا، فقد كذب جميع الرسل.

٩- يجب عدم الاغترار بما عليه أكثر الخلق، فأكثر الأمم كذبوا رسلهم.

١٠- الاعتبار بالأغلب؛ وأن الكل قد يطلق على الأغلب، فكل الأقوام المذكورين آمن منهم من آمن ونجا.

١١- التهديد والوعيد للمكذبين للنبي ﷺ بقرب حلول العذاب بهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا يَنظُرُ هَؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ (١٥)﴾.

١٢- سفه المشركين المكذبين، وجهلهم؛ لدعائهم بتعجيل عذابهم في الدنيا قبل يوم القيامة؛ إمعانًا في التكذيب، واستبعاد ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿١٦﴾﴾.

١٣- إثبات ربوبية الله تعالى العامة لجميع الخلق، واعتراف المشركين بذلك؛ لقولهم: ﴿رَبَّنَا﴾.

١٤- إثبات يوم القيامة، والبعث والحساب والجزاء على الأعمال، وإظهار المشركين الإيمان بذلك، وإن كانوا في الحقيقة يكذبون به.

١٥- أمره عز وجل له ﷺ بالصبر على قول قومه وأذاهم، وفي ذلك إشارة وبشارة إلى أن النصر والعاقبة له؛ لأن النصر مع الصبر، والعاقبة للمتقين؛ لقوله تعالى: ﴿ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾.

١٦- أنه ﷺ كغيره من البشر يتأثر ويتألم؛ ولهذا أمره الله بالصبر على ما يقوله المشركون.

١٧- أن طريق الرسل وأتباعهم ليس مفروشًا بالورود والرياحين، بل لا بد فيه من الأذى بالقول والفعل، فلا بد فيه من الصبر.

١٨- تذكير الله عز وجل له ﷺ بعبده ورسوله داود عليه السلام وسيرته، وما كان عليه من الصبر على العبادة والطاعة وغير ذلك؛ لتثبيت فؤاده ﷺ، وطمأنة نفسه، والتأسي به في العبادة والصبر؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ﴾ الآية.

١٩- إثبات نبوة داود عليه السلام ورسالته، وتشريفه وتكريمه بوصفه بالعبودية لله تعالى، أفضل ما يوصف به البشر، وإضافته إلى ضمير المتكلم وهو الله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿عَبْدَنَا﴾ وقوله: ﴿وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْحِكْمَةَ﴾ وهي النبوة والعلم.

٢٠- فضيلة داود عليه السلام؛ لأن الله عز وجل امتدحه وأثنى عليه، وأمر النبي ﷺ بذكره؛ للاقتداء به.

٢١- عظم ما أعطيه داود عليه السلام من القوة في العلم والعمل والطاعة والعبادة والحرب، وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿ذَا ٱلْأَيْدِ﴾.

٢٢- الترغيب في القوة في الله، قوة القلب والبدن، والعلم والعمل؛ لأن الله أثنى

على داود عليه السلام بذلك، وفي الحديث: «**المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كلٍّ خير**»[١].

٢٣- اتصافه عليه السلام بكثرة الرجوع إلى الله، والإنابة إليه، وتدارك ما فاته؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾.

٢٤- الحث على الرجوع إلى الله تعالى في جميع الأمور، والتوبة والإنابة إليه؛ لثنائه عز وجل على داود بذلك.

٢٥- امتنان الله عز وجل على داود عليه السلام بتسخير الجبال والطير يسبحن معه أول النهار وآخره تسبيحًا خاصًّا، وطاعته، والرجوع إليه؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً ۖ كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾﴾.

٢٦- نعمة الله تعالى على داود بما أكرمه به من حسن الصوت، الذي جعل الجبال والطير يرجِّعْن معه، ويجاوبنه بالتسبيح.

٢٧- فضل هذين الوقتين: العشي، والإشراق؛ لأنهما أوقات الصلاة والتسبيح والأذكار والأوراد.

٢٨- قدرة الله تعالى على جعل الجبال وغيرها من الجمادات، والطيور وغيرها من العجماوات، وكل شيء يسبحه؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ﴾ [الإسراء: ٤٤].

٢٩- فضل الله عز وجل على سليمان عليه السلام بتقوية ملكه، وتمكينه بما وهبه من أسباب قوة الملك المادية والمعنوية؛ لقوله تعالى: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ﴾.

٣٠- امتنان الله عز وجل على داود بإيتائه النبوة والعلم، وفصل الخطاب في الخصومات، والفصاحة والبيان؛ لقوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ﴾.

٣١- أن من نعم الله تعالى على العبد أن يرزقه العلم وفصل الخطاب؛ لأن الله امتن على نبيه داود عليه السلام بذلك.

* * *

---

(١) أخرجه مسلم في القدر ٢٦٦٤، وابن ماجه في المقدمة ٧٩؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

قال الله تعالى: ﴿ ۞ وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩ ﴿٢٤﴾ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٢٥﴾ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ ۞ وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩ ﴿٢٤﴾ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٢٥﴾ ﴾:

قال السعدي[1]: «لما ذكر تعالى أنه آتى نبيه داود الفصل في الخطاب بين الناس، وكان معروفًا بذلك، مقصودًا، ذكر تعالى نبأ خصمين اختصما عنده في قضية جعلها الله فتنة لداود وموعظة؛ لخلل ارتكبه، فتاب الله عليه، وغفر له، وقيَّض له هذه القضية؛ فقال لنبيه ﷺ: ﴿ ۞ وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ ﴾ فإنه نبأ عجيب».

قوله: ﴿ ۞ وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ ﴾ الاستفهام للتعجيب والتشويق، أي: وهل أتاك يا محمد، خبر الخصم؟ وهو خطاب له، ولكل من يصلح خطابه. والنبأ: الخبر الهام، و﴿ٱلْخَصْمِ﴾، أي: المتخاصمين؛ ولهذا قال: ﴿ ۞ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ﴾، أي: حين تسوروا على داود المحراب، وهو مكان عبادته، و«التَّسَوُّر»: الاعتلاء والصعود على السُّور.

﴿إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ﴾ «إذ»: بدل من «إذ» الأولى، أي: حين دخلوا على داود في محرابه- وكان قد أغلق عليه بابه للعبادة- باعتلاء السور عليه.

(١) في «تيسير الكريم الرحمن» ٦/ ٤١٤.

﴿فَفَزِعَ مِنْهُمْ﴾ الفاء: عاطفة، أي: خاف وارتاع منهم؛ لتسورهم المحراب عليه وهم جماعة، وهذا خوف طبيعي تقتضيه الطبيعة والجبلة.

﴿قَالُوا لَا تَخَفْ﴾، أي: اطمئن ولا تخش شرًّا، أي: أننا ما جئنا لقتل أو نهب، ونحو ذلك.

﴿خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ﴾ تعليل للنهي عن الخوف، أي: نحن خصمان بغى بعضنا على بعض، أي: اعتدى بعضنا على بعض وظلمه.

﴿فَاحْكُمْ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ﴾، أي: بالعدل.

﴿وَلَا تُشْطِطْ﴾، أي: ولا تمل في الحكم على أحدنا، ولا تجر ولا تظلم.

و«الشطط»: الميل عن الحق، والجور والظلم والميل إلى أحد الخصمين.

﴿وَاهْدِنَا﴾، أي: ودلنا وأرشدنا.

﴿إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ﴾، أي: إلى وسط الطريق، أي: إلى الطريق السوي، طريق العدل، والحق، والصواب.

﴿إِنَّ هَذَا أَخِي﴾، أي: فقال أحدهما: ﴿إِنَّ هَذَا أَخِي﴾، وجائز أن يكون أخاه في الدين، أو في النسب، أو الصداقة، أو في ذلك كله؛ مما يقتضي مراعاة هذه الأخوة فيما بينهما.

﴿لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً﴾ مما يوجب عليه القناعة بما آتاه الله، و«النعجة»: أنثى الضأن.

﴿وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ لا تعدل شيئًا بالنسبة لما عنده، فطمع فيها.

﴿فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا﴾، أي: اجعلني كافلها، وأعطنيها، وذلك لتصير في ملكه، وهو الكافل لها.

﴿وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ﴾، أي: وغلبني في الجدال، أي: صار يجادلني ويحاجني حتى غلبني.

﴿قَالَ﴾ داود عليه السلام: ﴿لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ﴾ اللام: لام القسم لقسم مقدر، و«قد»: حرف تحقيق، أي: والله لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه، أي: اعتدى عليك بسؤال ضم نعجتك إلى نعاجه.

ووجه الظلم ظاهر: لأن هذه النعجة ملك له، وهو أيضًا فقير معدِم، لا يملك

غيرها، وأخوه عنده ما يغنيه عنها.

﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ﴾، أي: الشركاء في المواشي كالإبل والبقر والغنم، أو في الأموال عامة.

﴿لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ اللام: للتوكيد، والبغي: الاعتداء والظلم، أي: ليعتدي بعضهم على بعض، ويظلم بعضهم بعضًا، في أخذ بعضهم من نصيب بعض، بأي وسيلة من الوسائل؛ لأن الظلم من صفة النفوس، وهو ديدن كثير من الخلق؛ قال المتنبي(١):

والظلم من شيم النفوس فإن تجد ... ذا عفة فلعلة لا يَظلِمُ

ويقال في المثل: «لا يترك الظلم إلا عاجز».

وهذا غير مسلَّم على الإطلاق؛ ولهذا قال تعالى:

﴿ ۞ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ ﴾ «إلا»: أداة استثناء، أي: إلا الذين آمنوا من الخلطاء وغيرهم، أي: صدقوا بقلوبهم، ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾، أي: وعملوا الأعمال الصالحات بجوارحهم، أي: فهم لا يبغي ولا يعتدي بعضهم على بعض في أخذ نصيبه أو ظلمه؛ لأن الإيمان والعمل الصالح يمنعهم من البغي والظلم، وبقدر نقص الإيمان والعمل الصالح عندهم، يحصل منهم البغي والظلم.

﴿وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ «ما»: زائدة إعرابًا، مؤكدة للقلة من حيث المعنى، أي: وقليل من الخلطاء، ومن الخلق كلهم، المؤمنون الذين يعملون الصالحات، ولا يقعون في البغي والاعتداء والظلم؛ كما قال تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾﴾ [سبأ: ١٣].

﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ﴾، أي: وأيقن داود عليه السلام، وعلم.

﴿أَنَّمَا فَتَنَّـٰهُ﴾ «أنما»: كافة ومكفوفة، وتفيد الحصر، أي: اختبرناه وامتحناه، ودبرنا عليه هذه القضية والخصومة؛ لينتبه.

﴿فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ﴾ الفاء: عاطفة، أي: طلب من ربه المغفرة لما صدر منه.

﴿وَخَرَّ رَاكِعًا﴾، أي: خر على الأرض ساجدًا لله تعالى.

---

(١) انظر: «ديوانه» ١/ ١٦٦.

﴿وَأَنَابَ﴾، أي: وتاب ورجع إلى الله تعالى خشية له.

﴿فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ﴾ الفاء: عاطفة، أي: فغفرنا له ذلك الذي صدر منه، بستره والتجاوز عنه.

قال السعدي[1]: «وهذا الذنب الذي صدر من داود عليه السلام لم يذكره الله؛ لعدم الحاجة إلى ذكره، فالتعرض له من باب التكلف، وإنما الفائدة ما قصه الله علينا من لطفه به، وتوبته، وإنابته، وأنه ارتفع محله، فكان بعد التوبة أحسن منه قبلها».

﴿وَإِنَّ لَهُۥ﴾ الواو: عاطفة، أي: وإن له مع المغفرة ﴿عِندَنَا لَزُلْفَىٰ﴾ اللام: للتوكيد، أي: وإن له عندنا لدرجة رفيعة، ومنزلة عالية، وقربًا منًّا.

﴿وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾، أي: وله عندنا «حسن مآب»، أي: حسن منقلب، وطيب مأوى في الجنة؛ لتوبته وإنابته، وعدله التام في ملكه، وقوته في الطاعة والعبادة، وثباته عند اللقاء، وغير ذلك.

قال ابن القيم: «فزاده الله على المغفرة أمرين: الزلفى، وهي درجة القرب منه... والثاني: حسن المآب، وهو حسن المنقلب، وطيب المأوى عند الله. قالوا: ومن تأمل زيادة القرب التي أعطيها داود بعد المغفرة علم صحة ما قلنا: وأن العبد بعد التوبة يعود خيرًا مما كان»[2].

قوله تعالى: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾﴾:

قوله: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ﴾، أي: صيرناك ﴿خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ﴾ تنفذ أحكام الله، وتحكم بين الناس في أمور دينهم ودنياهم.

﴿فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ﴾ الأمر للوجوب، أي: فاحكم بين الناس بالعدل.

﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ﴾، أي: ولا تتبع في حكمك بين الناس ﴿ٱلْهَوَىٰ﴾، أي: ما تهواه نفسك.

﴿فَيُضِلَّكَ﴾ الفاء: رابطة لجواب شرط مقدر، أي: فيضلك الهوى، أي: يبعدك ويحيد بك، ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، أي: عن صراط الله وطريقه وشرعه.

قال ابن القيم: «فقسم سبحانه طريق الحكم بين الناس إلى الحق، وهو الوحي الذي أنزل الله على رسوله، وإلى الهوى، وهو ما خالفه»[1].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، أي: الذين يتعمدون الخروج عن سبيل الله، ومخالفة حكمه، ولم يقل: «إنك إن تضل»؛ تفاديًا من مخاطبة داود بذلك، وليكون الكلام أعم.

﴿لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدُۢ﴾، أي: عظيم من حيث كيفه وكمه.

﴿بِمَا نَسُواْ يَوۡمَ ٱلۡحِسَابِ﴾ الباء: للسببية، و«ما»: مصدرية، أي: بسبب نسيانهم يوم القيامة؛ يوم الحساب والجزاء، وترك الاستعداد والعمل له.

الفوائد والأحكام:

١- ذكر قصة الخصم الذين تسوروا المحراب على داود عليه السلام، والتشويق إليها؛ لما فيها من العجَب والعبر والعظات.

٢- ملازمة داود عليه السلام محرابه للعبادة، مع ما هو فيه من الملك الكبير، وكثرة ما يرد عليه من الأحكام.

ويؤخذ من هذا: حاجة كل من يتولى شيئًا من مسؤوليات الأمة، أن يجعل له وقتًا يخلو فيه بربه للعبادة؛ ليكون غذاءً روحيًّا له، وقربة له عند الله، وسببًا لتوفيقه في أعماله، وعونًا له عليها.

٣- تشريف النبي ﷺ بخطاب الله تعالى له؛ لقوله تعالى: ﴿وَهَلۡ أَتَىٰكَ﴾.

٤- فزع داود عليه السلام من هؤلاء الخصم؛ لأنهم تسوروا عليه محرابه، وكان لا يأتيه فيه أحد، ودخلوه من غير بابه، ومن غير استئذان، مفاجأة، ومباغتة؛ لقوله تعالى: ﴿فَفَزِعَ﴾.

٥- أن الأنبياء عليهم السلام بشر، يعتريهم ما يعتري غيرهم من البشر من الخوف الطبيعي ونحو ذلك.

٦- ينبغي الاستئذان ومراعاة لآداب عند الدخول على الحكام وغيرهم، وأن

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٤/ ٣٨.

تؤتى البيوت من أبوابها.

٧- حلم داود عليه السلام؛ فإنه ما غضب عليهما، ولا انتهرهما، ولا وبخهما حين تسورا عليه المحراب.

٨- طمأنتهم له بأنهم ما جاؤوا لأمر يخاف منه، بل لخصومة بينهم، وهكذا ينبغي لمن قدم ففزع المقدوم عليه منه أن يطمئنه، ويبين له سبب قدومه؛ لقوله تعالى: ﴿قَالُواْ لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ﴾.

٩- جواز نسبة البغي والظلم لمن حصل منه ذلك؛ لقولهما: ﴿خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ﴾.

١٠- مطالبتهم إياه بالحكم بينهم بالعدل، من غير ميل لأحدهم، أو جور وظلم، ودلالتهم إلى الصواب؛ لقولهم: ﴿فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ﴾.

١١- حسن خلق داود عليه السلام، وعدم اشمئزازه من نصيحتهما، وقبوله ذلك منهما.

١٢- ينبغي ألا تؤثر الخصومة على الخصمين بترك الأدب فيما بينهما؛ لقول هذين الخصمين معًا: ﴿خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ﴾، مع أن الباغي واحد، وقول الذي عرض القصة: ﴿إِنَّ هَٰذَآ أَخِى﴾.

١٣- يجب احترام حق الأخوة، سواء كانت في الدين، أو في النسب، أو الصداقة، أو في ذلك كله؛ لقوله: ﴿إِنَّ هَٰذَآ أَخِى﴾ فهذا تذكير بحق الأخوة بينهما.

١٤- أن المال كلما كثر عند الإنسان كان مدعاة إلى طمعه وجشعه، فهذا الذي عنده تسع وتسعون نعجة لم تقنعه، بل طمع في نعجة أخيه الواحدة، وقد قال ﷺ: «**لو أن لابن آدم واديًا من ذهب أحب أن يكون له واديان، ولا يملأ فاه إلا التراب، ويتوب الله على من تاب**»(١).

١٥- أن بعض الخصوم قد يكون أقوى حجة من بعض؛ لقوله: ﴿وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ﴾،

---

(١) أخرجه البخاري في الرقاق ٦٤٣٩، ومسلم في الزكاة ١٠٤٨، والترمذي في الزهد ٢٣٣٧؛ من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

وقد قال ﷺ: «**إنكم تختصمون إليَّ، ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض، فأقضي بنحو مما أسمع، فمن قضيت له بشيء من حق أخيه فلا يأخذه؛ فإنما أقطع له قطعة من النار**»[1].

١٦- أن قوة حجة الخصم أمر مطلوب، بل ومحمود إذا كان بحق، لكن إن كان لقلب الموازين، وبغير حق فهو مذموم.

١٧- قضاؤه عليه السلام بينهما بالعدل، دون ميل لأحدهما أو ظلم؛ لقوله لصاحب النعجة الواحدة: ﴿قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ﴾، وإنما حكم داود عليه السلام- والله أعلم- دون أن يسمع كلام الخصم الآخر؛ لأنه ظهر من السياق السابق من كلامهما أن هذا هو الواقع.

قال السعدي[2]: «ومن المعلوم من السياق من كلامهما أن هذا هو الواقع، فلهذا لم يحتج أن يتكلم الآخر، فلا وجه للاعتراض بقول القائل: لم حكم داود قبل أن يسمع كلام الخصم الآخر؟».

١٨- يجب ألا يَمنع الحاكمَ من الحكم بالحق والعدل سوءُ أدب الخصم، فداود عليه السلام حكم بينهم بالعدل، مع أنهم تسوروا عليه المحراب وأفزعوه.

١٩- أن كثيرًا من الخلطاء والشركاء في المواشي والأموال قد يعتدي بعضهم على بعض، ويظلم بعضهم بعضًا، بانتقاص حقه، ونحو ذلك؛ لقول داود: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ﴾.

٢٠- استثناء الذين آمنوا وعملوا الصالحات- وهم قليل- من بين الخلطاء، من بغي بعضهم على بعض؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾.

٢١- فضيلة الإيمان والعمل الصالح؛ لأن ذلك يمنع صاحبه من الاعتداء والظلم؛ وقد رُوي في الحديث القدسي: «**أنا ثالث الشريكين ما لم يخن أحدهما صاحبه،**

---

(١) أخرجه البخاري في الشهادات ٢٦٨٠، ومسلم في الأقضية، الحكم بالظاهر ١٧١٣، وأبو داود في الأقضية ٣٥٨٣، والنسائي في آداب القضاة ٥٤٠١، والترمذي في الأحكام ١٣٣٩، وابن ماجه في الأحكام ٢٣١٧؛ من حديث أم سلمة رضي الله عنها.

(٢) في «تيسير الكريم الرحمن» ٦/ ٤١٥.

فإذا خانه خرجت من بينهما»[١].

٢٢- أنه لا بد من الجمع بين إيمان القلب وتصديقه، وعمل الصالحات بالجوارح الظاهرة، ولا بد من كون العمل صالحًا، أي: خالصًا لله تعالى، موافقًا لشرعه.

٢٣- أن أهل الإيمان والعمل الصالح قليل بالنسبة لأهل الكفر والبغي والضلال؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ فلا يغتر بما عليه أكثر الخلق، فأكثرهم على ضلال.

ولهذا قال بعض السلف: «لا تستوحش من الحق لقلة السالكين، ولا تغتر بالباطل لكثرة الهالكين»[٢].

٢٤- تنبه داود عليه السلام من خلال تسور الخصم محرابه عليه، وخصومتهما، واعتقاده بأن الله إنما اختبره وامتحنه بذلك، واستغفاره ربه، وخروره ساجدًا، وإنابته إليه؛ لقوله تعالى: ﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾.

ويشرع السجود عند قراءة هذه الآية من «ص»، لكنها ليست من عزائم السجود، فعن ابن عباس رضي الله عنهما؛ أنه قال في السجود في «ص»: «ليست من عزائم السجود، وقد رأيت رسول الله ﷺ يسجد فيها»[٣].

وعن سعيد بن جبير، عن ابن عباس رضي الله عنهما؛ أن النبي ﷺ سجد في «ص»، وقال «**سجد داود توبة، ونحن نسجدها شكرًا**»[٤].

وعن مجاهد قال: سألت ابن عباس- يعني: عن سجدة «ص»- من أين سجدت؟ فقال: «أوما تقرأ: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ﴾، ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾؟ فكان داود ممن أمر نبيكم ﷺ أن يقتدي به، فسجدها داود، فسجدها رسول الله

(١) أخرجه أبو داود في البيوع، في الشركة ٣٣٨٣، وضعفه الألباني، وأخرجه الحاكم ٢/ ٦٠ وصححه، ووافقه الذهبي من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) أخرجه البخاري في الصلاة، في أبواب سجود القرآن ١٠٦٩، وأبو داود في الصلاة، السجود في «ص» ١٤٠٩، والترمذي في أبواب السفر، ما جاء في سجدة «ص» ٥٧٧، وأحمد ١/ ٣٦٠.

(٤) أخرجه النسائي في «الكبرى» في التفسير، فيما ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٧/ ٥٢، وقال ابن كثير: «تفرد به النسائي، ورجال إسناده كلهم ثقات».

ﷺ»(١).

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، قال: «قرأ رسول الله ﷺ وهو على المنبر «ص»، فلما بلغ السجدة نزل وسجد، وسجد الناس معه، فلما كان يوم آخر قرأها، فلما بلغ السجدة تَشَزَّنَ الناس للسجود، فقال: «**إنما هي توبة نبي، ولكني رأيتكم تَشَزَّنْتُم**» فنزل وسجد وسجدوا»(٢).

٢٥- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة لداود عليه السلام، وتشريفه بإضافة اسم الرب إلى ضميره؛ لقوله تعالى: ﴿رَبَّهُۥ﴾.

٢٦- مغفرة الله تعالى لداود ما صدر منه- مما استوجب ابتلاءه وامتحانه- بعد استغفاره ربه، وإنابته إليه؛ لقوله تعالى: ﴿فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ﴾.

٢٧- أن الاستغفار والصلاة والعبادة والإنابة والتوبة، من أسباب مكفرات الذنوب.

٢٨- عظم ما عند الله تعالى لداود من الكرامة: من المنزلة الرفيعة عنده تعالى، والقرب منه، وحسن المرجع، وطيب المأوى؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾.

٢٩- أن حال التائب من الذنب بعد التوبة والإنابة خير من حاله قبل الذنب؛ لما أعطاه الله تعالى لداود بعد توبته من الكرامة، وكحال آدم قبل معصيته بالأكل من الشجرة، وبعد أكله منها وتوبته، وتوبة الله تعالى عليه.

٣٠- إثبات الكلام لله تعالى بحرف وصوت مسموع؛ لقوله: ﴿يَٰدَاوُۥدُ﴾ الآية.

٣١- امتنان الله تعالى على داود بجعله خليفة في الأرض؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ﴾.

٣٢- أمر الله تعالى لداود بالحكم بين الناس بالحق، أي: بالعدل، ونهيه عن اتباع الهوى؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ﴾ الآية.

وليس في هذا دلالة على أنه قد يقع منه ذلك؛ لأن الأنبياء عليهم السلام

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة «ص»، ٤٨٠٧.

(٢) أخرجه أبو داود في الصلاة-السجود في «ص» ١٤١٠ وقال ابن كثير في «تفسيره» ٧/ ٥٣: «تفرد به أبو داود، وإسناده على شرط الصحيح».

معصومون عن الخطأ في التبليغ، وعن الوقوع في الكبائر.

٣٣- أنه يجب على الحاكم بين الناس أن يحكم بينهم بالحق والعدل، ويَحْذَر من اتباع الهوى.

٣٤- أن من اتبع الهوى في حكمه بين الناس أضله عن سبيل الله القويم، وصراطه المستقيم؛ لقوله تعالى: ﴿فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

٣٥- الوعيد والتهديد لمن ضلوا عن سبيل الله، وصراطه المستقيم؛ بالعذاب الشديد، بسبب نسيانهم يوم الحساب، والعمل له؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُواْ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾.

٣٦- إثبات الأسباب، وتأثيرها في مسبباتها بإذن الله تعالى.

٣٧- إثبات يوم القيامة والحساب والجزاء على الأعمال، ووجوب الاستعداد والعمل له، والحذر من نسيانه.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾.

قوله: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ﴾ «باطلًا»: مفعول مطلق نائب عن المصدر، أي: خلقًا باطلًا، أي: عبثًا ولهوًا ولعبًا، من غير فائدة ولا مصلحة، أي: ما خلقناهما وما بينهما من المخلوقات إلا بالحق والعدل، ولعبادة الخلائق لله تعالى وحده، ومجازاتهم على أعمالهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات: ٥٦]، وقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى ﴿٣١﴾﴾ [النجم: ٣١].

﴿ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ﴾ الإشارة إلى المصدر المفهوم من قوله: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ﴾، أي: ذلك الظن بأنا خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلًا، هو ظن الذين كفروا، أي: اعتقادهم، فيعتقدون أنه ليس هناك بعث ولا معاد ولا نشور، ولا حساب ولا جزاء؛ كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الجاثية: ٢٤]، وقالوا: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾﴾ [المؤمنون: ٣٧].

قال ابن القيم: «والباطل الذي ظنوه ليس هو الجمع بين النقيضين، بل الذي ظنوه: أنه لا شرع ولا جزاء، ولا أمر ولا نهي، ولا ثواب ولا عقاب، فأخبر أن خلقها لغير ذلك هو الباطل الذي تنزه عنه، وذلك هو الحق الذي خلقت به، وهو التوحيد وحقه وجزاؤه، وجزاء من جحده وأشرك به»(١).

﴿فَوَيْلٌ﴾، أي: وعيد شديد وهلاك ﴿لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ﴾، أي: أنها هي مصيرهم؛ لأنهم ظنوا بربهم ما لا يليق بجلاله، فأنكروا البعث والمعاد والحساب، ومجازاة العباد، ظنوا أنه خلق الخلق باطلًا، وتركهم سدى؛ ولهذا قال:

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٤/ ٣٨.

﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾ «أم»: في الموضعين هي المنقطعة التي بمعنى: «بل»، وهمزة الاستفهام الإنكاري، أي: بل أنجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات، أي: أنصيّر الذين آمنوا وصدقوا بقلوبهم، وعملوا الصالحات بجوارحهم.

﴿كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ بالكفر والأعمال السيئات، أي: لا نجعل هؤلاء كهؤلاء، فشتان بين الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وأصلحوا في الأرض، وبين الذين كفروا وعملوا السيئات، وأفسدوا في الأرض، شتان بينهم في الدنيا والآخرة، فالمؤمنون سعداء بإيمانهم في الدنيا والآخرة، ومآلهم إلى الجنات، والكفار أشقياء بكفرهم في الدنيا والآخرة، ومآلهم إلى النار والدركات.

﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ﴾، أي: بل أنجعل المتقين الذين اتقوا ربهم بفعل أوامره، واجتناب نواهيه، ﴿كَٱلْفُجَّارِ﴾، أي: كأهل الفجور والمعاصي. وهذا تأكيد للإنكار، وزيادة تشنيع على منكري البعث والجزاء؛ لأن إنكار البعث والجزاء يقتضي المساواة بين المختلفين؛ كالتسوية بين المؤمنين والمفسدين، وبين المتقين والفجار. فهذا حكم في غاية السوء والقبح، يتنزه الله عنه، ولا يجوز نسبته إليه؛ لمنافاته لحكمته وعدله وكماله، فلا يليق به أن يجعل المؤمن كالمفسد، والبر كالفاجر، والمحسن كالمسيء؛ لأن هذا قبيح في نفسه، يتعالى الله عن فعله، وينكره الشرع، وتنكره العقول والفطر وتستقبحه، قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الجاثية: ٢١].

والمعنى: إنا لا نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض، ولا نجعل المتقين كالفجار، ولا يستوون عند الله، وحكمتنا تأبى ذلك وعدلنا؛ ولهذا لا بد من البعث والمعاد؛ لمحاسبة العباد، ومجازاتهم على أعمالهم، والاقتصاص للمظلوم من الظالم، وهذا تدل عليه العقول السليمة، والفطر المستقيمة.

﴿كِتَـٰبٌ﴾، أي: هذا كتاب، ونكّر «كتاب» للتعظيم، والمراد به: القرآن الكريم، ﴿أَنزَلْنَـٰهُ﴾ صفة لـ«كتاب»، أي: أنزلناه من عندنا، فهو كلامنا.

﴿إِلَيْكَ﴾ الخطاب للنبي ﷺ، ﴿مُبَـٰرَكٌ﴾، أي: كثير البركة والخير، فيه بيان كل خير، والدعوة إليه، والتحذير من كل شر.

﴿لِيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ قرأ أبو جعفر بتاء الخطاب مع تخفيف الدال: «لِتَدبَّرُوا»، وقرأ الباقون بياء الغيبة، مع تشديد الدال: ﴿لِيَدَّبَّرُوٓاْ﴾.

واللام في الموضعين للتعليل، أي: لأجل أن يتدبروا آيات هذا الكتاب العظيم: بتلاوة ألفاظها وحفظها، وفهم معانيها، وتطبيق أحكامها، والعمل بها.

كما قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء:٨٢]، وقال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ [محمد: ٢٤].

﴿وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾، أي: ولأجل أن يتعظ ويعتبر بآيات هذا الكتاب أصحاب العقول النيِّرة، الذين ينتفعون بعقولهم، ويهتدون بها إلى الحق، بعد تدبر ألفاظ هذه الآيات ومعانيها وأحكامها.

الفوائد والأحكام:

١- أن الله عز وجل خلق السماء والأرض والمخلوقات كلها بعد العدم؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًاۚ﴾.

٢- النفي القاطع أن يكون عز وجل خلق السماء والأرض وما بينهما باطلًا وعبثًا ولهوًا ولعبًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًاۚ﴾.

٣- إثبات أن الله عز وجل خلق السماء والأرض وما بينهما بالحق، ولإقامة الحق والعدل، ولحكمة عظيمة؛ وهي أن يعبده الخلائق ويوحدوه، ويجازيهم على أعمالهم؛ لمفهوم قوله: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًاۚ﴾.

٤- إثبات الحكمة في أفعال الله تعالى.

٥- لا أحد يعتقد أن الله خلق السماء والأرض وما بينهما باطلًا وعبثًا، وترك الخلائق سدى، إلا الكفار؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ﴾.

٦- أن من اعتقد بأن الله خلق السماء والأرض وما بينهما باطلًا، فهو كافر.

٧- التهديد والوعيد للذين كفروا واعتقدوا أن الله خلق الخلق باطلًا، بالنار وعذابها الشديد؛ لقوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنَ ٱلنَّارِ﴾.

٨- إثبات وجود النار، وأنها أعدت للكافرين.

٩- أن حكمة الله تعالى تأبى، ولا يليق بعدله وكماله أن يجعل الذين آمنوا كالمفسدين في الأرض، ويجعل المتقين كالفجار، فلا يستوون عند الله، فالمؤمنون المتقون لهم الثواب، والمفسدون الفجار لهم العذاب؛ لقوله تعالى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾﴾، أي: لا نجعل هؤلاء كهؤلاء، ولا يستوون عندنا.

١٠- أنه لا بد من البعث والمعاد، ومحاسبة العباد بأعمالهم، ومجازاة المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته، والاقتصاص من الظالم للمظلوم.

١١- لا بد من الجمع بين الإيمان بالقلب، والعمل الصالح بالجوارح، ولا بد من كون العمل صالحًا، أي: خالصًا لله تعالى، تبعًا لشرعه؛ لقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾.

١٢- أن من كفر وعمل السيئات فهو من المفسدين في الأرض؛ كما قال تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾ [الروم: ٤١]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ [الأعراف: ٥٦].

كما أن من آمن وعمل الصالحات فهو من المصلحين في الأرض؛ لأن صلاح الأرض بالإيمان والعمل الصالح، وفسادها بالكفر والمعاصي.

١٣- الحث والترغيب بالإيمان والعمل الصالح، وتقوى الله، والتحذير والترهيب من الإفساد في الأرض والفجور.

١٤- تعظيم القرآن، والامتنان بإنزاله على النبي ﷺ؛ لقوله: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ﴾.

١٥- إثبات علو الله تعالى على خلقه بذاته وصفاته؛ لقوله تعالى: ﴿أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ﴾.

١٦- أن القرآن منزل من عند الله تعالى، وهو كلامه؛ لقوله تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ﴾، وفي هذا الرد على القدرية القائلين بخلق القرآن.

١٧- أن القرآن مكتوب باللوح المحفوظ، وبالصحف التي بأيدي الملائكة، ومكتوب بالمصاحف بأيدي المؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿كِتَابٌ﴾.

١٨- إثبات رسالته ﷺ بإنزال الكتاب عليه، وتشريفه بخطاب الله تعالى له؛ لقوله

تعالى: ﴿أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ﴾.

١٩- ثناء الله تعالى على القرآن الكريم، وامتداحه له بقوله: ﴿مُبَٰرَكٌ﴾، أي: كثير الخير والبركة، فيه تبيان كل شيء، والدعوة لكل خير، والتحذير من كل شر.

٢٠- أن الحكمة من إنزال القرآن الكريم: ليتدبر العباد آياته؛ بتلاوته وحفظه، وفهم معانيه، وتطبيق أحكامه، والعمل به، والتذكر والاتعاظ به؛ لقوله تعالى: ﴿لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾.

قال الحسن البصري: «والله ما تَدبُّره بحفظ حروفه وإضاعة حدوده، حتى إن أحدهم ليقول: قرأت القرآن ما يرى له القرآن في خلق ولا عمل»[1].

٢١- أن التذكر هو ثمرة التدبر، ولهذا قدم التدبر على التذكر.

٢٢- أنه لا يتذكر ويتعظ بالقرآن إلا أصحاب العقول، الذين ينتفعون بعقولهم، ويهتدون بها إلى الحق، والتي هي مناط المدح؛ بخلاف غيرهم الذين عندهم العقول التي هي مناط التكليف، لكنهم لم ينتفعوا بها.

* * *

(١) أخرجه ابن أبي حاتم فيما ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٧/ ٥٥.

قال الله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ ۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِىِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ ﴿٣١﴾ فَقَالَ إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ﴿٣٢﴾ رُدُّوهَا عَلَىَّ ۖ فَطَفِقَ مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ ۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِىِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ ﴿٣١﴾ فَقَالَ إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ﴿٣٢﴾ رُدُّوهَا عَلَىَّ ۖ فَطَفِقَ مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾﴾:

قوله: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ ۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾﴾، أي: آتينا لداود ابنه سليمان وارثًا للنبوة بعده.

كما قال تعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ﴾ [النمل: ١٦]، أي: في النبوة. وقد كان له أبناء كثيرون غيره.

﴿نِعْمَ ٱلْعَبْدُ﴾ سليمان عليه السلام، و«نعم»: لإنشاء لمدح، ﴿إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾، أي: كثير الأوب والرجوع إلى الله تعالى في جميع أموره، والإنابة إليه، والطاعة والعبادة، والذكر والتسبيح.

﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ﴾ «إذ»: ظرف متعلق بمحذوف، تقديره: اذكر.

أي: إذ عرض عليه سُوَّاس خيله ﴿بِٱلْعَشِىِّ﴾، أي: ما بعد العصر، أو ما بعد الزوال إلى الغروب، ﴿ٱلصَّٰفِنَٰتُ﴾، أي: الخيل الصافنات، جمع «صافنة»، وهي الخيل التي تقف على ثلاث قوائم وطرف حافر الرابعة، وذلك علامة أصالتها ونجابتها وخفتها وقوتها، وهو أجمل عند رؤيتها.

وأنشد بعضهم في صفة فرس:

أَلِفَ الصُّفونَ فلا يزال كأنه ... مما يقوم على الثلاث كسيرًا[1]

---

(١) انظر: «أمالي ابن الحاجب» ٢/ ٦٣٥، شرح شواهد المغني ٢/ ٧٢٩، «لسان العرب» مادة (صفن)، =

﴿ٱلۡجِيَادُ﴾، أي: ذوات الجود، والسبق في السير، أو: جمع «جواد» وهو: اسم الفرس ذكرًا كان أو أنثى.

﴿فَقَالَ إِنِّيٓ أَحۡبَبۡتُ حُبَّ ٱلۡخَيۡرِ﴾، أي: أحببت الخير، و«حب» للتأكيد، و«الخير»: يطلق على المال عمومًا؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلۡخَيۡرِ لَشَدِيدٌ ⑧﴾ [العاديات: ٨]، وقال تعالى: ﴿إِن تَرَكَ خَيۡرًا﴾ [البقرة: ١٨٠].

والمراد بالخير في الآية هنا: «الخيل»، وهي من أنفس المال.

أي: إني آثرت حب الخيل، وانشغلت بالنظر إليها ﴿عَن ذِكۡرِ رَبِّي﴾، أي: عن أذكار المساء وصلاة العصر.

﴿حَتَّىٰ تَوَارَتۡ بِٱلۡحِجَابِ﴾، أي: حتى غابت الشمس، أي: استترت واختفت عن الأبصار، أو حتى توارت الخيل واستترت عنه.

﴿رُدُّوهَا عَلَيَّۖ﴾ الخطاب لسُوَّاس خيله، وضمير الهاء للخيل، أي: أرجعوا الخيل إليَّ.

وقيل: الخطاب للملائكة، والضمير للشمس.

﴿فَطَفِقَ مَسۡحَۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلۡأَعۡنَاقِ﴾ قرأ أبو جعفر، وقنبل عن ابن كثير بهمزة ساكنة بعد السين: «بِالسُّؤۡقِ»، وقرأ الباقون بدون همز: ﴿بِٱلسُّوقِ﴾.

وقوله: ﴿فَطَفِقَ﴾، أي: شرع، ﴿مَسۡحَۢا﴾: مفعول مطلق لفعل محذوف، أي: يمسحها مسحًا.

و«السوق»: جمع ساق، و«الأعناق»: جمع عنق، وهي الرقاب.

قال بعض المفسرين: شرع يعقرها ويضربها بالسيف في سيقانها، وفي رقابها؛ غضبًا لله تعالى، وتقربًا إليه؛ لأنها شغلته عن ذكر ربه(١).

قال السعدي(٢): «فما زالت تعرض عليه حتى غابت الشمس في الحجاب، فألهته

=

«مغني اللبيب» ١/ ٣١٨، «المعجم في شواهد العربية» ٣/ ١٦٤.

(١) انظر: «جامع البيان» ٢٠/ ٨٦- ٨٧، «تفسير ابن كثير» ٧/ ٥٧.

(٢) في «تيسير الكريم الرحمن» ٦/ ٤١٩، وانظر: «تفسير ابن كثير» ٧/ ٥٧.

عن صلاة المساء وذكره، فقال ندمًا على ما مضى منه، وتقربًا إلى الله بما ألهاه عن ذكره، وتقديمًا لحب الله على حب غيره: ﴿إِنِّيٓ أَحۡبَبۡتُ حُبَّ ٱلۡخَيۡرِ﴾، وضمن «أحببت» معنى «آثرت»، أي: آثرت حب الخير، الذي هو المال عمومًا، وفي هذا الموضع المراد: الخيل، ﴿عَن ذِكۡرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتۡ بِٱلۡحِجَابِ﴾، أي: غابت عن عينيه، ﴿رُدُّوهَا عَلَيَّ﴾ فردوها، ﴿فَطَفِقَ﴾، أي: شرع فيها، ﴿مَسۡحَۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلۡأَعۡنَاقِ﴾، أي: جعل يعقرها بسيفه في سوقها وأعناقها».

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس رضي الله عنهما: «جعل يمسح أعراف الخيل وعراقيبها حبًّا لها»(١).

واختار هذا الطبري(٢).

قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ فَتَنَّا سُلَيۡمَٰنَ وَأَلۡقَيۡنَا عَلَىٰ كُرۡسِيِّهِۦ جَسَدٗا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَهَبۡ لِي مُلۡكٗا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِيٓۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ فَسَخَّرۡنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجۡرِي بِأَمۡرِهِۦ رُخَآءً حَيۡثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٖ وَغَوَّاصٖ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي ٱلۡأَصۡفَادِ ﴿٣٨﴾ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمۡنُنۡ أَوۡ أَمۡسِكۡ بِغَيۡرِ حِسَابٖ ﴿٣٩﴾ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلۡفَىٰ وَحُسۡنَ مَـَٔابٖ ﴿٤٠﴾﴾:

قوله: ﴿ وَلَقَدۡ فَتَنَّا سُلَيۡمَٰنَ﴾، أي: ابتليناه واختبرناه؛ بأن سلبناه ملكه.

﴿وَأَلۡقَيۡنَا عَلَىٰ كُرۡسِيِّهِۦ جَسَدٗا﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما وكثير من التابعين: «أي: شيطانًا»(٣).

قال الطبري(٤): «ولقد ابتلينا سليمان، وألقينا على كرسيه جسد شيطان ممثل بإنسان».

وقال السعدي(٥): «أي: شيطانًا، قضى الله وقدر أن يجلس على كرسي ملكه، ويتصرف في مدة فتنة سليمان».

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٠/ ٨٧.

(٢) انظر: «جامع البيان» ٢٠/ ٨٧

(٣) انظر: «جامع البيان» ٢٠/ ٨٨، «تفسير ابن كثير» ٧/ ٥٧.

(٤) في «جامع البيان» ٢٠/ ٨٧.

(٥) في «تيسير الكريم الرحمن» ٦/ ٦٢٠.

﴿ثُمَّ أَنَابَ﴾، أي: رجع وتاب إلى ربه.

﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِي﴾، أي: يا رب، اغفر لي، أي: استر علي، وتجاوز عني.

﴿وَهَبْ لِي مُلْكًا﴾، أي: أعطني ملكًا، ونكّر «ملكًا»: للتعظيم، أي: ملكًا عظيمًا كبيرًا، وقدّم طلب المغفرة؛ لأنها أهم، والتخلية قبل التحلية.

﴿لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِيٓ﴾ الجملة في محل نصب نعت لـ«ملكًا»، أي: ملكًا لا يكون مثله لأحد من البشر من بعدي.

عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، قال: «**إن عفريتًا من الجن تفلّت عليَّ البارحة**- أو كلمة نحوها- **ليقطع علي الصلاة، فأمكنني الله منه، وأردت أن أربطه إلى سارية من سواري المسجد، حتى تصبحوا وتنظروا إليه كلكم، فذكرت قول أخي سليمان:** ﴿رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِيٓ﴾» فرده خاسئًا[(١)].

﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾ الجملة تعليل لما قبلها، وفيها توكيد وتخصيص وحصر بـ«إنَّ»، وضمير الفصل «أنت»، وكون الجملة اسمية، أي: لأنك أنت وحدك الوهاب، أي: الجواد الكريم، ذو الهبات العظيمة، والعطايا الجزيلة.

﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ﴾ قرأ أبو جعفر: «الرِّيَاحَ» بالجمع، وقرأ الباقون: ﴿ٱلرِّيحَ﴾ بالإفراد. والفاء عاطفة، أي: فاستجبنا له وغفرنا له، فسخرنا له الريح، أي: الهواء، التي هي خير وأسرع من الخيل.

﴿تَجْرِي بِأَمْرِهِۦ﴾، أي: تسير وفق أمره، ﴿رُخَآءً﴾، أي: لينة في سيرها وهبوبها، ليّنة في طاعتها، لا تستعصي.

﴿حَيْثُ أَصَابَ﴾، أي: حيث قصد وأراد من الجهات والبلاد.

﴿وَٱلشَّيَـٰطِينَ﴾ منصوب عطفًا على «الريح»، أي: وسخرنا له الشياطين؛ وهم عفاريت الجن.

﴿كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ﴾ «كل»: بدل من «الشياطين»، ﴿بَنَّآءٍ﴾ مسخر يبني الأبنية العظيمة

---

(١) أخرجه البخاري في الصلاة ٤٦١، ومسلم في المساجد، جواز لعن الشيطان في أثناء الصلاة ٥٤١.

العجيبة، من محاريب وتماثيل، وغير ذلك.

﴿وَغَوَّاصٍ﴾، أي: مسخر في الغوص في البحار؛ لاستخراج اللؤلؤ والمرجان والدرر والجواهر، التي لا توجد إلا في قعر البحار؛ كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ﴾ [الأنبياء: ٨٢].

﴿وَءَاخَرِينَ﴾، أي: وآخرين من الشياطين ممن تمردوا وعصوا وامتنعوا عن العمل، أو أساؤوا في صنيعهم، وآذوا واعتدوا.

﴿مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ﴾، أي: موثقين بالقيود والأغلال في أيديهم وأعناقهم، وذلك من تمام قوة سلطانه وملكه.

﴿هَٰذَا عَطَآؤُنَا﴾، أي: قال عز وجل لسليمان: هذا عطاؤنا العظيم لك، من تسخير الريح والشياطين، والملك العظيم، والسلطان التام؛ كما سألتنا. وفي هذا امتنان عليه بذلك.

﴿فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ﴾ «أو» عاطفة للتخيير، أي: أعط من شئت، أو امنع من شئت. أو بمعنى الواو، أي: أعط من شئت، وامنع من شئت.

﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾، أي: فلا حساب عليك في ذلك، ولا حرج؛ لعلمه تعالى بكمال عدله عليه السلام، وحسن أحكامه.

قال ابن القيم: «أي: أعط من شئت، وامنع من شئت، لا نحاسبك، وهذه المرتبة هي التي عرضت على نبينا ﷺ، فرغب عنها إلى ما هو أعلى منها، وهي مرتبة العبودية المحضة، التي تصرُّف صاحبها فيها مقصور على أمر السيد في كل دقيق وجليل»(١).

عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: «جلس جبريل إلى النبي ﷺ، فنظر إلى السماء، فإذا ملك ينزل، فقال جبريل: إن هذا الملك ما نزل منذ خلق قبل الساعة. فلما نزل، قال: يا محمد، أرسلني إليك ربك، قال: أفملكًا نبيًّا يجعلك، أو عبدًا رسولًا؟ قال جبريل: تواضع لربك يا محمد. قال: «**بل عبدًا رسولًا**»»(٢).

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٤/ ٣٩.

(٢) أخرجه أحمد ٢/ ٢٣١، وصحح إسناده أحمد شاكر، وقال الهيثمي ٩/ ١٩: «رواه أحمد والبزار وأبو يعلى، =

﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ﴾ اللام: للتوكيد، وإن له عندنا في الآخرة لدرجة رفيعة، ومنزلة عالية، وقربى وكرامة.

﴿وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾، أي: حسن مرجع، وطيب مأوى، وهي الجنة.

الفوائد والأحكام:

١- نعمة الله تعالى على داود بهبته سليمان عليهما السلام وارثًا للنبوة بعده؛ لقوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَـٰنَ﴾ وفي هذا إثبات نبوة سليمان عليه السلام، ورسالته.

٢- امتداح الله تعالى لسليمان بوصفه بالعبودية، التي هي أجل وصف يوصف به البشر؛ لقوله تعالى: ﴿نِعْمَ ٱلْعَبْدُ﴾ وفي هذا إثبات عبودية الأنبياء لله تعالى عبودية خاصة.

٣- ثناء الله تعالى عليه بكثرة الإنابة، والرجوع إلى الله، والعبادة والطاعة؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾.

٤- إثبات العلل والأسباب؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ فامتدحه عز وجل؛ لأنه أواب. وفيه ترغيب في الإنابة والرجوع إلى الله.

٥- عظمة ملك سليمان، وقوة جيشه، وتمتعه بعرض الخيل عليه بالعشي؛ لقوله تعالى: ﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِىِّ ٱلصَّـٰفِنَـٰتُ ٱلْجِيَادُ ﴿٣١﴾﴾.

٦- لا بأس باستعراض ولي الأمر خيله وجنوده وجيشه؛ إظهارًا لقوة الأمة، وإعدادًا لذلك، بل إن ذلك أمر مطلوب.

٧- أن أحسن الأوقات لاستعراض الخيل وسباقها، واستعراض الجيوش، آخر النهار.

٨- أن مما أعطيه سليمان من الملك العظيم: قوة الجيش، من الخيل الأصيلة الصافنات الجياد؛ لقوله تعالى: ﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِىِّ ٱلصَّـٰفِنَـٰتُ ٱلْجِيَادُ ﴿٣١﴾﴾.

٩- يجب على الأمة الإسلامية أن تستعد بالقوة في كل عصر بما يناسبه.

=

ورجال الأولين رجال الصحيح».

١٠- أن من علامات أصالة الخيل ونجابتها وخفتها وسرعتها وجودتها: أن تقف على ثلاث قوائم، وطرف حافر القائمة الرابعة؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ﴾.

١١- انشغاله عليه السلام بها حبًّا للمال، وحبًّا لها، عن أذكار المساء، وصلاة العصر، حتى توارت عن عينيه، أو حتى غابت الشمس؛ لقوله تعالى: ﴿فَقَالَ إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ﴿٣٢﴾﴾.

١٢- غضبه عليها؛ حيث كانت سببًا لانشغاله عن الصلاة وذكر الله، وأمره الساسة بردها عليه، وشروعه بضربها بالسيف بسيقانها ورقابها وعقرها؛ لقوله تعالى: ﴿رُدُّوهَا عَلَىَّ ۖ فَطَفِقَ مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾﴾.

وذلك غضبًا لله تعالى، وتقديمًا لمحبته عز وجل على محبتها.

١٣- استدل بالآية من يقول بجواز التعزير بإتلاف المال.

وقيل: لا يجوز ذلك؛ لأنه إفساد.

١٤- يجب الحذر من الانشغال عن ذكر الله بالدنيا ومتاعها وزينتها.

١٥- ابتلاء الله تعالى لسليمان عليه السلام، واختباره إياه بسلب ملكه، وإلقائه على كرسي ملكه شيطانًا يتصرف فيه وقت فتنته؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا﴾.

١٦- أن الله عز وجل قد يبتلي أصفياء عباده بما يمحصهم، وينالون به أعلى المنازل والدرجات، وقد قال ﷺ: «**إن عظم الجزاء مع عظم البلاء، وإن الله إذا أحب قومًا ابتلاهم**» الحديث(١).

وقال ﷺ: «**من يرد الله به خيرًا يصب منه**»(١).

قد ينعم الله بالبلوى وإن عظمت ... ويبتلي الله بعض القوم بالنعم(٢)

١٧- إنابته عليه السلام إلى الله تعالى، ورجوعه إليه بعد فتنته بما ذكر؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنَابَ﴾، وهكذا جميع الأنبياء معصومون عن الاستمرار على الخطأ والذنب.

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) البيت لأبي تمام. انظر: «ديوانه» ص٥٧٧.

١٨- دعاؤه عليه السلام ربه- بعد ابتلائه إيَّاه بذهاب ملكه، وبعد إنابته- بأن يغفر له، ويهب له ملكًا لا يكون لأحد من بعده مثله، وتقديمه طلب المغفرة؛ لأنها أهم، والتخلية قبل التحلية؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِيٓ﴾.

١٩- أن الأنبياء عليهم السلام في حاجة إلى سؤال المغفرة من ربهم كسائر الخلق، وليسوا معصومين من صغائر الذنوب؛ مما لا يتعلق بالتبليغ.

٢٠- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة لسليمان عليه السلام؛ لقوله: ﴿رَبِّ﴾.

٢١- أن الدعاء باسم الرب وصفة الربوبية من أقرب الأسباب لإجابة الدعاء، ولهذا دعا بذلك سليمان، وكان عامة دعاء الأنبياء والصالحين بذلك.

٢٢- جواز الدعاء بطلب الملك، وأن يهبه الله ملكًا لا يكون لأحد من البشر مثله؛ لقول سليمان عليه السلام: ﴿وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِيٓ﴾.

وقد اختلف العلماء في حكم سؤال الإمارة وما أشبهها من الولايات، فمنهم من أجاز ذلك، مستدلًّا بسؤال سليمان عليه السلام الملك، وقول يوسف عليه السلام: ﴿ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ﴾ [يوسف: ٥٥]، وغير ذلك.

ومنهم من قال: لا يجوز، واستدل بقوله ﷺ لعبدالرحمن بن سمرة رضي الله عنه: «**لا تسأل الإمارة؛ فإنك إن أعطيتها عن مسألة وكلت إليها، وإن أعطيتها من غير مسألة أعنت عليها**»(١).

وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «**إنكم ستحرصون على الإمارة، وستكون ندامة يومة القيامة، فنعم المرضعة وبئست الفاطمة**»(٢).

واستدلوا بحديث أبي موسى رضي الله عنه، أن رجلين قالا: أمرنا يا رسول الله، فقال: «**إنا لا نولي هذا من سأله وحرص عليه**»(٣).

---

(١) أخرجه البخاري في الأحكام ٧١٤٦، ومسلم في الإيمان ١٦٥٢، وأبو داود في الخراج ٢٩٢٩، والنسائي في آداب القضاة ٥٣٨٤، والترمذي في النذور ١٥٢٩، من حديث عبدالرحمن بن سمرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في الأحكام ٧١٤٨، والنسائي في البيعة ٤٢١١.

(٣) أخرجه البخاري في الأحكام ٧١٤٩، ومسلم في الإمارة ١٧٣٣، وأبو داود في الأقضية ٣٥٧٩.

ومنهم من قال: إن سألها بقصد إصلاح ما فسد منها، مع علمه بقدرته على القيام بمسؤوليتها، جاز له ذلك، وهو حري بأن يعان عليها؛ لحسن قصده، وعلى هذا يُنزَّل سؤال سليمان ويوسف عليهما السلام.

وأما من سألها مع علمه بعدم قدرته على القيام بها، أو لمجرد غرض في نفسه ولمصلحته؛ فإنه لا يجوز له سؤالها حتى وإن ظن قدرته عليها؛ فإنه لن يعان عليها، بل سيوكل إليها، والسلامة غنيمة، والعافية لا يعدلها شيء، وهذا هو الصحيح.

٢٣- ثناؤه عليه السلام على ربه، وتوسله إليه بقوله: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾.

وفي هذا توكيد وتخصيص وحصر، بأنه سبحانه وتعالى هو وحده الوهاب، ذو الهبات العظيمة، والعطايا الجزيلة.

٢٤- جمعه عليه السلام في دعائه بين أعظم أسباب إجابة الدعاء، وهما: الدعاء باسم الرب عز وجل ووصفه، والثناء على المدعو بقوله: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾، وقد قيل:

إذا أثنى عليك المرء يومًا كفاه مِن تعرُّضه الثناء[1]

٢٥- إثبات اسم الله تعالى «الوهاب»، وأنه سبحانه ذو الهبات والعطايا.

٢٦- استجابة الله تعالى دعاء سليمان، وتسخيره له الريح تجري بأمره رخاء حيث قصد وأراد، والشياطين في البناء والغوص، وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَٱلشَّيَـٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾﴾.

٢٧- أن من ترك شيئًا لله عوضه الله خيرًا منه، فترك سليمان الخيل تقديمًا لمحبة الله تعالى؛ فسخر الله له الريح والشياطين.

٢٨- قدرة الله تعالى التامة على تسخير الريح- وهي جماد- لسليمان عليه السلام، تجري وتأتمر بأمره، وتسخير الشياطين- الذين هم شر وضرر محض- يعملون له ما ينفع من الأبنية والغوص في البحار؛ لاستخراج اللؤلؤ والجواهر، وغير ذلك.

٢٩- حسن تدبير سليمان عليه السلام، وقوة سلطانه، بتوزيع الشياطين في البناء والغوص، وتوثيق وتقييد المتمردين منهم بالقيود والأغلال؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلشَّيَـٰطِينَ كُلَّ

---

(١) البيت لأمية بن أبي الصلت. انظر: «ديوانه» ص١٧.

بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾﴾.

٣٠- امتنان الله تعالى على سليمان عليه السلام بعطائه العظيم له، بتسخير الريح والشياطين، وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿هَٰذَا عَطَآؤُنَا﴾.

٣١- تخييره بين أن يعطي- مما أعطاه الله- من يشاء، ويمنع من يشاء، لا حساب عليه في ذلك، ولا حرج؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

وفي هذا دلالة على حسن تصرفه.

٣٢- عظم ما أعده الله تعالى لسليمان عنده في الجنة من الدرجة العالية، والمنزلة الرفيعة، والقرب منه والكرامة، وحسن المآب وطيب المأوى؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٠﴾﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٤٣﴾ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾ وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٥﴾ إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾ وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٨﴾ هَٰذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٩﴾ جَنَّٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ ﴿٥٠﴾ مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴿٥١﴾ ۞ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ أَتْرَابٌ ﴿٥٢﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ﴿٥٤﴾﴾.

قوله: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٤٣﴾ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾﴾:

قوله: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ﴾، أي: واذكر يا محمد عبدنا ونبينا ورسولنا أيوب عليه السلام، أي: اذكره بأحسن الذكر، وأثن عليه بأحسن الثناء على صبره الجميل على ما أصابه من ضر، وهو خطاب له ﷺ، ولكل من يصلح له.

﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ﴾، أي: حين دعا ربه رافعًا صوته، متضرعًا إليه، شاكيًا حاله إليه لا إلى غيره.

﴿أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾، أي: بأني مسني وأصابني الشيطان بمس نفسي أو حسي.

﴿بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾ قرأ أبو جعفر بضم النون والصاد: «بِنُصُبٍ»، وقرأ يعقوب بفتحهما: «بِنَصَبٍ»، وقرأ الباقون بضم النون وإسكان الصاد: ﴿بِنُصْبٍ﴾.

وتنوين «نُصْب» و«عذاب» وتنكيرهما، للتعظيم﴿بِنُصْبٍ﴾، أي: ضرر وتعب عظيم.

﴿وَعَذَابٍ﴾، أي: ألم شديد، وذلك في جسده ونفسه، وفي أهله وماله.

قال ابن كثير[1]: «يذكر تعالى عبده ورسوله أيوب عليه السلام، وما كان ابتلاه تعالى به من الضر في جسده وماله وولده، حتى لم يبق من جسده مغرز إبرة سليمًا سوى قلبه، ولم يبق له من حال الدنيا شيء يستعين به على مرضه وما هو فيه، غير أن زوجته

---

(١) في «تفسيره» ٧/ ٦٥.

حفظت ودّه؛ لإيمانها بالله ورسوله، فكانت تخدم الناس بالأجرة وتطعمه، وتخدمه نحوًا من ثمان عشرة سنة، وقد كان قبل ذلك في مال جزيل، وأولاد، وسعة طائلة من الدنيا، فسلب جميع ذلك، حتى آل به الحال إلى أن أُلقي على مزبلة من مزابل البلدة هذه المدة بكمالها، ورفضه القريب والبعيد، سوى زوجته رضي الله عنها؛ فإنها كانت لا تفارقه، صباحًا ومساءً، إلا بسبب خدمة الناس، ثم تعود إليه قريبًا، فلما طال المطال، واشتد الحال، وانتهى القدر المقدور، وتم الأجل المقدر، تضرع إلى رب العالمين، وإله المرسلين، فقال: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٣]، وفي هذه الآية قال: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِنُصۡبٖ وَعَذَابٍ﴾».

ونسب ما أصابه إلى الشيطان؛ لأنه هو السبب المباشر، وهو يعلم أن ما أصابه بقدر الله، وأن الشيطان إنما سلط عليه بقضاء الله وقدره.

﴿ٱرۡكُضۡ بِرِجۡلِكَۖ﴾، أي: فاستجبنا له، وقلنا له: ﴿ٱرۡكُضۡ بِرِجۡلِكَۖ﴾، أي: اضرب برجلك الأرض.

﴿هَٰذَا مُغۡتَسَلُۢ بَارِدٞ وَشَرَابٞ﴾، أي: فركض برجله الأرض، فنبع الماء، فقلنا له:

﴿هَٰذَا مُغۡتَسَلُۢ بَارِدٞ وَشَرَابٞ﴾ نكّر «مغتسل» و«شراب» للتعظيم، أي: هذا مغتسل بارد تغتسل به، وشراب تشرب منه.

فاغتسل به، وشرب منه، فذهب وزال ما به من الضر ظاهرًا وباطنًا؛ كما قال تعالى في سورة الأنبياء: ﴿فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ فَكَشَفۡنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرّٖۖ﴾ [الأنبياء: ٨٤].

عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**بينما أيوب يغتسل عريانًا، خر عليه جراد من ذهب، فجعل أيوب يحثو في ثوبه، فناداه ربه: يا أيوب، ألم أكن أغنيتك عما ترى؟ قال: بلى، ولكني لا غنى لي عن بركتك**»(١).

﴿وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ أَهۡلَهُۥ﴾، أي: آتيناه أهله، حيث أووا إليه بعد أن شردوا منه، وعجزوا أن يعيشوا معه بسبب شدة ما أصابه من الضر والمرض البدني والنفسي، فلما كشف الله ما

---

(١) أخرجه البخاري في الغسل، من اغتسل عريانًا في الخلوة ٢٧٩، والنسائي في الغسل والتيمم ٤٠٩، وأحمد ٢/ ٣١٤.

به وعافاه، أووا إليه.

﴿وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ﴾، أي: ووهبنا له مثل أهله معهم، بأن رزقه الله أولادًا وأهلًا آخرين.

﴿رَحْمَةً مِّنَّا﴾ «رحمة»: منصوب مفعول لأجله، أي: رحمة منا بعبدنا أيوب، أي: لرحمتنا له؛ لصبره، وثباته، وإنابته، وتضرعه، واستكانته.

﴿وَذِكْرَىٰ لِأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ «ذكرى»: معطوف على «رحمة»، أي: ولأجل تذكير أولي الألباب، أي: أصحاب العقول النيرة الذين ينتفعون بعقولهم؛ ليعلموا تمام قدرة الله تعالى، ولطفه، ورحمته، وفضله، وأنه عز وجل يجيب دعوة المضطر، ولا يخيب دعاء من دعاه، وليعلموا حسن عاقبة الصبر، وأن النصر مع الصبر، والفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسرًا؛ كما جاء في الحديث[1].

﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا﴾ الضغث: عثكال النخل الذي فيه حزمة شماريخ، أي: خذ بيدك عثكالًا فيه مئة شِمْراخ، أو خذ بيدك حزمة من حشيش، أو قضبان فيها مئة قضيب.

﴿فَٱضْرِب بِّهِۦ﴾ حذف مفعول: ﴿فَٱضْرِب﴾ والله أعلم؛ للستر.

﴿وَلَا تَحْنَثْ﴾، أي: ولا تنتقض يمينك التي حلفت بضرب زوجتك مئة جلدة.

قال ابن كثير[2]: «وذلك أن أيوب عليه السلام كان قد غضب على زوجته، ووجد عليها في أمر فعلته، قيل: لإبطائها عليه، وقيل: باعت ضفيرتها بخبز فأطعمته إياه، فلامها على ذلك، وحلف إن شفاه الله؛ ليضربنها مئة جلدة، وقيل: لغير ذلك من الأسباب، فلما شفاه الله وعافاه، ما كان جزاؤها مع هذه الخدمة التامة، والرحمة والشفقة والإحسان، أن تقابل بالضرب، فأفتاه الله عز وجل أن يأخذ ضغثًا، وهو الشِّمْراخ فيه مئة قضيب، فيضربها به ضربة واحدة، وقد برَّت يمينه، وخرج من حنثه، ووفى بنذره، وهذا من الفرج والمخرج لمن اتقى الله، وأناب إليه».

﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا﴾، أي: ابتليناه بالضر العظيم فصبر، أي: ألفيناه صابرًا محتسبًا لوجه الله تعالى.

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) في «تفسيره» ٧/ ٦٦.

﴿نِعْمَ ٱلْعَبْدُ﴾، أي: نعم العبد أيوب عليه السلام، فامتدحه عز وجل بوصف العبودية، الذي هو أشرف ما يوصف به البشر.

﴿إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ تعليل لما قبله، أي: نعم العبد؛ لأنه أواب، أي: كثير الرجوع إلى الله تعالى في جميع أموره، والإنابة إليه، وعبادته، وطاعته، والتضرع إليه، أي: فجعلنا له مخرجًا مما هو فيه؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ﴾ [الطلاق: ٢، ٣].

قوله تعالى: ﴿ وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ ۝٤٥ إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ۝٤٦ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ۝٤٧ وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ ۝٤٨﴾:

قوله: ﴿ وَٱذْكُرْ﴾، أي: واذكر يا محمد ذكرًا حسنًا، والخطاب له ﷺ، ولكل من يصلح له.

﴿عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾ قرأ ابن كثير: «عَبْدَنَا» على الإفراد، وقرأ الباقون: ﴿عِبَٰدَنَآ﴾ على الجمع.

﴿أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى﴾، أي: أصحاب القوى في تنفيذ الحق، والقوة في الطاعة والعبادة والدعوة إلى الله تعالى.

﴿وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴾، أي: وأولي البصائر والفقه في الدين، فوصفهم بكمال إدراك الحق، وكمال تنفيذه، والجمع بين العلم النافع، والعمل الصالح.

﴿ إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم ﴾، أي: خصصناهم.

﴿بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴾ قرأ نافع وأبو جعفر: «بِخَالِصَةِ»؛ بغير تنوين على الإضافة، وقرأ الباقون: ﴿بِخَالِصَةٍ﴾ بالتنوين.

والتنكير للتعظيم، أي: أخلصناهم بخالصة عظيمة، وخصصناهم بخصيصة وخصلة كبيرة.

﴿ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴾ «ذكرى» بدل من «خالصة»، أو خبر لمبتدأ محذوف، أي: هي ذكرى الدار، أي: تذكرهم الدار الآخرة، والتذكير بها، وإيثارها، والعمل لها، ونزع

حب الدنيا من قلوبهم، والذكر الحسن لهم في هذه الدار، والثناء الجميل عليهم، ولسان الصدق، وتخصيصهم بأفضل ما في الدار الآخرة من الثواب.

قال ابن القيم: «فهذه الآية يخبر فيها سبحانه عما أخلص له أنبياءه من اختصاصهم بالآخرة، وفيها قولان: أحدهما: إن المعنى: نزعنا من قلوبهم حب الدنيا وذكرها وإيثارها، والعمل بها. والقول الثاني: إنا أخلصناهم بأفضل ما في الدار الآخرة، واختصصناهم به عن العاملين».

وقال أيضًا: «أي: خصصناهم بخصيصة، وهو الذكر الجميل الذي يذكرون به في هذه الدار، وهو لسان الصدق، الذي سأله إبراهم الخليل عليه الصلاة والسلام، حيث قال: ﴿وَٱجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي ٱلْآخِرِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [الشعراء: ٨٤]، وقال سبحانه وتعالى عنه وعن بنيه: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴿٥٠﴾﴾ [مريم: ٥٠]، وقال لنبيه ﷺ: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾﴾ [الشرح: ٤] »(١).

﴿وَإِنَّهُمْ﴾، أي: إبراهيم وإسحاق ويعقوب.

﴿عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ﴾ الذين اصطفيناهم من صفوة خلقنا، ﴿ٱلْأَخْيَارِ﴾ جمع «خيِّر» بالتشديد، وهو كثير الخير، أي: الذين هم من خيرة خلقنا؛ لاتصافهم بالصفات الخيِّرة، من العلم النافع، والعمل الصالح، والفضل، والخلق الكريم، وغير ذلك.

﴿وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ﴾، أي: اذكرهم ذكرًا حسنًا.

وإسماعيل هو: إسماعيل بن إبراهيم، وهو أبو العرب؛ ولهذا أفرده عن إسحاق ويعقوب؛ لأن سلالتهما بنو إسرائيل.

و«اليسع» قالوا: أصله: «يسع»، واللام فيه زائدة.

﴿وَذَا ٱلْكِفْلِ﴾، أي: وصاحب الكفل، وكلهم من أنبياء الله ورسله عليهم السلام.

﴿وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ﴾، أي: كل هؤلاء الثلاثة من الأخيار، أي: من خيار خلق الله، وذوي الصفات الخيِّرة.

قوله تعالى: ﴿هَٰذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ ﴿٤٩﴾ جَنَّٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ ﴿٥٠﴾

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٤/ ٤٢- ٤٣.

مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدۡعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٖ كَثِيرَةٖ وَشَرَابٖ ﴿٥١﴾ ۞ وَعِندَهُمۡ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ أَتۡرَابٌ ﴿٥٢﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوۡمِ ٱلۡحِسَابِ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰذَا لَرِزۡقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ﴿٥٤﴾﴾:

قوله: ﴿هَٰذَا ذِكۡرٞۚ﴾، أي: هذا المذكور في هذه الآيات، أو هذا القرآن ذكر للناس؛ كما قال تعالى: ﴿صٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ذِي ٱلذِّكۡرِ ﴿١﴾﴾ [ص: ١].

أو هذا ذكر لهؤلاء الأنبياء الأخيار، والرسل الأطهار، بحسن الثناء.

والأول أصح؛ ولهذا قال بعده:

﴿وَإِنَّ لِلۡمُتَّقِينَ لَحُسۡنَ مَـَٔابٖ﴾.

لما أمر بذكر الرسل المذكورين، والثناء عليهم باصطفائهم واختيارهم وخيريتهم، أتبع ذلك بالوعد بحسن المآب لعموم المتقين، من الرسل وأتباعهم.

أي: وإن للمتقين لحسن مرجع في الآخرة. واللام في قوله: ﴿لَحُسۡنَ﴾: للتوكيد.

﴿جَنَّٰتِ عَدۡنٖ﴾ تفسير لقوله: ﴿لَحُسۡنَ مَـَٔابٖ﴾، أي: جنات إقامة أبدية.

﴿مُّفَتَّحَةٗ لَّهُمُ ٱلۡأَبۡوَٰبُ﴾ «مفتحة»: حال، أي: مفتحة لهم منها الأبواب، أو مفتحة لهم أبوابها.

أي: مفتحة لهم الأبواب عند مجيئهم إليها؛ كما قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا﴾ [الزمر: ٧٣].

ومفتحة لهم الأبواب طيلة إقامتهم فيها؛ لأمنهم فيها، وأخذهم راحتهم فيها؛ يذهبون ويجيئون، ويتصرفون حيث شاؤوا، والملائكة يدخلون عليهم في كل وقت، ومن كل باب، ويهنئونهم، ويسلمون عليهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَدۡخُلُونَ عَلَيۡهِم مِّن كُلِّ بَابٖ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾﴾ [الرعد: ٢٣، ٢٤].

﴿مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا﴾، أي: متكئين في تلك الجنات، على الأرائك والسرر المزينات، مرتاحين، مطمئنين، مخدومين؛ ولهذا قال:

﴿يَدۡعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٖ كَثِيرَةٖ وَشَرَابٖ﴾، أي: يطلبون فيها فاكهة كثيرة الأنواع، كثيرة الأعداد.

﴿وَشَرَابٖ﴾ مختلف الأنواع؛ كما قال تعالى: ﴿فِيهَآ أَنۡهَٰرٞ مِّن مَّآءٍ غَيۡرِ ءَاسِنٖ وَأَنۡهَٰرٞ مِّن لَّبَنٖ لَّمۡ

يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾ [محمد: ١٥].

والمراد: أنهم مهما طلبوا، أحضره لهم خدمهم من الفواكه الكثيرة والشراب.

﴿وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾، أي: عندهم زوجات قاصرات الطرف، أي: حابسات الطرف، أي: النظر، أي: اللاتي قد قصرن طرفهن على أزواجهن، وقصرن طرف أزواجهن عليهن؛ لجمالهم كلهم وعفافهم، ومحبة كل منهما للآخر، وعدم طموحه لغيره، وأنه لا يبغي به بديلًا، ولا عنه عوضًا.

﴿أَتْرَابٌ﴾، أي: متساويات في العمر والجمال، على سن الشباب، وأحسنه، وألذّه، ثلاث وثلاثين سنة.

﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٥٣﴾﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو بياء الغيبة: «يُوعَدُونَ»، وقرأ الباقون بتاء الخطاب: ﴿تُوعَدُونَ﴾.

أي: يقال لهم: هذا ما توعدون، والإشارة في الموضعين إلى ما أعده الله للمتقين، من جنات عدن، وما فيها من النعيم المذكور.

أي: هذا الذي توعدون، ليوم الحساب، أي: هذا الذي وعدناكم به في الدنيا من الثواب والجزاء على إيمانكم وأعمالكم الصالحة، ليوم القيامة والحساب والجزاء.

﴿إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ﴿٥٤﴾﴾ اللام: للتوكيد، و«من»: زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة من حيث المعنى لعموم النفي.

أي: إن هذا لرزقنا ما له أيُّ نفاد، أي: إن هذا المآل الحسن، من جنات عدن وما فيها من ألوان النعيم، لعطاؤنا الذي لا نفاد له ولا انقطاع، ولا انقضاء ولا زوال؛ كما قال تعالى: ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا ۚ تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟﴾ [الرعد: ٣٥]، وقال تعالى: ﴿لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ [فصلت: ٨، الانشقاق: ٢٥].

الفوائد والأحكام:

١- تذكير النبي ﷺ وأمته بقصة أيوب عليه السلام، وابتلائه بالضر؛ لما في قصته من العبر والمواعظ؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ﴾ الآيات.

٢- إثبات رسالة أيوب عليه السلام، ونبوته.

٣- أن أشرف ما يوصف به البشر هي العبودية لله تعالى؛ لهذا وصف الله بها رسله وأنبياءه، ووصف بها أيوب هنا، فقال: ﴿وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَآ أَيُّوبَ﴾ فأضافه إلى نفسه، وامتدحه بقوله: ﴿نِّعۡمَ ٱلۡعَبۡدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٞ﴾ كما وصف بها إبراهيم وإسحاق ويعقوب، وأضافهم إلى نفسه؛ فقال: ﴿وَٱذۡكُرۡ عِبَٰدَنَآ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ﴾.

٤- فضيلة أيوب عليه السلام؛ لتضرعه وشكواه ما أصابه إلى ربه لا إلى غيره؛ لقوله تعالى: ﴿إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِنُصۡبٖ وَعَذَابٍ﴾.

٥- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة لأيوب عليه السلام، وتشريفه بإضافة اسم الرب إلى ضميره عليه السلام؛ لقوله تعالى: ﴿رَبَّهُۥٓ﴾.

٦- أن الأنبياء عليهم السلام كغيرهم من البشر، يصيبهم الابتلاء، بل هم أشد بلاءً من غيرهم، وقد يتسلط الشيطان عليهم بالأذى، ولا يملكون لأنفسهم نفعًا ولا ضرًّا.

٧- ينبغي شكوى الحال إلى الله تعالى وحده في كل ما يصيب العبد، فهو وحده سامع النجوى، وكاشف الضر والبلوى، قال تعالى: ﴿قَدۡ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوۡلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوۡجِهَا وَتَشۡتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [المجادلة: ١].

وقد أحسن القائل:

وإذا شكوتَ إلى الأنام فإنما ... تشكو الرحيم إلى الذي لا يرحم[1]

وقال الآخر:

لا تشكوَنَّ لمخلوقٍ فتُشمتَه ... شكوى الجريح إلى الغربان والرخم[2]

٨- أن من أنواع التوسل: توسل العبد إلى الله تعالى بحاله؛ لقول أيوب عليه السلام: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِنُصۡبٖ وَعَذَابٍ﴾، وقوله في الآية الأخرى: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٣].

وكما قال موسى: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلۡتَ إِلَيَّ مِنۡ خَيۡرٖ فَقِيرٞ﴾ [القصص: ٢٤].

---

(١) البيت ينسب للشافعي، ولزين العابدين. انظر: «عيون الأخبار» ٢/ ٢٨٤، «الكشكول» ١/ ٥٧، وانظر: «بصائر ذوي التمييز» ٣/ ٣٨١، «ربيع الأبرار» ٥/ ٢٧٧.

(٢) البيت للمتنبي. انظر: «ديوانه» ٢/ ٢٦٢.

٩- جواز إضافة الشيء إلى سببه المباشر؛ لأن أيوب أضاف ما أصابه إلى الشيطان، فقال: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِنُصۡبٖ وَعَذَابٍ﴾، وهذا لا ينافي كون ذلك بتقدير الله وإرادته.

١٠- استجابة الله تعالى لنداء أيوب عليه السلام ودعائه، وأمره بركض الأرض برجله؛ لينبع ماء يغتسل منه ويشرب فيشفى؛ لقوله تعالى: ﴿ٱرۡكُضۡ بِرِجۡلِكَۖ هَٰذَا مُغۡتَسَلُۢ بَارِدٞ وَشَرَابٞ ۝٤٢﴾.

١١- قدرة الله تعالى التامة؛ حيث أنبع بضرب أيوب برجله الأرض ماءًا باردًا صالحًا للاغتسال والشراب، بل ودواء.

١٢- إثبات الأسباب؛ لقوله تعالى: ﴿ٱرۡكُضۡ بِرِجۡلِكَۖ﴾ ولو شاء الله لأنبع له الماء بدون ذلك، ولكن الله جعل لكل شيء سببًا.

١٣- مشروعية فعل الأسباب، وأن الله جعل لكل داء دواء، فأمره عز وجل بضرب رجله في الأرض، ومن ثم الاغتسال والشرب من الماء.

١٤- هبه الله عز وجل له أهله ومثلهم معهم؛ رحمة منه عز وجل به عليه السلام؛ لصبره وثباته، وتضرعه إلى ربه؛ لقوله تعالى: ﴿وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ أَهۡلَهُۥ وَمِثۡلَهُم مَّعَهُمۡ رَحۡمَةٗ مِّنَّا﴾.

١٥- سعة فضل الله تعالى ورحمته، فيعطي العبد إذا صبر واحتسب أكثر مما فقد، وأضعاف ما أمَّل.

١٦- إثبات صفة الرحمة لله تعالى؛ رحمة ذاتية ثابتة له عز وجل، ورحمة فعلية يوصلها سبحانه إلى من شاء من خلقه.

١٧- أن فيما ذكره الله في هذه القصة تذكيرًا لأصحاب العقول الذين ينتفعون بعقولهم؛ ليعلموا تمام قدرة الله تعالى ورحمته، وإجابته دعوة المضطر، وحسن عاقبة الصبر، وأن النصر مع الصبر، والفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسرًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَذِكۡرَىٰ لِأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ كما قال تعالى: ﴿أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَأۡتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِكُمۖ مَّسَّتۡهُمُ ٱلۡبَأۡسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلۡزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصۡرُ ٱللَّهِۗ أَلَآ إِنَّ نَصۡرَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ ۝٢١٤﴾ [البقرة: ٢١٤].

١٨- أنه إنما يتذكر ويتعظ بالذكرى والمواعظ أصحاب العقول النيِّرة، الذين ينتفعون بعقولهم، دون غيرهم.

١٩- عناية الله تعالى بأيوب عليه السلام، بجعله له فرجًا ومخرجًا بالتخفيف والتيسير عليه في يمينه بجلد زوجته، رحمة بها، بأمره أن يأخذ عثكالًا أو حزمة فيها مئة شمراخ أو قضيب، فيضربها بها ضربةً واحدةً، فيكون قد برَّ في يمينه، ولم يحنث؛ لقوله تعالى: ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ﴾.

قال ابن القيم: «فمن تأمل الآية علم أن هذه الفتيا خاصة الحكم، فإنها لو كانت عامة الحكم في حق كل أحد لم يخف على نبي كريم موجب يمينه، ولم يكن في اقتصاصها علينا كبير عبرة، فإنما يقص ما خرج من نظائره لنعتبر به، ونستدل به على حكمة الله فيما قصه علينا.

أما ما كان هو مقتضى العادة والقياس فلا يقص، ويدل على الاختصاص قوله تعالى: ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا﴾ [ص: ٤٤]، وهذه الجملة خرجت مخرج التعليل؛ كما في نظائرها، فعلم أن الله سبحانه وتعالى إنما أفتاه بهذا جزاءً له على صبره، وتخفيفًا عن امرأته، ورحمة بها، لا أن هذا موجب هذه اليمين، وأيضًا: فإن الله سبحانه وتعالى إنما أفتاه بهذه الفتيا لئلا يحنث؛ كما أخبر تعالى»(١).

وفي حديث سعد بن عبادة رضي الله عنه في قصة الرجل الذي زنى بأَمَةٍ، وكان رجلًا ضعيفًا، فقال النبي ﷺ: «**اضربوه حده**»، فقالوا: يا رسول الله، إنه أضعف مما تحسب، لو ضربناه مئة قتلناه. فقال: «**خذوا عثكالًا فيه مئة شمراخ، ثم اضربوه ضربة واحدة**» ففعلوا»(٢).

قال ابن القيم بعد ذكره لهذا الحديث: «وامرأة أيوب كانت معذورة، لم تعلم أن الذي خاطبها الشيطان، وإنما قصدت الإحسان، فلم تكن تستحق العقوبة، فأفتى الله نبيه أيوب عليه السلام أن يعاملها معاملة المعذور، هذا مع رفقها به، وإحسانها إليه، فجمع الله له بين البر في يمينه، والرفق بامرأته المحسنة المعذورة، التي لا تستحق العقوبة، فظهر موافقة نص القرآن في قصة أيوب عليه السلام، لنص السنة في شأن

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٤/ ٤٠.

(٢) أخرجه أبو داود في الحدود، إقامة الحد على المريض ٤٤٧٢، وابن ماجه في الحدود، الكبير والمريض يجب عليه الحد ٢٥٧٤، وأحمد ٥/ ٢٢٢.

الضعيف الذي زنى، فلا يتعدى بها عن محلها»[١].

٢٠- تحريم الحنث باليمين، ووجوب الوفاء به؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْنَثْ﴾.

٢١- أن من اتقى الله جعل الله له فرجًا ومخرجًا، وأبدله بعد العسر يسرًا.

٢٢- ثناء الله عز وجل على أيوب عليه السلام، وامتداحه له بأنه ابتلاه فوجده صابرًا محتسبًا، نعم العبد، كثير الرجوع والإنابة إلى ربه؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًاۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾.

٢٣- إثبات الأسباب، وترتب مسبباتها عليها بإذن الله.

٢٤- أمر الله عز وجل لنبيه ﷺ بذكر عباده ورسله وأنبيائه: إبراهيم وإسحاق ويعقوب؛ تذكيرًا بفضلهم، وللاقتداء بهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾.

٢٥- ثناء الله تعالى على إبراهيم وإسحاق ويعقوب، بأنهم أصحاب القوى في تنفيذ أمر الله تعالى، والقوة في عبادته وطاعته، والدعوة إليه، وأصحاب البصائر والفقه في دينه؛ لقوله تعالى: ﴿أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ﴾.

٢٦- إخلاصه وتخصيصه إياهم بخصيصة ذكرى الدار الآخرة، والعمل لها، وبأفضل ما فيها من الثواب، وبالذكر الحسن ولسان الصدق في الدنيا؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾﴾.

٢٧- اصطفاء الله تعالى لهم، واختياره إياهم ممن اصطفى؛ ليكونوا من الأصفياء الأخيار عنده؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾﴾.

٢٨- في اختلاف مراتب العمال دليل على اختلاف مراتب العمل، وزيادة الإيمان ونقصانه.

٢٩- أمره عز وجل له ﷺ بذكر إسماعيل واليسع وذا الكفل عليهم السلام، وأنهم كلهم من الأخيار عنده عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِۖ وَكُلٌّ مِّنَ

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٤/ ٤١- ٤٢.

﴿ٱلۡأَخۡيَارِ ۝٤٨﴾.

٣٠- امتداح الله تعالى للقرآن الكريم؛ لقوله تعالى: ﴿هَٰذَا ذِكۡرٞۚ﴾ فهو تذكير بما يحتاجه العباد، وذكرى وموعظة لهم، وشرف لمن آمن به واتبعه، وفيه التذكير بالأنبياء الأخيار، والرسل الأطهار، ممن يُتذكر بذكراهم.

٣١- وعد الله تعالى المؤكد للذين اتقوا الله، واتبعوا رسله، بحسن المآب، وطيب المأوى في الآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لِلۡمُتَّقِينَ لَحُسۡنَ مَـَٔابٖ﴾.

٣٢- عظم ما أعد الله تعالى للمتقين عنده من النعيم الحسي والمعنوي في جنات عدن؛ لقوله تعالى: ﴿جَنَّٰتِ عَدۡنٖ مُّفَتَّحَةٗ لَّهُمُ ٱلۡأَبۡوَٰبُ ۝٥٠﴾ الآيات.

٣٣- إثبات وجود الجنات التي أعدت للمتقين، وأن إقامة أهلها فيها إقامة أبدية، ورزقها لا ينفد؛ لقوله تعالى: ﴿جَنَّٰتِ عَدۡنٖ﴾، وقوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَرِزۡقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ۝٥٤﴾.

٣٤- إكرام أهل الجنة بفتح أبوابها لهم عند سوقهم إليها، وعلى الدوام؛ لكمال أمنهم فيها، وراحتهم في ذهابهم ومجيئهم، ودخول الملائكة عليهم وتهنئتهم؛ لقوله تعالى: ﴿مُّفَتَّحَةٗ لَّهُمُ ٱلۡأَبۡوَٰبُ﴾.

٣٥- كمال راحتهم فيها، وأن لهم فيها كل ما يطلبون ويريدون من الفواكه الكثيرة والشراب، وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدۡعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٖ كَثِيرَةٖ وَشَرَابٖ ۝٥١﴾.

٣٦- تنعمهم فيها بما عندهم من الزوجات الجميلات العفيفات، اللاتي قصرن طرفهن عليهم، وقصرن طرفهم عليهن؛ لجمالهم كلهم وعفتهم، ومحبة كل منهم للآخر، وعدم طموحه لغيره؛ لقوله تعالى: ﴿وَعِندَهُمۡ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ أَتۡرَابٌ﴾.

٣٧- أن هذه الزوجات من الحور العين، ومن نساء الجنة، كلهن على سن واحدة هي سن الشباب، وأحسنه وألذه؛ لقوله تعالى: ﴿أَتۡرَابٌ﴾.

٣٨- تهنئتهم وهم في هذا النعيم العظيم، وبيان أن هذا هو مصداق ما وُعدوا به يوم الحساب على إيمانهم وعملهم الصالح في الدنيا؛ لقوله تعالى: ﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوۡمِ ٱلۡحِسَابِ ۝٥٣﴾، وهذا من النعيم المعنوي الذي يُدخل السرور على قلوبهم، وقد يفوق النعيم الحسي.

٣٩- الامتنان عليهم بما أعطوا من الرزق والنعيم، وبشارتهم بعدم نفاده وانقطاعه؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ﴿٥٤﴾﴾.

٤٠- إثبات البعث والمعاد، ويوم الحساب والجزاء، وإعداد جنات عدن للمتقين وما فيها من النعيم.

٤١- تفرده عز وجل بالرزق في الدنيا والآخرة، ومن أعظم ذلك ما أعده لعباده من الجنات، وما فيها من النعيم.

* * *

قال الله تعالى: ﴿هَٰذَاۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٖ ﴿٥٥﴾ جَهَنَّمَ يَصۡلَوۡنَهَا فَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ﴿٥٦﴾ هَٰذَا فَلۡيَذُوقُوهُ حَمِيمٞ وَغَسَّاقٞ ﴿٥٧﴾ وَءَاخَرُ مِن شَكۡلِهِۦٓ أَزۡوَٰجٌ ﴿٥٨﴾ هَٰذَا فَوۡجٞ مُّقۡتَحِمٞ مَّعَكُمۡ لَا مَرۡحَبَۢا بِهِمۡۚ إِنَّهُمۡ صَالُواْ ٱلنَّارِ ﴿٥٩﴾ قَالُواْ بَلۡ أَنتُمۡ لَا مَرۡحَبَۢا بِكُمۡۖ أَنتُمۡ قَدَّمۡتُمُوهُ لَنَاۖ فَبِئۡسَ ٱلۡقَرَارُ ﴿٦٠﴾ قَالُواْ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدۡهُ عَذَابٗا ضِعۡفٗا فِي ٱلنَّارِ ﴿٦١﴾ وَقَالُواْ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالٗا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلۡأَشۡرَارِ ﴿٦٢﴾ أَتَّخَذۡنَٰهُمۡ سِخۡرِيًّا أَمۡ زَاغَتۡ عَنۡهُمُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقّٞ تَخَاصُمُ أَهۡلِ ٱلنَّارِ ﴿٦٤﴾ قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٞۖ وَمَا مِنۡ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ﴿٦٥﴾ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفَّٰرُ ﴿٦٦﴾ قُلۡ هُوَ نَبَؤٌاْ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنتُمۡ عَنۡهُ مُعۡرِضُونَ ﴿٦٨﴾ مَا كَانَ لِيَ مِنۡ عِلۡمِۭ بِٱلۡمَلَإِ ٱلۡأَعۡلَىٰٓ إِذۡ يَخۡتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾ إِن يُوحَىٰٓ إِلَيَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ﴿٧٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿هَٰذَاۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٖ ﴿٥٥﴾ جَهَنَّمَ يَصۡلَوۡنَهَا فَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ﴿٥٦﴾ هَٰذَا فَلۡيَذُوقُوهُ حَمِيمٞ وَغَسَّاقٞ ﴿٥٧﴾ وَءَاخَرُ مِن شَكۡلِهِۦٓ أَزۡوَٰجٌ ﴿٥٨﴾ هَٰذَا فَوۡجٞ مُّقۡتَحِمٞ مَّعَكُمۡ لَا مَرۡحَبَۢا بِهِمۡۚ إِنَّهُمۡ صَالُواْ ٱلنَّارِ ﴿٥٩﴾ قَالُواْ بَلۡ أَنتُمۡ لَا مَرۡحَبَۢا بِكُمۡۖ أَنتُمۡ قَدَّمۡتُمُوهُ لَنَاۖ فَبِئۡسَ ٱلۡقَرَارُ ﴿٦٠﴾ قَالُواْ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدۡهُ عَذَابٗا ضِعۡفٗا فِي ٱلنَّارِ ﴿٦١﴾ وَقَالُواْ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالٗا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلۡأَشۡرَارِ ﴿٦٢﴾ أَتَّخَذۡنَٰهُمۡ سِخۡرِيًّا أَمۡ زَاغَتۡ عَنۡهُمُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقّٞ تَخَاصُمُ أَهۡلِ ٱلنَّارِ ﴿٦٤﴾﴾:

لما ذكر ما أعد للمتقين من حسن المآب في جنات عدن، وما فيها من ألوان النعيم، أتبع ذلك بذكر الوعيد للطاغين، بشر المآب في جهنم، وما فيها من أصناف العذاب؛ جمعًا بين الوعد والوعيد، والترغيب والترهيب.

قوله: ﴿هَٰذَاۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٖ ﴿٥٥﴾﴾ «هذا»: مبتدأ، وخبره محذوف، أي: هذا للمتقين، والإشارة إلى ما تقدم مما أعده الله للمتقين من حسن المآب في جنات عدن، وما فيها من النعيم والثواب؛ إشادة به، وتوطئة لذكر ما أعد للطاغين، وتحقيرًا له.

و«الطاغين»: جمع «طاغ» و«طاغية»، والطاغي: من تجاوز ما حده الله بترك ما أمر الله به، أو ارتكاب ما نهى الله عنه؛ كما قال تعالى: ﴿ٱذۡهَبَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾﴾ [طه: ٤٣].

والمعنى: وإن للطاغين، أي: المتجاوزين الحد في الكفر والمعاصي.

﴿لَشَرَّ مَـَٔابٖ﴾ اللام: للتوكيد، أي: لشر مرجع ومنقلب، وأسوأ مصير في الآخرة. ثم فصَّله بقوله:

﴿جَهَنَّمَ يَصۡلَوۡنَهَا﴾ «جهنم»: بدل من «شر»، أو عطف بيان عليه منصوب، أي: جهنم يدخلونها ويقاسون حرها، وتغمرهم من كل جهة، ومن كل جانب.

﴿فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ الفاء: رابطة لجواب شرط مقدر، أي: فبئس الفراش والمسكن والمستقر.

﴿هَٰذَا﴾ مبتدأ، وخبره: «حميم»، ﴿فَلْيَذُوقُوهُ﴾ الفاء: للتنبيه، واللام: للأمر، واعترض بهذه الجملة بين المبتدأ والخبر، وقدمت على الخبر للمبادرة بإهانتهم، أي: فليكتووا بحره، ويحسوا بآلامه.

﴿حَمِيمٌ﴾، أي: ماء حار قد بلغ غاية الحرارة؛ كما قال تعالى: ﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ﴿٤٤﴾﴾ [الرحمن: ٤٤]، أي: قد بلغ غاية الحرارة.

وقال تعالى: ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ﴾ [الكهف: ٢٩]، وقال تعالى: ﴿وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ﴾ [محمد: ١٥].

﴿وَغَسَّاقٌ﴾ قرأ حمزة والكسائي وخلف وحفص بتشديد السين: ﴿وَغَسَّاقٌ﴾، وقرأ الباقون بتخفيفها: «وَغَسَاقٌ».

وهو ما يسيل من صديد وقيح أجساد أهل النار. وقيل: الغساق: ضد الحميم، أي: الماء البارد الذي لا يستطاع من شدة برودته، قال تعالى: ﴿وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ﴾ [إبراهيم: ١٦، ١٧].

﴿وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ﴾ قرأ أبو عمرو ويعقوب بضم الهمزة من غير مد على الجمع: «وَأُخَرُ»، وقرأ الباقون بمد الهمزة وألف بعدها على الإفراد: ﴿وَءَاخَرُ﴾.

أي: وعذاب آخر من جنسه ومثله، ﴿أَزْوَٰجٌ﴾، أي: أصناف وألوان.

أي: من هذا القبيل، أي: الشيء وضده، كالزمهرير والسموم، وأكل الزقوم وشرب الحميم، والصعود والهُوِيّ في النار، وغير ذلك.

﴿هَٰذَا فَوْجٌ﴾، أي: تقول كل طائفة دخلت النار للتي تأتي بعدها: ﴿هَٰذَا فَوْجٌ﴾، أي: طائفة كبيرة وجماعة.

﴿مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ﴾، أي: داخل النار معكم بمشقة وازدحام، ﴿لَا مَرْحَبًۢا بِهِمْ﴾، أي: لا سعة لهم، ولا نرحب بهم، ولا نريدهم.

﴿إِنَّهُمْ صَالُوا۟ ٱلنَّارِ﴾ الجملة تعليلية، أي: لأنهم صالو النار، أي: داخلوها كما دخلناها، ومقاسون حرها كما نقاسيه.

﴿قَالُواْ بَلۡ أَنتُمۡ لَا مَرۡحَبَۢا بِكُمۡۖ﴾، أي: قال الأتباع- وهم الفوج الذي سيقتحم النار- قالوا لمن قبلهم، أي: للمتبوعين:

﴿بَلۡ أَنتُمۡ لَا مَرۡحَبَۢا بِكُمۡۖ أَنتُمۡ قَدَّمۡتُمُوهُ لَنَاۖ﴾، أي: أنتم قدمتم العذاب لنا بدعوتكم إيانا إلى الكفر والضلال، أو قدمتم لنا الكفر والضلال، وزينتم ذلك لنا، مما أفضى بنا إلى العذاب.

﴿فَبِئۡسَ ٱلۡقَرَارُ﴾، أي: المستقر لنا ولكم النار؛ كما قال تعالى: ﴿جَهَنَّمَ يَصۡلَوۡنَهَاۖ وَبِئۡسَ ٱلۡقَرَارُ ﴿٢٩﴾﴾ [إبراهيم: ٢٩].

وهكذا يساق أهل النار إليها أفواجًا؛ فوجًا فوجًا، ويشتم بعضهم بعضًا، ويلعن بعضهم بعضًا؛ كما قال تعالى: ﴿وَيَوۡمَ نَحۡشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٖ فَوۡجٗا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُمۡ يُوزَعُونَ﴾ [النمل: ٨٣]، وقال تعالى: ﴿كُلَّمَآ أُلۡقِيَ فِيهَا فَوۡجٞ سَأَلَهُمۡ خَزَنَتُهَآ﴾ [الملك: ٨].

وقال تعالى: ﴿كُلَّمَا دَخَلَتۡ أُمَّةٞ لَّعَنَتۡ أُخۡتَهَاۖ﴾ [الأعراف: ٣٨].

﴿قَالُواْ﴾، أي: قال الأتباع داعين على سادتهم وكبرائهم، أو قال أهل النار كلهم داعين على الشياطين الذين أضلوهم:

﴿رَبَّنَا﴾، أي: يا ربنا، ﴿مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا﴾ الكفر والشرك وتكذيب الرسل، وزينه لنا، وحسن لنا الضلال، وأوصلنا بسبب ذلك إلى العذاب. يعنون سادتهم.

﴿فَزِدۡهُ عَذَابٗا ضِعۡفٗا فِي ٱلنَّارِ﴾ الفاء: رابطة لجواب الشرط، ومعنى ﴿ضِعۡفٗا﴾، أي: مضاعفًا؛ أي: ضاعف لهم العذاب؛ فعذبهم لأنهم كفروا، وعذبهم لكونهم قدموا لنا هذا الكفر؛ كما قال تعالى: ﴿قَالَتۡ أُخۡرَىٰهُمۡ لِأُولَىٰهُمۡ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمۡ عَذَابٗا ضِعۡفٗا مِّنَ ٱلنَّارِۖ قَالَ لِكُلّٖ ضِعۡفٞ وَلَٰكِن لَّا تَعۡلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٨].

﴿وَقَالُواْ﴾ وهم في النار: ﴿مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالٗا﴾ الاستفهام للتعجب والاستغراب، أي: ما لنا لا نشاهد رجالًا معنا في النار؟

﴿كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلۡأَشۡرَارِ﴾، أي: كنا في الدنيا نعتبرهم ونزعم أنهم من الأشرار المستحقين للنار؛ يعنون: المؤمنين؛ لأنهم يعتقدون أن المؤمنين على ضلالة، وأنهم أشرار، ومآلهم إلى النار؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضۡحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمۡ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوۡهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ

لَضَآلُّونَ ﴿٣٢﴾﴾ [المطففين: ٢٩- ٣٢].

﴿أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٦٣﴾﴾ قرأ أبو عمرو ويعقوب وحمزة والكسائي وخلف بوصل الهمزة وكسرها على الخبر والابتداء: «اتَّخَذْنَاهُمْ».

وقرأ الباقون بقطع الهمزة مفتوحة على الاستفهام: ﴿أَتَّخَذْنَٰهُمْ﴾.

أي: أنحن اتخذناهم وعددناهم من الأشرار سخريًّا؟ أي: كنا نسخر منهم في الدنيا، وهم على الحق، ولهذا لم يدخلوا النار؟!

﴿أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ «أم»: عاطفة، وهي المتصلة، أي: أم مالت عنهم الأبصار فلم تقع عليهم، مع أنهم موجودون معنا في النار؟!

أي: أن عدم رؤيتنا لهم معنا في النار: إما لأننا عددناهم من الأشرار، وسخرنا منهم وهم ليسوا كذلك، وإما لأن أبصارنا زاغت عنهم، وهم معنا في النار.

والصحيح الأول؛ كما قال تعالى: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحْمَةٍ ۚ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [الأعراف: ٤٩]، وقال تعالى: ﴿ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾ إِنِّى جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿١١١﴾﴾ [المؤمنون: ١٠٨- ١١١].

﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ ﴿٦٤﴾﴾ اللام: للتوكيد، أي: إن هذا الذي أخبرناكم به من تخاصم أهل النار، وتنازع بعضهم مع بعض، وتجادلهم؛ لحقٌّ ثابت، وأمر واقع، لا مرية فيه ولا شك.

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ ۖ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٦٥﴾ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴿٦٦﴾ قُلْ هُوَ نَبَؤٌا۟ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾ مَا كَانَ لِىَ مِنْ عِلْمٍۭ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾ إِن يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٠﴾﴾:

قوله: ﴿قُلْ﴾، أي: قل يا محمد للمشركين المكذبين لك:

﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ﴾ «إنما»: أداة حصر، أي: ما أنا إلا منذر، أي: محذر ومخوف لكم من عذاب الله، وليس لي من الأمر والحكم شيء، فذلك كله لله تعالى؛ كما قال: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ

﴿وَٱلۡأَمۡرُۗ﴾ [الأعراف: ٥٤]، وقال تعالى: ﴿إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۚ﴾ [الأنعام: ٥٧، يوسف: ٤٠].

﴿وَمَا مِنۡ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ﴾ «ما»: نافية، و«من»: زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة لعموم النفي من حيث المعنى، و«إله»: نكرة في سياق النفي فتعم، و«إلا»: أداة حصر، أي: وما من أيّ معبود بحق إلا الله عز وجل.

وفي هذا نفي الألوهية مطلقًا عن غير الله، وإثباتها لله تعالى وحده؛ كما في شهادة التوحيد: «لا إله إلا الله».

﴿ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ﴾ نعتان للفظ الجلالة «الله»، أي: الواحد الأحد الفرد الصمد، ذو الوحدانية التامة في ربوبيته وألوهيته، وأسمائه وصفاته.

﴿ٱلۡقَهَّارُ﴾، أي: ذو القهر والغلبة، الذي قهر كل شيء وغلبه.

و«الواحد»، و«القهار» من أسماء الله تعالى، والوحدانية والقهر متلازمان، فالقهار: الذي يقهر كل شيء، هو الواحد الذي يستحق أن يعبد وحده، ويذل له كل شيء.

﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا﴾.

لما ذكر تفرده بالألوهية، أتبع ذلك بذكر تفرده بالربوبية، استدلالًا بتوحيد الربوبية على توحيد الألوهية.

أي: خالق السموات والأرض وما بينهما، ومالك ذلك كله، والمتصرف فيه.

﴿ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفَّٰرُ﴾، أي: ذو العزة التامة، والمغفرة الواسعة، وفي اقتران العزة والمغفرة في أوصافه عز وجل، كمال إلى كمال، فهو سبحانه يغفر ويتجاوز ويستر، مع عزته وقوته وقهره وعظمته.

﴿قُلۡ هُوَ نَبَؤٌاْ عَظِيمٌ ٦٧﴾.

لما بيّن لهم أنه ﷺ ما هو إلا منذر، وأنه لا معبود إلا الله، وأن الأمر لله وحده، نبههم إلى عظمة القرآن الذي أرسل به، وما دل عليه من الأخبار الصادقة، والأحكام العادلة.

أي: قل لهم يا محمد ﴿هُوَ﴾، أي: القرآن الكريم، الذي أرسلت به إليكم، وما دل عليه من البعث والحساب، وغير ذلك.

﴿نَبَؤٌاْ عَظِيمٌ﴾، أي: خبر عظيم القدر، بليغ الشأن، جليل النفع؛ كما قال تعالى: ﴿عَمَّ

يَتَسَآءَلُونَ ﴿١﴾ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢﴾﴾ [النبأ: ١، ٢].

﴿أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾﴾ ﴿عَنْهُ﴾ متعلق بـ﴿مُعْرِضُونَ﴾، وقُدِّم عليه للاهتمام بهذا النبأ، أي: أنتم عن هذا النبأ العظيم معرضون بقلوبكم، متولون بأبدانكم، مكذبون بما فيه من الأمر والنهي، والوعد والوعيد، والإخبار بالبعث والحساب، والجزاء على الأعمال.

﴿مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ﴾ «من»: زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة لعموم النفي من حيث المعنى، أي: ما كان لي من أيِّ علم ﴿بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ﴾، أي: بالملائكة.

﴿إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾، أي: إذ يتجادلون ويتنازعون في شأن خلق آدم عليه السلام، وامتناع إبليس من السجود له؛ كما ذكر الله ذلك في عدد من السور، وذكره في الآيات التالية من هذه السورة.

أي: فلولا وحي الله تعالى إليَّ ما علمت بشيء من ذلك، وهو دليل على أن ما جئتكم به حق وصدق؛ لأنه لا يُعلم ذلك إلا بوحي من الله تعالى، ولهذا قال:

﴿إِن يُوحَىٰٓ إِلَيَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٠﴾﴾، قرأ أبو جعفر بكسر الهمزة على الحكاية: «إِنَّما»، وقرأ الباقون بفتحها: ﴿أَنَّمَآ﴾.

«إن»: نافية بمعنى «ما»، و«إلا»: أداة حصر، و«أنما»: كافة ومكفوفة، أي: ما يوحى إلي إلا أنما أنا نذير، أي: مُخوِّف ومُحذِّر، ﴿مُّبِينٌ﴾، أي: بيِّن ظاهر النذارة.

الفوائد والأحكام:

١- جمع القرآن بين الوعد والوعيد، والترغيب والترهيب، والإشادة بما أُعد للمتقين من حسن المآب، والجنات وعظيم الثواب، في مقابل ما أُعد للطاغين من شر المآب والعذاب؛ لقوله تعالى: ﴿هَٰذَا ۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ ﴿٥٥﴾﴾.

٢- الوعيد الشديد للطاغين بالكفر والمعاصي، بشر المآب، وسوء المنقلب، جهنم يصلونها، وأنها بئس القرار والمنزل والفراش؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ ﴿٥٥﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٥٦﴾﴾.

٣- الجمع لهم بين هذا العذاب العظيم باصطلاء جهنم، وبين شرب الحميم والغساق؛ لقوله تعالى: ﴿هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾﴾.

٤- تنويع العذاب للطغاة، بأصناف وألوان العذاب؛ حيث يجمع لهم بين الشيء وضده؛ كالزمهرير والسموم، ونحو ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ ۝٥٨﴾.

٥- سوق أهل النار إليها أفواجًا؛ فوجًا بعد فوج، يشتم بعضهم بعضًا، ويلعن بعضهم بعضًا، ويتبرأ المتبوعون والأتباع بعضهم من بعض؛ لقوله تعالى: ﴿هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ ۖ لَا مَرْحَبًۢا بِهِمْ ۚ إِنَّهُمْ صَالُوا۟ ٱلنَّارِ ۝٥٩ قَالُوا۟ بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًۢا بِكُمْ ۖ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا ۖ فَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ۝٦٠﴾.

٦- أن مصير المتبوعين المضلين، والأتباع الضالين جميعًا النار، وبئس القرار.

٧- دعاء الأتباع على سادتهم وكبرائهم، الذين أضلوهم وتسببوا في دخولهم النار، ودعاء أهل النار على الشياطين، الذين أغووهم، بمضاعفة عذاب النار عليهم؛ لقوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِى ٱلنَّارِ ۝٦١﴾.

كما قال تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ۝١٦٦ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ۝١٦٧﴾ [البقرة: ١٦٦، ١٦٧].

٨- إثبات ربوبية الله تعالى العامة لجميع الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ رَبَّنَا﴾.

٩- مضاعفة عذاب النار على من كانوا دعاة وقدوة في الضلال والكفر.

١٠- تعجب أهل النار من عدم مشاهدتهم معهم في النار أناسًا كانوا يعتقدون في الدنيا أنهم من الأشرار، ومآلهم إلى النار؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ ۝٦٢﴾.

١١- معرفتهم أنهم في عدهم المؤمنين من الأشرار، إنما ذلك سخرية منهم بهم مع كونهم على الحق، ولهذا لم يدخلوا معهم النار ولم يروهم فيها؛ لقولهم: ﴿أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَٰرُ ۝٦٣﴾.

١٢- تذكر أهل الآخرة من الكفار وغيرهم أحوالهم في الدنيا.

١٣- أن تخاصم أهل النار وتنازعهم أمر محقق وواقع لا محالة؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ ۝٦٤﴾.

١٤- إثبات رسالته ﷺ، وأنه إنما هو منذر ومحذر من عذاب الله، وليس له من الأمر شيء، والأمر كله لله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ﴾.

١٥- أنه لا معبود للخلائق بحق إلا الله عز وجل وحده لا شريك له؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ﴾.

١٦- إثبات اسم الله تعالى: «الواحد»، وأنه عز وجل ذو الوحدانية التامة في ربوبيته وإلهيته، وأسمائه وصفاته؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلْوَٰحِدُ﴾.

وفي هذا رد على النصارى، وعلى المشركين.

١٧- إثبات اسم الله تعالى: «القهار»، وأنه سبحانه ذو القهر والغلبة، الذي دان لقهره كل شيء، وغلب بقوته كل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلْقَهَّارُ﴾.

١٨- إثبات ربوبية الله تعالى العامة للسموات والأرض وما فيهما، وما بينهما من جميع المخلوقات؛ لقوله تعالى: ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾.

١٩- الاستدلال بتوحيد الربوبية على توحيد الألوهية، وأن من لازم توحيد الربوبية توحيد الألوهية.

٢٠- إثبات اسم الله تعالى: «العزيز»، وأنه سبحانه ذو العزة التامة؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾.

٢١- إثبات اسم الله تعالى: ﴿ٱلْغَفَّٰرُ﴾ وأنه سبحانه ذو المغفرة الواسعة؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلْغَفَّٰرُ﴾.

٢٢- أن القرآن نبأ عظيم القدر، بليغ الشأن، جليل النفع؛ لأنه كلام الله تعالى اشتمل على بيان الحق والعدل في الأحكام، والصدق في الأخبار، كأخبار الملأ الأعلى، والبعث، والمعاد، والحساب، وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ نَبَؤٌا۟ عَظِيمٌ ۝٦٧﴾.

٢٣- إعراض المكذبين عن القرآن وما تضمنه من الهداية، وبيان الحق، وأخبار الصدق؛ لقوله تعالى: ﴿أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ۝٦٨﴾، وفي هذا ذم لهم.

٢٤- أنه لولا وحي الله تعالى إليه ﷺ بهذا النبأ العظيم، ما كان له من علم بخصام الملائكة في شأن خلق آدم عليه السلام وغير ذلك؛ لأنه ﷺ لا يعلم الغيب.

وفي إخباره بهذا دليل على أن ما جاء به حق وصدق؛ لأنه لا يُعلم إلا بالوحي؛ لقوله: ﴿مَا كَانَ لِىَ مِنْ عِلْمٍۭ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾﴾.

٢٥- إثبات وجود الملائكة وعلوهم، وعلو مرتبتهم، وإثبات اختصامهم في شأن خلق آدم، وامتناع إبليس من السجود له، وقد دل على هذا القرآن في مواضع عدة.

٢٦- تأكيد أنه ﷺ إنما هو نذير بيّن النذارة والتحذير والتخويف من عقاب الله؛ لقوله: ﴿إِن يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٠﴾﴾ ومن لازم الإنذار: التبليغ، وبيان الأحكام، والأمر والنهي؛ ليحذر الناس من ترك المأمور، أو ارتكاب المنهي.

بل إن من لازم ذلك: البشارة، فهو نذير لمن عصى، وبشير لمن أطاع، لكن إنما يخص في بعض المواضع ذكر الإنذار فقط، أو التبشير فقط؛ مراعاة لسياق الآيات.

* * *

قال الله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ۖ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ ۖ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٧٨﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ ﴿٨٨﴾﴾.

ذكر في الآيات السابقة أنه ما كان له ﷺ من علم بالملأ الأعلى إذ يختصمون، إلا أن الله أوحى إليه بالنذارة. ثم أتبع ذلك بذكر بعض ما أوحاه الله تعالى إليه في ذلك.

وقد ذكر الله عز وجل هذه القصة في سورة البقرة، وفي سورة الأعراف، وفي سورة الحجر، وفي سورة الإسراء، وسورة الكهف، وطه، وفي هذه السورة، وأبينها ما في سورة البقرة، وأشبهها بها هنا ما جاء في سورة الحجر.

قوله: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾، أي: اذكر إذ قال ربك للملائكة إخبارًا لهم:

﴿إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا﴾ وهو آدم عليه السلام ﴿مِّن طِينٍ﴾، أي: مادة خلقه من طين وتراب.

﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ﴾، أي: فإذا سويت خلق جسمه وأتممته؛ كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾ [الانفطار: ٦-٨].

﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾، أي: فأوجدت فيه الحياة والروح. وأضاف الروح إليه تشريفًا لآدم.

والمراد بقوله: ﴿مِن رُّوحِى﴾، أي: من الأرواح التي خلقتها، وأضافها إليه تشريفًا وتعظيمًا؛ كما أضاف البيت إليه في قوله: ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِىَ﴾ [الحج: ٢٦]، وأضاف المساجد إليه في قوله: ﴿مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١١٤]، وكما أضاف الناقة إليه في قوله: ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً﴾ [الأعراف: ٧٣].

و«الروح»: جسم لطيف، يحيا به الكائن الحي، تُقبض وتتوفى عند الموت؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ [النساء: ٩٧]، أي: تقبض أرواحهم،

وتكفن وتلف؛ كما جاء في حديث البراء بن عازب رضي الله عنه: «**إذا كان العبد في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة...**» الحديث(١).

﴿فَقَعُوا لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ الفاء: رابطة لجواب الشرط، أي: فخروا على الأرض له ساجدين، سجود تحية وتكريم، لا سجود عبادة وتعظيم.

﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾﴾ «كلهم»: توكيد معنوي، ﴿أَجْمَعُونَ﴾ توكيد ثانٍ، أي: سجدوا كلهم جميعًا.

﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ﴾ «إلا»: أداة استثناء، والاستثناء منقطع، أي: لكن إبليس استكبر، ويجوز كون الاستثناء متصلًا(٢).

أي: إلا إبليس استكبر عن أمر ربه، واستكبر على آدم، فلم يسجد؛ كما قال تعالى: ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٣٤]، وقال تعالى: ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ [الأعراف: ١١]، وقال تعالى: ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ [الحجر: ٣١]، وقال: ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ﴾ [طه: ١١٦].

﴿وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾، أي: من المتصفين بالكفر.

قال عز وجل موبخًا له ومعاتبًا: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ﴾ «ما»: اسم استفهام، أي: ما منعك من السجود؟

﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ «ما»: موصولة، أي: للذي خلقته بيديَّ، فشرفته وكرمته بذلك، وذلك يقتضي عدم التكبر عليه وتكريمه.

قال قتادة: «**خلق الله آدم بيده، وغرس جنة عدن بيده، وكتب التوراة بيده**»(٣).

﴿أَسْتَكْبَرْتَ﴾ الاستفهام للتوبيخ، والسين والتاء للمبالغة، أي: أتكبرت عن السجود، ورأيت نفسك كبيرًا، وأنت صغير حقير؟!

﴿أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ﴾ «أم»: هي المتصلة، عاطفة، أي: أو كنت من العالمين الذين

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) انظر: تفسير الآية «٣٤» من سورة البقرة.

(٣) انظر: «الزهد والرقائق» لابن المبارك و«الزهد» لنعيم بن حماد ١/ ٥١٢ (١٤٥٨).

منزلتهم أعلى، فلا يوجه لهم الأمر بالسجود لمن هو دونهم؟

والصحيح: أن الذي منعه من السجود ليس كونه من العالين، وإنما منعه الاستكبار؛ كما قال تعالى: ﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰ وَٱسۡتَكۡبَرَ﴾ [البقرة: ٣٤]، وقال تعالى: ﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ ٱسۡتَكۡبَرَ﴾ [ص: ٧٤]؛ ولهذا قال:

﴿أَنَا۠ خَيۡرٌ مِّنۡهُ﴾، أي: خير من آدم، ﴿خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٍ ٧٦﴾ الجملة استئنافية، أو تعليل لقوله: ﴿أَنَا۠ خَيۡرٌ مِّنۡهُ﴾.

قال السعدي[1]: «وبزعمه أن عنصر النار خير من عنصر الطين، وهذا من القياس الفاسد؛ فإن عنصر النار مادة الشر والفساد، والعلو والطيش والخفة.

وعنصر الطين مادة الرزانة والتواضع، وإخراج أنواع الأشجار والنباتات، وهو يغلب النار ويطفئها، والنار تحتاج إلى مادة تقوم بها، والطين قائم بنفسه».

﴿قَالَ﴾ الله تعالى: ﴿فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا﴾، أي: من الجنة والسموات، ﴿فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾ الفاء: تعليلية، أي: فإنك مرجوم، أي: مطرود عن رحمة الله، مبعد مدحور.

﴿وَإِنَّ عَلَيۡكَ لَعۡنَتِيٓ﴾، أي: حاقة وواجبة عليك لعنتي، أي: طردي وإبعادي لك.

﴿إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾، أي: إلى يوم الجزاء يوم القيامة، ومن امتدت معه اللعنة إلى يوم القيامة فهو ملعون أبدًا، لا يمكن أن تناله الرحمة أبدًا.

﴿قَالَ رَبِّ﴾، أي: قال إبليس: ﴿رَبِّ﴾، أي: يا رب.

﴿فَأَنظِرۡنِيٓ﴾ الفاء: رابطة لجواب شرط مقدر، أي: فأخرني وأمهلني.

﴿إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ﴾، أي: إلى يوم بعث الخلائق، وإخراجهم من قبورهم.

وهذا اعتراف منه بالبعث، وإقرار به، فكان كفره كفر عناد محض، لا كفر جهل.

وإنما طلب الإنظار لشدة عداوته لآدم وذريته؛ ليسعى في إغواء أكبر قدر منهم، وإدخالهم معه في النار.

﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ ٨٠ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡوَقۡتِ ٱلۡمَعۡلُومِ ٨١﴾.

---

(١) في «تيسير الكريم الرحمن» ٦/ ٤٣٩.

أي: فاستجاب الله دعاءه بطلب إنظاره وإمهاله؛ حكمة لله تعالى، وابتلاءً للعباد.

﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾﴾ الفاء: رابطة لجواب شرط مقدر، أي: فإنك من المؤخرين الممهلين.

﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾﴾، أي: إلى يوم القيامة، يوم الوقت المحدد المعلوم؛ كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْآخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الواقعة:٤٩- ٥٠].

﴿قَالَ﴾ إبليس: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ الفاء: عاطفة، والباء: للقسم، أي: فأقسم بعزتك، أي: بقوتك وقهرك، وسلطانك وعظمتك.

﴿لَأُغْوِيَنَّهُمْ﴾ اللام: واقعة في جواب القسم، أي: أسلك بهم طريق الغي، وأضلنهم ﴿أَجْمَعِينَ﴾، أي: كلهم جميعًا.

﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾﴾ «إلا»: أداة استثناء، ﴿عِبَادَكَ﴾: منصوب على الاستثناء المنقطع أو المتصل، أي: إلا عبادك الذين أخلصتهم واصطفيتهم لعبادتك؛ فإني لا أتمكن من إغوائهم.

كما قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾﴾ [الحجر: ٣٩، ٤٠].

وذلك لعلمه أنه لا سلطان له عليهم؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [الحجر: ٤٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ [النحل: ٩٩- ١٠٠].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾ [الإسراء: ٦٥].

﴿قَالَ فَٱلْحَقُّ﴾ قرأ عاصم وحمزة وخلف: ﴿فَٱلْحَقُّ﴾، وقرأ الباقون بالنصب: «فَالحَقَّ». والفاء رابطة لجواب شرط مقدر، و«الحق»: مبتدأ.

﴿وَٱلْحَقَّ أَقُولُ﴾ «الحق» مفعول به مقدم منصوب للفعل «أقول».

﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ﴾ اللام: لام القسم لقسم مقدر، أي: والله لأملأن جهنم ﴿مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ﴾، أي: من الناس، ومن الجن؛ وهم ذريته، ﴿أَجْمَعِينَ﴾ توكيد.

وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [السجدة: ١٣]، وقوله تعالى: ﴿ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا﴾ [الإسراء: ٦٣].

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ ﴿٨٨﴾﴾:

قوله: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ﴾، أي: قل يا محمد لهؤلاء المشركين: لا أسألكم على دعوتي إياكم، وتبليغكم رسالة ربي ﴿مِنْ أَجْرٍ﴾ «من»: زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة من حيث المعنى لعموم النفي، أي: من أيِّ أجر دنيوي، وغرم مالي.

﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ﴾ المتصنعين المتقولين على الله؛ بأن أدعي أمرًا ليس لي، أو أزيد على ما أرسلني الله به إليكم، أو أقفو ما ليس لي به علم.

عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه، قال: «يا أيها الناس، من علم شيئًا فليقل به، ومن لا يعلم فليقل: الله أعلم؛ فإن من العلم أن يقول الرجل لما يعلم: الله أعلم. فإن الله قال لنبيه ﷺ: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾﴾»(١).

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾﴾ «إن»: نافية بمعنى: «ما»، أي: ما هو إلا ذكر للعالمين، أي: ما هذا القرآن إلا ذكر للعالمين، أي: تذكير وعظة وعبرة لجميع المكلفين من الإنس والجن، فيه ذكر ما ينفعهم في دينهم ودنياهم وأخراهم، والرفعة والشرف لمن اتبعه، وإقامة الحجة والإنذار؛ كما قال تعالى: ﴿لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ﴾ [هود: ١٧].

﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ﴾ الواو: عاطفة، واللام: لام القسم لقسم مقدر، أي: والله لتعلمن نبأه، أي: نبأ القرآن وصدق خبره، ومصداق ما أخبر به من الوعد والوعيد.

﴿بَعْدَ حِينٍۭ﴾ بعد زمن عاجل أو آجل في الدنيا؛ كما حصل في بدر وغيرها من

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة ص ٤٨٠٩، ومسلم في صفة القيامة والجنة والنار ٢٧٩٨، والترمذي في تفسير القرآن ٣٢٥٤.

الغزوات، أو آجل في الآخرة حين يقع عليهم العذاب، وتتقطع بهم الأسباب.

قال الحسن البصري: «يا ابن آدم، عند الموت يأتيك الخبر اليقين»[1].

وهكذا اختتم عز وجل هذه السورة العظيمة بالتنويه بالقرآن وتعظيمه؛ كما افتتحها بالإقسام به وتعظيمه، وأقام الحجج والبراهين على من كذب به وعارضه، وكذب من جاء به.

الفوائد والأحكام:

١- التذكير بقصة خلق آدم عليه السلام، وسجود الملائكة له، وامتناع إبليس من السجود؛ لما فيها من العبر والمواعظ والحكم؛ لقوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾﴾.

٢- إثبات القول والكلام لله تعالى بحرف وصوت مسموع مفهوم؛ لقوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ﴾.

٣- إثبات ربوبية الله الخاصة للنبي ﷺ، وتشريفه بإضافة اسم «الرب» أو وصفه إلى ضميره ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿رَبُّكَ﴾.

٤- إثبات وجود الملائكة، وأنهم خلق من خلق الله تعالى، يسمعون ويفهمون الخطاب؛ لقوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾﴾ الآية.

٥- إثبات صفة الخلق لله تعالى، وأنه سبحانه هو الخالق وحده.

٦- أن أصل خلق آدم عليه السلام ومادته من الطين والتراب؛ لقوله تعالى: ﴿إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ﴾. وهذا يوجب على الإنسان التذلل لربه، والخضوع له، والتواضع، وعدم التكبر على خلقه.

٧- نعمة الله على آدم بتسوية خلقه، وتعديل وتحسين صورته، وتشريفه عز وجل له بنفخه فيه من روحه؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾.

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٠/ ١٥١.

٨- أمره عز وجل الملائكة بالسجود لآدم بعد كمال خلقه، ونفخ الروح فيه، سجود تحية وتكريم، لا سجود عبادة وتعظيم؛ لقوله تعالى: ﴿فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾.

٩- امتثال الملائكة أمر الله لهم بالسجود لآدم، وسجودهم كلهم جميعًا؛ لقوله تعالى: ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾﴾؛ لأنهم لا يعصون الله ما أمرهم، ويفعلون ما يؤمرون.

١٠- امتناع إبليس عن السجود استكبارًا عن أمر ربه، واستكبارًا على آدم، وكفره؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾﴾.

١١- ذم الاستكبار عن امتثال أمر الله، وعن قبول الحق، وأن ذلك كفر.

١٢- توبيخ إبليس؛ لتركه السجود لآدم، الذي شرفه الله بأن خلقه بيديه، وأمر الملائكة بالسجود له؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ﴾.

١٣- تشريف الله تعالى لآدم عليه السلام، وتكريمه له بخلقه بيديه؛ لقوله تعالى: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ﴾ وهذا يقتضي عدم التكبر عليه، واحترامه.

١٤- إثبات اليدين لله عز وجل على ما يليق بجلاله وعظمته؛ لقوله تعالى: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ﴾، وفي هذا رد على من فسر اليد بالنعمة من أهل البدع، أو نفى إثبات اليدين لله عز وجل.

١٥- استكبار إبليس عن امتثال أمر الله، وتعاليه على آدم؛ لقوله تعالى: ﴿أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ﴾.

١٦- زعمه أنه خير من آدم كذبًا، وافتخاره بما لا فخر فيه، وهو كونه خلق من نار، وخلق آدم من طين؛ لقوله: ﴿قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾﴾ وهذه حجة عليه، وليست له؛ لأن عنصر الطين خير من عنصر النار.

١٧- إقراره بأن الله هو الخالق؛ لقوله: ﴿خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾.

١٨- إخراجه من الجنة، وطرده وإبعاده من ملكوت السماء، وإحقاق لعنة الله عليه إلى يوم القيامة وإلى الأبد؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٧٨﴾﴾.

ويتفرع عن هذا: أنه لا حاجة إلى لعن الشيطان؛ لأن الله أحق عليه لعنته إلى يوم الدين، وإنما المشروع الاستعاذة منه؛ كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾﴾ [النحل: ٩٨]، وقال تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾﴾ [الأعراف: ٢٠٠]، ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾﴾ [فصلت: ٣٦].

١٩- إثبات يوم الدين والحساب والجزاء، والبعث يوم القيامة، وإقرار إبليس بذلك؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾، وقوله: ﴿إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾.

٢٠- طلبه من ربه الإنظار إلى يوم البعث؛ ليسعى في إغواء أكبر عدد من بني آدم؛ لشدة عداوته لآدم وذريته؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾﴾.

٢١- إثبات ربوبية الله العامة لإبليس وجميع الخلق؛ لقوله: ﴿رَبِّ﴾.

٢٢- استجابة الله تعالى له، وإنظاره إياه؛ حكمة لله عز وجل، وابتلاءً للعباد؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾﴾.

٢٣- إقسام إبليس لعنه الله تعالى على إغواء بني آدم جميعهم؛ لشدة عداوته لهم؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾﴾.

وهذا يوجب الحذر منه، ومن وساوسه.

٢٤- إثبات عزة الله تعالى التامة، وقهره وقوته، وعظمته وسلطانه، واعتراف إبليس بذلك.

٢٥- أنه لا قدرة لإبليس على إغواء عباد الله المخلصين، واعترافه بذلك؛ لقوله: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾﴾.

وكلما كان الإنسان لله أعبد، كان من الشيطان أبعد.

٢٦- إثبات عبودية المؤمنين لله تعالى عبودية خاصة، الذين أخلصهم الله، واختصهم لعبادته.

٢٧- يجب الاحتماء بجناب الله تعالى بعبادته والإخلاص له، من شرور إبليس

وتسلطه؛ كما قال ﷺ لابن عباس رضي الله عنهما: «**احفظ الله يحفظك**»[(١)].

٢٨- أن الله تعالى هو الحق، ووصفه الحق، وقوله الحق؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ فَٱلۡحَقُّ وَٱلۡحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾﴾.

٢٩- إقسامه عز وجل على ملء جهنم من إبليس وأتباعه؛ لقوله تعالى: ﴿لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنۡهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٨٥﴾﴾.

٣٠- الإعذار من المكذبين والمشركين بأنه ﷺ لم يسألهم على دعوته إياهم، وتبليغهم رسالة ربه أيّ أجر دنيوي مهما قل، فيستثقلوا ذلك، ويعدوه غرمًا؛ لقوله تعالى: ﴿قُلۡ مَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٖ﴾.

٣١- أنه لا يجوز أخذ الأجرة على تبليغ الدعوة، وتعليم الواجب من أمر الدين لمن لا يعلمه.

٣٢- إثبات صدقه ﷺ فيما أخبره به من الوحي، ونفيه أن يكون من المتكلفين بأن يزيد على ما أرسله به، أو ينتقص منه، أو يدعي أمرًا ليس له، أو يتقول على الله بلا علم؛ لقوله: ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُتَكَلِّفِينَ﴾.

٣٣- أن سنته ﷺ وهديه وسط لا تكلف فيه، ولا تفريط، وسط بين الغلو والجفاء، والإفراط والتفريط.

٣٤- شرف القرآن وعظمته، وأنه إنما هو عظة وعبرة، وتذكير للعالمين كلهم جميعًا من الإنس والجن بما ينفعهم، وشرف لمن اتبعه؛ لقوله تعالى: ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾﴾.

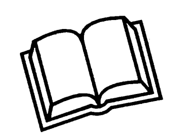
٣٥- التهديد والوعيد للمكذبين بالقرآن، وما فيه من الوعد والوعيد، وإثبات البعث والحساب، وأنهم سيعلمون مصداق خبره بعد زمان عاجلًا أو آجلًا، في الدنيا كما حصل لهم في بدر وغيرها من الغزوات، وغير ذلك، وفي الآخرة عند معاينة الأهوال ودخولهم النار؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَتَعۡلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعۡدَ حِينِۭ ﴿٨٨﴾﴾.

* * *

(١) سبق تخريجه.

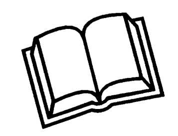
فهرس الموضوعات

❊ ❊ ❊



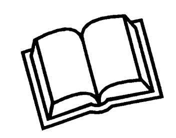
مفكرة





مفكرة

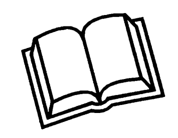




مفكرة



✍
✍
✍
✍
✍
✍
✍
✍
✍
✍
✍
✍
✍
✍
✍
✍
✍
✍
✍



مفكرة



✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

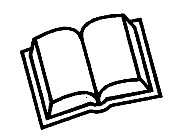
✍

✍

✍

✍

✍



مفكرة



✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

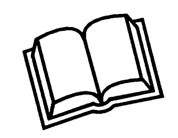
✍

✍

✍

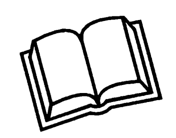
✍

✍



مفكرة





مفكرة



✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

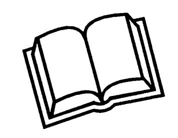
✍

✍

✍

✍

✍



مفكرة




دار ابن الجوزي 8428146
9 786038 274958